

بنیاد پژوهش‌های اسلامی
آستان قدس‌گویی

مِائَةٌ مُبَحَّثٍ وَمَبْحَثٍ فِي ظِلَالٍ

لِكَلَامِ أَبْيَ حَمْزَةِ الْمَالِيِّ

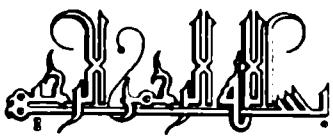
المُجَلَّدُ الثَّانِي

تألِيف

الشَّيْخِ جَبَارِ جَاسِمِ مَكَاوِي

تحقيق

عبد الحليم عوض الحلي



مِائَةُ مَبْحَثٍ وَمَبْحَثٍ فِي ظِلَالٍ

كِتَابُ إِيمَانِ حَمْزَةِ اللَّهِ الْمَالِيِّ

المُجَلَّدُ الثَّانِي

تألِيفُ

الشَّيْخِ جَبَارِ جَاسِمِ مَكَاوِي

مَهْفِيقُ

عَبْدُ الْعَالِيمِ عَوْضُ الْحَسَنِي

مكاوي، جبار جاسم

مانة مبحث و مبحث في ظلال دعاء أبي حمزة الثمالي / تأليف جبار جاسم مكاوي؛ تحقيق
عبدالحليم عوض الحلبي . - مشهد: مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٣٤ق - ١٣٩٢ش .

ISBN 2 vol set 978-964-971-683-1

ISBN 978-964-971-774-6 (ج ٢)

ب. بنیاد الف. حلی، عبدالحليم ١٣٣٦ -

٢٩٧/٧٧٤

٣٢٧١١٣٤

ج.

فیا.

١. دعای ابو حمزة ثمالي - نقد و تفسیر.

پژوهشای اسلامی . ج. عنوان.

BP ٢٦٨ / ٠٢ / ٧١٣٩٢

کتابخانه ملي جمهوري اسلامي ايران



ث و مبحث في ظلال

دعاء أبي حمزة الثمالي المجلد الثاني

تأليف : الشيخ جبار جاسم مكاوي

تحقيق عبد الحليم عوض الحلبي

مراجعة : جعفر الباتي

الطبعة الأولى ١٤٣٥ق. / ١٣٩٣ش. / ١٥٠٠ نسخة ، وزيري

الثمن ١٤٠٠ ريال إيراني

الطباعة: مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة

مجمع البحوث الإسلامية، ص.ب ٩١٧٣٥-٣٦٦

هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلامية: ٢٢٣٠٨٠٣

معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلامية، (مشهد) ٢٢٢٣٩٢٣، (قم) ٧٧٣٣٠٢٩

www.islamic-rf.ir

info@islamic-rf.ir

المبحث الحادي والخمسون: في الدنيا

قال عليه السلام: وَيَنْعِمُكَ أَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا.

تشير هذه الجملة إلى فضل الله على الإنسان في مسألة أصل الإيجاد والبقاء والاستخلاف في الأرض، ومن هنا تكون الدنيا، ويكون العمر الذي يقضيه الإنسان على الأرض نعمة إلهية إذا نسبت إلى الله سبحانه، أما إذا نسبت إلى الإنسان فيكون لها وجهان :

١. الوجه المشرق: وهو الوجه المحمود.

٢. الوجه المعتم: وهو الوجه المذموم.

لقد خلق الله الإنسان ونفع فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وجعله خليفته في الأرض، وأكرمه بالعقل، وسخر له ما في السماوات والأرض، ورزقه من الطيبات، ثم أرسل الرسل والنبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب هدى ونوراً، فتمت كلمة الله وحجته صدقاً وعدلاً.

١) أولاً: الدنيا المحمودة^١ :

إن كل ساعة تمر على الإنسان هي ميدان عمله، وسوق تجارتة مع الله تعالى،

١ - ستأتي عدله في الدنيا المذمومة بعد أكثر من عشر صفحات.

فإذا استثمرها في عبادة الله، وجعلها مزرعة للأخرة باكتساب الصالحات، وإitan الطاعات، واجتناب المعاishi والموبقات، ف تكون رصيده الذي لا يفنى ولا يبور، فالدنيا هنا ممزأ إلى الآخرة.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباب الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة^١.

وقال عليه السلام: أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز، والأخرة دار قرار، فخذوا من ميركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، وفيها اختبرتم، ولغيرها خلقت، إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟^٢.

هذه هي نظرة العقلاء إلى الدنيا، لقد نظروا إليها بعين البصيرة، وعرفوا ظاهرها وباطنها، شكلها ومضمونها، لبابها وقشورها، فعملوا بما يصلاحون به أمر دنياهم وأخرتهم.

لقد زهد أولياء الله في الدنيا فأثبت الله الحكمة في صدورهم، والبصيرة في قلوبهم، وكساهم نور الإيمان، وذاقوا حلاوة المعرفة، وتنفسوا أريح الذكر.

قال النبي عليه السلام: يا علي: لا ينبغي للعاقل أن يكون ظاعناً إلا في ثلات: مرمرة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو لذة في غير محروم^٣.

١ - شرح نهج البلاغة ٤: ٣٢ الحكمة: ١٣١.

٢ - شرح نهج البلاغة ٢: ١٨٣ الخطبة: ٢٠٣.

٣ - من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٦ ح ٥٧٦٢

لقد جعل النبي ﷺ غاية الدنيا والمشي في مناكبها، والسعى المحمود فيها في ثلات شعب:

١- مَرْمَةُ الْمَعَاشِ: والمراد من ذلك إصلاح الحال في الدنيا بتوفير المأكل والمشرب والمسكن وبقية ضروريات الحياة ومتطلباتها مما يصون بها وجهه، ويحفظ به عرضه، وينال راحته.

وقد ورد في المقام أنَّ رجلاً قال للإمام الصادق عليه السلام: والله إننا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتها، فقال عليه السلام: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر، فقال عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة^١.

وورد أنَّ من كان بيده غرس وقامت القيامة فليغرسه^٢.

٢. التزود للمعاد: قال تعالى: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرَّازِدِ التَّقْوَى»^٣.

وقال النبي ﷺ: فليتزود العبد من دنياه لآخرته، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، فإن الدنيا خلقت لكم، وأنتم خلقتم لآخرة^٤.

إذن الدنيا محطة للتزود، وما على الإنسان إلا أن يثقل موازينه للفوز برضوان الله ونيل جنته، وأهم ما يثقل الموازين الإخلاص في النية فإنه روح العمل، وإنَّ كرامة الله لا تُنال إلا بالورع والتقوى والاعتقادات الحقة والمعارف الأصيلة،

١ - الكافي ٥: ٧٢ ح ١٠.

٢ - ورد في فتوح البلدان، للبلاذري ١: ٩ ح ٣٧. عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قطع شجرة فليغرس مكانها ودية.

٣ - البقرة: ١٩٧.

٤ - الدر المنشور ٦: ٢٢٢، سبل الهدى والرشاد ٨: ٢٢٣ بتصريف.

والإنسان مأمور بالفرايض كما هو مندوب إلى النوافل، وأنَّ حسن الخُلُق ومداراة الناس، ومعونة الضعيف، ونصرة المظلوم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعظيم شعائر الله، من أهمّ ما أمر ونذب إليه الشارع المقدّس، ولكنّها الغفلة....
روي في الآثار أنَّ الإسكندر القائد المعروف، قاد جيشه الحاشد، ودخل وادياً كبيراً تحت جنح الظلام، فقال لجنوده: توجّد في هذا الوادي أحجار، فاحملوا منها ما استطعتم لأنّكم ستحتاجون إليها غداً، فلم يأخذوا كلامه مأخذ الجد، فحمل بعضهم حجارة، وبعضهم حجارتين، وأخرون ملؤوا جيوبهم، فلما غادروا الوادي، وطلع عليهم الصباح، فإذا هي أحجار كريمة لا تقدر بثمن، فأخذ كل واحد منهم يلوم نفسه، ويندم على ما فرط في التزود بما يمكنه من تلك الأحجار.

وهكذا سيكون أمراً إذا وقفنا بين يدي الله للحساب.

قال تعالى: «يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابْنِ»^١.

قيل عن يوم التغابن: تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرها في الدنيا، فالمؤمن يندم لأنَّه لم ي عمل لآخرته أكثر مما عمل، والكافر يقدم على ربه ببضاعة كاسدة لا ثمن لها.^٢

٣. اللذة في غير محِّرم: قال تعالى: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْسِنْ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ»^٣.

١ - التغابن: ٩.

٢ - تفسير مجتمع البيان ١٠: ٣١ ذيل الآية أعلاه.

٣ - القصص: ٧٧.

الآية الشريفة تشير إلى عدّة حقائق منها: الربط بين الدنيا والآخرة، لأنّ الدنيا في نظر المترسّعة مزرعة الآخرة، وتشير إلى أنّ المؤمن له نصيب من الرزق والموهّب والنعيم الإلهيّة، فلا ينبغي أن تفوته بترك العمل والكسالة والبطالة وحرمان النفس والأهل.

وتشير إلى أنّ ما زاد على النفقة، فإنّ أنفق في سبيل الله فهو رصيد الإنسان الذي يكتب له الفوز الآخروي، وإلا فهو مما يحاسب عليه، وقد يكون وبالاً عليه، إنّ الغنى عند غير المؤمن قد يقوده إلى الطغيان والفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَظْفَى * أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾^١.

والآية السابقة التي نعيش في ظلالها ونتنفس في أرجائها تتحدث عن قارون وطغيانه بالمال، إنّ الله يطالبه بأمرين:

أ. الإحسان والإنفاق من هذه الثروة الطائلة تأسياً بإحسان الله وكرمه الذي رزقه إياها.

ب . عدم الطغيان الذي يقوده إلى الفساد في الأرض.

ورد عن ابن عباس قال: إنَّ قارون كان من قوم موسى عليه السلام، وكان ابن عمّه، وكان يبتغي العلم حتى جمع علماء فلم يزل في أمره ذلك حتى بغي على موسى عليه السلام وحسده.

فقال له موسى عليه السلام: إنَّ الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال: إنَّ موسى يريد أن يأكل أموالكم، جاءكم بالصلوة، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها، فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل، فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغيٍ

زانية من بغایا بني إسرائیل فنرسلها إلیه فترمیه بأنّه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حکمك على أن تشهدی على موسى عليه السلام أنه فجربك، قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام فقال: اجمع بني إسرائیل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال: نعم، فجتمعهم فقالوا له: بم أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يُرجم، قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم، قالوا: فإنك قد زنيت، قال: أنا؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت.

قالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدتك بالله إلا ما صدقت، قالت: أما إذا نشدتني فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأناأشهد أنك بريء، وأنك رسول الله.

فخرّ موسى ساجداً يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمِنْهَا فتطيعك، فرفع عليه رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم فغيّبتهم، فأوحى الله: يا موسى سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجدهم، فوعزّي لوانهم دعوني لأجتبهم^١.
وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالظَّيَّابَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^٢.

الآية الشريفة تتحدث عن مسألتين هما: الزينة والطيبات من الرزق.

١ - الدر المنشور ٥: ١٣٦، جامع البيان ٢٠: ١٤٣ بالمضمون.

٢ - الأعراف: ٣٢.

أما الزينة: فمسألة فطرية إذ كل إنسان يحب الظهور بالشكل الجميل اللائق الذي يجذب إليه النفوس، ويكسبهاحترام، من جودة الثياب، واستعمال الطيب والتمشط ونحوها.

والمسألة الثانية: هي الطيبات التي أخرج الله لعباده، وهنا يكون أبرارها أولى بها من فجاراتها، ولكن من دون إسراف ولا شرط؛ لأن ذلك يخالف فطرة الإنسان التي هي جزء أصيل من فطرة الكون الرحيم، وقد قيل: كل ما زاد على حدّه انقلب إلى ضده، وما على العاقل إلا سلوك طريق الوسطية بين الإفراط والتفرط.

قال الصادق ع: فأما إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجاراتها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها^١.

نقل أن أحد هم كان يسير في الطريق فشاهد شخصاً يتلوى من الجوع، ثم واصل سيره فرأى رجلاً يتلوى من الشبع والتخمة، فقال: لو أعطى الثاني شيئاً من طعامه لأخيه لما اشتكي الاثنان من الألم.

إن مجانية الاعتدال يقود إلى تقسيم المجتمعات إلى طائفتين متذراً رنين: طبقة المترفين وطبقة المحروميين، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ .

وقد قال علماء الأخلاق: إن العفة وسط بين الشره والخمود، وإن الشجاعة وسط بين التهور والجبن، وإن العلم والحكمة وسط بين الجربزة والبلادة، وإن العدل وسط بين الظلم والمظلومية.

١ - الكافي ٥: ٦٥ ح ١.

٢ - الأعراف: ٣١.

في الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله ابن عباس إلى ابن الكووا وأصحابه وعليه قميص رقيق وحلقة، فلما نظروا إليه قالوا: يا ابن عباس، أنت خيرنا في أنفسنا وأنت تلبس هذا اللباس؟ فقال: وهذا أول ما أخاصكم فيه، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق، وقال الله عز وجل: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^١.

وكان الإمام الحسن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا ابن رسول الله، لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله جميل، يحب الجمال، فأتجمل لربّي، وهو يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، فأحب أن ألبس أجود ثيابي^٢. وروي أن سفيان الثوري مر في المسجد فرأى أبا عبد الله الصادق عليه السلام وعليه أثواب كثيرة قيمة حسان فقال: والله لا تبته ولأوبخته، فدنا منه فقال، يا ابن رسول الله، والله ما لبس رسول الله عليه السلام ولا علي عليه السلام ولا أحد من آبائك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله في زمان قثر مفتر، وكان يأخذ لقتره وإقتاره، وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها، وأحق أهلها بها أبرارها، ثم تلا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّبِيعَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فنحن أحق من أخذ ما أعطاه الله. ياثوري، ما ترى على من ثوب إنما لبسته للناس، ثم اجتب بيد سفيان فجرّها إليه، ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلد غليظاً، ثم قال عليه السلام: هذا لبسته لنفسي وما رأيته للناس، ثم جذب عليه السلام ثوباً على سفيان أعلاه غليظاً خشناً وداخل ذلك الثوب ليَّن، فقال: لبست هذا الأعلى للناس،

١ - الكافي ٦: ٤٤٢ ح ٦ والأية في سورة الأعراف: ٣١.

٢ - تفسير العياشي ٢: ١٤ ح ٢٩.

ولبست هذا النفسك تسترها^١.

وورد عن الصادق عليه السلام قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نَعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيْهِ، لِيُسْ بَهْ بَأْسٌ^٢.

وورد في النهي الإرشادي عن الإسراف قول النبي الكريم عليهما السلام: لا تتمتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء^٣.

وورد عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام أنه قسم الدنيا إلى قسمين: الدنيا دنياءان: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة^٤.

وعن الباقي عليه السلام قال: من طلب الدنيا استغافافاً عن الناس، توسعًا على أهله، وتعطفاً على جاره، لقي الله عزوجل ووجهه مثل القمر ليلة البدر^٥.

وقال الصادق عليه السلام: الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله^٦. وفي الحديث المشهور: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً^٧.

إن الدنيا التي أرادها الله، وسلكها الصالحون هي المسرح لمعرفة الحق واتباعه، وتشخيص الباطل لاجتنابه، و فعل الطاعة التي تقرب إلى الله زلفى.

١ - الكافي ٦: ٤٤٢ ح ٨

٢ - الكافي ٦: ٤٤٤ ح ١٣.

٣ - روضة الوعاظين: ٤٥٧.

٤ - الكافي ٢: ١٣١ ح ١١.

٥ - الكافي ٥: ٧٨ ح ٥.

٦ - الكافي ٥: ٨٨ ح ١.

٧ - من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٦ ح ٣٥٦٩

قال لقمان عليه السلام لولده: يا بني، إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك منها تقوى الله عزوجل، وحشوها الإيمان بالله عزوجل، وشراعها التوكل وقيمتها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر^١.

وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف، ومآلُه عارية، والضيوف مرتاحل والعارية مردودة^٢.

وقال ابن عباس: إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع^٣.

وقال علي عليه السلام: إن للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة ينادي فيها ربه، وساعة يرمي معاشه، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويحمل، وليس للعاقل أن يكون شاكراً إلا في ثلاث: مرمة لمعاشه، وخطوة في معاد، أو لذة في غير محرام^٤.

وقال تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرِأَوْ أُنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُخْبِتَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَخْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^٥.

إن الإيمان والعمل الصالح هما الركيزان الأساسيان لنيل الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة التي هي وليدة الاستقامة على جادة الشرع لا يتذوقها إلا من قد سلك نهج الحق لإحياء الحق وإماتة الباطل، والتخلّق

١ - الكافي ١: ١٦ ح ١٢.

٢ - المصنف ٨: ١٦٤ ح ٤٢.

٣ - تفسير النسفي ٣: ٢٤٢.

٤ - شرح نهج البلاغة ٤: ٩٣ الحكمة: ٣٩٠.

٥ - النحل: ٩٧.

بأخلاق الله، والانقطاع إلى الله بالعبادة والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: «فِي بُيُوتِ أَذْنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَنْبَغِي عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَخْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^١.

إن القلوب التي يعمرها الورع والتقوى، يغمرها الله بنوره، ويفيض عليها نفحاته القدسية، فترى بنور الله.

قال تعالى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَدِيَنَّهُمْ شُبَّلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»^٢.
إن الحياة ميدان جهاد مع النفس، وهو الجهاد الأكبر على لسان الروايات، ومجاهدة العدو، الذي يكيد للإسلام وأهله، ومجاهدة الشيطان.

قال النبي ﷺ: إن ربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها^٣.
وعن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنما هونور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه^٤.
وورد في الحديث القدسية: فمن عمل برضاي أزمه ثلاث خصال: أعرفه شكرًا لا يخالطه الجهل، وذكرًا لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتني محبة المخلوقين^٥.

١ - النور: ٣٦ - ٣٨.

٢ - العنكبوت: ٧٩.

٣ - تفسير الرازبي ١٧: ١١٦.

٤ - منية المريد: ١٦٧.

٥ - الجواهر السنّية: ١٩٩، بحار الأنوار ٧٤: ٢٨ ح ٦، نقلًا عن: إرشاد القلوب.

وأوصى النبي ﷺ تلميذه أبا ذرَّ بمواعظ تفتح أعين العباد على حقيقة الدنيا، وكيفية استثمارها لتكون الرصيد الرابع في تجارة العبد مع الله: كن في الدنيا كأنك غريب، واعدد نفسك من الموتى، فإذا أصبحت لا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت لا تحدث نفسك بالصبح، وخذ من صحتك لسقتك، ومن شبابك لهرسك، ومن حياتك لوفاتك، فإنك لا تدرى ما اسمك غداً^١.

إن المؤمن الرسالي هو الذي يؤثر طاعة ربِّه على طاعة هواه، وعندما يذوق حلاوة الإيمان وطعم الإسناد والتأييد والتسديد من الله سبحانه.

ورد في الحديث القدسي: وعزّتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلو ارتفاعي، لا يؤثر عبد مؤمن هواي على هواه في شيء من أمر الدنيا، إلا جعلت غناه في نفسه، وهمه في آخرته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له وراء تجارة كل تاجر^٢.

وقال النبي ﷺ: إنما ابن آدم ليومه، فمن أصبح آمناً في سربه، معافي في جسده، عنده قوت يومه، فكانما حيزت له الدنيا^٣.

وقال ﷺ: من قبل بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحال خفت مؤنته، وتنعم أهله، وبصره الله داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام^٤.

ووردت الأحاديث الشريفة الآمرة بالزهد في هذه الدنيا، بمعنى عدم الانشداد

١ - الأمازي، للطوسى: ٥٢٦ بتفاوت يسير.

٢ - الكافي ٢: ١٣٧ ح ٢.

٣ - الأمازي، للطوسى: ٥٨٨ ح ١٢١٩.

٤ - الكافي ٨: ٣٤٧ ح ٥٤٦.

والرکون إليها، وأن لا يكون الإنسان أسيراً للشهوات والملذات.

قال علي عليه السلام: ابن آدم، إن كنت ت يريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت ت يريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك^١.

وقال عليه السلام: الزاهد في الدنيا من لم يغلب الحرام صبره، ولم يشغل الحال شكره^٢.

٢) ثانياً: الدنيا المذمومة :

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^٣.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^٤.

إن الإنسان الذي ينظر إلى الحياة الدنيا بمعزل عن الله سبحانه، ولا يربطها بالآخرة، والذي يتخذها مسرحاً للهو واللعب، وميداناً للإفساد والإضلal، إن هذا الإنسان سيكون مطيّة للشيطان يقوده إلى مسالك الغيّ والهلاك والخسران المبين، إن هذا مصداق واضح للإنسان الذي بدأ نعمة الله كفراً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَغْرَضَ عَنِ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَخْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغْمَى * قَالَ رَبُّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَغْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَثَكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾^٥.

١ - الكافي ٢: ١٣٨ ح ٦.

٢ - تحف العقول: ٢٠٠.

٣ - تقدم عدله في الدنيا محمودة في أول المبحث الحادي والخمسين.

٤ - آل عمران: ١٨٥.

٥ - يونس: ٧ - ٨

٦ - طه: ١٢٤ - ١٢٦

إن الحياة التي لا تستظل بولاية الله ساحة صراع وقلق، وألام وأحزان ومظالم وظلمات، وأحقاد وعصبيات نتنة، والانسداد إلى الدنيا والركون إليها رأس كل خطيبة.

قال تعالى: يا موسى، لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين، وركون من اتخذها أباً وأماً، واعلم أن كل فتنـة بدؤها حبـ الدنيا، ولا تغبط أحدـاً بكثرة المال، فإنـ مع كثرة المال تكـثر الذنوب لواجبـ الحقوقـ، ولا تغبطـنـ أحدـاً برضـا الناسـ عنهـ حتى تعلمـ أنـ اللهـ راضـ عنـهـ، ولا تغبطـنـ أحدـاً بطاعةـ الناسـ لهـ، فإنـ طاعةـ الناسـ لهـ واتـبـاعـهـ إـيـاهـ عـلـىـ غـيرـ الحـقـ هـلاـكـ لـهـ وـلـمـنـ اـتـبـعـهـ^١.

قلنا: إنـ الدنياـ والأـعمالـ فيهاـ لهاـ ظـاهـرـ وبـاطـنـ، وـشـكـلـ ومـضـمـونـ، فإنـ أـهـلـ الضـلـالـ لاـ يـرـونـ مـنـهـ إـلـاـ الـظـاهـرـ الفتـانـ الخـدـاعـ الـذـيـ يـبـعـثـ عـلـىـ الغـرـورـ، ولاـ تـفـذـ بـصـائـرـهـ إـلـىـ اللـبـ بلـ تـبـقـىـ شـاخـصـةـ إـلـىـ القـشـورـ.

عنـ عـلـيـ عـلـيـلـاـ: إـنـمـاـ الدـنـيـاـ كـمـثـلـ الـحـيـةـ، مـاـ أـلـيـنـ مـسـهـاـ، وـفـيـ جـوـفـهـاـ السـمـ^٢ـ النـاقـعـ، يـحـذـرـهـ الرـجـلـ العـاقـلـ، وـيـهـوـيـ إـلـيـهـ الصـبـيـ الجـاهـلـ^٣.

ولـمـاـ كـانـ الإـنـسـانـ ذـاـ غـرـائـزـ تـدـعـهـ إـلـىـ طـلـبـ اللـذـةـ وـنـيلـ الشـهـوـةـ، فإنـ هـذـهـ المـيـوـلـ تـزـدـادـ وـتـرـسـخـ بـالـمـارـسـاتـ الـخـاطـئـةـ، وـتـتـضـخـمـ حـتـىـ تـقـتـلـ صـاحـبـهـاـ منـ حـيـثـ لـاـ يـشـعـرـ، فـقـدـ وـرـدـ عـنـ الإـمـامـ الصـادـقـ عـلـيـلـاـ أـنـهـ قـالـ: مـثـلـ الدـنـيـاـ كـمـثـلـ مـاءـ الـبـحـرـ كـلـمـاـ شـرـبـ مـنـهـ عـطـشـانـ اـزـدـادـ عـطـشاـ حـتـىـ يـقـتـلـهـ^٤.

وقـالـ عـلـيـلـاـ: لوـكـانـ لـابـنـ آـدـمـ وـادـيـانـ مـنـ ذـهـبـ لـاـ بـتـغـىـ وـرـاءـهـمـاـ ثـالـثـاـ، وـلـاـ يـمـلـأـ

١ - الكافـيـ ٢: ١٣٥ حـ ٢١ مـلـخـصـاـ.

٢ - الكافـيـ ٢: ١٣٦ حـ ٢٢.

٣ - الكافـيـ ٢: ١٣٦ حـ ٢٤.

جوف ابن آدم إلا التراب^١.

وقال علي عليه السلام: من أصبح حزيناً على الدنيا فقد أصبح ساخطاً على ربه^٢.

إن التعلق بالدنيا أصل تترع منه كل معصية، فمنها الكبائر وهو الذي دعا إبليس إلى الامتناع عن السجود للأدم على^٣ فكان من الخاسرين، وإن الحرص هو الذي دعا آدم وزوجته للنزول إلى عالم الأرض ليواجهه الكدح والشقاء، وإن الحسد قاد قابيل ليقتل أخيه هابيل.

ومن هذه الفروع: حب النساء، وحب الثروة، وحب الرئاسة، وعبادة الدرهم والدينار، وظلم العباد وغيرها ولهذا التعلق والرکون والإخلاد إلى الأرض آثار ضعفية ضارة.

قال النبي عليه السلام: من أصبح الدنيا أكبر همه، فليس من الله في شيء، وألزم قلبه أربع خصال: همّا لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا ينفرج منه أبداً، وفقرًا لا يبلغ غناه أبداً، وأملألا يبلغ منتهاه أبداً^٤.

لقد نقلت الصحف والمجلات أن أحد أثرياء العالم كان على فراش الموت، فسئل: هل حققت كل ما تريده في الحياة؟ فقال: لا، لقد كنت أطمح لامتلاك مائتي مليار دولار، ولكني أموت وعندى مائة وثمانون مليار دولار. علماً بأن هذا الرجل بدأ من الصفر، وقد اشتغل عاملاً في مطعم لغسل الصحون. وليت شعرى، ماذا تنفعه، وماذا أخذ منها الآخرته، وهل دفع الحق الشرعي المترتب عليها، وهل صرف شيئاً من أجل الصالح العام؟ إنها ستكون وبالاً عليه، ويكون

١ - مسند أحمد ٥: ١١٧.

٢ - كتاب المجرورين، لابن حبان ٣: ٧٥، كنز الفوائد، لأبي الفتح الكراجكي: ١٦٠.

٣ - كنز العمال ٣: ٢٢٦ ح ٦٢٧٢، جامع السعادات ٢: ١٩.

المغمى لغيره والمغموم عليه.

والدنيا المذمومة هي التي تصدّ عن ذكر الله، وتقود صاحبها إلى النار، وستكون نعمة على أهلها وعُبادها، لقد أصبح هؤلاء أسرى الأوهام والتخيلات الفاسدة، بل مطاباً لجامها بيد الشيطان يقودها إلى مهاوي الردى، وكبوات الهوى.

قال عيسى عليه السلام للمرترين من بنى إسرائيل: لا تَخْذُلُوكُمْ الدُّنْيَا رَبِّا فَتَخْذُلُوكُمْ عَبِيداً، اكْنُزُوكُمْ كُنْزَكُمْ عِنْدَمَنْ لَا يُضِيعُهُ، فَإِنَّ صَاحِبَ كُنْزِ الدُّنْيَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْأَفَةُ، وَصَاحِبُ كُنْزِ اللَّهِ لَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْأَفَةُ^١.

وقال عيسى عليه السلام: يا معاشر الحواريين، إنّي قد أكبّت لكم الدنيا على وجهها فلا تنشوها بعدي، فإنّ من خبّث الدنيا أن عصي الله فيها، وإنّ من خبّث الدنيا أن الآخرة لا ثناها ولا تدرك إلا بتتركها، فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أنّ أصل كلّ خطيئة حبّ الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً^٢.

وروى أنّ النبي عليه السلام وقف على مذبلة فقال: هلّمُوا إلى الدنيا، وأخذوا منها خرقاً قد بليت على تلك المذبلة، وعظاماً قد نخرت فقال: هذه الدنيا^٣.

وقد سماها الله على لسان أنبيائه بأنّها سجن المؤمن وجنة الكافر، وأنّها دار الظالمين، وأنّها دار لعب ولهم، وأنّها جيفة وأهلها كلاب، وأنّها دار فتنـة، وأنّها دار الغرور، وأنّ في حلالها حساباً، وفي حرامها عقاباً، وأنّها السخارة التي تسحر قلوب العلماء من أبناء الدنيا وعُبادها، وأنّها دار الغفلة، وأنّها متاع زائل، وأنّها لا تعدل

١ - بحار الأنوار ١٤: ٣٢٧ ح ٤٨، عن تنبيه الخواطر ١: ١٢٩.

٢ - بحار الأنوار ١٤: ٣٢٧ ح ٤٩، عن تنبيه الخواطر ١: ١٢٩.

٣ - جامع السعادات ٢: ١٩.

عند الله جناح بعوضة، وأنها والآخرة ضرستان لا يزداد العبد منها قرباً إلّا ازداد من الآخرة بعداً.

ويخلص لنا سماحة آية الله السيد عبد الأعلى السبزواري مثبتاً ما قلناه في هذه الفقرة: أهم الموانع عن حصول الخلوص والإخلاص حب العلائق الفانية الدائرة التي تحيط ببني آدم إحاطة الدنيا بأبنائها، وقد جمع ذلك كله النبي الأعظم عليه السلام في قوله: حب الدنيا رأس كل خطيئة^١. فالإخلاص والخلوص مع حب الدنيا متنافيان، ولكن حب الدنيا على قسمين:

١. أولاًهما: ما يكون بنحو الموضوعية.
٢. والثاني: ما يكون بنحو الطريقة، يعني يحبها لأن يعمل بها في طريق مرضاه الله تعالى، وهذا القسم لا بأس به، بل قد يؤيد حصول الخلوص، عصمنا الله عزوجل من القسم الأول^٢.

نرجو من القارئ العزيز مراجعة مبحث الدنيا من كتابنا الموسوم بالباحث الميسرة^٣ للاستزادة وتلقياً للإطالة. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وأله الطاهرين المعصومين.

١ - الكافي ٢: ١٣١ ح ١١.

٢ - مهذب الأحكام ٦: ١.

٣ - المباحث الميسرة: ٨٣ - ٩٩.

المبحث الثاني والخمسون: في الخير والشّر

قال عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: تَسْأَلُنَا إِلَيْنَا بِالنِّعَمِ وَتُعَارِضُنَا بِالذُّنُوبِ، خَيْرُكُمْ إِلَيْنَا نَازِلٌ، وَشَرُّنَا إِلَيْكَ صَاعِدٌ، وَلَمْ يَزُلْ وَلَا يَزَالْ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ عَنَا بِعَمَلٍ قَبِيعٍ، فَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَحْوِطَنَا بِنِعَمِكَ، وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِالاِئِمَّةِ، فَشُبَّحَانَكَ مَا أَخْلَمَكَ وَأَعْظَمَكَ وَأَكْرَمَكَ مُبْدِئًا وَمُعِيدًا، تَقَدَّسَتْ أَسْمَاوُكَ وَجَلَّ ثَناؤُكَ، وَكَرِمَ صَنَائِعُكَ وَفَعَالُكَ.

الإمام يرسم لنا صورة جميلة رائعة، تصور لنا المقارنة بين أخلاق الله العالية وأخلاق الإنسان الهاابطة، فالله يتحبّب إلينا بالنعم والمواهب، ونحن نقابله بالذنوب والمعاصي، خيره إلينا نازل، وشرنا إليه صاعد، إن الملائكة تصعد إلى عالم الملائكة لتتدون أعمالنا ومعاصينا وقبائحنا، ولا يمنع ذلك رب العزة من أن يغمرنا بفوسياته ومواهبه، ويتفضّل علينا بالآئمه، فما أعظم كرمه، وأعظم حلمه، تقدّست أسماؤه.

الخير: ما يرغب فيه الكل، كالعقل مثلاً، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضدّه الشر، قيل: والخير: ضربان: خير مطلق، وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال، وعند كل أحد، كما وصف على عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ به الجنة فقال: لا خير بخير بعده النار، ولا

شر بشر بعده الجنة^١

وخير وشر مقيدان، وهو أن يكون خيراً واحداً وشراً آخر، كالمال الذي ربما يكون خيراً لزید وشراً لعمر، ولذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بالأمرین فقال في موضع: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾^٢، وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿أَيُّ خَسِيبُونَ أَنَّمَا نُمْدُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَمَا نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٣.
وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، أي مالاً.

وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً، ومن مكان طيب
هذا ما ذكره الراغب في المفردات^٤.

والخيرة من النساء: الكريمة النسب، الشريفة الحسب، الحسنة الوجه،
الحسنة الخلق.

وورد في الأثر، خير الناس خيرهم لنفسه^٥، أي إذا جامل الناس جاملوه، وإذا
أحسن إليهم كافأوه.

ومن مصاديق الخير شريحة من الناس أشارت إليهم الآيات والروايات وأمرت
بالاقتداء بهم فكراً وخلقاً وسلوكاً.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^٦.

١ - شرح نهج البلاغة ٤: ٩٢ ح ٣٨٧.

٢ - البقرة: ١٨٠.

٣ - المؤمنون: ٥٥ - ٥٦.

٤ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ١٦٠.

٥ - كتاب الفتوح، لأحمد بن أشعث الكوفي: ٤: ٢١٤.

٦ - الأحزاب: ٢١.

والأُسوة الحسنة هو الذي تمثل وتتجسد أسماء الله في فكره وسلوكه أكثر من غيره، قال سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^١.

وورد عن علي عليهما السلام قوله: خيار أمتي أحداؤهم الذين إذا غضبوا رجعوا^٢.

والأُحداء: جمع أحدى وأحدي، وهو الذي لا مثيل له في المكانة.

وعنه عليهما السلام: خير الناس العرب، وخير العرب قريش، وخير قريش بنوهاشم^٣.

وقال النبي عليهما السلام: أفضل نساء أمتي أصبحهن وجهًا، وأقلهن مهراً^٤.

وعن أمير المؤمنين عليهما السلام قال: خير نسائكم الخمس، قيل: يا أمير المؤمنين، وما الخمس؟ قال: الهيئة اللينة، المؤاتية التي إذا غضب زوجها لم تكتحل بغمض حتى يرضي، وإذا غاب عنها زوجها حفظته في غيبته، فتلك عامل من عمال الله وعامل الله لا يخيب^٥.

وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾^٦، فقد ورد عن أم سلمة عن النبي عليهما السلام: أي نساء خيرات الأخلاق، حسان الوجه^٧.

وعن الصادق عليهما السلام: الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا، وهن أجمل من الحور العين^٨، وعنده عليهما السلام: هن صوالحة المؤمنات العارفات^٩، وورد في الآثار ما

١ - القلم: ٤.

٢ - المعجم الأوسط، للطبراني ٦: ٦٠.

٣ - كنز العمال ١٢: ٨٧ ح ٣٤١٠٩.

٤ - الكافي ٥: ٣٢٤ ح ٤.

٥ - الكافي ٥: ٣٢٥ ح ٥.

٦ - الرحمن: ٧٠.

٧ - تفسير مجمع البيان ٩: ٣٥٢، بحار الأنوار ٨: ١٠٦.

٨ - من لا يحضره الفقيه ٣: ٤٦٩ ح ٤٦٣١.

٩ - الكافي ٨: ١٥٦ ح ١٤٧.

يصف الشر والأشرار الكثين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِنْسَانَ خُلُقَ هَلُوْعًا * إِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مَنْوِعًا﴾^١.

فالشر هنا: الفقر والفاقة عندما لا يقابلها الإنسان بالصبر، بل يقابلها بالجزع.
وورد عن علي عليهما السلام قوله في المقام: إذا صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإذا جزعت جرت عليك المقادير وأنت مازور^٢.

وقال النبي عليهما السلام: إن شر عباد الله من تكره مجالسته لفحشه^٣.

وعنه عليهما السلام: شر الناس عند الله يوم القيمة الذين يكرمون اتقاء شرهم^٤.

وقال الصادق عليهما السلام: من خاف الناس لسانه فهو في النار^٥.

وقال النبي عليهما السلام: إن أعدل الشر عقوبة البغي^٦.

وعن علي عليهما السلام: شر الآراء ما خالف الشريعة^٧.

وقال عليهما السلام: شر الملوك من خالف العدل^٨، وشر البلاد بلد لاأمن فيه ولا خصب^٩، وشر الولاة من يخافه البريء^{١٠}، وشر العمل ما أفسدت به معادك^{١١}،

١ - المعاجز: ١٩ - ٢١.

٢ - مسكن الفؤاد: ٤٨.

٣ - الكافي: ٢: ٣٢٥ ح ٨

٤ - نفسه: ٢: ٣٢٧ ح ٢.

٥ - نفسه: ٢: ٣٢٧ ح ٣.

٦ - نفسه: ٢: ٣٢٧ ح ١.

٧ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٢٩٣.

٨ - الغرر والدرر: ٤: ١٦٥ ح ٥٦٨١.

٩ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٢٩٤.

١٠ - نفسه: ٢٩٥.

١١ - نفسه: ٢٩٣.

وشرّ الأموال مالم يخرج منه حق الله^١، وشرّ النساء من ظلم رعيته^٢، وشرّ آفات العقل الكبـر^٣.

وقيل لعلي عليه السلام: إنّ أنساً يقولون: النجدان هما الشدـان، فقال عليه السلام: الخير والشرّ، وعنـه عليه السلام: أعمـ الأشيـاء نفعـاً مـوتـ الأشـارـ.

إنّ الله سبحانه مصدر كلّ خـير، وخيرـه لا ينقطع عن عبادـه لحظـة واحدة، إـنـه كالـمطرـ المنـهـرـ الـذـي يغـمرـ الـبـلـادـ بـالـرـحـمـةـ وـالـخـصـبـ، فـالـدـنـيـاـ رـحـمـةـ، وـالـأـمـنـ وـالـسـلـامـ الـذـي يغـمرـ الـنـفـوسـ رـحـمـةـ. وـالـآخـرـةـ رـحـمـةـ، وـالـمـوـتـ رـحـمـةـ، وـالـهـدـاـيـةـ الإـلـهـيـةـ رـحـمـةـ، وـالـتـكـالـيفـ الإـلـهـيـةـ رـحـمـةـ، وـمـضـاعـفـةـ الـأـجـرـ وـالـجـزـاءـ رـحـمـةـ، بل حتـىـ جـهـنـمـ رـحـمـةـ لـلـنـوـعـ الـإـنـسـانـيـ.

وردـ فيـ الأـثـرـ الـمـعـتـبـرـ: أنـ اللهـ خـلـقـ جـهـنـمـ مـنـ رـحـمـتـهـ خـوـفـاًـ يـسـوـقـهـمـ بـهـ إـلـىـ الـجـنـةـ.

لقد علمـ اللهـ أـنـ الـكـثـيرـ مـنـ عـبـادـهـ يـعـبـدـونـهـ رـهـبـاًـ وـخـوـفـاًـ، فـخـلـقـ النـارـ لـيـرـدـعـهـمـ عنـ فـعـلـ الـمـعـصـيـةـ، وـفـيـ ذـلـكـ الـخـيـرـ لـهـمـ، فـلـوـ أـنـ مـلـكـ أـعـدـلـاًـ يـحـبـ أـبـنـاءـ شـعـبـهـ، فـأـرـادـ بـنـاءـ مـدـيـنـةـ أـنـمـوذـجـيـةـ لـهـمـ، فـإـنـهـ سـيـبـنـيـ سـجـنـاـ لـتـأـدـيـبـ الـبـاغـيـنـ وـتـخـوـيـفـ الـمـتـجـرـئـيـنـ، وـفـيـ ذـلـكـ خـدـمـةـ لـشـعـبـهـ.

ولـوـ رـجـعـنـاـ إـلـىـ سـوـرـةـ الرـحـمـنـ الـمـبـارـكـةـ، نـرـىـ أـنـهـ تـسـتـعـرـضـ مـجـمـوعـةـ مـنـ آـلـاءـ اللهـ

١ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهـيـ: ٢٩٤.

٢ - نفسه: ٢٩٥.

٣ - نفسه: ٢٩٥.

٤ - تفسير مجمع البيان ١٠: ٣٦٣.

٥ - شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٣١.

ونعمه على عباده، ويعتبر عقاب المجرمين وإدخالهم جهنّم من آلاء الله ورحمته.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطْوُفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنِّي * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ﴾^١.

يقول سيدنا الطباطبائي رض: وتوجيه الخطاب إلى عالم الجن هو المصحّح لعدّ ما سنذكره من شدائ드 يوم القيمة وعقوبات المجرمين من أهل النار من آله ونعمه تعالى، فإنّ سوق المسيئين وأهل الشقاوة في نظام الكون إلى ما تقتضيه شقوتهم ومجازاتهم بطبعات أعمالهم من لوازم صلاح النظام العام الجاري في الكلّ الحاكم على الجميع، فذلك نعمة بالقياس إلى الكلّ، وإن كان نعمة بالنسبة إلى طائفة خاصة منهم وهم المجرمون.

وهذا نظير ما نجده في السنن والقوانين الجارية في المجتمعات، فإنّ التشديد على أهل البغي والفساد مما يتوقف عليه حياة المجتمع وبقاوته وليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة، كما أن إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل والأجر الحسن كذلك.

فما في النار من عذاب وعقاب لأهلها، وما في الجنة من كرامة وثواب آلة ونعم على عشر الجن والإنس، كما أنّ الشمس والقمر، والسماء المرفوعة، والأرض الموضوعة، والنجم والشجر وغيرها آلة ونعم على أهل الدنيا^٢.

١ - الرحمن: ٤١ - ٤٥.

٢ - تفسير الميزان ١٩: ٩٨ - ٩٩.

إن العطاء الإلهي ممدود ومبدول، ومواهبه وموائد لا انقطاع لها، وبلامنة دون مقابل، بل بغير استحقاق، إن رحمة الله شملت من يسأله ومن لم يأسأه، ومن يعبده ويشكروه، ومن يكفر به ويتجحده. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِغْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^٢، وقال جل علا: ﴿وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا﴾^٣.

إن الشقي الذي لا يتعرض لرحمة الله، ومن يبذل نعمة الله كفراً، ويقابلها بالمعاصي والذنوب، إن الإنسان منزل من منازل الفقر وال الحاجة الذي يستدعي نزول الرحمة، فما عليه إلا الدعاء والسعى لنيل ما يبتغي بسلوك سنن الأسباب. إن المال بيده سبحانه، والنصر بيده، والشقاء بيده والهدایة بيده، والعلم بيده، والرحمة بيده، فإذا سلك الإنسان مسلك الطلب بالتوجّه والسعى كان منزلاً حقيقياً من منازل الفقر الذي يستدعي نزول الرحمة، وهذا هو فقر الوعي وال بصيرة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^٤.

إن الإنسان واقف كل لحظة أمام بحر الكرم الإلهي الذي لا ساحل له ولا حدود، وما عليه إلا أن يسأل ممن لا تنفد خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرمًا، إنه هو العزيز الوهاب.

ورد في الحديث القدسي: لو أن آخركم وأولكم وحيتكم وميتكم اجتمعوا

١ - غافر: ٧.

٢ - الأعراف: ١٥٦.

٣ - التحل: ١٨.

٤ - فاطر: ١٥.

فتمتى كل واحد ما بلغت أمنيّته فأعطيته لم ينقص ذلك من ملكي^١. وقال النبي ﷺ: سلوا الله وأجزلوا فإنّه لا يتعاظمه شيء^٢.

وورد في الدعاء المشهور اللهم أدخلني في كل خير أدخلت فيه محمداً وأل محمد، وأخرجني من كل سوء أخرجت منه محمداً وأل محمد^٣، واكفني ما أهمني من أمر الدنيا والآخرة^٤.

وصدق الله تعالى القائل: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ»^٥. وقال تعالى: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^٦.

أما الإنسان فإنه يقابل نعم الله بالمجاهرة بالمعصية والذنب، وكأنه قد أمن عقابه وسخطه، نعوذ بالله من الجهل والغفلة وعمى القلوب التي في الصدور. إن العامة من الناس قد تغفل عن نوع خاص من الرحمات الإلهية النازلة، ولكن الخواص من أولي البصائر والعارفين يرون أن هناك رحمات أهم من نزول المطر، وضوء الشمس، واكتساب المال، والتتمتع بصحة البدن، إنها النفحات القدسية والمواهب الروحية، التي يقذفها الله في قلوبهم لتنير أرجاءها بالمعرفة، فتحتتحول إلى فكر وعلم، وحكمة وبصيرة وسلوك ومشاعر، وعواطف ووعي، وهداية وصلاح.

١ - سنن ابن ماجة ٢: ١٤٢٢ ح ٤٢٥٧.

٢ - علة الداعي: ٣٦، وسائل الشيعة ٧: ٢٤ ح ٧.

٣ - الكافي ٢: ٥٢٩.

٤ - إقبال الأعمال ٣: ٢١٠ ح ٢١٠ ح ٢٢.

٥ - الحجر: ٢١.

٦ - المناقبون: ٧.

إن صلاح الإنسان يقاس بصلاح باطنه، وسلامة قلبه، وصفاء ضميره، وتكون كرامته على الله بقدر ما يتميز به من الرقة والرأفة، والعاطفة والإيثار، والعفة والنزاهة، والإخلاص واليقين، والصدق والورع، والإناية والخشوع، والحب في الله، والبغض في الله.

إن هذا السلوك سلوك رباني، يتذلل كالشلال من القلوب التي يعمّرها التقوى، وتغمرها النفحات القدسية الإلهية، وعندما تكون هي القلوب السليمة التي تُقبل وتتدفق على ربها وليس فيها أحد غير الله، إن السماوات والأرض وكل آفاق الكون الرحيب لا تسع الله سبحانه ولكن وسعته قلب عبد المؤمن، فهذه النفحات والمواهب والفيوضات من الخير الخاص النازل من خزائن الله.

إن الإنسان بين معرفتين: المعرفة البدائية التي تدعوه إلى التوجه إلى ربه، وعندما يخلص نيته وعمله لله، فإن الله يشمله بالنفحات القدسية، ويمنحه البصيرة، وهذه بدورها تقوده إلى معرفة راقية لا يصلها الإنسان بالعلوم الكسبية.

قال النبي ﷺ: من أخلص الله أربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه^١، فهو لاء أجسامهم مع الناس وقلوبهم متعلقة بالله. وروي أنَّ داود عليه السلام ناجى ربه فقال: إلهي أين خزائنك؟ فنودي، يا داود: إنَّ لي خزائن أعظم من العرش، وأوسع من الكرسي، وأطيب من الجنة، ألا وهي القلب^٢.

إن هذا القلب خزانة الله التي ملأها بالنور والهدى والبصيرة والإخلاص. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه المعصومين الطاهرين.

١ - علة الداعي: ٢١٨.

٢ - عوالى الالئ ١: ٢٤٩ ح ٦.

المبحث الثالث والخمسون: في الملائكة

قال تعالى: ﴿وَكُمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^٢.

الملائكة: مخلوقات روحانية نورانية محضة على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم في القرب والبعد من الله سبحانه.

قال الصادق علیه السلام: إن الله عزوجل خلق الملائكة من نور^٣.

وقد وصفهم الله سبحانه بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فهم وسائل التدبر بين الله وعباده ومخلوقاته، وكل ملك له اختصاص معين لا يتعداه إلى غيره، ولا يقتصر في تنفيذه لأنهم مجبولون على الطاعة، ولأنهم غير مغلوبين ولا قاصرين في أمر من أمور عالم التكوين والتدبر لأنهم

١ - النجم: ٢٦

٢ - فاطر: ١

٣ - الاختصاص، للمفید: ١٠٩

يمثلون الإرادة الإلهية التي لا يختلف عنها شيء.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيغْرِزَ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^١. وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾^٢.

وأجسامهم منزهة عن المادة والجسمانية المعهودة عندنا، وليس لهم غرائز وشهوات، بل هم عقل وروح، فلا يعتريهم الموت ولا التغيير أو الفساد، قال سبحانه: ﴿لَا يَغْصُونَ اللَّهُ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾^٣.

فهم يختلفون عن خلق الإنسان اختلافاً كبيراً إذ هو تركيبة من جسم مادي متغير، وروح حية لا تتغير، وشهوات ونزوات لها الأثر الكبير على حياته وسلوكه. والملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن صريحاً أو بالصفة، وكذا ما ورد في الروايات المعتبرة والأدعية كثير، فمنهم جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزراطيل، ومالك خازن النار، ورضوان خازن الجنان، والكرام الكاتبون، والسفرة الكرام البررة، والرقيب، والعتيد، وحملة العرش والزبانية، والكرهوبين، والروح الذي هو من أمره، والروح الذي هو على ملائكة الحجب.

وإذا كان الإنسان هو خليفة الله في الأرض، فهم خلفاء الله في سماواته. ومن سادتهم، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَرْبَعَةً، اختار من الملائكة: جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل وملك الموت^٤.

ولعل الروح أعظم منهم، وربما هو غير الملائكة: فقد ورد عن النبي ﷺ قوله:

١ - فاطر: ٤٤.

٢ - يوسف: ٢١.

٣ - التحرير: ٦.

٤ - الخصال: ٢٢٥ ح ٥٨.

الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيدي وأرجل، ثم قرأ: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَّا﴾**، ثم قال: هؤلاء جند وهؤلاء جند^١.

وورد عن أهل البيت ع: إن الروح خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل^٢.

وعن حمران بن أعين عن الإمام الصادق ع: الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل، وكان مع رسول الله ﷺ، وهو مع الأئمة ع^٣.

أما عددهم، فقد سُئل الإمام الصادق ع: الملائكة أكثر أم بنو آدم؟ فقال: والذي نفسي بيده، لملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلا وفيه ملك يسبحه ويقدسه، ولا في الأرض شجر ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها، ويأتي الله بكل يوم بعلمها، والله أعلم بها، وما منهم أحد إلا ويتقرب كل يوم إلى الله بولايتنا أهل البيت، ويستغفر لمحبينا، ويلعن أعداءنا، ويسأله أن يرسل عليهم العذاب إرسالاً.

وسئل الصادق ع: الملائكة يأكلون ويشربون وينكحون؟ فقال ع: لا، إنهم يعيشون بنسميم العرش، وإن الله عزوجل ملائكة ركعاً إلى يوم القيمة، وإن الله عزوجل ملائكة سجداً إلى يوم القيمة^٤.

أما عبادتهم وعصمتهم فقد ورد فيها الكثير من الآثار المعتبرة:

١ - الدر المنشور ٦: ٣٠٩.

٢ - الكافي ١: ٢٧٣ ح ٣، بصائر الدرجات: ٤٧٦ ح ٥.

٣ - بصائر الدرجات: ٤٨٢ ح ٥.

٤ - تفسير القمي ٢: ٢٥٥.

٥ - تفسير القمي ٢: ٢٠٦.

قال علي عليه السلام: وإن في السماء من الملائكة من هو قائم أبداً لا يجلس^١ ، وقال الصادق عليه السلام: وإن الله ملائكة ركعاً إلى يوم القيمة، وإن الله ملائكة سجداً إلى يوم القيمة^٢ ، قال الصادق عليه السلام: وإن الله خلق إسرافيل وجبرائيل وميكائيل من تسبحة واحدة، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل وسرعة الفهم^٣ .

وورد عن النبي عليه السلام قوله: ما من شيء مما خلق الله عزوجل أكثر من الملائكة، وإنَّه ليهبط في كل يوم أو في كل ليلة سبعون ألف ملك، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به، ثم يأتون رسول الله عليه السلام، ثم يأتون أمير المؤمنين عليه السلام فيسلمون، ثم يأتون الحسين عليه السلام فيقيمون عندَه، فإذا كان عند السحر وضع لهم معراج إلى السماء ثم لا يعودون أبداً^٤ .

ويكفيهم فخراً وعلواً قول الله سبحانه على لسانهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَا لَنَحْنُ الْمُسَيْحُونَ﴾^٥ .

وورد عن الصادق عليه السلام قوله: إن الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش، لوقسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكتفاهم، ثم قال عليه السلام: إن موسى لما أن سأله ربَّه ما سأله أمراً واحداً من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكاً^٦ .

١ - بحار الأنوار ٥٧: ١١٣.

٢ - تفسير القمي ٢: ٢٠٦.

٣ - نفسه ٢: ٢٠٧.

٤ - نفسه ٢: ٢٠٦.

٥ - الصافات: ١٦٥ - ١٦٦.

٦ - بصائر الدرجات: ٨٩ ح ٢.

وقال أمير المؤمنين علي عليهما السلام في خلقة الملائكة: وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك فليس فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية، وهم أعلم خلقك بك، وأخواف خلقك منك، وأقرب خلقك منك، وأعملهم بطاعتك، لا يغشهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، لم يسكنوا الأصلاب، ولم تضمّهم الأرحام، ولم تخلقهم من ماء مهين، أنشأتهم إنشاءً فأسكنتهم سماواتك، وأكرمتهم بجوارك، وائتمنتهم على وحيك، وجتبتهم الآفات، ووقيتهم البلائيات، وطهرتهم من الذنوب، ولو لا قوتك لم يقووا، ولو لا ثبتك لم يثبتوا، ولو لا رحمتك لم يطعوا، ولو لا أنت لم يكونوا.

أما إنهم على مكانتهم منك، وطاعتهم إليك، ومنزلتهم عندك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لوعاينوا ما خفي عنهم منك لاحتقروا أعمالهم، ولأزروا على أنفسهم، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، سبحانه خالقاً ومعبوداً، ما أحسن بلاءك عند خلقك !^١.

وقال عليهما السلام: ومبثون لا يسامون، لا يغشهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان^٢.

وأهم ما ورد في المقام دعاء الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجادية من دعائه على حملة العرش وكل ملك مقرب: اللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك، ولا يسامون من تقديسك، ولا يستحسرون من عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليك.

١ - تفسير القمي ٢: ٢٠٧.

٢ - شرح نهج البلاغة ١: ١٩.

وإسرافيل صاحب الصور، الشاخص الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر
فينبئه بالنفخة صرعي رهائن القبور.

وميكائيل ذو الجاه عندك، والمكان الرفيع من طاعتك.

وجبريل الأمين على وحيك، المطاع في سماواتك المكين لديك، المقرب
عندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب، والروح الذي هو من أمرك.

اللهم فصل عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم، من سكان سماواتك
وأهل الأمانة على رسالاتك، والذين لا تدخلهم سامة من دهون، ولا إعياء من
لغوب ولا فتور، ولا تشغله عن تسبيحك الشهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمك
سهو الغفلات، الخشوع الأ بصار فلا يرجمون النظر إليك، النواكس الأذقان الذين قد
طالت رغبتهما فيما لديك، المشتهرون بذكر آلاتك، والمتواضعون دون
عظمتك وجلال كبرياتك، والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل
معصيتك: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك !

فصل عليهم وعلى الرؤحانيين من ملائكتك وأهل الزلفة عندك، وحمال
الغيب إلى رسلك، والمؤمنين على وحيك، وقبائل الملائكة الذين
اختصتهم لنفسك، وأغنتهم عن الطعام والشراب بتقديسك، وأسكنتهم
بطون أطباق سماواتك، والذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك.

وخزان المطر، وزواجر السحاب، والذي بصوت زجره يسمع زجل الرعد، وإذا
سبحت به حفيفة السحاب التمتعت صواعق البروق، ومشيعي الثلج والبرد،
والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، والقائم على خزائن الرياح، والموكلين بالجبال
فلا تزول، والذين عرفتهم مثاقيل المياه، وكيل ما تحويه لوازع الأمطار وعواجهها.
ورسلك من الملائكة إلى الأرض بمكرره ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء.

والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه، ومنكر ونكير، ومبشر وبشير، ورومان فنان القبور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك والخزنة، ورضوان وسدنة الجنان، والذين «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»، والذين يقولون: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، والزبانية الذين إذا قيل لهم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُوْهُ * ثُمَّ الْجَحِيْمَ صَلُوْهُ﴾^١ ابتدروه سراعاً ولم ينظروه، ومن أوهمنا ذكره، ولم نعلم مكانه منك وبأي أمر وكلته، وسكن الهواء والأرض والماء، ومن منهم على الخلق.

فصل عليهم يوم يأتي كل نفسٍ معها سائق وشهيد، وصلٌ عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم، وطهارة على طهارتهم. اللهم وإذا صليت على ملائكتك ورسلك، وبلغتهم صلاتنا عليهم، فصلٌ عليهم بما فتحت لنا من حُسن القول فيهم، إنك جوادٌ كريمٌ^٢، انتهى.

وللملائكة القابلية على التمثيل يأذن الله عند ما تقتضي الضرورة ذلك، فلقد ورد في الآثار الصحيحة أن جبرائيل عليه السلام تمثل لمريم عليه السلام بصورة رجل ليبشرها بعيسي عليه السلام، ونفع فيها من روح الله فحملت، وكان يتمثل للنبي عليه السلام بصورة دحية الكلبي، وتمثل لإبراهيم وزوجته سارة للبشرارة بإسحاق، وتمثل للوط عليه السلام. بل ورد في الآثار أن إبليس لعنه الله قد تمثل للنبي عليه السلام والصحابة في صورة شيخ نجدي ليخذلهم يوم بدر، وتمثل لهم يوم العقبة في صورة منبه بن الحجاج، وتمثل لبعض الأنبياء كذلك، وجرت بينه وبينهم حوارات، والتمثيل

١- الحافظ: ٣٠ - ٣١

٢- الصحفة السجادية: ٤٠ الدعاء: ١٢

غير التجسيم والتصور المادي، فالملك يتمثل على شكل إنسان في عين الرائي فقط ، أما حقيقته فتبقى ثابتة على صورته الملائكية: قال تعالى: ﴿فَأَزَّسْلَنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^١ وللملائكة دور التسديد والتأييد لبعض عباد الله:

قال تبارك وتعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُك بِرُوحِ الْقُدْسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلَمْ﴾^٢.

وقال سبحانه: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودِ لَمْ تَرَوْهَا﴾^٣.

وقال عز شأنه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^٤.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^٥.

ورد عن النبي ﷺ قوله: ما بعثت علياً في سرية ولا أبرزته لمبارزة إلا رأيت حبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وملوك الموت من أمامه^٦.

قال أمير المؤمنين علیه السلام: ليس أحد من الناس إلا ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردّى في بئر أو يقع عليه حائط، أو يصيبه سوء، فإذا حان أجله خلوا بينه وبين ما يصيبه^٧.

ولولا وجود الملائكة لما كان بالإمكان وصول الوحي إلى الأنبياء والرسل، فقد ورد في الآثار أن لو كان الملائكة يعيشون في الأرض حياة مادية لاحتاج هؤلاء

١ - مريم: ١٧.

٢ - المائدة: ١١٠.

٣ - التوبية: ٤٠.

٤ - المجادلة: ٢٢.

٥ - آل عمران: ١٣.

٦ - شرح الأخبار، للقاضي نعман ٢: ٤١٤ ح ٧٦٠، مناقب آل أبي طالب ٢: ٧٧.

٧ - التوحيد، للصدوق: ٣٦٨ ح ٥.

الملائكة إلى وحي سماوي لأنّه السبيل الوحيد للهداية.

الملائكة وسائط التدبير الإلهي

لقد أجرى الله سنن الأسباب في كلّ مفردات الكون، ومفاصل الحياة ومن ذلك عملية الإصلاح الاجتماعي.

يقول الشيخ النراقي متّبع: فإن إصلاح الرعایا والصنّاع بالسلطين، وإصلاح السلطين بالعلماء، وإصلاح العلماء بالأنبیاء، وإصلاح الأنبياء بالملائكة، وإصلاح الملائكة بعضهم ببعض، إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبیة، التي هي ينبوع كلّ نظام، ومطلع كلّ حُسن وجمال، ومنشأ كلّ ترتيب وتألیف. وقد ظهر مما ذكر: أنّ من فتش يعلم أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحیث يصلح للأكل ما لم يعمل عليه آلاف الآلوف من الملائكة وصنّاع الإنس^١.

لقد رأينا من خلال دعاء الإمام السجّاد عليه السلام السابق أنّ الملائكة هم الوسطاء بين الله والأنبیاء في حمل الوحي، وهم خزنة الجنان، وخزنة النار، والذين يقبضون أرواح العباد، ولهم الأثر الكبير في جريان الحوادث الكونية كنزول المطر والبرد، ونشوء البرق والرعد، ونمو النباتات وحفظ المخلوقات وغيرها، والذي يظهر أنّ للملائكة دخالاً في هضم الغذاء وتمثيله، وإطباقي الأجهاف على العيون، والنمو وأسباب الموت والحياة وغيرها.

وهناك مسألة مهمة ألا وهي النفس الإنسانية التي هي ميدان لصراع جيشهن من المخلوقات الغيبة: الملائكة والشياطين. فإذا كانت النفس ملزمة للورع والتقوى والإخلاص كانت الملائكة سكان تلك النفس تمدّها بالإلهام والتأييد،

فلا مجال للشيطان وجنته للدخول عليها إلا على سبيل الاختلاس وحالات السهو والغفلة، أما إذا كانت النفس مرتعًا للهوى والنزوارات، صارت مرعمى للشيطان، فيصبح صاحبها بمثابة الأنعمان السائبة التي همها علفها.

من الأفضل الملَكُ أم الإنسان؟

وقع كلام كثير بين علماء الكلام وعلماء التفسير في مسألة أفضلية الملائكة على الإنسان، أم أفضلية الإنسان على الملائكة. وقد تفاوتت وجهات نظرهم في مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَيْنِ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾^١.

والمفروض أنّ نفهم أنّ التكريم غير التفضيل، فنحن عندما نخصّ شخصين بالعطايا، فهذا تفضيلٌ عليهمما، لكننا نميّز العالم الورع منهمما بزيادة، وهذا من التكريم.

إن الله سبحانه منّ على الإنسان بالعقل الذي جعله قادرًا على تخطي حدود الواقع، وإحداث التطور والتقدّم والتفتّن في مناحي الحياة، والكتابة والخط واحتزان التجربة، وهذا من مختصّات الإنسان فقط. فلم نسمع بتطور الجنّ ولا تطور الحيوانات ولا الجمادات، بل ولا الملائكة. وبالعقل يميّز الإنسان الحق من الباطل، والخير من الشر، والنافع من الضار.

ونعم ما قال الصادق عليه السلام: العقل ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان^٢. فالآية الشريفة تشير إلى التكريم الذي قلنا: إنّه التمييز والاختصاص بنعمة

١ - الإسراء: ٧٠

٢ - المحسن ١: ١٩٥ ح ١٥، الكافي ١: ١١ ح ٣

إضافية من النعم، ولكن الاستشكال الذي أوردوه هو قوله سبحانه وتعالى:
﴿وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^١.

إن الآية، كما يراها أعلام المفسرين، تتحدث عن الأمم الأرضية كالإنسان والجن وعالم الحيوان وكل ذي شعور، وليس متعرضة إلى الأمم السماوية.

وعن الإمام السجّاد عليه السلام قوله: ليس من دابة ولا طائر إلا وهي تأكل وتشرب بفيها، لا ترفع يدها إلى فيها طعاماً ولا شراباً غير ابن آدم فإنّه يرفع إلى فيه بيده طعامه، فهذا من التفضيل^٢.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ﴿وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ قال: خلق كل شيء منكباً غير الإنسان خلق منتصباً. وهذا من مصاديق التفضيل.

يقول سيدنا الطباطبائي عليه السلام: إن الآية ناظرة إلى الكمال الإنساني من حيث وجوده الكوني وتكريمه وفضيلته بالقياس إلى سائر الموجودات الكونية الواقعة تحت النظام الكوني، فالملائكة الخارجون عن النظام الكوني خارجون عن الكلام، والمراد بتفضيل الإنسان على كثير ممن خلق تفضيله على غير الملائكة من الموجودات الكونية، وأما الملائكة فوجودهم غير هذا الوجود فلا تعرّض لهم في ذلك بوجه^٣.

إذن الآية غير متعرضة لأفضلية الملائكة على الإنسان، ولا لأفضلية الإنسان على الملائكة، ونحن لا نشك أنّ الملائكة أفضل من الإنسان العادي، فإنّ منهم من هم كما وصفهم الله إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، ومنهم أهل الكفر

١ - الإسراء: ٧٠.

٢ - الأمامي، للطوسى: ٤٨٩ ح ١٠٧٣.

٣ - تفسير الميزان ١٣: ١٥٩.

والجحود.

أما الرسُل والأنبياء وأئمَّة أهل البيت عليهم السلام فهم أفضَل من الملائكة، بل وردَ أنَّ إِنَّ الْمَلَكَ مطْبُوعٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلَا شَهَوَةٌ لَهُ وَلَا غَرِيْزَةٌ، بل هُوَ رُوحٌ أَوْ عَقْلٌ مطلَقٌ، فَكُلُّ مَا فِيهِ قُوَى رَحْمَانِيَّةٍ، أَمَّا إِنْسَانٌ فَمَرْكَبٌ مِّنْ جَسَدٍ وَرُوحٍ وَغَرِيْزَةٍ، وَهَذِهِ التَّرْكِيَّةُ مَحْلٌ لِصَرَاعٍ بَيْنَ قُوَى الْعَقْلِ وَقُوَى الْغَرِيْزَةِ، بَلْ قَلْ بَيْنَ الْقُوَى الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْقُوَى الشَّيْطَانِيَّةِ. فَبَعْدَ الْفَتْنَةِ وَالْابْتِلَاءِ وَمُقاوْمَةِ الْأَهْوَاءِ، وَصَفَّاءِ النِّيَّةِ، قَدْ يَخْرُجُ إِنْسَانٌ بِالْفُوزِ وَالظَّفَرِ لِنَيلِ مَرْضَاتِ اللَّهِ، فَهُنَّا يَكُونُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَكِ.

وَبِمَعْنَى آخِرَانَ عَبُودِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ مُوهَبَةٌ وَفِيْضٌ رَبَّانِيٌّ، أَمَّا عَبُودِيَّةُ إِنْسَانٍ فَمَسْأَلَةٌ كَسْبِيَّةٌ لَا يَنْالُهَا إِلَّا بِمَجَاهِدَةِ النَّفْسِ.

وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى فَعْلِ الْمُعْصِيَّةِ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ قَوْمَ أَنفُسِهِمْ هُوَ النِّزَاهَةُ وَالْقَدَاسَةُ وَالطَّهَارَةُ وَالنِّقاءُ، فَلَا مُوجِبٌ لِفَعْلِ الْمُعْصِيَّةِ وَوَقْوَعُهَا مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ عِنْدَمَا نَنْسَبُ الْعَصْمَةَ إِلَى الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ سَلْبُ الْإِخْتِيَارِ وَعَدْمُ الْقَدْرَةِ عَلَى فَعْلِ الْمُعْصِيَّةِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقْدِرُ وَلَا يَفْعُلُ بِفَعْلِ التَّسْدِيدِ الإِلَهِيِّ وَالْقَدَاسَةِ.

إِذْنُ إِنْسَانٍ ذِي يَجَاهِدَ نَفْسَهُ، وَيَرْتَقِي بِهَا فِي سَلَالِمِ الْكَمَالِ، وَمَدَارِجِ الْأَرْتِقَاءِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. أَمَّا الرُّوحُ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي إِنْسَانٍ فَلَهَا مَرَاتِبٌ مِنَ الشَّرَافَةِ وَالنِّزَاهَةِ، تَخْتَلِفُ بِالْخُلُوفِ بَيْنَ مَرَاتِبِ الْأَفْرَادِ وَحَيَاتِهِمْ وَقَرْبَهُمْ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ ذَلِكَ الرُّوحُ الَّتِي نَفَخَهَا اللَّهُ فِي آدَمَ وَأَوْجَبَ سُجُودَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ.

سُبْحَانَهُ: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ۚ ۱.

وهذا السجود ليس لأدم فقط، بل هو سجود للنوع الإنساني، ومن هنا تأجّجت نار العقد في قلب إبليس على آدم وذرّيته.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَخْرَتْنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاَخْتَنَكُنَّ ذَرِيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٢ وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزْتِكَ لَاَغُوِّثُهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^٣.

ومن ذلك روح التأييد والتسديد لبعض عباده قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^٤.

وهذه أرقى من سبقتها، وأكثر شرافة، وأشدّ أثراً.

فالمؤيدون المسدّدون بهذه القوى الرحمانية هم المقصودون بأنّهم أفضّل
من الملائكة.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْمَعْصُومِينَ اَنْطَاهِرِينَ.

١ - الحجر: ٢٩.

٢ - الإسراء:

٣ - سورة ص: ٨٢ - ٨٣

٤ - المُجَادِلَة:

١٢٢ - الأنعام:

٨٧ - الْبَقْرَةُ:

المبحث الرابع والخمسون: الجزاء الإلهي على الذنب

قال عليه السلام: أَنْتَ إِلَهِي أَوْسَعُ فَضْلًا، وَأَعْظَمُ حِلْمًا مِنْ أَنْ تُقَائِسَنِي بِفِعْلِي
وَخَطِيئَتِي، فَالْعَفْوُ الْعَفْوُ الْعَفْوُ، سَيِّدِي سَيِّدِي، اللَّهُمَّ اشْغَلْنَا بِذِكْرِكَ،
وَأَعِذْنَا مِنْ سَخْطِكَ، وَاجْزِنْنَا مِنْ عَذَابِكَ، وَارْزُقْنَا مِنْ مَوَاهِبِكَ، وَانْعِمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلِكَ.

يتوجه الداعي عليه السلام إلى ربه ويطرق باب رحمته دون كلل ولا ملل، بل
بالإلحاح المعهود عند المؤمنين العارفين، طالباً العفو، فإنه طلب العبد
الضعيف العفو من سيده المطلق، وقلنا في مبحث سابق: إن العفو هو محور أثر
الشيء، وقلنا: إن المغفرة هي الستر على الشيء.

إن الرحمة هي الأصل الذي تتفرع منه المغفرة، ثم العفو على التدريج، فإذا
شمل الله سبحانه عبده برحمته، فإنه يستر عليه ما صدر من ذنب، ثم يمحو
برحمته أثر ذلك من ظلمات نفسية وكدورات روحية، وعقوبات دنيوية وأخروية،
وهذا من لوازم الربوبية. أنظر لهذا التسلسل رجاءً: الربوبية ثم الرحمة ثم قبول
التوبة ثم المغفرة ثم العفو.

لقد أقام الله سبحانه الحجّة على عباده فشرع لهم من الدين وأنزل من
الشرائع الصالحة التي تقود الإنسان إلى سعادته، وتحقّق له غاية كماله، ولكن

الإنسان خطأ، وقد يخرجه خطأه عن جادة الإيمان، لكن الله سبحانه فتح له أبواب الرجوع والعودة إلى صراطه المستقيم، ووعده بقبول التوبة والمغفرة والعفو. إن الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الإنسان قد تكون صغائر أو كبائر، فإذا كانت المقايسة بين ضعف المخلوق وحقارته وبين عظمة الخالق فإن جميع المعاصي كبائر، وقد نقل عن أبي ذر رض من مواتعه رسول الله ص: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت^١.

أما إذا كانت المقايسة بين معصية ومعصية، كانت عندنا صغائر وكبائر، فالتخويف صغيرة بالنسبة إلى إنزال العقاب، والنظرة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وقيل: إن الكبائر هي المعاصي التي أ وعد الله عليها دخول النار، وغيرها صغائر.

و فعل المعاصي له أثره السلبي على البناء النفسي والكيان الروحي، إذ يحدث الظلمة في القلب، ويسلب روح الإيمان، وله آثاره الوضعية على الإنسان الفرد والإنسان المجتمع.

ولقد أساء الفهم من قال بأن قبول التوبة والوعد بالمغفرة والتوبة والشفاعة مما يشجع الإنسان ويجعله على المعاصي، بل هو إحياء للقلوب اليائسة لتعود إلى بارئها، ورفع للقنوط من رحمة الله، وتطهير للنفوس وإخراجها من ظلمات الجهل والعناد والجريمة إلى نور الإيمان والمرءة والإنصاف والرقة والاستقامة. فالمرتكب للمعاصي عليه أن يتوب توبة نصوحاً معاهدًا ربه على الندم وعدم العودة إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، فإذا علم الله صدق عبده في

ذلك شمله برحمته، وبذلك يعود الإنسان إلى ساحة الإيمان ليمارس دوره المرسوم، أما المستهزيء والمتهاون بأمر الله والمتكل على الشفاعة فقد أساء الفهم، وتنكب الصراط، وسوف يلقى جزاءه الموعود.

إن النبي ﷺ قال: لا تتحقروا شيئاً من الشر وإن صغرت في أعينكم، ولا تستكثروا شيئاً من الخير وإن كثرت في أعينكم، فإنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار^١.

والندم الذي هو قوام التوبة لا يكفي أحياناً لرفع جميع آثار المعاصي، فمن ترك الصلاة أو الصيام فعليه القضاء، ومن ظلم أحداً فعليه إرضاوه وإعادة حقوقه، ومن سفك دماً فعليه أن يسلّم نفسه إلى أولياء الدم للقصاص أو الرضا بدفع الديمة.

وقد يحدث عند الإنسان تصادم وصراع بين الملكات، وهذا ما يسمى في المصطلح الحديث عند علماء النفس (ازدواج الشخصية)، فلعلك تجد إنساناً لا تفوته صلاة الليل، ولا زياره مخصوصة، أو دعاء مخصوص، وتراه كثير الصيام، لكنه يأكل الربا، ويظلم العباد في المعاملة، ولا يدفع الحق الشرعي، فالنفس هنا ميدان صراع للقوى الرحمانية والقوى الشيطانية، وكل قوة تحاول السيطرة والتمكّن من ساحة النفس، ولعل السينئات والمعاصي تلتهم الحسنات وتحبّط أثراها، نعوذ بالله من ذلك.

لقد خلق الله الإنسان وجعل عنده قدرة الاختيار، وكلّه بالأحكام الشرعية، فإذا جاء بالعمل الصالح المقترن بالإيمان استحق الثواب جزاءاً على عمله،

وإذا جاء بالموبقات والمعاصي استحق العقاب جزاءً على عمله، وهذا الأمر معروف عند أهل الأديان وغيرهم، فإن كل المجتمعات الصالحة تقوم بتكرير المحسن والمبدع والثناء عليهما، وتعاقب أو تلوم المسيء والمعتدي والباغي، لأنَّ الأوَّل قدَّم خدمة للمجتمع، والثاني أَنْزَلَ الضُّرُّ به.

إنَّ العقاب يتناسب طردياً مع حجم الجريمة وخطورتها، فالذى يقتل فرداً أو جماعة من أبناء المجتمع، يعاقب بالقصاص قتلاً، والذى يمارس الزنا من غير إحسان يُجلد، وفي الرابعة يُقتل، والسارق تقطع يده، فإذا قمنا بتطبيق القوانين الجزائية اعتدلت موازين الاجتماع، وعادت المياه إلى مجاريها. نعم يجوز ترك العقاب إذا كان هناك حكمة ومصلحة عقلانية بالترك، أمّا إلغاء العقوبات وبالذات عقوبة الإعدام فهي مما يهدِّم أساس القانون والشريعة، ويجرئ المجرم على جريمته. قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَنْطَغُوا فِيهِ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيٌّ وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِيٌّ فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَأَمْنَ وَعَمَلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^١.

انظر هذه المعادلة الإلهية المستنيرة من الآية أعلاه:

١. الطغيان يقود إلى غضب الله، وغضب الله يقود إلى السقوط من عين الله.

٢. التوبة + الإيمان + العمل الصالح + الاهتداء = المغفرة.

والغضب في الآية السابقة من صفات الفعل، والمراد تحكيم إرادته سبحانه يأنزال العقاب وفق سنن الأسباب. وبالنظر لأهمية هذا الموضوع سنفرد له مبحثاً مستقلاً، ومن الله نستمد التوفيق. والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّاهِرِينَ الطَّاهِرِينَ الْمَعْصُومِينَ.

المبحث الخامس والخمسون: في الغضب

روي أن عمرو بن عبيد الله المعتزلي دخل على أبي جعفر الباقر عليهما السلام فقال له: جعلت فداك، قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾، ما ذلك الغضب؟ فقال أبو جعفر عليهما السلام: هو العقاب، يا عمرو، إنه من زعم أن الله عزوجل زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق، إن الله عزوجل لا يستفره شيء ولا يغتيره^١.

وقال محمد بن عمارة: سألت الصادق جعفربن محمد عليهما السلام فقلت له: يا ابن رسول الله، أخبرني عن الله عزوجل هل له رضى وسخط؟ قال: نعم، وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، ولكن غضب الله عقابه، ورضاه ثوابه^٢.

قال الراغب في المفردات: الغضب: ثوران دم القلب إرادة لانتقام، ولذلك قال عليهما السلام: اتقوا الغضب فإنه جمرة تؤقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه؟^٣ وإذا وصف به الله تعالى، فالمراد به الانتقام دون غيره،

١ - التوحيد، للصدوق: ١٦٨ ح ٢.

٢ - التوحيد، للصدوق: ١٧٠ ح ٢٦.

٣ - المستدرك ، للحاكم ٤: ٥٠٦، الكافي ٢: ٣٠٤ ح ١٢

قال سبحانه: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ ^{٢٠١}.

أما الغضب الذي ينسب إلى الإنسان فيكون على ثلاثة أقسام:

١) ما كان عن إفراط ويسمى التهور، وهو مذموم.

٢) ما كان عن تفريط ويسمى الخمود أو الجبن والمهانة، وهو مذموم.

٣) ما كان عن اعتدال، وهو الغضب المحمود، والمعبر عنه بالشجاعة.

الإفراط في الغضب

وهنا يخرج الإنسان عن طاعة العقل والشرع، ويفقد صبره وبصيرته، ويسلك طريق ال�لاك والشقاء، ولا شك أنه مرتبة من مراتب الجنون، وقد ورد على لسان الروايات أنه يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل ^٣، وأنه جمرة من الشيطان تُوقد في قلب ابن آدم ^٤، وأنه مفتاح كل شر ^٥، وقد يؤدي الغضب إلى سفك الدماء بغير حق، وهتك الأعراض، وانتهاك الحرمات.

ولقد أدى الإفراط في الغضب إلى قطيعة الأرحام، وتفكيك الأسر والعوائل، وهدم الكيانات الشامخة، والأسباب الداعية لمثل هذا الغضب هو ال الكبر، والتجرّأ، وازدراء الناس.

عن الصادق عليه السلام قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم: يا معلم الخير، أعلمنا أي الأشياء أشد؟ فقال عليه السلام: أشد الأشياء غضب الله. قالوا: بم يُتّقى غضب الله؟

١ - البقرة: ٩.

٢ - مفردات غريب القرآن: ٣٦١.

٣ - الكافي ٢: ٣٠٢ ح ١.

٤ - المستدرك، للحاكم ٤: ٥٠٦، الكافي ٢: ٣٠٤ ح ١٢.

٥ - الكافي ٢: ٣٠٣ ح ٣.

قال: بأن لا تغضبوا، قالوا: وما بدء الغضب؟ قال الكِبْرُ والتجَّبُرُ ومحقرة الناس^١. وقد ورد في علاج هذا النوع من الغضب كثير من التوجيهات والإرشادات الشرعية والعقلية، منها: أن يجتنب الإنسان مواضع الغضب ومجالس الإثارة، ونعم ما قيل: الوقاية خيرٌ من العلاج.

لقد رأيت أحد الصالحين الأتقياء يغادر المجلس عندما تظهر عليه بوادر الانفعالات، ثم يعود إلى مجلسه، وقد يكرر الخروج لثلاً يطلق العنان للقوة الغضبية المذمومة.

وورد أنَّ الغاضب إذا كان واقفاً فليجلس، وإذا كان جالساً فليستلقِ، وإذا كان غضبه على ذي رحم فليدينْ منه فليمسه، فإنَّ الرحم إذا مُستَ سكتَ^٢. وورد أنَّ الغضبان إذا توضاً أو اغتسل سكن غضبه^٣.

وأعظم من ذلك كله أن يتذكر الإنسان عاقبة أمر الغضب، وأن يتذكر قدرة الله عليه، وأن يضع أهوال القيامة نصب عينيه، وأن يتوقع الرحمة الإلهية وعظيم الأجر لمن ملك نفسه وكفَّ غضبه، وكان في عداد الصابرين.

التفريط في الغضب

لقد خلق الله الإنسان وجعل فيه مجموعة من القوى والغرائز، وهذه الغرائز لها أثراً كبيراً في حفظ الحياة واستمراريتها، ولها الأثر الكبير في تلطيف الأجواء وخلق السعادة، والغضب كأي غريزة له أثره في حفظ النظام، وبقاء الشخص والنوع، وصيانة الأموال والأعراض والدفاع عن الحرمات والمقدسات.

١ - الخصال: ٦ ح ١٨.

٢ - الكافي ٢: ٣٠٢ ح ٢.

٣ - ورد في: سنن أبي داود ٢: ٤٣٤ ح ٤٧٨٤.

وعندما تفتر هذه الغريزة ويصاب الإنسان الفرد والإنسان المجتمع بالخmod، ويقع فريسة بين براثن الجبن والهوان، فهنا تُسحق الكرامات، وتداس الحرمات، وتنتهي الشعائر المقدّسة، وترضح الشعوب للظالمين، وتموت روح الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصبح المجتمع قطيعاً من الأغنام، همها علّفها، وغايتها طلب السلام، وتكون لقمة سائحة للذئاب المفترسة.

الغضب المحمود

وهذا من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده لحفظ النوع والنظام ولقد وصف الله شريحة من المؤمنين بأنهم: ﴿أَشِدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَنِيهِمْ﴾^١.
وذكر سبحانه أنه فضل المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا، ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام الأنموذج الأرقى بعد رسول الله عليه السلام في التحلّي بهذه الصفة الحميدة، فلم تجبن نفسه في ميادين الحرب، و موقفه في الجهاد، وكان كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، قويًا في أمر الله، متواضعاً في نفسه، ليس لأحد عنده هواة، الضعيف الذليل عنده قوي عزيز حتى يأخذ له بحّقه، والقوي العزيز عنده ضعيف ذليل حتى يأخذ منه الحقّ.

إن الغضب الذي لا يخرج صاحبه عن الحق، والغضب الذي يصون الحرمات، ويحفظ ببيضة الإسلام، من أعظم الصفات الإيمانية، وقد ورد في الأحاديث الشريفة الحث عليه، والتحذير من تركه، كما في المنقول عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: أوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام: إني معدب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم، فقال عليه السلام: يا رب هؤلاء

الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزوجل إلهه: داهموا أهل المعاشي ولم يغضبو الغضبي^١.

وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قال موسى بن عمران عليهما السلام: يا رب، من أهلك الذين ظلمهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ذلك؟ فأوحى الله إليه: الطاهرة قلوبهم، والبريئة أيديهم، الذين يذكرون جلاي ذكر آبائهم، والذين يغضبون لمحارمي إذا استحلت مثل النمر إذا جرح^٢.

وورد في الأثر المعتبر أن الله سبحانه قال لجبرئيل عليهما السلام: اذهب إلى هذه القرية فاقلبها بأهلها، فجاء جبرئيل وسائل عن أحوالهم فقيل له: إن فيها رجلاً مؤمناً عابداً زاهداً معتكفاً عن الناس، فرق له، فقال جبرئيل: يا رب إن فيها رجلاً مؤمناً ناسكاً، قال الله: فبداره فابداً، قال عليهما السلام: لِمَ ذلك يا رب؟ قال سبحانه: لأنّه رأى المنكر ولم ينكره.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـهـ الطـاهـرـينـ المعـصـومـينـ.

١ - الكافي ٥: ٥٦ ح ١، تهذيب الأحكام ٦: ١٨١ ح ٢١.

٢ - المحسن ١: ٤٥ ح ١٦ و ٢: ٤٥٤ ح ٢٩٣.

المبحث السادس والخمسون: في الحجّ

قال عليه: وَارْزُقْنَا حَجَّ بَيْتِكَ، وَزِيَارَةً قَبْرِ بَيْتِكَ صَلَواتُكَ وَرَحْمَتُكَ وَمَغْفِرَتُكَ
وَرِضْوَانُكَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ إِنَّكَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

قمنا بتغطية موضوع الحجّ في كتابنا الموسوم بالباحث الواضحة^١،
وتعرّضنا إلى المباحث اللغوية والفقهية، لذا نرجو الرجوع إليه وهنا نضيف
بعض القضايا النافعة بعون الله.

الحجّ من أركان الدين، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنّة والإجماع، بل هو
ضرورة من ضروريات الدين. وقد قال الفقهاء بأنّ إنكار الضرورة من موجبات
الكفر، قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^٢.

يقول سماحة آية الله الشهيد السعيد السيد محمد رضا الخلخالي متوفى: إنّ
الميزان في الكفر والإسلام أمور ثلاثة: الشهادة بالوحدانية، والشهادة بالرسالة،
والاعتقاد بالمعاد، فمن اعترف بهذه الأمور الثلاثة يحكم عليه بالإسلام، ويترتب

١ - المباحث الواضحة، للمؤلف: ٢٦٨ - ٣٠٨.

٢ - آل عمران: ٩٧.

عليه آثاره من المواريث، وحرمة دمه وماله، وحلية ذبائحه، ولزوم تجهيزه من الغسل والكفن والدفن، وغير ذلك من الأحكام.

ومن أنكر أحد هذه الأمور فهو كافر، وليس إنكار الضروري من جملتها إلا إذا
رجع إلى تكذيب النبي ﷺ، فإنكار الضروري بنفسه ومستقلاً لا يوجب الكفر ما
لم يستلزم تكذيب الرسالة، كما إذا كان الشخص غير عارف بأحكام الإسلام،
ولم يكن ملتفتاً إلى أن إنكاره يستلزم إنكار النبي ﷺ، فأنكر ضرورياً من
ضروريات الدين، فإن ذلك لا يوجب الكفر^١.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام: إنَّ ذلك الكفر هو كفر النعم .^٢

أما الكفر الوارد في ذيل الآية أعلاه فقد يُراد به الكفران المقابل للشكراً.
ويقول سماحته مثٰثٰ: وبالجملة لم يظهر من شيءٍ من الأدلة كفر منكر الحجّ
بحيث يتربّ عليه أحکام الكافر بمجرد إنكاره من دون أن يستلزم ذلك تكذيب
النبي ﷺ، كما إذا لم يكن ملتفتاً إلى هذه الملازمة، وكان جديداً عهداً بالإسلام
فأنكر وجوب الحجّ ونحوه .^٣

أما تركه تقصيراً ومن غير استخفاف فهو من الكبائر التي أوعده الله عليها النار، وقد وردت النصوص الشرعية فيه.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله: ﴿وَاتْمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِللهِ﴾^٤، قال عليه السلام:

١ - معتمد العروة الوثقى ١:١٠١

٢- تفسير العياشى: ٤٨ ح ٦٧، وصفحة ١٩٣ ح ١١٥.

^٣ - معتمد العروة الوثقى، ١: ١٢.

٤ - المقدمة: ١٩٦

هما مفروضان^١ وعن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزوجل: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا»^٢، فقال عليه السلام: ذلك الذي يسُوف نفسه الحج، يعني حجة الإسلام، حتى يأتيه الموت^٣.

فلسفة الحج

إن معظم الأحكام الشرعية التي ثبت وجودها بالدليل وفق فن الصناعة، لا نعلم عللها الحقيقية، وقد لا نعرف الحكمة وراءها، فنحن نعمل بها تعبدًا. نعم إن النصوص أحياناً تتحدث عن العلل والحكم، ومن ذلك ما ورد في تشريع الحج.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إثباته، فحثّهم على تعظيمه وزيارتة، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلين إليه، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه^٤.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في خطبة له: ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً... ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع

١ - الكافي ٤: ٢٦٥ ح ٢.

٢ - الإسراء: ٧٢.

٣ - الكافي ٤: ٢٦٩ ح ٢.

٤ - الكافي ٤: ١٩٨ ح ١.

أسفارهم، وغاية لملتقى رحالهم... حتى يهربوا مناكبهم ذللاً يهلكون الله حوله،
ويرملوا على أقدامهم شعشاً غيراً له، قد نبذوا القناع والسرابيل وراء ظهورهم،
وحسروا بالشعور حلقاً عن رؤوسهم^١.

وقد روي عن هشام بن الحكم أنه قال: سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ فقلت له: ما العلة التي من أجلها كلف الله العباد الحجّ، والطواف بالبيت؟ فقال عَلَيْهِ الْكَفَافُ: إن الله خلق الخلق وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهם، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعرفوا، ولينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمال.

ولتعرف آثار رسول الله ﷺ وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسى، ولو كان كلّ قوم يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح، وعمّيت الأخبار، ولم يقفوا على ذلك، فذلك علة الحجّ^٢.

سعة أحكام الحجّ

روي أنّ فقيه الإمامية الكبير المحقق الحلبي ثنى إذا وصل في مباحثه الفقهية إلى كتاب الحجّ تركه، فقيل له: لِمَ ذلك؟ فقال: لا أدرِّس موضوع الحجّ حتى أحجّ.

وقيل: إذا أردت أن تختبر فقاها طالب العلم فاسأله في مسائل الحجّ. وأعرف الناس بأحكام الحجّ هم الذين مارسوه عملياً كالحملدارية من أهل الإيمان، فقد قال أحد هم مازحاً مع أحد المجتهدين: نحن نقلّدكم في النجف الأشرف،

١ - شرح نهج البلاغة ٢: ١٤٦ الخطبة: ١٩٢.

٢ - علل الشرائع ٢: ٤٠٥ ح ٦.

وأنتم تقلدوننا في مكة.

قال زراة: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك، أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتني ! فقال عليه السلام: يا زراة، بيت حج إلىه قبل آدم بألفي عام، تريد أن تفتني مسائله في أربعين عاماً؟^١

معطيات الحج وفوائده

قال الرضا عليه السلام: إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عزوجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل، مع ما فيه من إخراج الأموال، وتعب الأبدان، والاشغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاملاً في الحر والبرد، ثابتاً على ذلك، دائماً مع الخضوع والاستكانة والتذلل، مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من في شرق الأرض وغربها، ومن في البر والبحر، ممن يحج وممن لم يحج، ومن بين تاجر وجالب، وبائع ومشترٍ، وكاسبٍ ومسكين، ومكارٍ وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف في الموضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليه السلام على كل صقع وناحية، كما قال الله: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِتَسْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنَذِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَخْذَرُونَ»^٢، «لِيُشَهِّدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ»^٣.

وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: حجوا واعتمروا تصح أجسامكم، وتشدّع أرزاقكم، ويصلح إيمانكم، وتكتفوا مؤونة الناس ومؤونة عيالكم^٤.

١ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٥١٩ ح ٣١١١.

٢ - التوبه: ١٢٢.

٣ - علل الشرائع ١: ٢٧٣ والأية في سورة الحج: ٢٨.

٤ - ثواب الأعمال: ٤٧.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في أحدى خطبه: فرض عليكم حجّ بيته الذي جعله قبلة للأنام، يردونه ورود الأنعم، ويألهون إليه ولوه الحمام، جعله سبحانه علامه لتواضعهم لعظمته، وإذعنهم لعزّته، واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا موقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه للإسلام علماء وللعاديين حرماً، فرض حجّه، وأوجب حقّه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^١.

وجوب الحجّ عينياً وكفائيّاً
إذا توقفت القدرة للمسلم وجب عليه الحجّ وجوباً عينياً، والاستطاعة هي: المالية، والبدنية والسرية.

فلو كان له مال يكفيه للسفر ومتطلباته بما يليق بشأنه، ويكتفى بما يقوّت به عياله إلى أن يرجع، ولو كان صحيحاً للبدن معافى، وكان آمناً في ذهابه وإيابه، فقد تحقّقت القدرة الشرعية وكان الحجّ واجباً عينياً.

وقد تكون القدرة بالبذل من الغير فيجب الحجّ.

عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: فإن عرض عليه الحجّ فاستحيى؟ قال: هو ممن يستطيع الحجّ ولم يستحيي ولو على حمار أجدع أبتر ! قال: فإن كان يستطيع أن يمشي بعضاً ويركب بعضاً فليفعل^٢.

١ - شرح نهج البلاغة ١: ٢٧ والأية في سورة آل عمران: ٩٧.

٢ - الاستبصار ٢: ١٤٠ ح ٤٥٦.

أما إذا كان عاجزاً عن المباشرة وكان مستطيناً فعليه أن يستنبط غيره للحج عنه، وهذا هو المورد الوحيد الذي تجوز فيه الاستنابة في الواجبات عن الأحياء. وورد وجوب الحجّ نيابةً عن مات وعليه حجّة الإسلام إذا كان له تركة، واستحباب الحجّ عن الموتى والأحياء مطلقاً.

فقد ورد عن عبد الله بن سنان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجل فأعطاه ثلثين ديناراً يحجّ بها عن إسماعيل، ولم يترك شيئاً من العمرة إلى الحجّ إلا اشترط عليه، حتى اشترط عليه أن يسعى عن وادي محسّر، ثم قال عليه: يا هذا، إذا أنت فعلت هذا كان لإسماعيل حجّة بما أنفق من ماله، وكانت لك تسع بما أتعبت من بدنك^١.

وروي أنّ الحارث بن المغيرة قال لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ ابنتي أوصت بحجّة ولم تحجّ.

قال عليه: فحجّ عنها، فإنّها لك ولها، قلت: إنّ أمّي ماتت ولم تحجّ، قال عليه: فحجّ عنها فإنّها لك ولها^٢.

ويُستفاد من هذه الروايات وغيرها أنّ الحجّ الواجب يخرج من أصل التركة. أما الحجّ المنذور فيخرج من ثلث الميت عند سيدنا الإمام أبوالقاسم الخوئي^٣ وعند سيدنا الإمام السيستاني دام ظله^٤، أما عند سيدنا الإمام السبزواري^٥ فيخرج من الأصل إلا مع القرينة على الخلاف.

١ - الكافي ٤: ٣١٢ ح ١.

٢ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٤٢ ح ٢٩١٩.

٣ - كتاب الحجّ، للسيد الخوئي ١: ٣٩٢ المسألة ٨

٤ - منهاج الصالحين ٢: ٣٦٩ / ١٣٨٩.

أما وجوب الحجّ كفائيًّا، فعلى فرض لوترك الناس الحجّ، وجب على المسلمين المستطيعين الحجّ كفايةً، ويحق للوالى إجبارهؤلاء على الحجّ، وإن لم يكن لهم مال، أنفق عليهم من بيت المال، فقد ورد عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: لوترك الناس الحجّ لما نظروا العذاب، أو قال: أُنزل عليهم العذاب

١.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان على صلوات الله عليه يقول لولده: يا بنى انظروا بيت ربكم فلا يخلونَ منكم فلا يناظروا^٢.

وقال الباقر عليه السلام: لوعطلوه سنة واحدة لم يناظروا^٣.

وقال الصادق عليه السلام: لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة^٤.

وقال عليه السلام: لوأن الناس تركوا الحجّ لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي عليه السلام لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال، أنفق عليهم من بيت مال المسلمين^٥.

وعن أمّة الهدى عليه السلام استحباب الحجّ مashiأ على من يقدر عليه. وعن الباقر عليه السلام قال: قال ابن عباس: ماندمت على شيء ندمي على أن لم أحجّ مashiأ، لأنّي سمعت رسول الله عليه السلام يقول: من حجّ بيت الله مashiأ كتب الله له سبعة آلاف حسنة من حسنات الحرم، قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟

١- الكافي ٤: ٢٧١ ح ١.

٢- نفسه ٤: ٢٧٠ ح ٣.

٣- نفسه ٤: ٢٧١ ح ٢.

٤- نفسه ٤: ٢٧١ ح ٤.

٥- نفسه ٤: ٢٧٢ ح ١.

قال عَلَيْهِ الْكَفَافُ : حسنة ألف حسنة . وقال عَلَيْهِ الْكَفَافُ : فضل المشاة في الحج كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم ، وكان الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَفَافُ يمشي إلى الحج ودابتة تقاد وراءه^١ .

وكذلك كان الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَفَافُ والإمام علي بن الحسين عَلَيْهِمَا . لقد وردت تعبيرات تصف الحج بصفات راقية إشارة إلى جزيل ثوابه ، منها :

ضيافة الرحمن^٢ ، والوفادة^٣ ، وجihad الضعفاء^٤ ، والفرار إلى الله^٥ ، وسوق الآخرة^٦ .

ثواب الحج

قال الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ : الحجاج يصدرون على ثلاثة أصناف : صنف يُعتق من النار ، وصنف يخرج من ذنبه كهيئة يوم ولدته أمّه ، وصنف يحفظ في أهله وماله ، فذلك أدنى ما يرجع به الحاج^٧ .

وعنه عَلَيْهِ الْكَفَافُ قال : إذا أخذ الناس منازلهم بمنى ، نادى منادٍ : لو تعلمون بفناء من حلتكم لا يقتتم بالخلف بعد المغفرة^٨ .

وعن أبي حمزة الشمالي قال : قال رجل لعلي بن الحسين عَلَيْهِمَا : تركتَ الجهاد

١ - المحاسن ١ : ٧٠ ح ١٣٩.

٢ - الأمازي ، للصدقون : ١٥٤.

٣ - علل الشرائع ١ : ٢٧٣.

٤ - الكافي ٤ : ٢٥٤ ح ٧ وصفحة ٢٥٩ ح ٢٨.

٥ - نفسه ٤ : ٢٥٦ ح ٢١.

٦ - نفسه ٤ : ٢٥٥ ح ١٣.

٧ - نفسه ٤ : ٢٥٣ ح ٦.

٨ - نفسه ٤ : ٢٥٧ ح ٢٢.

وخشونته، ولزمت الحجّ ولينه، قال عليه السلام، وكان مئكناً فجلس وقال: ويحك، أما بلغك ما قال رسول الله عليه السلام في حجّة الوداع، إنّه لما وقف بعرفة وهبت الشمس أن تغيب قال رسول الله عليه السلام: يا بلال، قل للناس فلينصتوا، فلما أنصتوا قال: إن ربكم تَطَوَّلُ عليكم في هذا اليوم، وغفر لمحسنكم، وشفع في مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم^١.

وقال عليه السلام: الحجّة ثوابها الجنة، وال عمرة كفارة لكل ذنب^٢.

وسائل رجل أبا عبد الله عليه السلام في المسجد الحرام: من أعظم الناس وزراً؟
قال عليه السلام: من يقف بهذين الموقفين: عرفة والمزدلفة، وسعي بين هذين الجبلين، ثم طاف بهذا البيت، وصلّى خلف مقام إبراهيم عليه السلام، ثم قال في نفسه وظنّ أنّ الله لم يغفر له، فهو من أعظم الناس وزراً^٣.

وعن الصادق عليه السلام قال: إذا حفظ الناس منازلهم بمنى، نادى منادٍ من قبل الله عزوجل: إن أردتم أن أرضي فقد رضيت^٤.

وقال عليه السلام: الحاج والمعتمر في ضمان الله، فإن مات متوجهاً غفر الله له ذنبه، وإن مات محرماً بعثه الله ملبياً، وإن مات بأحد الحرمين بعثه الله من الآمنين، وإن مات منصرفًا غفر الله له جميع ذنبه^٥.

وعنه عليه السلام: من مات في طريق مكة ذاهباً أو جائياً، أمن من الفزع الأكبر يوم

١ - الكافي ٤: ٢٥٨ ح ٢٤.

٢ - نفسه ٤: ٢٥٣ ح ٤.

٣ - نفسه ٤: ٥٤١ ح ٧.

٤ - نفسه ٤: ٢٦٢ ح ٤٢.

٥ - نفسه ٤: ٢٥٦ ح ١٨.

القيامة^١.

وقال عليه السلام: من حج خمس حجج لم يعذبه الله أبداً، ومن حج عشر حجج لم يحاسبه الله أبداً، ومن حج عشرين حججاً لم يرجهنّ ولم يسمع شهيقها ولا زفيرها^٢.

وقد ورد استحباب الحج بالمؤمنين، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: قوله: من حج ثلاثة من المؤمنين فقد اشتري نفسه من الله عزوجل بالثمن، ولم يسأله من أين اكتسب ماله من حلال أو حرام.

قال الصدوق عليه السلام: يعني لم يسأل عما وقع في ماله من الشبهة، ويرضى خصماوه بالعرض^٣.

وجوب الإخلاص في نية الحج وبطلانه مع قصد الرياء
 عن الصادق عليه السلام قال: الحج حجان: حج لله وحج للناس، فمن حج لله كان ثوابه على الله الجنة، ومن حج للناس كان ثوابه على الناس يوم القيمة^٤.
 وقال عليه السلام: من حج يريد به الله لا يريد به رباء ولا سمعة غفر الله له أبته^٥.

استحباب الحج المندوب على غيره من العبادات والصدقات
 قال الصادق عليه السلام: حج أفضل من سبعين رقبة لي، قال السائل: ما يعدل الحج شيء؟ قال عليه السلام: ما يعدله شيء، والدرهم في الحج أفضل من ألفي درهم

١ - الكافي ٤: ٤٥ ح ٢٦٣.

٢ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٢١٧ ح ٢٢١٠.

٣ - عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٣٤ ح ١٢.

٤ - ثواب الأعمال: ٥٠.

٥ - نفسه: ٤٦.

فيما سواه في سبيل الله^١.

وقال رسول الله ﷺ لسائل سأله: انظر إلى أبي قبيس، فلو أنَّ أباً قبيس لك زنة ذهبة حمراء أفقته في سبيل الله ما بلغت به ما يبلغ الحاجَّ^٢.

وقال الصادق ع: حجَّة خير من بيت مملوء ذهباً يتصدق به حتى يفني^٣.

ووردت روايات كثيرة أنَّ الغنيَ المستطيع إذا لم يحجَ في كلَّ أربع أو خمس سنوات فهو محروم.

قال الصادق ع: من مضت له خمس سنين فلم يفِدْ على ربه وهو موسراً إنه محروم^٤.

وعن الباقر ع: إِنَّ اللَّهَ مِنَادِي أَيُّ عَبْدٍ أَحْسَنَ اللَّهَ إِلَيْهِ وَأَوْسَعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، فَلَمْ يَفِدْ إِلَيْهِ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ مَرَّةً لِيُطْلَبَ نَوَافِلَهِ إِنَّ ذَلِكَ لِمَحْرُومٍ^٥.
عدم اشتراط إذن الزوج إذا أرادت الزوجة الحجَّ الواجب، ولا يشترط وجوب
محرم معها مع الأمان على نفسها.

إِنَّ الواجبات والفرائض التي أمر بها الشارع المقدَّس لا تحتاج إلى رخصة شرعية من أحد، سواء كان زوجاً أو والداً، ولا يجب طاعة هؤلاء في معصية الخالق ومنها ترك الفرائض.

١ - الكافي ٤: ٢٦٠ ح ٣١.

٢ - ثواب الأعمال: ٤٨.

٣ - الكافي ٣: ٢٦٦ ح ٧.

٤ - نفسه ٤: ٢٧٨ ح ١.

٥ - نفسه ٤: ٢٧٨ ح ٢.

هناك قاعدة كبروية تقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^١.

إن طاعة الولد لوالده، والزوجة لزوجها، والعبد لسيده تقع في طول الطاعة لله حيث أمر بها أو ندب إليها. أما إذا أمروا بالمعصية فلا طاعة لهم.

فلو كانت الزوجة مستطيعة وجب عليها حج الإسلام، ولا يجوز للزوج منعها ولو منعها جاز لها السفر بدون رخصة، أما في الحج المندوب فيشترط أخذ الرخصة منه، وإذا كان هناك من يحفظ لها الأمان من المؤمنين فلا يشترط اصطحاب محرم معها.

عن صفوان الجمال قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قد عرفتني بعملي، تأتيني المرأة أعرفها بإسلامها وحبها إياكم، وولايتها لكم ليس لها محرم، قال: إذا جاءت المرأة المسلمة فاحملها، فإن المؤمن محرم المؤمنة، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَغْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَغْضٍ﴾^٢.

وعن معاوية بن عمّار قال: سألت أبي عبد الله عليه السلام عن المرأة الحرة تحج إلى مكة بغيرولي؟ فقال: لا بأس تخرج مع قوم ثقات^٣.

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن المرأة التي تريد حجج الإسلام، هل يجوز للزوج منعها؟ فقال عليه السلام: تحج وإن رغب أنفه^٤.

جواز التشريك في الحج المندوب

ورد في الروايات المعتبرة أن الذي يحج ندباً يجوز أن يشرك أباه أو أخيه أو

١ - الأمازي للصدق: ٤٥٢.

٢ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٣٩ ح ٢٩١٢ والأية من سورة التوبة: ٧١.

٣ - الكافي ٤: ٢٨٢ ح ٥.

٤ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٣٨ ح ٢٩٠٨.

أرحامه أو أصدقاءه.

قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: لوأشركت ألفاً في حجتك كان لك كل واحد حج من غير أن ينقص من حجتك شيء^١. وورد جواز إهداء ثواب الحج إلى الغير بعد الفراغ من الحج^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ الْمَعْصُومِينَ.

١ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٢٣ ح ٢٢٤٢.

٢ - انظر: وسائل الشيعة ١١: ٢٠٤ الباب ٢٩ من أبواب النيابة في الحج.

المبحث السابع والخمسون: زيارة النبي وأله

لقد وردت الروايات المستفيضة عن النبي ﷺ، وعن أهل بيته أئمة الهدى عليهما السلام تحت على زيارة قبور المؤمنين والتسليم والترحم عليهم، وجرت سيرة السلف الصالح على ذلك، فقد كان رسول الله ﷺ يخرج في ملأ من الناس من أصحابه كل عشية خميس إلى بقيع المدنين فيقول: السلام عليكم يا أهل الديار ثلاثة، رحمكم الله ثلاثة^١.

وكانت فاطمة عليها السلام تزور قبر أبيها علي بن أبي طالب وقبر حمزة بن عبد المطلب، وقد نقل صاحب الوسائل ثلاثة روايات في ذلك^٢.

قال عبد الله بن سنان: قلت لأبي عبد الله عليهما السلام: كيف التسليم على أهل القبور؟ فقال عليهما السلام: نعم، تقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وأنتم لنا فرط، ونحن إن شاء الله لكم لاحقون^٣.

وقد ورد في الروايات استحباب قراءة القرآن عند قبور المؤمنين، والدعاء لهم،

١ - كامل الزيارات: ٨١١ ح ٥٣٠

٢ - وسائل الشيعة ٣: ٢٤٢، باب تأكيد استحباب زيارة القبور يوم الاثنين والخميس والسبت.

٣ - الكافي ٣: ٢٩٢ ح ٥

والدعاء عندهم. فعن أبي جعفر الباقر ع قال: من زار قبر أخيه المؤمن فجلس عند قبره، واستقبل القبلة، ووضع يده على القبر فقرأ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ سبع مرات، أمن من الفزع الأكبر.^١

لقد بدأت في الآونة الأخيرة تتعالى أصوات أعداء الإسلام ممن ثبت ارتباطهم بالاستعمار وعمالتهم للأجنبي، تنادي بحرمة زيارة القبور، ومنها قبر النبي عليهما السلام وقبور الأئمة عليهم السلام والصلحاء، واعتبروا ذلك من الشرك.

لقد كان الصحابة يتبرّكون بكلّ ما يعود للنبي عليهما السلام كدرعه وسيفه، وعصاه وخاتمه، وشعره وأوانيه، وفضلة وضوئه، بل حتّى نعاله، فيرون أنّ بركة النبي المصطفى عليهما السلام تسري في كلّ ما يعود إليه^٢. وقد ورد في الآثار أنّ حنيفة كان يقبل ويشمّ العصا التي بيد الإمام الصادق عليهما السلام ويترّبّك بها لأنّها عصا رسول الله عليهما السلام^٣.

لقد حدّثنا القرآن الكريم كيف أعاد الله بصر يعقوب بعد إلقاء قميص يوسف عليهما السلام عليه^٤، وحدّثنا عن المعاجز التي جاء بها موسى عليهما السلام ومنها عصاه، ولكتّها ﴿لَا تَغْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَغْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^٥.

ولقد حدّثنا التاريخ بالتواتر أنّ النبي عليهما السلام بصدق في عين علي عليهما السلام يوم فتح

١ - كامل الزيارات: ٥٢٩ ح ٨٠٩

٢ - للمزيد من الإطلاع يلاحظ كتاب التبرّك، للمرحوم أحمد الميانجي، وكتاب تبرّك الصحابة بآثار رسول الله عليهما السلام، لمحمد طاهر الكردي.

٣ - دعائم الإسلام ١: ٩٥، شرح الأخبار ٣: ٢٩٩ ح ١٢٠٢

٤ - يوسف: ٩٦

٥ - الحج: ٤٦

خبير فُشفِيت من الرمد، وسلّمه الراية ليكتب الله النصر المبين على يديه^١.

إنّ هؤلاء العملاء والموتورين لا هم إلا تحطيم الهالة القدسية التي تحيط بالنبي وباله صلوات الله عليهم، وبذلك يهدم الجانب الروحي من الكيان الإسلامي الشامخ. وبلغت بأحد مشايخهم الجرأة والحمامة ليقول بأنّ محمدًا ﷺ باليه لا تضر ولا تنفع، وإنّ عصاه خير وأفضل عَيْمَوَالله من محمد، لأنّها تضر وتنفع. ونقول لهم: بأنّ الدولار الأمريكي هو الذي يحرّكهم لهتك حرمات دينهم، وأنّ الله سبحانه منتقم منهم عاجلاً أو آجلاً.

لقد ثبت بالتواتر عن المسلمين بكلّ مذاهبهم أنّ النبي ﷺ قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور، الآن فزوروها، فإنّها تذكركم بالموت^٢.

وعندما شاعت فكرة حرمة زيارة القبور، وكان لشبكات الإعلام والفضائيات المأجورة أثراً كبيراً، فقد قام الوهابيون بهدم قبور آل محمد ﷺ والقباب التي أقيمت عليها في الواقع، ومنعوا التبرّك بتقبيل الأضحة المقدّسة.

وفي تلك الفترة زار السيد شرف الدين مكة لأداء مراسيم الحجّ، وجرى لقاء بين ملك السعودية عبد العزيز آل سعود وبين السيد شرف الدين، وقدّم السيد مصحفاً ملفوغاً بغلاف من الجلد كهدية للملك، فأخذ الملك المصحف وقبل الغلاف ووضعه على جبهته. فقال السيد: لماذا تقبل الغلاف - الجلد - وتمسح وجهك به؟

قال الملك: لأنّ في داخله قرآنًا، وأنا أقصد تقبيل القرآن الذي بداخله، فألقى

١ - صحيح البخاري ٤: ٢٠٧، تاريخ الإسلام، للذهبي ٢: ٤٠٧.

٢ - علل الشرائع ٢: ٤٣٩ ح ٣، صحيح مسلم ٣: ٦٥.

**السيد الحجّة عليه بآئنا نقبل الأضرة ونقصد التبرّك بمن دخلها وهو
النبي ﷺ^١.**

وقد ورد تأكيد استحباب زيارة النبي والأئمة عليهم السلام وخصوصاً بعد الحجّ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثم يأتوننا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم^٢.

وعن الرضا عليه السلام قال: إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاء لهم يوم القيمة^٣.

وقال الصادق عليه السلام: ما مننبي ولا وصيٌّ نبيٍّ يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام حتى تُرفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء، وإنما تؤتي مواضع آثارهم ويبلغونهم السلام، ويسمعونهم في مواضع آثارهم من قريب^٤. وعنده عليه السلام قال: إذا حجّ أحدكم فليختتم حجّه بزيارة، لأن ذلك من تمام الحجّ^٥.

وعن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قوله: أتموا برسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه حجّكم إذا خرجتم إلى بيت الله الحرام، فإن تركه جفاء، وبذلك أمرتم، وأتموا بالقبور التي ألمكم الله حقّها وزيارتها، واطلبوا الرزق عندها^٦.

١ - ثم اهتدت: ٦٨، مناظرات في العقائد والأحكام ٢: ١٦٠.

٢ - الكافي ٤: ٥٤٩ ح ١.

٣ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٥٧٧ ح ٣١٦.

٤ - الكافي ٤: ٥٦٧ ح ١.

٥ - علل الشرائع ٢: ٤٥٩ ح ١.

٦ - الخصال: ٦١٦ ح ١٠.

وعن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لعلي بن موسى الرضا عليهما السلام:
يا ابن رسول الله، ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث أن المؤمنين
يزورون ربهم من منازلهم في الجنة؟ فقال عليهما السلام: يا أبا الصلت، إن الله فضل نبيه
محمد عليهما السلام على جميع خلقه من النبيين والملائكة، وجعل طاعته طاعة
ومبايعته مبادعته، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته، فقال: «من يطع الرسول فقد
أطاع الله»^١ وقال: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله»^٢.

وقال رسول الله عليهما السلام: من زارني في حياتي أو بعد مماتي فقد زار الله، ودرجة
النبي عليهما السلام في الجنة أرفع الدرجات، فمن زاره في درجته في الجنة من منزله فقد
زار الله تبارك وتعالي^٣.

وقال الصادق عليهما السلام: إن زيارة قبر رسول الله عليهما السلام وزيارة قبور الشهداء، وزيارة قبر
الحسين صلوات الله عليه تعد حجّة مع رسول الله عليهما السلام^٤.

وقال الحسين عليهما السلام لرسول الله عليهما السلام: يا أبااته، ما لمن زارك؟ فقال رسول الله عليهما السلام:
من زارني حيًّا أو ميتاً أو زار أباك، أو زار أخيك، أو زارك، كان حَقّاً على الله أن أزوره
يوم القيمة وأخلصه من ذنبه^٥.

وعن زيد الشحام قال: قلت لأبي عبد الله عليهما السلام: ما لمن زار أحداً منكم؟ قال:

١ - النساء: ٨٠

٢ - الفتح: ١٠.

٣ - عيون أخبار الرضا عليهما السلام: ٢: ٢٠٦ ح ٣.

٤ - الكافي ٤: ٥٤٨ ح ٢.

٥ - الكافي ٤: ٥٤٨ ح ٤.

كمن زار رسول الله ﷺ .^١

وقال رسول الله ﷺ: يا علي، من زارني في حياتي أو بعد موتي، أو زارك في حياتك أو بعد موتك، أو زار ابنيك في حياتهما أو بعد موتهما، ضمنت له يوم القيمة أن أخلصه من أهوالها وشدائدها حتى أصيরه معي في درجتي.^٢

وعن أبي عبد الله الحراني قال: قلت لأبي عبد الله علیہما السلام: ما الممن زار الحسين علیہما السلام؟ قال: من أتاه وزاره وصلى عليه ركتعين، كتبت له حجّة مبرورة، وكذلك كل من زار إماماً مفترضة طاعته؟ قال: وكذلك كل من زار إماماً مفترضة طاعته.^٣

وقال زيد الشحام: قلت لأبي عبد الله علیہما السلام: ما الممن زار رسول الله ﷺ؟ قال: كمن زار الله فوق عرشه.^٤

كيفية زيارة النبي ﷺ وأدابها

ورد عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله علیہما السلام قال: إذا دخلت المدينة فاغتسل قبل أن تدخلها أو حين تدخلها، ثم تأتي قبر النبي ﷺ فتسلم على رسول الله علیہما السلام، ثم تقوم عند الإسطوانة المقدمة من جانب القبر الأيمن عند رأس القبر عند زاوية القبر وأنت مستقبل القبلة، ومنكبك الأيسر إلى جانب القبر، ومنكبك الأيمن مما يلي المنبر فإنه موضع رأس رسول الله علیہما السلام وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وأشهد أنك رسول الله علیہما السلام، وأشهد أنك محمد بن عبد الله، وأشهد أنك قد بلغت

١ - الكافي ٤: ٥٧٩ ح ١.

٢ - الكافي ٤: ٥٧٩ ح ٢.

٣ - كامل الزيارات: ٤٣٤ ح ٦٦٦.

٤ - الكافي ٤: ٥٨٥ ح ٥.

رسالات ربك، ونصحت لأمتك، وجاهدت في سبيل الله، وعبدت الله حتى
أتاك اليقين بالحكمة والمعونة الحسنة، وأذيت الذي عليك من الحق، وأنك
قد رأفت بالمؤمنين، وغلظت على الكافرين، فبلغ الله بك أفضل شرف محل
المكرمين.

الحمد لله الذي استنقذنا بك من الشرك والضلال، اللهم فاجعل صلواتك
وصلوات ملائكتك المقربين، وعبادك الصالحين، وأنبيائك المرسلين، وأهل
السماء والأرضين، ومن سبعة لك يا رب العالمين من الأولين والآخرين على
محمد عبدك ورسولك، ونبيك وأمينك، ونجيبك وحبيبك، وصفيك
وخاصتك، وصفوتك وخيرتك من خلقك، اللهم أعطه الدرجة والوسيلة من
الجنة، وابعثه مقاماً مموداً يغبطه به الأولون والآخرون.

اللهم إنك قلت: ولو أئتهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم
الرسول لوجدوا الله تواباً رحيمًا، وإنني أتيت نبيك مستغفراً تائباً من ذنبي، إني
أتوجه بك إلى الله ربى وربك ليغفر لي ذنبي....

وقال عليه السلام: وإن كانت لك حاجة فاجعل قبر النبي ﷺ خلف كتفيك
 واستقبل القبلة، وارفع يديك، وسل حاجتك، فإنها أخرى أن تُقضى إن شاء الله^١.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وأله الطاهرين المعصومين.

المبحث الثامن والخمسون: الصلاة على النبي وآلـه

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءاْمَنُوا صَلُّو عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^١.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في معنى الآية: الصلاة من الله عزوجل رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء^٢.

وأما استحباب الإكثار من الصلاة على محمد وآل محمد فيدل عليه ما ورد، فقد ورد عن محمد بن مسلم عن أحدهما الباقي أو الصادق عليه السلام قال: ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد، وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج النبي عليه السلام الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فترجح^٣.

وقال النبي عليه السلام: الصلاة علي وعلى أهل بيتي تذهب بالنفاق^٤.

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا ذكر النبي عليه السلام فأكثروا الصلاة

١ - الأحزاب: ٥٦.

٢ - معاني الأخبار: ٣٦٨، وسائل الشيعة ٧: ٩٦ ح ٩١٠٠.

٣ - الكافي ٢: ٤٩٤ ح ١٥.

٤ - نفسه ٢: ٤٩٢ ح ٨

عليه، فإنّه من صلّى على النبي ﷺ صلاة واحدة صلّى عليه ألف صلاة في ألف صفّ من الملائكة، ولم يبق شيء مما خلق الله إلا صلّى على العبد لصلاة الله وصلاة ملائكته، فمن لم يرحب في هذا فهو جاحد مغور قد برأ الله منه ورسوله وأهل بيته^١.

وعن عبد السلام بن نعيم قال: قلت لأبي عبد الله علّي السلام: إني دخلت البيت ولم يحضرني شيء من الدعاء إلا الصلاة على محمد وآلـه، فقال: أما إنّه لم يخرج أحد بأفضل مما خرجت به^٢.

وعن أبي عبد الله علّي السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من صلّى علىي صلّى الله عليه وملائكته، فمن شاء فليقل، ومن شاء فليكثر^٣.
وقال الرضا علّي السلام: من لم يقدر على ما يكفر به ذنبه، فليكثر من الصلاة على محمد وآلـه فإنّها تهدم الذنوب هدماً^٤.

وعن الإمام الهادي علّي السلام قال: إنّما اتّخذ الله عزوجل إبراهيم خليلاً لكثر صلاتـه على محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم^٥.

وعن علي علّي السلام: الصلاة على النبي وآلـه أمحق للخطايا من الماء للنار. والسلام على النبي وآلـه أفضل من عتق رقاب^٦.

١ - الكافي ٢: ٤٩٢ ح ٦.

٢ - نفسه ٢: ٤٩٤ ح ١٧.

٣ - نفسه ٢: ٤٩٢ ح ٧.

٤ - الأمازي، للصدوق: ١٣٢ ح ١٢٣.

٥ - علل الشرائع ١: ٣٥ ح ٣.

٦ - ثواب الأعمال: ١٥٤.

وقال رسول الله ﷺ: أنا عند الميزان يوم القيمة، فمن ثقلت سيئاته على حسناته، جئت بالصلة على حتى أثقل بها حسناته^١.

وعن عمر بن يزيد قال: قال لي أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا عمر، إنَّهُ إِذَا كَانَ لِي لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بَعْدَ الذَّرِّ فِي أَيْدِيهِمْ أَقْلَامُ الْذَّهَبِ وَقِرَاطِيسُ الْفَضَّةِ لَا يَكْتُبُونَ إِلَى لَيْلَةِ السَّبْتِ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَأَكْثَرُهُمْنَاهَا يَا عَمَرُ، إِنَّ مَنْ مَنَّ تَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ بَيْتِهِ فِي كُلِّ جَمِيعِ أَلْفِ مَرَّةٍ، وَفِي سَائِرِ الْأَيَّامِ مَائَةً مَرَّةً^٢.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ صَلَّى عَلَيِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَلْفَ مَرَّةٍ لَمْ يَمْتَحِنْ حَتَّى يَرَى مَقْعِدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ^٣.

كيفية الصلاة على محمد وآلها واستحباب الإكثار منها:
 سُئل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: كيف نصلّى على محمد وآلها؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: تقولون: صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد، والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته.

قال السائل: فما ثواب من صلّى على النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الصلوات؟ قال: الخروج من الذنوب والله كهيءة ولدته أمّه^٤.

عن كعب بن عجرة قال: قلت: يا رسول الله، قد علمتنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صلّى على محمد وآل محمد كما

١ - ثواب الأعمال: ١٥٥.

٢ - تهذيب الأحكام ٣: ٤ ح ٩.

٣ - بحار الأنوار ٨٦: ٣٥٨ ح ٣٦، نقلًا عن الشهيد الثاني في رسالة الجمعة.

٤ - معاني الأخبار: ٣٦٧ ح ١، وسائل الشيعة ٧: ١٩٧ ح ٩١٠٠

صلیت علیٰ ابراهیم وآل ابراهیم إِنَّكَ حمید مجید، وبارک علیٰ محمد، وآل
محمد كما بارکت علیٰ ابراهیم وآل ابراهیم إِنَّكَ حمید مجید^۱.

قال الصادق عليه السلام: من صلّى على محمد وآل محمد عشرًا صلّى الله وملائكته
عليه مائة مرة، ومن صلّى على محمد وآل محمد مائة صلّى الله عليه وملائكته
ألفاً، أما تسمع قول الله عزّ وجلّ: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»^٢.

الصلوة البتراء

لا ندري لماذا هذا الاستيحاش من ذكر آل محمد حين الصلاة عليه، وهم أهل البيت الذين نطق الله بفضلهم في آية التطهير، وورد أنهم عدل الكتاب وأحد الثقلين وأنهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، وقد ورد النهي عن الصلاة على النبي من دون ذكرهم عليهم السلام، وسمى تلك الصلاة بالمبتوحة، وهذا وارد في مجامع كتب الحديث المرموقة بالاستفاضة.

وعن الصادق عليه السلام قال: سمع أبي رجلاً متعلقاً بالبيت وهو يقول: اللهم صل على محمد، فقال له أبي عليه السلام: يا عبد الله لا تبترها، لا تظلمنا حقنا، قل: اللهم صل على محمد وأهل بيته .^٣

وقال النبي ﷺ: من قال: صلى الله على محمد وآلـه، قال الله جلـ جلالـه:
صلـ الله عليكـ، فليـكـثـرـ من ذلكـ، ومن قالـ: صـلـ اللهـ عـلـيـ مـحـمـدـ وـلـمـ يـصـلـ

٦٢٦ - الأُمَالِيُّ، لِلصَّدْوَقِ: ٤٧٠ ح

^{٤٣} - الكافي: ٢: ٤٩٤ ح ١٤ والآية في سورة الأحزاب: ٤٣.

٣- الكافي ٢: ٤٩٥ ح

على آله لم يجد ريح الجنة، وريحها يوجد من مسيرة خمسين سنة عام^١.

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ قال: قال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتِ يَوْمِ الْأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ الْكَفَافُ: أَلَا أَبْشِرُكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْبَرْنِي جَبْرِيلُ أَنَّ الرَّجُلَ مَنْ أَمْتَى إِذَا صَلَّى عَلَيَّ، وَأَتَبَعَ الصَّلَاةَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِيِّ، فُتُّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ سَبْعِينَ صَلَاةً، وَأَنَّهُ لَمْذَنْبٌ خَطَّاءٌ، ثُمَّ تَحَاثَ عَنْهُ الذَّنَوبُ كَمَا يَتَحَاثُ الْوَرْقُ مِنَ الشَّجَرِ.

ويقول الله تبارك وتعالى: لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدِيَّكَ، يَا مَلَائِكَتِي أَنْتُمْ تَصْلُونَ عَلَيْهِ سَبْعِينَ صَلَاةً، وَأَنَا أَصْلَى عَلَيْهِ سَبْعِمِائَةَ صَلَاةً، وَإِذَا صَلَّى عَلَيَّ وَلَمْ يَتَبَعْ بِالصَّلَاةِ عَلَى أَهْلِ بَيْتِيِّ، كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاوَاتِ سَبْعُونَ حِجَاباً، وَيَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدِيَّكَ، يَا مَلَائِكَتِي لَا تُصْعِدُوا دُعَاءَهُ إِلَّا أَنْ يُلْحِقَ بِالنَّبِيِّ عَتْرَتَهُ، فَلَا يَزَالْ مَحْجُوباً حَتَّى يُلْحِقَ بِأَهْلِ بَيْتِيِّ^٢.

وعن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَا تَصْلُوا عَلَيَّ صَلَاةً مُبْتَوِّرَةً، بل صَلُّوا عَلَى أَهْلِ بَيْتِيِّ وَلَا تَقْطِعُوهُمْ، فَإِنَّ كُلَّ نَسْبٍ وَسَبْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْقَطِعٌ إِلَّا نَسْبِيٌّ^٣.

وروى ابن حجر في الصواعق المحرقة: قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَصْلُوا عَلَيَّ الصَّلَاةَ الْبَتَرَاءَ، فَقَالُوا: وَمَا الصَّلَاةُ الْبَتَرَاءُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَقُولُونَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَتَمْسِكُونَ، بل قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ^٤.

وقال الشافعي:

١ - الأمازي، للصدوق: ٤٦٢ ح ٦٦.

٢ - روضة الوعظين: ٣٢٣، الأمازي، للصدوق: ٦٧٦ ح ٩١٦.

٣ - وسائل الشيعة: ٧/٢٠٧ ح ٩١٢٧ نقلًا عن: تفسير النعmani.

٤ - الصواعق المحرقة: ٨٧، ينابيع المودة: ١/٣٧ ح ١٤.

يا أهل بيـت رسول الله حـبـكـم
فرضـ من الله في القرـآن أـنـزـلـهـ
كـفـاـكـمـ من عـظـيـمـ الـقـدـرـأـنـكـمـ
من لم يـصـلـ عـلـيـكـمـ لـاـصـلـاـةـ لـهـ^١
نـرجـوـمـنـ القـارـئـ العـزـيزـ الرـجـوعـ إـلـىـ كـتاـبـنـ المـوسـومـ بـالـمـبـاـحـثـ الـمـيـسـرـةـ^٢
لـلاـسـتـفـادـةـ مـمـاـ ذـكـرـ.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـهـ الطـيـبـيـنـ الطـاهـرـيـنـ
المعصومـيـنـ.

١ - مـعـارـجـ الـوـصـولـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ فـضـلـ آـلـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ اللـهـ، لـلـزـرـنـدـيـ الشـافـعـيـ: ٢٥.
٢ - الـمـبـاـحـثـ الـمـيـسـرـةـ: ١٠٤ - ١٠٠.

المبحث التاسع والخمسون: الدين والشريعة والمنهاج والملة والسنة

قال عليه السلام: وَأَرْزُقْنَا عَمَلًا بِطَاعَتِكَ، وَتَوَفَّنَا عَلَى مِلَّتِكَ، وَسُنَّةً نَبِيِّكَ عَلَيْهَا وَاللهُ أَكْبَرُ.

يتوجه الإمام عليه السلام في دعائه إلى ربِّه طالباً الاسترزاق بالأعمال المعتبرة عن الطاعة لله، ويسأله أن يتوفاه على ملته سبحانه، وسنة نبيه الأعظم عليه السلام.

والرُّزْق الشَّمُول بالنعم والمواهب والفيوضات والألطاف الإلهية، ومنه توفيق العبد للإتيان بصالح الأفعال، ولو لا هذا التسديد وتهيئة أسبابه من الله لما استطاع العبد أن يحقق من ذلك شيئاً، والعمل قد يكون حسناً في حد ذاته كمساعدة الفقراء، وإيواء الطريد، وبناء المساجد والمدارس.

لكن ترتب الأجر والثواب يدور مدار القربة وخلوص النية لله، وب بدون ذلك قد يترتب أثر دنيوي، كحسن الذكر أو المجازاة بالنعم الدنيوية، كطول العمر وصحة البدن، أما إذا كان صادراً عن رباء فإن صاحبه يستحق العقاب، لأن الرباء من الكبائر التي أوعده الله عليها دخول النار.

وأما الكلمات التي جاءت في عنوان البحث فشرحها بما يلي:

١. الدين: وهو العقيدة المتمثلة بالنظرة الشاملة في الكون والحياة، ينبع من

منها نظام صالح للحياة، ومن لوازمه ذلك هو المنهاج الذي قوامه قاعدتان:

أ) لا طاعة لមخلوق في معصية الخالق^١.

ب) لا يطاع الله من حيث يعصى^٢.

وقد يعتبر عن الدين بالطاعة والانقياد للشريعة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا إِسْلَامُهُ﴾^٣.

وإذا قيل دين الله، أو دين الحق، فالمراد به الإسلام الذي هو آخر الأديان، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَنْعُونَ﴾^٤.

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَنَعَّمْ بِغَيْرِ إِسْلَامِ دِينِنَا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^٥.

٢. الشريعة: ويقال: الشرع والشريعة، والمراد: رسم الطريق الواضح لسلوكه. ثم استعير للطريقة الإلهية، قال تعالى: ﴿إِلَكُلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾^٦.

قال الراغب في المفردات: فذلك إشارة إلى أمرين أحدهما: ما سخر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحرّاه مما يعود إلى صالح العباد وعمارة البلاد، وذلك المشار إليه بقوله: ﴿وَرَفَقْنَا بِغَضْبِهِمْ فَوْقَ بَعْضِهِمْ دَرَجَاتٍ لِيَتَخَذَ بَغْضُهُمْ بَغْضًا سُخْرِيَّاً﴾^٧.

١ - الأَمَالِيُّ، لِلصَّدَوقِ: ٤٥٢ مِنْ رِسَالَةِ الْحُقُوقِ لِإِلَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ الْأَكْرَامُ.

٢ - أشار إليها محمد حسن النجفي في: جواهر الكلام ٢٢: ٤٦، والجنوردي في: القواعد الفقهية ١: ٢٦٠

٣ - آل عمران: ١٩.

٤ - آل عمران: ٨٣

٥ - آل عمران: ٨٥

٦ - المائدَةَ: ٤٨.

٧ - الزَّخْرَفَ: ٣٢

الثاني: ما قيض له الدين وأمره ليتحرّأ اختياراً مما تختلف فيه الشرائع، ويعرضه النسخ، ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَفْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾^١.

وقال ابن عباس: الشريعة ما ورد به القرآن، والمنهج: ما ورد به السنة^٢ انتهى.
المنهج: الطريق الواضح.

الملة: قال الراغب في المفردات: الملة كالدين: وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أنَّ الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام الذي تسند إليه نحو: ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾^٣، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى أحد أمة النبي ﷺ، ولا تُستعمل إلا في حملة الشرائع دون أحدادها، لا يقال: ملة الله، ولا يقال: ملتني وملة زيد كما يقال: دين الله ودين زيد^٤. انتهى.

يتلخص من ذلك عدّة أمور منها:

١. الدين بالمعنى الأوسع أعم من الشريعة والملة، وهما مترادافان.
٢. الدين هو السنة والطريقة الإلهية العامة لجميع الأمم.
٣. الشريعة تقبل النسخ في بعض أحكامها.
٤. يصح أن نقول: دين الله، ودين المسلمين، ودين زيد، ونقول: شريعة الله، وشريعة النبي، ولا يقال: شريعة زيد وعمرو، أما الملة فقد ذكر الراغب في مفرداته،

١ - الجاثية: ١٨.

٢ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٢٥٨ كلمة شرع.

٣ - آل عمران: ٩٥.

٤ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٤٧١ كلمة ملل.

وأَتَّبَعَ أَثْرَهُ سِيِّدُنَا آيَةُ اللَّهِ الطَّبَاطِبَائِيُّ فِي الْمِيزَانِ حِيثُ يَقُولُ: الْمَلَةُ كَالدِّينِ، وَهُوَ اسْمٌ لِمَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى جُوَارِ اللَّهِ، وَالْفَرَقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدِّينِ أَنَّ الْمَلَةَ لَا تَضَافُ إِلَّا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ، نَحْوَهُ «فَاتَّبِعُوا مِلَةً إِبْرَاهِيمَ»^١.

وَلَا تَكَادُ تَوَجَّدُ مَضَافَةً إِلَى اللَّهِ وَلَا إِلَى أَحَادِ أَمَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي حَمْلَةِ الشَّرَائِعِ دُونَ أَحَادِهَا، لَا يَقُولُ: مَلَةُ اللَّهِ، وَلَا يَقُولُ: مَلَّتِي وَمَلَةُ زِيدٍ^٢ انتهٰى. قَالَ السَّيِّدُ الطَّبَاطِبَائِيُّ^٣: وَالْمَلَةُ إِنَّمَا تَطْلُقُ عَلَيْهَا لِكُونِهَا مَأْخُوذَةً عَنِ الْغَيْرِ بِالْإِتَّبَاعِ الْعَمَليِّ، وَلَعَلَّهُ لِذَلِكَ لَا تَضَافُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا يَضَافُ الدِّينُ وَالشَّرِيعَةُ، يَقُولُ: دِينُ اللَّهِ، وَلَا يَقُولُ: مَلَةُ اللَّهِ^٤ انتهٰى.

وَقَدْ أَيَّدَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ مُجْمُوعَةً مِنَ الْلُّغَوَيْنِ وَأَصْحَابِ الْمَعَاجِمِ مِنْهُمُ الرَّزِيْدِيُّ فِي تَاجِ الْعَرُوسِ^٥، وَالشِّيْخُ فَخْرُ الدِّينِ الطَّرِيْحِيُّ فِي مُجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ^٦. وَلَمْ تَتَطَرَّقْ بِقِيَّةُ الْمَعَاجِمِ لِهَذِهِ النَّقْطَةِ. وَقَدْ اعْتَمَدَ السَّيِّدُ الطَّبَاطِبَائِيُّ عَلَى الرَّاغِبِ فِي مُفَرَّدَاتِهِ وَاعْتَمَدَ رَأِيهِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَلَةَ يُمْكِنُ إِضَافَتَهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ كُنَّا قَدْ وَجَدْنَا فِي الْآثارِ الْمُعْتَبَرَةِ أَنَّهَا لَمْ تَضُفْ إِلَى الْاسْمِ الظَّاهِرِ، بَلْ إِلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ. وَرَدَ فِي الصَّحِيفَةِ السَّجَادِيَّةِ فِي الدُّعَاءِ الثَّانِي قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَأَدَابَ نَفْسَهُ فِي

١ - آل عمران: ٩٥.

٢ - مفردات غريب القرآن، للراغب: ٤٧١ كلمة ملل.

٣ - تفسير الميزان ٥: ٣٥١.

٤ - تاج العروس ١٥: ٧٠٠ كلمة ملل.

٥ - مجمع البحرين ٤: ٢٣٢.

تبليغ رسالتك، وأتعبها بالدعاء إلى ملتك^١.

وورد في الدعاء الرابع والأربعين في الصحيفة السجادية أيضاً: والحمد لله الذي حبانا بدينه واحتضنا بملته، وسبلنا في سبيل إحسانه لنسلكها بِمَنْهِ إلى رضوانه^٢.

وجاء في الدعاء الخامس والأربعين قوله عَلَيْهِ الْكَلَامُ اللَّهُمَّ إِنَا نتوب إِلَيْكَ فِي يَوْمٍ فَطَرَنَا الَّذِي جَعَلَنَا لِلنَّاسِ عِيدًا وَسُرورًا، وَلِأَهْلِ مَلَكَتِكَ مَجْمِعًا وَمَحْتَشِدًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ أَذْنَبَنَا، أَوْ سُوءِ أَسْلَفَنَا^٣.

وورد في الصحيفة السجادية قوله عَلَيْهِ الْكَلَامُ اللَّهُمَّ وَأَيْمًا غَازِي مِنْ أَهْلِ مَلَكَتِكَ، أَوْ مجاهدٌ جَاهَدَهُمْ مِنْ أَتَابِعِ سَنَّتِكَ... إِلَى آخِرِهِ^٤.

وورد في الدعاء قوله عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَتَوَفَّنِي عَلَى مَلَكَتِكَ وَمَلَّةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا تُوقِّيَتِي^٥.

وورد في الدعاء قوله عَلَيْهِ الْكَلَامُ هَدَيْتَنَا لِدِينِكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَنَا، وَمَلَكَتِكَ الَّتِي ارْتَضَيْتَنَا^٦.

وورد في دعاء مكارم الأخلاق، وهو من الأدعية المعتبرة: اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِي

١ - الصحيفة السجادية: ٣١.

٢ - نفسه: ٢٠٩.

٣ - نفسه: ٢٩٩.

٤ - نفسه: ١٣٥.

٥ - نفسه: ١٥٣.

٦ - نفسه: ٢٩٤.

الطريقة المثلثى واجعلنى على ملتك أموت وأحيا^١.

وفي دعاء أبي حمزة الشمالي هذه الجملة التي نحن بصددها: وارزقنا عملاً
بطاعتك، وتوفقنا على ملتك^٢.

أما السنة فهي عدل الكتاب في تشريع الأحكام.

يقول آية الله السيد علي نقى الحيدرى في أصول الاستنباط مانصه: لما جاء
النبي ﷺ بالشرع الحنيف إلى البشر عامة، والشرع هو مجموعة تكاليف وأنظمة
يجب على سائر الناس تطبيقها والسير في حياتهم على نهجها.

فلا جرم أن وجوب عليهم العلم بها ليتسنى لهم العمل بمقتضاهما، وأن
المصادر الأولية للشريعة التي تؤخذ منها الأحكام اثنان، وهما الأول: الكتاب
المجيد الذي هو الدستور الإلهي، وقد جاءت فيه جملة من أمثلات الأحكام في
خمسين آية تقريباً كما ذكر.

الثاني: السنة الشريفة وهي:

أ) أوامر المعصوم ونواهيه وتعليماته التي فاه بها.
ب) أفعاله وأعماله التي قام بها والتي تشعر يا باحتها إلا إذا أتى بها بعنوان
الوجوب أو الاستحباب فتدلى على وجوب ذلك العمل أو استحبابه ما لم يكن
ما أتى به من خصائصه كنواقل الليل ونحوها.

ج) تقريراته التي أقرّ بها من يعمل من أصحابه عملاً بمحضر ومنظر منه، فإذا
لم يجد المكلف بغيته من الأحكام في ظواهر الكتاب، وما تمكّن من الوصول

١ - الصحفة السجادية: ١١٤، مفاتيح الجنان المعرّب: ١٥.

٢ - الصحفة السجادية: ٢٢١.

إليه من السنة، فإن كان الفقهاء إن اتفقوا على فتوى في ذلك الشيء وجب عليه الأخذ بجماعهم، إما لأن الأمة لا تتفق على الخطأ، أو لاستكشاف قول المقصوم من اتفاقهم، كما سيأتي بيانه، فإن لم يكن إجماع في الحكم وجب عليه العمل بما يقتضيه العقل من الأصول العملية.

فمثلاً إذا لم يجد حكم التدخين في الكتاب والسنة والإجماع فيرجع فيه إلى العقل الحاكم بقبح العقاب بلا بيان، فيلزم منه لأنه لم يُنَهَ عنه في الكتاب والسنة، فلا بيان واصل من قبل الشارع فيحكم العقل بإباحته وبراءة الذمة من التكليف بحرمته. فاتضح من هذا أن استخراج الأحكام الشرعية إنما يكون من أحد هذه المنابع الأربع: الكتاب والسنة والإجماع وحكم العقل^١ انتهى.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

تتمة في بر الوالدين

قال عليه السلام: اللهم فصل على محمد وآلـه وأغفر لي ولوالدي وازحـمـهما كما زـيـاني صـغـيراً، واجـزـهما بـالـإـحـسـانـ إـحـسـانـاً وـبـالـسـيـئـاتـ غـفـرانـاً، اللـهـمـ اـغـفـرـ لـلـمـؤـمـنـاتـ وـالـمـؤـمـنـاتـ وـالـمـسـلـيمـينـ وـالـمـسـلـيمـاتـ، الـأـحـيـاءـ مـنـهـمـ وـالـأـمـوـاتـ، وـتـابـعـ بـيـئـنـا وـبـيـئـنـهـمـ بـالـخـيـراتـ اللـهـمـ اـغـفـرـ لـحـيـنـا وـمـيـتـنـا، وـشـاهـدـنـا وـغـائـبـنـا، ذـكـرـنـا وـأـثـانـاـ، صـغـيرـنـا وـكـبـيرـنـا، حـرـنـا وـمـمـلـوكـنـا، كـذـبـ العـادـلـونـ بـالـلـهـ وـضـلـلـوـاـ ضـلـلـاـ بـعـيدـاـ، وـخـسـرـاـنـاـ مـبـيـناـ.

تطـرقـناـ فـيـ المـبـحـثـ التـاسـعـ لـنـبذـةـ عـنـ بـرـ الـوـالـدـينـ، وـنـعـودـ ثـانـيـةـ لـنـضـيفـ بـعـضـ

الفوائد مما اقتبسناه من الآثار المعتبرة، وقبل ذلك لا بد من المرور على بعض المسائل الشرعية، فقد جاء في كتاب المسائل الشرعية في المسألة رقم ٢: هل تجب طاعة الوالدين في كل شيء لم ينه الشارع عنه، وحتى في مثل الأمر بطاعة الغير؟

الجواب: لا تجب طاعة الوالدين في كل شيء، وإنما الواجب على الولد هو حسن معاشرتهما بالمعروف.

مسألة ٣٧: إذا أمرت الوالدة ولدها بتطليق زوجته، فهل يجب عليه إطاعتها، وما الحكم لو قالت له: إن لم تطلق زوجتك فأنت عاقد؟

الجواب: لا يجب عليه إطاعتها في ذلك، وعليه فالكلمة المزبورة لا أثر لها.^١ إن الإسلام دين اجتماعي في نظرته الشاملة للحياة وتشريعاته التي تنظم أمور الإنسان، فقد أولى مسألة الحقوق المتبادلة أهمية كبيرة، ومنها قضية حقوق الوالدين على الأولاد، فقد أمر الله سبحانه بالإحسان إليهما ورعايتهما، وأنزل في ذلك قرآنًا يتلى إلى يوم القيمة إعظاماً لشأنهما.

إن الولد مأمور بحمل الحب والشفقة والرأفة في قلبه تجاه والديه، وهذه مسألة فطرية لأنهم أصل وجوده، وأن يقابل جهودهما وأتعابهما بالشكر والامتنان من باب وجوب شكر المنعم، فإن من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق.

والولد مطالب بتقديم فروض الطاعة بالمعروف لهما وحسن معاشرتهما، وترك ما يغضبهما ويؤذيهما، وعليه احترام والديه في المعاملة، فلا يقاطعهما إذا تكلما، ولا يرفع صوته فوق صوتهم، ولا يسيء معاملتهم.

١ - المسائل الشرعية، استفتاءات ٢: ٢٢٠ للسيد الخوئي متوفى.

وعليه وجوب الإنفاق عليهم إذا كانا في حاجة من مأكل ومشروب وملبس ومسكن وتطيب وغيرها من النفقات الضرورية.

ورد في رسالة الحقوق لسيدنا الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قوله: وأما حق أمك فأن تعلم أنها حملتك حيث لا يحمل أحد أحداً، وأعطيك من ثمرة قلبها ما لا يعطي ولا يطعم أحد أحداً، ووَقْتُك بجميع جوارحها، ولم يُبَالِ أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحي وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقْتُك الحر والبرد لتكون لها، وأنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك، فإنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك، ولا حول ولا قوّة إلا بالله^١.

ثم يطلّ علينا الإمام علي بن الحسين عليهما السلام من نافذة القدسية والأدب من شرفة من شرفات الصحيفة السجادية التي هي زبور آل محمد بحق وجدارة، وهو يدعوا لأبويه قائلاً:

اللهم صلّى على محمد عبدك ورسولك، وأهل بيته الطاهرين، واصحصهم بأفضل صلواتك ورحمتك وبركاتك وسلامك، واصحص اللهم والدي بالكرامة لديك والصلة منك يا أرحم الراحمين. اللهم صلّى على محمد وآلـهـ، وألـهـمنـيـ علمـ ماـ يـجـبـ لـهـماـ عـلـيـ إـلـهـاماـ،ـ وـاجـمـعـ لـيـ عـلـمـ ذـلـكـ كـلـهـ تـمـاماـ،ـ ثـمـ اـسـتـعـمـلـنيـ بـمـاـ تـلـهـمـنـيـ مـنـهـ،ـ وـوـقـنـيـ لـلـنـفـوذـ فـيـمـاـ تـبـصـرـنـيـ مـنـ عـلـمـهـ حـتـىـ لـاـ يـفـوتـنـيـ اـسـتـعـمـالـ

١- الأمازي للصدوق: ٤٥٣ رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليهما السلام.

شيء علّمتنيه، ولا تُتَّصل أركانني عن الحُفوف فيما أهْمِتنيه.
 اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف^١، وأبرهما بـرّ الأم الرؤوف^٢،
 واجعل طاعتي لوالدي، وبرّي بهما أقرّ لعيني من رقدة الوسنان، وأثليج لصدرِي
 من شربة الظمان، حتّى أؤثر على هواي هواهما، وأقدم على رضائي رضاهما،
 وأستكثر برّهما بي وإن قلّ، وأستقلّ برّي بهما وإن كثُر، اللهم خفّض لهما
 صوتي، وأطّب لهما كلامي، وألن لهم عريكتي، وأعطف عليهم قلبي، وصيّرني
 بهما رفيقاً، وعليهما شفيفاً^٣.

ورد عن علي عليه السلام قوله: البار يطير مع الكرام البررة، وإن ملك الموت يبتسم
 في وجه البار، ويكلح في وجه العاق^٤.

وقال عليه السلام: بر الوالدين أكبر فريضة، بروا آباءكم يبرّكم أبناءكم، ومن برّ والديه برّ
 ولده.

وقال النبي عليه السلام: إياكم ودعوة الوالد فإنها تُرفع فوق السحاب حتّى ينظر الله
 إليها، فيقول: ارفعوها إلى حتّى أستجيب لها، فإياكم ودعوة الوالد فإنها أحد من
 السيف^٥.

وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: إن فوق كل برّا حتّى يقتل الرجل

١ - العسوف: الظلوم، مختار القاموس ٤٢٢. الرؤوف: يقال رَتَمَت الناقة ولدها: عطفت عليه، فهي
 رؤوف. مختار القاموس ٢٣٤. الحفوف.

٢ - نفسه.

٣ - الصحيفة السجادية: ١٢٥، الدعاء (٦٣).

٤ - مستدرك الوسائل ١٥: ١٧٦ ح ١٧٩١٩.

٥ - مستدرك الوسائل ٥: ٢٥٦ ح ٥٨١٣ نقلأً عن الجعفريات، بحار الأنوار ٧١: ٨٤ ح ٩٤.

شهيдаً في سبيله، فوق كل ذي عقوبة حتى يقتل الرجل أحد والديه^١.
وقيل للإمام علي بن الحسين عليهما السلام: أنت أب الناس، ولا نراك تواكل أمك؟
قال عليهما السلام: أخاف أن أمد يدي إلى شيء وقد سبقت عينها عليه، فأكون قد
عققتها^٢.

وقال رجل لرسول الله عليهما السلام: والدتي بلغها الكبر وهي عندي الآن، أحملها على
ظهرى، وأطعمها من كسبى، وأميط عنها الأذى بيدي، وأصرف عنها مع ذلك
وجهي استحياءً منها، وإعظاماً لها، فهل كافتها؟

قال عليهما السلام: لا، لأن بطنها كان لك وكاءاً، وثديها كان لك سقاءاً، وقدمها لك
حذاها، ويدها لك وقاها، وحجرها لك حواها، وكانت تصنع ذلك وهي تتمتى
حياتك، وأنت تصنع هذا بها وتحب مماتها^٣.

ورد في الآثار المعتبرة أن موسى عليهما السلام قال: يا رب أرني رفيقي في الجنة، فقال
سبحانه: يا موسى، إن أول رجل يصادفك هو رفيقك في الجنة، فخرج عليهما السلام
صادف شاباً وسيماً في الطريق، فسأله عن عمله، فقال بأنه جزار.

فذهب موسى مع ذلك الشاب إلى محل كسبه، فوجده يتعامل مع الناس
بالشكل الشرعي الصحيح، وحين انتصف النهار أخذ شيئاً من اللحم وأراد
التوجه إلى البيت، فسألته موسى عليهما السلام عن وجهته، فقال: إني أخذ هذا اللحم إلى
البيت.

فطلب عليهما السلام منه أن يستضيفه، فوافق الرجل، وذهبا ودخلا البيت، فتووجه

١ - النوادر، للسيد الرواندي: ٩٢، بحار الأنوار ٧١: ٨٣ ح ٩٤.

٢ - مكارم الأخلاق، للطبرسي: ٢٢١، وسائل الشيعة ٢٤: ٢٦٤ ح ٣٥٠٣.

٣ - مستدرك الوسائل ١٥: ١٨٠ ح ١٧٩٣٢ نقلًا عن الكوفي في: كتاب الأخلاق.

الشاب إلى شيخ هرم متهدّم كأنه رمة بالية، فغسل يديه ورجليه، وأماط الأذى عنه، وببدأ يلطفه. وبعد أن نضج الطعام أخذ يطعمه، والأب يدعوه قائلاً: اللهم اجعل ولدى رفيق عبدك ورسولك موسى بن عمران عليه السلام.

فَسَأَلُوهُمَا مُوسَى عَلَيْهِ الْكَلَامُ: هَلْ تَعْرِفَانِ مُوسَى؟ فَقَالَا: لَا، وَلَكُنْهُ نَبِيٌّ هَذِهِ الْأُمَّةُ،
فَقَالَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ: أَنَا مُوسَى بْنُ عُمَرَانَ، وَقَدْ جَئْتُكُمْ بِالْبُشْرَى بِرْفَقِي فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ
الشَّابُّ: مَنْ أَخْبَرَكَ بِهَذَا؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ: جَبْرائِيلُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ أَخْبَرَنِي. فَعَلِمَ مُوسَى عَلَيْهِ الْكَلَامُ أَنَّ
سَبِبَ ذَلِكَ هُوَ بَرَّهُ بِوَالِدِهِ.

ومن بــالولد بــوالده ما ذــكره الفــقهاء في رســائلهم العمــلية:
يجب على ولــي المــيت، وهو الــولد الذــكر الأــكبر حال الموت أن يــقضــي ما فــات
أــباء من الفــرائض الــيومــية وغيرها، لــعذرــ من مــرض وــنحوــه، ولا يــبعــد اــختصاصــ
وــجوب القــضاء بما إــذا تمــكــن أبوــه من قــضائــه ولم يــقــضــه، والأــحــوط استــحــبابــاــ
إــلــاحــاقــ الأــكــبــرــ الذــكرــ في جــمــيع طــبقــاتــ المــوارــيثــ على التــرتــيبــ في الإــرــثــ بالــابــنــ،
وــالأــحــوط اــحتــياطــاــ لا يــتــركــ إــلــاحــاقــ ما فــاتــه عــدــماــ، أو أــتــىــ به فــاســداــ بما فــاتــه من عــذرــ،
وــالأــولــىــ إــلــاحــاقــ الــأمــ بــالــأــبــ .

والمؤسف أنَّ كثيراً من الأولاد لم ينفذوا وصايا آبائهم فسرقوا حتى الثلث
الموصى به للعبادات والمبارات والمشاريع الخيرية، وقد صدق الأئمة عليهم السلام حين
قالوا: كن وصي نفسك^٢.

^١ - منهاج الصالحين، للسيد الخوئي، ١: ٢٠٤ مسألة ٧٣٧.

^٢- الكافي ٧: ٦٥ ح ٢٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٥٦ الحكمة: ٢٥٤.

المبحث السادس: في الاستغفار

الغفران والمغفرة من الله أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

والاستغفار: طلب ذلك بالمقابل والفعال.

فقد قيل: الاستغفار باللسان من دون ذلك بالفعال فعل الكاذبين.

الإيمان: ويستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^١.

ويقال لك كل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح: إيمان.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^٢.

يعود صاحب الدعاء عليه السلام بعد طلب المغفرة لنفسه ولوالديه والدعاء لهما، يعود للاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، ويسأل الله تعالى متابعة الخيرات بينه وبينهم.

١ - الحديث: ١٩.

٢ - البقرة: ١٤٣.

٣ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٢٦ والآية في سورة البقرة: ١٤٣.

إن الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات يشد أواصر المجتمع ويوحده ويصهره في بوتقة الإيمان، ويقود مسيرة الصالحين تحت راية التوحيد. الاستغفار هنا للأحياء ممن نعايشهم ونشاركهم شؤون الحياة بكل آلامها وأمالها، وللأموات الذين فارقونا إلى لقاء ربهم، وسبقونا إلى عالم الخلود، وهذا يشير إلى عدم انقطاع الوسائل والصلات الإنسانية بين الأحياء والأموات، بل هم أسرة واحدة ستلتقي بعد فراق، والحي يدعى للميت ويستغفر له من باب البر والإحسان بعنوان القرابة. والميت كذلك يدعى من يذكره بصلة أو هدية أو دعاء أو عبادة.

قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^١، وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْرَانَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^٢.

وقد ورد في الآثار المعتبرة أن الاستغفار يجعل صدأ القلب^٣، ويجلب الرزق، ويزيل الفقر^٤، وأنه أفضل الدعاء^٥.

ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: الاستغفار مثل ورق على شجرة تتحرك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه^٦.

وعن الصادق عليه السلام قوله: إذا أكثر العبد من الاستغفار رُفعت صحيفته وهي تتلاألأ^٧.

١ - إبراهيم: ٤١.

٢ - الحشر: ١٠.

٣ - بحار الأنوار ٧٤: ١٧٢ ح ٨

٤ - تحف العقول: ١٠٦، الخصال: ٦١٥.

٥ - الكافي ٢: ٥٠٤ ح ١.

٦ - نفسه ٢: ٥٠٤ ح ٣.

٧ - نفسه ٢: ٥٠٤ ح ٢.

وقال عليه السلام: إن الله بالتوبة والاستغفار يبدل ما في صحيفته من السيئات كلها بالحسنات^١.

وعنه عليه السلام: من استغفر الله في كل يوم سبعين مرة غفر له سبعمائة ذنب، ولا خير في عبد يذنب كل يوم أكثر من سبعمائة ذنب^٢.

وقال عليه السلام: طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيمة تحت كل ذنب: أستغفر الله^٣.

وقال النبي عليه السلام: لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار^٤.
وعن الصادق عليه السلام قال: إن رسول الله عليه السلام كان لا يقوم من مجلس وإن خف حتى يستغفر الله خمساً وعشرين مرّة^٥.

وقال النبي عليه السلام: عودوا ألسنتكم الاستغفار، فإن الله لم يعلمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم^٦.

وقال عليه السلام: إن للقلوب صدأ النحاس فاجلوها بالاستغفار وتلاوة القرآن^٧.

إن الاستغفار له دور كبير في تصفية القلوب وتنقية البواطن من كدورات

١ - بهذا المضمون في: ثواب الأعمال: ٤.

٢ - الكافي ٢: ٤٣٩ ح ٤٣٩، وسائل الشيعة ١٦: ٨٥ ح ٢١٠٤٩.

٣ - ثواب الأعمال: ١٦٥، مكارم الأخلاق: ٣١٣.

٤ - ثواب الأعمال: ١٦٤.

٥ - الكافي ٢: ٥٠٤ ح ٤.

٦ - الدعوات: ٣١ ح ٦٤.

٧ - علة الداعي: ٢٤٩، بحار الأنوار ٧٤: ١٧٢ ح ٨

المادية والأنانيات وإطفاء سعف الشهوات والنزوات، وله آثار وضعية على حياة الإنسان.

قال النبي ﷺ: من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل غم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب^١.

وقال النبي ﷺ: خير الدعاء الاستغفار^٢.

وقال علي عليه السلام: تعطروا بالاستغفار لئلا تفضحكم رواحة الذنب^٣.

وعنه عليه السلام: العجب ممن يقنط ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار^٤.

وقال النبي الكريم ﷺ: ثلاثة أصوات يحبها الله عزوجل: صوت الديك، صوت الذي يقرأ القرآن، صوت المستغرين بالأسحار^٥.

وقال الشعبي: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: العجب لمن يقنط ومعه الممحة، قيل: وما الممحة؟ قال: الاستغفار^٦.

وعن الربيع بن صبيح أن رجلاً أتى الحسن بن علي عليهما السلام فشكى إليه الجدوبة، فقال له الحسن عليه السلام: استغفر الله، وأتاه آخر فشكى إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وأتاه آخر فقال له: ادع الله أن يرزقني ابنًا، فقال له: استغفر الله، فقلنا له: أتاك

١ - علة الداعي: ٢٤٩، وسائل الشيعة: ٧: ١٧٧ ح ٩٠٥١

٢ - الكافي: ٢: ٥٠٤ ح ١.

٣ - الأمازي، للطوسي: ٣٧٢ ح ٨٠٩

٤ - مكارم الأخلاق، للطبرسي: ٣١٣.

٥ - مكارم الأخلاق، للطبرسي: ٣١٣.

٦ - الأمازي، للطوسي: ٨٨ ح ١٣٤.

رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار !

فقال: ما قلت ذلك من ذات نفسي، إنما اعتبرت فيه قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِكُلِّ أَنْهَارٍ﴾ .
﴿رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا * يُرِسِّلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ .^٢

فضل الدعاء للمؤمنين والمؤمنات

عن الصادق عليه السلام قال: من قال كل يوم خمساً وعشرين مرة: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات وال المسلمين والMuslimات، كتب الله له بعد كل مؤمن مضى وبعد كل مؤمن بقي إلى يوم القيمة حسنة، ومحاج عنه سيئة، ورفع له درجة .^٣

وقال النبي عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ : ما من مؤمن دعا للمؤمنين والمؤمنات إلا رد الله عزوجل مثل الذي دعا لهم به من كل مؤمن ومؤمنة مضى من أول الدهر أو هوأت إلى يوم القيمة، إن العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيمة فيُسحب، فيقول المؤمنون والمؤمنات: يا رب هذا الذي كان يدعونا فشققنا فيه، فيشقق لهم الله عزوجل فيه فينجو .^٤

وقال حماد: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أشغل نفسي بالدعاء لأخواتي ولأهل الولاية، فما ترى في ذلك؟

فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى يستجيب دعاء غائب لغائب، ومن دعا

١ - تفسير مجتمع البيان ١٠: ١٣٣.

٢ - نوح: ١٠ - ١٢.

٣ - الأمازي، للصدوق: ٤٦٢ ح ٦١٧.

٤ - الكافي ٢: ٥٠٧ ح ٥.

للمؤمنين والمؤمنات ولأهل موئذنا، رد الله عليه من آدم إلى أن تقوم الساعة لكل مؤمن حسنة، ثم قال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى فرض الصلاة في أفضل الساعات، فعليكم في أدبار الصلوات، ثم دعا لي ولمن حضره^١.

وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعوا أخيه المؤمن بظاهر الغيب أو يذكره بخير، قالوا: نعم الأخ أنت لأخيك تدعوه بالخير وهو غائب عنك، وتذكره بخير، قد أعطاك الله عزوجل مثلين ما سألت له، وأثنى عليك مثلين ما أثنيت عليه ولك الفضل عليه^٢.

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: أوشك دعوة وأسرع إجابة دعاء المرء لأخيه بظاهر الغيب^٣.

وروي أن الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: ادعني على لسانِ لم تعصني به، قال: يا رب أئني لي بذلك؟ قال جل وعلا: ادعني بلسان غيرك^٤.

وفي الحديث القدسي، قال الله تعالى: يا موسى، ادعني بلسان لم تعصني به، قال: يا رب كيف ذاك ولساني قد عصيتك به؟ قال: اطلب من إخوانك الدعاء فإنك لم تعصني بلسان أحد منهم^٥.

بل ورد في الأخبار استحباب التعميم في الدعاء، فقد ورد عن النبي عليهما السلام: إذا

١ - تفسير القمي ١: ٦٧.

٢ - الكافي ٢: ٥٠٨ ح ٧.

٣ - نفسه ٢: ٥٠٧ ح ١.

٤ - علة الداعي: ١٢٠.

٥ - نفسه : ١٤٤، بحار الأنوار ٩٠: ٣٤٠.

دعا أحدكم فليعقم فإنه أوجب للدعاء^١.

وعنه عليهما السلام: من صلّى بقوم فاختص نفسه بالدعاء دونهم فقد خانهم^٢.

وقد وردت روايات معتبرة في استحباب الصلاة عن الميت والدعاء والاستغفار له، فعن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليهما السلام: نصلّى عن الميت؟ فقال عليهما السلام: نعم، حتى إنه ليكون في ضيق فيوسع الله عليه ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له: خفف عنك هذا الضيق بصلة فلان أخيك عنك. ثم قال: فقلت: فأشرك بين رجلين في ركعتين؟ قال: نعم. ثم قال عليهما السلام: إن الميت ليفرح بالترحم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تهدي له^٣.

وعنه عليهما السلام: يدخل على الميت في قبره الصلاة والصوم والحجّ والصدقة والبر والدعاء، ويكتب أجره للذي يفعله وللميت^٤.

وقال عليهما السلام: من صلّى من المسلمين عن ميت عملاً صالحًا أضعف الله له أجره ونفع الله به الميت^٥.

وفي مجموعة وراثم بن أبي فراس، قال الصادق عليهما السلام: إذا قرأ المؤمن آية الكرسي وجعل ثواب قراءتها لأهل القبور، جعل الله تعالى له في كل حرف ملكاً يسبح له إلى يوم القيمة^٦.

١- الكافي ٢: ٤٨٧ ح ١.

٢- من لا يحضره الفقيه ١: ٤٠٠ ح ١١٨٧.

٣- نفسه ١: ١٨٣ ح ٥٥٤.

٤- نفسه ١: ١٨٥ ح ٥٥٧.

٥- نفسه ١: ١٨٥ ح ٥٥٦.

٦- وسائل الشيعة ٣: ٢٠٠ ح ٣٤٠٢.

وورد استحباب قراءة إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ سَبْعَ مَرَّاتٍ عَلَى قَبْرِ الْمُؤْمِنِ،
إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَمِنَ مِنَ الْفَزْعِ الْأَكْبَرِ^١.

ووردت أحاديث معتبرة في زيارة قبر المؤمن وقبور الأرحام والدعاء والاستغفار
لهم، وقراءة القرآن:

عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الموتى نزورهم؟
قال: نعم. قلت: فيعلمون بما إذا أتيناهم؟ فقال: إِنَّمَا يَعْلَمُ لِمَنْ يَعْلَمُ بِكُمْ
ويفردون بكم، ويستأنسون إليكم^٢.

وعنه عليه السلام قال: إنهم يأنسون بكم، فإذا غبت عنهم استوحشوا^٣.
وعن علي عليه السلام قال: زوروا موتاكم فإنهم يفردون بزيارتكم، ولنطلب أحدكم حاجته عند قبر أبيه وعند قبر أمه بما يدعولهما^٤.

ثم يعود عليه لتکذیب العادلين بالله والاعتراف بضلالهم وخسارتهم.
قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾^٥.

والمراد أنهم يجعلون له عديلاً يساويه في التدبير والأفعال، بعد أن عرفوا أنه سبحانه متوحد في الخلق والتدبير، لقد قادتهم سفاهتهم إلى عبادة الأصنام والأوثان ليتخذوها شفعاء تقربهم إلى الله زلفى بزعمهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين

١ - ثواب الأعمال: ١٩٩.

٢ - من لا يحضره الفقيه ١: ١٨١ ح ٥٤٠.

٣ - الكافي ٣: ٢٢٨ ح ١.

٤ - الكافي ٣: ٢٣٠ ح ١٠.

٥ - الأنعام: ١.

المعصومين.

في الختم بالخير

قال عليهما السلام: اللهم صل على محمد وآل محمد، واحسّن لي بخیر، واعفني ما أهمني من أمر دنياي وأخرتني ولا تسلط عليَّ من لا يرحمني، واجعل عليَّ منك جنة واقية باقية، ولا تسلبني صالح ما أنعمت به عليَّ، وزرني من فضلك رزقاً واسعاً حلاً طيباً، اللهم احرسني بحراستك، واحفظني بحفظك، وأكلني بـكلاةتك، وزرني حجَّ بيتك الحرام في عامي هذا وفي كلِّ عام، وزيارَة قبر نبيك والأئمة عليهم السلام، ولا تخلي من تلك المشاهد الشريفة، والمواقف الكريمة.

وهي: صان وحفظ وستر عن الأذى، والواقية: كل ما يقي ويحفظ.

كلا: حفظ الشيء وأبقاءه، والـكلاة: حفظ الشيء وتبقيته، قال تعالى: «فُلْ مَن يَكْلُؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ»^١.

تبتدئ هذه الفقرة بالصلاحة على محمد وآل محمد، وقد ندبت الآثار إلى كثرة الصلاة عليهم، والابداء والختم بهم لاستحباب الدعاء ببركة الصلاة عليهم. نرجو القارئ العزيز مراجعة المبحث الثامن والخمسين من هذا الكتاب، ونرجوه مراجعة كتابنا الموسوم بالمباحث الميسرة، حيث عقدنا فصلين حول الصلاة على محمد وآل محمد.

ثم يسأل الله سبحانه أن يختم له حياته بخير وطاعة، وحسن عاقبة لنيل رضوان الله، إما ميتة على إيمان أو يinal رزق الشهادة في سبيل الله.

ولعل سائلاً يسأل: هل يجوز للإنسان أن يدعو على نفسه بالموت؟

والجواب: لا يجوز له ذلك.

إذن كيف يدعو الإنسان المؤمن ربّه لينال الشهادة وهي من مصاديق الموت؟

والجواب هو أنَّ الإنسان يسأل التوفيق ليبذل أقصى طاقاته في سبيل الدفاع عن دينه وكرامته ومقدساته، إنَّه يريد أن يعطي الله كلَّ شيء، وذلك قد لا يتحقق إلَّا بالشهادة.

ويسائل الداعي ربّه أن يتکفل بكفایته وتولى أمره في شؤون الدنيا والآخرة، وأن لا يسلط عليه أصحاب القلوب القاسية، والضمائر الميتة، ومن ثرعت الرحمة من قلوبهم. ويسائله أن يحفظه من كلَّ سوء وبلاء، فإنه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، وأن يرزقه حجَّ بيته الحرام، وزيارة قبر النبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ والأئمَّة الطاهرين عَلَيْهِمُ الْكَلَمُونَ.

وقد تحدَّثنا عن موضوع الحجَّ في المبحث السادس والخمسين من هذا الكتاب، والمبحث السابع من كتابنا الموسوم بالمباحث الواضحة^١.

وتحدَّثنا في المبحث السابع والخمسين من هذا الكتاب عن زيارة قبر النبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ، وقبور الأئمَّة عَلَيْهِمُ الْكَلَمُونَ فليراجع.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينِ الطَّاهِرِينِ المعصومين.

١ - المباحث الواضحة، للمؤلف: ٢٦٨ - ٣٠٨

المبحث الحادي والستون: الخوف والخشية

قال عليهما السلام: اللهم تب علني حتى لا أغصيتك، وألهمني الخير والعمل به، وخشيتك بالليل والنهار ما أبغضتني يا رب العالمين.

يتوجه الداعي عليهما السلام إلى ربه لقبول توبته حتى يفرق بينه وبين المعاشي، وما ذلك إلا بالتوفيق والتسديد منه سبحانه، ويسأله أن يلهمه الخير ويوفقه للعمل به ليكون زاده ليوم معاذه، وأن يمنحه الخشية من الله ما دام على قيد الحياة. لقد تحدثنا عن التوبة في المبحث السادس والعشرين من هذا الكتاب، وعن مبحث الخير في المبحث السابع منه، نرجو المراجعة.

فوائد لغوية

الإلهام: إلقاء الشيء في الرّوع، ويختَضُ بما كان من جهة الله تعالى، وجهة الملأ الأعلى. قال تعالى: «فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»^١.

وروي عن النبي الأعظم عليهما السلام قوله: إنَّ روح القدس نفت في رُوعي أنَّ نفَسَانَ تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب^٢.

١ - الشمس: ٨

٢ - مسنن الشهاب، لابن سلامة ٢: ١٨٥ ح ١١٥١

الوحي: الكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه، وقد يكون بمعانٍة الملك، أو سماع الصوت، أو الرؤيا الصالحة، أو الإلقاء في الرُّوع. وقد يكون الوحي والإيحاء من الشيطان وهو الوسوس.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُونَ إِلَيْ أَفْلَيَّا هُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾^١.

التوبة: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزم على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة.

الخوف: توقع مكرور عن أمارة مظنونة أو معلومة، وهو ضد الأمان. وهو انفعال نفسي عن توقع الخطر، وهو ممدوح عند الاعتدال، أما إذا كان عن إفراط فهو الجبن، وإن كان عن تفريط فهو التهور، وكلاهما مذموم. والخوف قسمان:

١. موضوعي ناشئ عن مواقف حقيقة تهدّد حياة الإنسان أو عرضه أو ماله أو مقدساته مثلاً.
 ٢. غير موضوعي: وهو ناتج عن تصورات خاطئة لا تهدّد بأخطار حقيقة، كما لو خاف من الظلم أو من وجود ميت بجانبه.
- والخوف ليس مذموماً على الإطلاق إلا إذا كان صادراً عن جبن وانهزامية، أما الخوف الذي يكون دافعاً وحافزاً للحذر واليقظة أو المبادرة إلى دفع المكرور فهو أمر محمود.
- والخوف الذي وصف الله به بعض أنبيائه فهو خوف حزم لا خوف جبن.

قال سبحانه وتعالى عن نبيه موسى عليه السلام: «فَأَضْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَرْقُبُ»^١.
 وقال في إبراهيم عليه السلام: «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخْفَ وَبَشِّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ»^٢.
 والخوف من الله تعالى أمر محمود على الإطلاق، قال تعالى: «وَآمَّا مَنْ خَافَ
 مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى»^٣.

قال الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ»^٤، قال:
 من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمل من خير أو شر في حجزه ذلك
 عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربها ونهى النفس عن الهوى^٥.
 الخشية: خوف يشوبه تعظيم، فأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه،
 ولذلك خص العلماء بها في قوله: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»^٦.

والخشية الحقيقة لا تليق إلا من الله، وقد أشارت عشرات من الآيات إلى
 ذلك: قال تعالى: «وَلَا يَخْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ»^٧.

أما الخشية من الناس فأمر مذموم. قال سبحانه: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا
 فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً»^٨. وقد ندب الشارع المقدّس
 إلى ترسیخ ملكة الخشية من الله لكونها أكبر رادع من الوقوع في المحرمات

١ - القصص: ١٨.

٢ - الذاريات: ٢٨.

٣ - النازعات: ٤٠ - ٤١.

٤ - الرحمن: ٤٦.

٥ - الكافي ٢: ٧٠ ح ١٠.

٦ - فاطر: ٢٨.

٧ - الأحزاب: ٣٩.

٨ - النساء: ٧٧.

والمعاصي.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى، هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، واكحل عينيك بميل الحزن إذا ضحك البطّالون، وقم على قبور الأموات فنادهم برفع صوتك لعلك تأخذ موعظتك منهم وقل: إني لاحق في اللاحقين^١.

وقال علي عليه السلام: إن عباد الله كسرت قلوبهم من خشية الله، فأمسكتهم عن النطق، وإنهم لفصحاء أبناء، يسبقون إليه بالأعمال الصالحة الزاكية، لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون بالقليل، يرون في أنفسهم أنهم أشرار، وأنهم لأكياس أبرار^٢.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى، ما تزيّن إلى المتنزّيون بمثل الزهد في الدنيا، وما تقرب إلى المتقربون بمثل الورع من خشيتي، وما تعبد لي المتعبدون بمثل البكاء من خيفتي، فقال موسى عليه السلام: يا رب، بما تجاريهم على ذلك؟ فقال: أما المتنزّيون بالزهد فإنّي أبيح لهم جنتي، وأما المتقربون بالورع عن محارمي فإنّي أدخلهم جناناً لا يشركهم فيها غيرهم، وأما البكاؤون من خيفتي فإنّي أفتّش الناس ولا أفتّشهم حباءً منهم^٣.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي، عليك بالبكاء من خشية الله، يبني لك بكل قطرة بيّنا في الجنة^٤.

١ - الأمالى، للمفيد: ٢٣٧ ح ٧.

٢ - تحف العقول: ٣٩٤، وسائل الشيعة ١٢: ١٩٩ ح ١٦٠٧٨.

٣ - ثواب الأعمال: ١٧٢.

٤ - الكافى ٨: ٧٩ ح ٣٣.

وقال عليهما السلام: لوأنَّ باكيًّا بكى في أُمَّةٍ لرحم الله تلك الأُمَّة لبكائه^١.

وقال عليهما السلام: إذا أحبَّ الله عبداً نصب في قلبه نائحة من الحزن، فإنَّ الله تعالى يحب كلَّ قلب حزين، وإذا أبغضَ الله عبداً نصب له في قلبه مزماراً من الضحك، وما يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع، ولم يجتمع غبار في سبيل الله ودخان من جهنم في منخري مؤمن أبداً^٢.

وقال عليهما السلام: البكاء من خشية الله يطفئ بحراً من غضب الله^٣. وقال عليهما السلام: لا ترى النار عينَ بكت من خشية الله، ولا عين سهرت في طاعة الله، ولا عين غضت عن محارم الله^٤.

وقال عليهما السلام: إذا بكى العبد من خشية الله تعالى تحاثت عنه الذنوب كما يتحاث الورق، فيبقى كيوم ولدته أمه^٥. وقال موسى عليهما السلام: أين أجدك يا رب؟ قال: تجدني عند القلوب المنكسرة، والقبور المندرسة. وقال الصادق عليهما السلام: إذا اشعرَ جلدك، ودمعت عيناك، ووجل قلبك، فدونك دونك، فقد قصد قصداك^٦.

وقال أبو الدرداء: سمعت علياً عليهما السلام ينادي ربه في السرّ قائلاً: إلهي أفكَّ في عفوك فتهون على خطئتي، ثمْ أذكر العظيم من أخذك فتعظم

١ - الكامل، لعبد الله بن عدي ٢: ٨٥ ح ٣٠٥.

٢ - إعلام الدين في صفات المؤمنين، للديلمي: ٢٧٦.

٣ - بالمضمون في الكافي ٢: ٤٨٢ باب البكاء.

٤ - إرشاد القلوب: ٩٧، مستدرك الوسائل ١١: ٢٤٦.

٥ - إرشاد القلوب: ٩٧، مستدرك الوسائل ١١: ٢٤٧.

٦ - الكافي ٢: ٤٧٨ ح ٨

عليَّ بليتني. آه، إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول: خذوه فيما له من مأْخوذ لا تنجيَّه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ولا يرحمه الملأ إذا أُذنَّ فيه بالنداء. آه من نارٍ تُضيّجُ الأكباد والكُلُّ، آه من نارٍ نِزَاعَة للشَّوَى^١، آه من غمرة من ملهبات لظى.

قال أبو الدرداء: فأتيته عَلَيْهِ الْمَسْكَنَةُ فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ماتَ وَاللَّهُ عَلَيْيَ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. فأتيت منزله مبادراً أنعاهم إليهم، فقالت فاطمة عَلَيْهِ الْمَسْكَنَةُ: يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وما قصته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على محمد وآلِه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - الشَّوَى: الأطراف، ويقال لجلدة الرأس: الشواة والجمع الشَّوَى، وكذلك فسر في التنزيل في قوله عزَّ وجلَّ: «نِزَاعَةَ لِلشَّوَى»). (ترتيب جمهرة اللغة ٣٢٦: ٢ «شَوَى» والأية في سورة المعارج: ١٦)

٢ - الأَمَالِيُّ، للصادق: ١٣٨ ح ١٣٦.

المبحث الثاني والستون: في التقوى والورع

نرجو القارئ العزيز مراجعة مبحث التقوى في كتابنا الموسوم بالباحث الميسرة^١، ونضيف بعض ما هو مفيد. قالوا في التقوى:

الأول: جَعْلُ الناس في وقاية مما يُخاف، وهي في نظر المتشرعة: حفظ الناس عمّا يؤثم وذلك بترك المحظور. وقيل للقوى ظاهر وباطن، فظاهرها محافظة الحدود، وباطنها النية والإخلاص.

الثاني: هي ملكة - صفة راسخة في النفس - تبعث على صيانة النفس عن المعاصي.

الثالث: هي أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

الرابع: القوى أن تزيّن سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق.

الخامس: هي ملكة الاتقاء من سخط الله وطلباً للرضاه.

السادس: الملكة التي تبعث على اجتناب جميع المخالفات للشريعة.

ورد عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عَلِيَّاً عن قول الله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ .

حَقَّ تقاِهِ^١ قَالَ: يطاعُ فَلَا يعصى، وَيُذْكَرُ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرُ فَلَا يُكَفَّرُ^٢.

وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرْوَضُهَا بِالْتَّقْوَىِ، لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ
الْخُوفِ الْأَكْبَرِ، وَتُثْبِتَ عَلَىِ جَوَانِبِ الْمَزْلُقِ^٣.

قَالَ إِبْرَاهِيمَ بْنُ أَدْهَمَ: بَيْتٌ لِلَّيلَةِ تَحْتَ الصَّخْرَةِ بِبَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَلَمَّا كَانَ
بَعْضُ اللَّيلِ، نَزَلَ مَلْكَانٌ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَنْ هَنَا؟ فَقَالَ الْآخَرُ: إِبْرَاهِيمَ بْنُ
أَدْهَمَ. فَقَالَ: ذَاكُ الَّذِي حَظِيَ اللَّهُ بِدَرْجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهِ، فَقَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ اشْتَرَى
بِالْبَصْرَةِ التَّمْرَ، فَوَقَعَتْ تَمْرَةٌ عَلَىِ تَمْرَهُ مِنْ تَمْرَ الْبَقَالِ فَلَمْ يَرْدَهَا عَلَىِ صَاحِبِهَا.

قَالَ إِبْرَاهِيمَ: فَمَضَيْتُ إِلَىِ الْبَصْرَةِ وَاشْتَرَيْتُ التَّمْرَ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَأَوْقَعَتْ
تَمْرَةٌ عَلَىِ تَمْرَهُ، وَرَجَعْتُ إِلَىِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَبَيْتٌ تَحْتَ الصَّخْرَةِ فَلَمَّا كَانَ
بَعْضُ اللَّيلِ، إِذَا أَنَا بِمَلْكِيْنِ نَزَلاَ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَنْ هَنَا؟
قَالَ الْآخَرُ: إِبْرَاهِيمَ بْنُ أَدْهَمَ. فَقَالَ: ذَاكُ الَّذِي رَدَ اللَّهُ مَكَانَهُ وَرَفَعَ دَرْجَتَهِ.

أَمَّا الْوَرَعُ فَهُوَ مِنْ مَنَازِلِ السَّالِكِينَ وَالسَّائِرِينَ إِلَىِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ التَّنْزَهُ
وَالاجْتِنَابُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ مَرَادُ لِلتَّقْوَىِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْخُمَيْنِيُّ: إِنَّ لِلْوَرَعِ مَرَاتِبَ كَثِيرَةٍ: فَوَرَعُ الْعَوَامُ، الاجْتِنَابُ عَنِ
الْكَبَائِرِ، وَوَرَعُ الْخَوَاصِ الْابْتِعَادُ عَنِ الشَّبَهَاتِ خَشْيَةُ الْوَقْعَةِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ، كَمَا
أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي حَدِيثِ التَّثْلِيثِ الشَّرِيفِ الْقَائلِ: وَإِنَّمَا الْأَمْوَارُ ثَلَاثَةٌ: أَمْرَبَيْنِ رَشْدُهُ
فَيَتَّبِعُ، وَأَمْرَبَيْنِ غَيْرِهِ فَيُجْتَنِبُ، وَأَمْرَ مُشْتَرِكٍ يُرَدُّ عِلْمُهُ إِلَىِ اللَّهِ وَإِلَىِ رَسُولِهِ. وَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: حَلَالٌ بَيْنَ، وَحَرَامٌ بَيْنَ، وَشَبَهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَمَنْ تَرَكَ الشَّبَهَاتِ

١- آل عمران: ١٠٢.

٢- جامع البيان، لأبي جرير الطبراني ٤: ٣٩.

٣- شرح نهج البلاغة ٣: ٧١.

نجا من المحرمات^١.

وورع أهل الرهد الاجتناب عن المباحثات للابتعد عن وزرها، وورع أهل السلوك ترك النظر إلى الدنيا لأجل الوصول إلى المقامات. وورع المجدوبين ترك المقامات لأجل الوصول إلى باب الله، ومشاهدة جمال الله. وورع الأولياء الاجتناب عن التوجّه إلى الغaiات^٢.

إن الورع يقود إلى الكمالات المعنوية السامية، والمقامات الإيمانية الراقية، ويوجب صفاء النفس وجلاء القلب، ويبعث الأنوار القدسية في القلب فيزهـر. قال النبي ﷺ: أفضل دينكم الورع^٣. وقال ﷺ: من لقي الله سبحانه ورعاً، أعطاه الله ثواب الإسلام كله^٤. وفي الحديث القدسـي: وأما الورعون فإني أستحيي أن أحاسبهم^٥.

وعن الباقر عـلـيـهـالـكـلـالـ قال: ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، فاتقـوا الله واعـملـواـلـماـعـنـالـلـهـ، ليس بين الله وبين أحد قربـةـ. أحـبـ العـبـادـ إـلـىـالـلـهـ تـعـالـىـ وأـكـرمـهـ عـلـيـهـ أـتـقاـهـمـ وأـعـمـلـهـمـ بـطـاعـتـهـ^٦.

وقال الصادق عـلـيـهـالـكـلـالـ يوصـيـ أحد تلامـذـتهـ: أـوـصـيـكـ بـتـقـويـ اللهـ وـالـورـعـ وـالـاجـتـهـادـ،

١ - الكافي ١: ٦٨ ح ١٠.

٢ - الأربعون حدـيـثـاـ، للـسـيـدـ الـخـمـيـنـيـ تـقـيـيـشـ ٢: ١٩.

٣ - الخصال: ٤ ح ٩.

٤ - جامـعـ السـعـادـاتـ ٢: ١٣٥.

٥ - جامـعـ السـعـادـاتـ ٢: ١٣٥.

٦ - الكافي ٢: ٧٤ ح ٣ بعض فقراته.

واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه^١. وقال عليه السلام: أتقوا الله وصونوا دينكم بالورع^٢.
 وقال عليه السلام: إنَّ قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى^٣.
 وعنده عليه السلام: ما نقل الله عبداً من ذل المعااصي إلى عز التقوى، إلَّا أغناه من غير مال، وأعزه من غير عشيرة، وأنسه من غير بشر^٤.
 وقال عليه السلام: قال الله عزوجل: يا ابن آدم، اجتنب ما حرم عليك تكن من أورع الناس^٥.

الورع عند نهر بلخ
 عن هارون بن رئاب قال: كان لي أخ جارودي - من أتباع أبي الجارود زياد بن المنذر الهمданى الأعمى، وقد لعنه الإمام الصادق عليه السلام وقال فيه: إنه أعمى القلب وأعمى البصر. فدخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فقال لي: ما فعل أخوك الجارودي؟

فقلت: صالح، هو مرضى عند القاضي وعند الجيران في الحالات كلها، غير أنه لا يقر بولايتك، فقال عليه السلام: ما يمنعه من ذلك؟

قلت: يزعم أنه يتورع، قال عليه السلام: فأين كان ورمه ليلة نهر بلخ؟

فقلت لأخي يوم قدمت عليه: ثكلتك أمك، دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فسألني عنك، فأخبرته أنك مرضى عند الجيران وعند القاضي في الحالات

١ - الكافي ٢: ٢ ح ٧٦.

٢ - نفسه ٢: ٢ ح ٧٦.

٣ - نفسه ٢: ٢ ح ٧٦.

٤ - نفسه ٢: ٢ ح ٨.

٥ - نفسه ٢: ٢ ح ٧.

كلّها غير أنه لا يقرّ بولايتكم.

فقال الإمام عليه السلام: ما يمنعه من ذلك، قلت: يرعم أنه يتوزع، فقال: أين كان ورעה ليلة نهر بلخ! قال: أخبرك أبو عبد الله بهذا؟

قلت: نعم، قال: أشهد أنه حجّة رب العالمين، قلت: أخبرني عن قضتك.

قال: نعم، أقبلت من وراء نهر بلخ، فصحبني رجل معه وصيفة فارهة الجمال، فلما كنا على النهر قال لي: إما أن تقتبس لنا ناراً فأحفظ عليك، وإما أن أقتبس ناراً فتحفظ عليّ، فقلت: اذهب واقتبس وأحفظ عليك، فلما ذهب قمت إلى الوصيفة وكان متى إليها ما كان، والله ما أفشّث ولا أفشّي لأحد، ولم يعلم بذلك إلا الله، فخرجت من السنة الثانية وهو معي فأدخلته على أبي عبد الله عليه السلام فذكرت الحديث، مما خرج من عنده حتى قال يمامته^١.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآل وآل الطيبين الطاهرين المعصومين.

المبحث الثالث والستون: في الكذب

قال عليهما: اللهم إني كلما قلتم قد تهياً وتعباً وقمت للصلوة بين يديك وناجيتك أقيمت على نعساً إذا أنا صلينت، وسلبتني مُناجاتك إذا أنا ناجيتك، مالي كلما قلتم قد صلحت سريرتي، وقرب من مجالس التوابين مجلسسي، عرضت لي بليلة أزال قدمي، وحالت بياني وبين خدمتك.

سidi لعلك عن بايك طردتني، وعن خدمتك نحيتنى أولعلك رأيتني مُشتِخفاً بحقك فاقصيتنى، أولعلك رأيتني معرضًا عنك فقلتني، أولعلك وجذتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أولعلك رأيتني غير شاكرينعمائك فحرمتني، أولعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أولعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيسنتني، أو لعلك رأيتني ألف مجالس البطالين فيبني وبيئهم خليتنى، أولعلك لم تحب أن تسمع دعائي فباعذتنى، أولعلك ب مجرمي وجريري كافيةنى، أولعلك بقلة حياتي مثل جازتنى.

نرجو القارئ العزيز مراجعة المبحث الرابع والعشرين حول الآثار الوضعية لأعمال الإنسان والمبحث التاسع والثلاثين حول الغفلة.

الداعي هنا يعترف إلى ربها بالتقدير في العبادة، والكسل، وقلة التوجّه القلبي أثناء ممارسة الشعائر والطقوس العبادية، وهو خائف من آثار المعااصي

والغفلة.

إن أعمال الإنسان لها آثار وضعيّة سلباً أو إيجاباً على الكون والحياة الفردية والأسرية والاجتماعية.

قال أحدهم: يا أمير المؤمنين، مالي لا أوقق لقيام الليل؟ قال عليه السلام: قيادتك ذنبك^١.

إنه عليه السلام يخشى أن يكون ذلك هو الطرد من ساحة الكرامة، والإياس من الرحمة، والإblas والإخزاء والخذلان، والختم على القلب، والإضلal بالمجازاة. ونستنتج من هذه الفقرات عدداً من الآثار الوضعية التي يبيّنها الإمام عليه السلام لنا، حتى نسلك السلوك الصحيح المؤدي إلى ساحة الرضوان والقبول، ونتحجّب موجبات الخذلان:

الأول: الاستخفاف بحقوق الله عاقبته الإقصاء من رحمة الله.

الثاني: الإعراض عن الله يستوجب البغض من الله.

الثالث: الكذب يستوجب الرفض الإلهي.

الرابع: كفر النعمة يستوجب الحرمان، بينما شكر النعمة يستلزم الزيادة والنماء.

الخامس: هجر العلماء ومقاطعتهم يقود إلى الخذلان.

السادس: الغفلة تقود إلى اليأس من رحمة الله.

السابع: البطالة عاقبتها سلب التوفيق.

الثامن: المعاصي يقابلها نزول النقم واستحقاق البعد من الله سبحانه.

الحادي عشر: قلة الحياة جزاؤه التنحية عن ساحة الخدمة الإلهية.

وقد ورد في الآثار المعتبرة أن السخاء يزيد في الرزق^١، ويجلب المحبة^٢ وأنه خلق الله الأعظم^٣، وأن صلة الرحم ترثي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، ويسهل الحساب، وتنسى في الأجل^٤.

وورد في الصدقة أنها ترد القضاء وقد أبرم إبراماً^٥، وأنها تدفع ميata السوء^٦.
وقال تعالى في التقوى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ﴾^٧.

وورد عن علي عليه السلام: ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منها مخرجاً^٨. وقال عليه السلام: واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتنة، ونوراً من الظلم^٩.

وعن الباقي والصادق عليهما السلام: قال: يحفظ الأطفال بأعمال آبائهم، كما حفظ الله الغلامين بصلاح أبيهما^{١٠} فيه إشارة إلى الآية (٨٢) من سورة الكهف حيث بني

١ - الجامع الصغير ٢: ٢٤ بالمضمون.

٢ - عيون الحكم: ٢٣ و ٥٠ و ٦٢.

٣ - كنز العمال ٦: ٣٣٧ ح ١٥٩٢٦.

٤ - الأصول ستة عشر: ١١٣، الكافي ٢: ١٥٧ ح ٣٣.

٥ - من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٦٨ ح ٥٧٦٢.

٦ - الكافي ٤: ٢ ح ١.

٧ - الطلاق: ٢ - ٣.

٨ - شرح نهج البلاغة ٢: ١٣ الخطبة: ١٣٠.

٩ - شرح نهج البلاغة ٢: ١١٢ الخطبة: ١٨٣.

١٠ - تفسير العياشي ٢: ٣٣٨ ح ٦٥.

الخضر عليه السلام جداراً لـيتيمين في المدينة دون اتخاذ أجر.

وقال الصادق عليه السلام: إنَّ اللَّهَ لِيصلح بصلاح الرجل المؤمن وُلده، وولد ولده، ويحفظه في دويرته ودويرات حواليه، فلا يزالون في حفظ اللَّه لكرامته على اللَّه^١.
وورد أنَّ الذنب يحرم الرزق.

وورد في الآثار المعتبرة في آثار الزنا - والعياذ بالله - أمور: فعن الصادق عليه السلام قال:
علمات ولد الزنا ثلاثة: سوء المحضر، والحنين إلى الزنا، وبغضنا أهل البيت^٢.
وعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ قال: الزنا يذهب البهاء، ويعجل الفناء، ويقطع الأرزاق^٣.

الكذب: ضد الصدق، والكذب هو الإخبار عن شيء بخلاف ما هو مع العلم به. وقيل: الصدق هو مطابقة القول الضمير والمُخبر عنه معاً.

إنَّ الإنسان جزء لا يتجزأ من هذا الكون الراحب. ولما كان الكون سائراً وفق السنن الإلهية والقوانين التكوينية والنواتيس الحاكمة، فإنَّ حياة الإنسان وسلوكه يجب أن ينسجمما مع فطرة الكون، وهنا تستقيم مسيرة الحياة.

والصدق من مصاديق ذلك الانسجام. أما الكذب فهو حالة شاذة تتناقض مع فطرة الكون، ولا تتوافق الانسجام والتآلف الكوني. وهذه الحالة تقود إلى الصراع والتناقض والمعالطات، ومن مستلزمات ذلك الشقاء والضلال والحرمان، ومجانبة الهدایة والواقع والحقيقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَادِبٌ كَفَّارٌ﴾^٤.

١ - تفسير العياشي ٢: ٣٣٧ ح ٦٣.

٢ - الأمالى للصدوق: ٤١٨ ح ٥٥٥.

٣ - الخصال: ٣٢٠ ح ٢.

٤ - الزمر: ٣.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾^١.

وقال عز علاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^٢.

وقال جل ذكره: ﴿بَلْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾^٣.

إن الإسلام بتربيته الخاصة، ومنهجيته الشاملة، وبأحكامه الاجتماعية يدعو إلى التألف والاتحاد، والأخوة القائمة على الصدق والإخلاص والوفاء. أما الكذب الذي يعبر عنه لسان الروايات بأنه خراب الإيمان، وهدم المروءة، والمبارة مع الله، فإنه مما يعرقل مسيرة الصلاح والقداسة بلا شك، وهو قبيح عقلاً وشرعاً، ومن المعاصي الكبيرة التي وعد الله عليها دخول النار بالتسالم. بل قيل: إنه أقبح الذنوب وأفحشها، وأخبث العيوب وأشنعها.

قال رجل للنبي ﷺ: أنا أستسرّ بخلال أربع: الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والكذب، فأيتها شئت تركت يا رسول الله؟ قال ﷺ: دع الكذب. فلما تولى هم بالزنا فقال: يسألني رسول الله ﷺ، فإن جحدت نقضت ما جعلت له، وإن أقرت حدثت أو رجمت، ثم هم بالسرقة، ثم في شرب الخمر، ففكّر في مثل ذلك، فرجع إليه، فقال: قد أخذت على السبيل، قد تركتهنّ أجمع^٤.

إن الكذب من الملكات المذمومة التي إذا ترسخت يصعب التخلص منها واقتلاعها من جذورها. وقد ندب الإسلام إلى ترك الكذب في الجد والهزل، والصغر والكبير، وطلب منا أن نفي حتى للصغار إذا وعدناهم بهدية مثلًا لئلا

١ - غافر: ٢٨.

٢ - يونس: ٧٩.

٣ - سورة ق: ٥.

٤ - شرح نهج البلاغة ٦: ٣٥٧.

نعلمهم الكذب وخلف الوعد الذي هو من مصاديق الكذب.

قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَخْرُشُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَئِنَّ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^١.

لقد افتن هؤلاء المشركون بعبادة أصنامهم، ونسبوا لها أمر التدبير على وجه الاستقلال، وقد رفضت عقولهم الفاسدة وأراءهم الضالة كل حجّة وأية ظلماً وعتواً. لقد رسخت ملكة الكذب وتجلّرت عندهم، فهم يصرّون، بل يحلّفون الله كذباً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾^٢.

قال السيد الطباطبائي متّبع: وليس كذبهم وحلفهم عليه للتوصّل به إلى الأغراض الفاسدة وستر الحقّ كما يتوصّل إليها بالكذب في الدنيا، فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل واكتساب.

لکنّهم لكونهم اعتادوا أن يتفضّوا^٣ من المخاطرات والمهالك ويجلبوا المنافع إليهم بالإيمان الكاذبة والأخبار المزورة خدعة وزوراً، رسخت في نفوسهم ملكة الكذب، والملكة إذا رسخت في النفس اضطررت النفس إلى إجابتها إلى ما تدعوه إليه، وذلك كما أنّ البذيء الفحاش إذا استقرّت في نفسه ملكة السب لا يقدر على الكف عنه وإن عزم عليه، والمستكبر للجوج العنود لا يملك من نفسه أن يتواضع، وإن خضع في موقف المهلكة والذلة أحياناً، فإنّما يخضع ظاهراً وب Lansane، وأماماً باطناً وفي قلبه فهو على حاله لم يتغيّر ولن يتغيّر بتّه.

وهذا هو السرّ في كذبهم يوم القيمة لأنّه يوم ثبّل في السرائر، والسريرة

١ - الأنعام: ٢٢ - ٢٣.

٢ - المجادلة: ١٨.

٣ - كلّ شيء يبادر شيئاً فقد تفصّى عنه. (ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٤٦ «فصى»)

المعقودة على الكذب ليس فيها إلا الكذب، فيظهر ما استقر فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثَه﴾^١، ونظيره التخاصم الدائرين أهل الدنيا فإنه يظهر
بعينه يوم القيمة بينهم^٢.

وعن علي عليه السلام قال: لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله
وجده^٣.

وقال الإمام السجاست عليه السلام يوصي أولاده: اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير. أما علمتم أن رسول الله عليه السلام قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتب له صديقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتب له كذاباً^٤.

وقال الأصممي: قلت لكذاب: أصدقت قط؟ قال: لو لا أني أخاف أصدق في هذا القلت لك: لا^٥.

وكان في بلاد فارس محتسب يُعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن منع الكذب انشقت مراتي، وإنى (والله) لأجد به مع ما يلحقني من عاره المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالني من نفعه^٦.

قال الباقي عليه السلام: يا أبا النعمان، لا تكذب علينا فشلب الحنيفة، ولا تطلبن

١ - النساء: ٤٢.

٢ - تفسير الميزان ٧: ٥١.

٣ - الكافي ٢: ٣٤٠ ح ١١.

٤ - الكافي ٢: ٣٣٨ ح ٢.

٥ - شرح نهج البلاغة ٦: ٣٥٩.

٦ - المستطرف ٢: ٨

أن تكون رأساً فتكون ذئباً^١. وعن علي عليهما السلام قال: قال عيسى عليهما السلام: من كثركذبه ذهب بهاؤه^٢.

وعنه عليهما إياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب، يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب^٣.

وقال النبي عليهما الله: إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار^٤.

وسئل النبي عليهما الله: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم. قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم. قيل ويكون كذاباً؟ قال: لا^٥.

وقال عليهما الله: كبرت خيانة أن تحدث أخاك حدثاً هولك به مصدق، وأنت له به كاذب^٦. وقال عليهما الله: إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد المَلَكُ منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به^٧.

وعن علي عليهما السلام قال: ألا فاصدقوا، فإن الله مع الصادقين. وجانبو الكذب فإنه يجانب الإيمان. ألا وإن الصادق على شفا منجاة وكرامة. ألا وإن الكاذب على شفا مخزاة وهلكة^٨.

١ - الكافي ٢: ٣٣٨ ح ١.

٢ - نفسه ٢: ٣٤١ ح ١٣.

٣ - شرح نهج البلاغة ٤: ١١ الحكمة: ٣٨.

٤ - الأمازي للصدوق: ٥٠٥ ح ٦٩٦.

٥ - روضة الوعاظين: ٤: ٤٦٨.

٦ - مسنده أحمد بن حنبل ٤: ١٨٣.

٧ - كنز العمال ٣: ٦٢٢ ح ٨٢١٦.

٨ - من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٥ ح ٦١٣.

وعن عبيد بن زراة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن مما أعان الله به على الكاذبين النسيان^١.

ونعم ما قيل: إذا كنت كاذباً فكن ذكوراً^٢.

أما الكذب على الله ورسوله عن عمدٍ فهو من أكبر الكبائر، وقد عدّه الفقهاء في رسائلهم العملية من المفطرات. وذكرت الروايات جواز الكذب في الإصلاح، والمكيدة في الحرب، وعدّة الزوجة.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ المعصومين.

١ - الكافي ٢: ٣٤١ ح ١٥.

٢ - بنيمة الدهر، للشعالبي ٤: ١٢٢. شعر: كن ذكوراً يا أبا يحيى إذا كنت كذوباً.

المبحث الرابع والستون: في العلم والعلماء

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^١.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^٢.

وقال جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٣.

نرجو القارئ العزيز مراجعة مبحث العلم والعلماء في كتابنا الموسوم
بالمباحث الميسرة^٤ للاستزادة.

العلم: هو كشف الواقع المجهول للوصول إلى الحقيقة واليقين.

العلماء: هم أهل المعرفة واليقين بالله، والعلماء الربانيون: هم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامة تطمئن لها قلوبهم، وتزيل وصمة الشك والقلق عن نفوسهم، وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم....
العلم المنسوب إلى الإنسان علم متناه، مأخوذ من صور الأشياء الموجودة
المقدرة بمقاديرها، ولا يتعدى هذا المقدار بلا أدنى شك.

١ - طه: ١١٤.

٢ - المجادلة: ١١.

٣ - الزمر: ٩.

٤ - المباحث الميسرة: ١٥٦ - ١٧٩.

قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^١.

ولكن العلم الإلهي يتعدى تلك الحدود إلى ما لا يتصوره العقل البشري، فالله عالم بما كان وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، وهذا من مفاتح الغيب المختص به سبحانه. والعلم الإلهي يحيط بحقائق الأمور من دون إبهام أو خفاء، ولا تغيير ولا تبدل، ولا فرق عنده بين الغيب والشهادة.

وبشكل أوضح نقول: إن علم الله علماً:

الأول: علم حضوري أزلية بالأشياء قبل إيجادها، وهو عين ذاته المقدسة.

الثاني: علم حضوري بالأشياء بعد وجودها، وهو سبحانه عين وجودها، لأنها قائمة به، وهي مرآة كاشفة عن وجوده وكماله وأزليته.

أما علم الإنسان فهو علم حضوري مستند إلى البحث والدرس والتجربة والاستنتاج، والاستنباط والاستقراء وغيرها من المسالك. إذن العلم البشري العادي هو كشف الواقع المجهول للوصول إلى الحقيقة كما ذكرنا.

أما علوم الأنبياء والرسل فهي عن طريق الوحي، وهو أقوى أنواع العلم، وهو علم يقيني. وهناك علم لدى الأولياء يسمى الكشف تناوله نفوسهم لما لها من الصفاء والنقاء والقداسة، وقد شاهدنا وسمعنا من أساتذتنا ما يدل على ذلك.

إن العلوم تنقسم إلى قسمين :

الأول: العلوم الدنيوية، والغرض منها تحقيق أهداف وأغراض تخدم الإنسان في حياته وتحقق له التقدم والرفاهية، ومن الممكن أن تكون النية فيها قصد

القربة إلى الله، وتكون عملاً عبادياً.

الثاني: العلوم الأخروية، وهذه تقود الإنسان إلى نيل المقامات القدسية بلوغها إلى الجنان ولبس حلل الرضوان، مثل علم الكلام والمعارف الإلهية والأخلاقية وبقية العلوم الدينية. هذا من حيث نفس العلوم. أما من حيث الإنسان المتعلّم، فقد يطلبها الله، وقد يطلبها من أجل الأغراض الدنيوية، والغايات الأنانية والدينية.

إن طالب العلم الذي يقترب من هذا الميدان الخطير، يجب أن يكون هدفه وغايته طلب رضوان الله، وعليه ترويض نفسه وتهذيبها وتنقية الأجواء الباطنية، والتحلّي بالأخلاق والملكات الفاضلة، من أجل التطابق بين النظرية والممارسة عنده، وبهذا يكون الأنموذج الصالح للعالم الرباني.

وهناك عاملان لا بدّ من تفاعلهما معاً لبناء وتخريج مثل هذه الشخصية السائرة في مدارج الكمال، ألا وهما:

الأول: السعي الحثيث والإخلاص من طرف الإنسان.

الثاني: التوفيق والتسلية والتأييد من الله سبحانه، ولو لا ذلك لا يصل السالك إلى غايتها.

قال رسول الله ﷺ: من سلك طريقاً يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وإن الله يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر. وإن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر^١.

ولا بد من وقفة على عدة نقاط على مشارف هذا الحديث المعتبر:

١. إن طالب العلم هنا هو الذي يسلك الطريق المعرفي المؤدي إلى الجنان وكسب موهبة الرضوان، وهو ممن صلحت سريرته، وانقادت نفسه لإرادة الله وأحكامه انقياداً تاماً. ولا يمكن تصور ذلك فيما ينطوي عليه طلب العلم للوصول إلى غايات دنيوية بعيدة عن مذاق الشرع، لأن مثل ذلك ربما يكون مصداقاً من مصاديق مطاي الشيطان.

قال تعالى: ﴿مَثُلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَخْمُلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَخْمُلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثُلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^١.

إن شرافة العمل وقبوله يدور مدار النية والقصد، فمن عمل لله فأجره على الله، ومن جانب سبيل الهدى وقع في حبائل الشيطان، وقد ورد في الآثار المعتبرة:

كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه!^٢

إن العلم سلاح ذو حدين، وغاياته كذلك.

٢. إن طالب العلم الذي هو من عالم الملك والطبيعة، إذا ارتقى في سلام الكمال، فإنه يرتقي معنوياً وروحياً إلى عالم الملائكة، ويقارب الملائكة ويحظى ببركتها وبسرورها واستبشارها به، وقد يرتقي أكثر من ذلك ليسير على أجنبتها المقدسة. أما الأنبياء والأولياء فقد يصلون إلى عوالم راقية جداً بحيث لا تصل إليها بعض طبقات الملائكة، لأن الملائكة مراتب:

فمنهم الموكلون بتدبير عالم الملك والطبيعة، ومنهم الموكلون بعالم البرزخ

١ - الجمعة: ٥

٢ - رسائل الشهيد الثاني: ١٥٢

والمثال، ومنهم الموكلون بعالم الملائكة والجنان، ومنهم الموكلون بعالم الجبروت، وهو أرقى من عالم الملائكة، وأعلاهم رتبة وأشرفهم قداسته الملائكة المستغرقون في جمال الحق، الهائمون به، الذين لا علم لهم بغير الله.

٣. لقد تعرضت آيات كثيرة لتبسيح الموجودات كلها لله سبحانه^١، بمعنى تنزيهه عن كل نقص أو حاجة، ومن لوازم التبسير العلم والمعرفة للذات المقدسة، وهذا التبسير من الكائنات والموجودات يشير بعنایة فائقة إلى وجود شيء من العقل والتمييز عندها، وهذا يقودها نحو كمالها وهذا التبسير حقيقي لا مجازي، وهو بلسان المقال كما هو بلسان الحال.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^٢.

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاؤَدَ الْجِبَالَ يُسَتِّحَنَ وَالظَّيْرَ﴾^٣.

وتحذّث سورة النحل عن كلام سليمان عليه السلام مع الهدّه^٤.

وذكرت حديثه عليه السلام مع عفريت الجن^٥.

وذكرت حديثه مع النملة^٦.

وصدق الله القائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أَمْ

١ - كما في سورة الحديد: ١، والحضر: ١، والصف: ١.

٢ - الإسراء: ٤٤.

٣ - الأنبياء: ٧٩.

٤ - النمل: ٢ - ٢٧.

٥ - النمل: ٣٩.

٦ - النمل: ١٨.

أمثالُ الْكُنْمٌ^١

ولَمَّا كَانَ إِلَيْنَا مُحَجَّبًا عَنْ عَالَمِ الْمِثَالِ وَالْمُلْكُوتِ فَهُوَ لَا يَدْرِكُ ذَلِكَ وَلَا يَفْقَهُهُ . وَهَذَا يَقُوْدُنَا إِلَى التَّصْدِيقِ بِأَنَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَتَّى الْحَوْتَ فِي الْبَحْرِ تَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ الرِّبَّانِيِّ، وَقَدْ يَكُونُ هُؤُلَاءِ الْمُسْتَغْفِرُونَ يَقْدِمُونَ هَذَا الْعَالَمَ وَسِيطًا وَشَفِيعًا إِلَى اللَّهِ لِيَنْالُوا بِهِ الْوَصْوَلَ إِلَى الْكَمَالِ الْمُنْشُودِ.

قال الديلمي: وروي أنَّ بعض الأنبياء اجتاز بحجر ينبع منه ماءً كثيرًا فعجب من ذلك، فسأل الله فأنطقه، فقال له: لِمَ يَخْرُجُ مِنْكَ الْمَاءُ الْكَثِيرُ مَعَ صَفْرِكَ؟ فقال: من بكاءَ حُزْنٍ حيث سمعتُ الله يقول: ناراً وقودها الناس والحجارة، وأخاف أن أكون من تلك الحجارة، فسأل النبيَّ الله أن لا يكون من تلك الحجارة، فأجابه الله وبشر النبيَّ بذلك. ثمَّ تركه وممضى، ثمَّ عاد إليه بعد وقت فرآه ينبع كما كان، فقال: ألم يؤمنك الله؟ فقال: بلِي، فذلك بكاءُ الحزن، وهذا بكاءُ السرور^٢.

ويقول علماء النبات: إنَّ بعض الأشجار عندما تقترب منها بعض الحيوانات كالغزلان، فإنَّها تقوم بإفراز مواد مرّة المذاق، كريهة الرائحة تنفر منها الحيوانات، ثمَّ ترسل إشارات إلى بقية الأشجار لتقوم بنفس الأمر، وبهذا تحمي نفسها. وما ذكره العلماء عن النظام الجاري وال العلاقات في خلايا النحل وجحور النمل ما يدهش الألباب ويحيّر العقول.

١ - الأنعام: ٣٨.

٢ - إرشاد القلوب ١: ٩٦.

٤ . لقد شبّه الحكماء العلم بالنور، لأنّ النور واضح بذاته موضّح لغيره، فقد ورد في الحديث الشريف: العلم نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه^١. وحيث تتفاوت مراتب أهل العلم في جانب الإيمان والمعارف والإخلاص، فإنّ أنوارهم الباطنية، والإشراق الروحي يختلف عندهم سعةً وضيقاً، وقوّةً وضعفاً. إنّه نور الوعي وال بصيرة المتدقق من عالم الملائكة. إنّ هناك شريحة من أهل الورع والتقوى والإخلاص، السالكين طريق العلم الرباني، قد يفيض الله عليهم من العلوم والحكمة والأسرار والمواهب ما لا يناله غيرهم بسلوك الطريق العادي.

قال علي عليه السلام: علم الباطن سرّ من أسرار الله عزوجل، وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من شاء من عباده^٢.

لقد فضل الحديث الشريف نور العالى على نور العابد كفضل البدر على سائر النجوم. إنّ العابد له نور يوضح لنفسه الطريق لبلوغ الغاية وهي النجاة. أما العالم فإنّ نوره وعلمه ووعيه وبصيرته تقود الأنام إلى رضوان الملك العلام، إنّه سفينة من سفن النجاة لغيره كما هو لنفسه.

ورد في الحديث الشريف: عالم أفضل من ألف عابد، العالم يستنقذ عباد الله من الضلال إلى الهدى، والعابد يوشك أن يقبح الشك في قلبه فإذا هو في وادي الهمات^٣.

وروي: يقال للعبد يوم القيمة: ادخل الجنة بغير حساب، ويقال للعالم: قف

١ - منية المريد: ١٦٧.

٢ - كنز العمال ١٠: ١٥٩ ح ٢٨٨٢٠.

٣ - مسند زيد بن علي: ٣٨٢.

حتى تشفع للناس^١. وعن الإمام علي عليه السلام قال: المتعبد من غير فقه كحمار الطاحونة^٢.

نقلت لنا الآثار أنّ برصيصاً كان رجلاً عابداً زاهداً، ترك الدنيا ونعيمها ولذاتها، واستغل بالعبادة ليلاً ونهاراً، وبلغ في العبادة ما تتعجب منه الملائكة، وكان الشيطان يقصده ولم يظفر به حتى مضى عليه مائتان وعشرون سنة، فلبس يوماً ثياباً خشنة خلقة بزى العباد، ودخل صومعة برصيصاً فقال له: من أنت وما تريد؟

قال الشيطان: أنا من العباد، أريد أن أعبد الله معك، وأكون مُعينك على عبادتك، فقبل كلامه. واستغل الشيطان بالعبادة، وجد فيها وواذهب عليها بحيث لم يكن يأكل شيئاً، ولا نام حتى مضى عليه ثلاثة أيام، فلما رأى برصيصاً ذلك الجد والطاقة منه تعجب وسأله عن سبب ذلك؟

فقال له: الباعث على ذلك أنّي عصيت الله مرة، فكلما ذكرتها انقطع عنّي الأكل والشرب والنوم وأشتغل بالطاعة والعبادة ندامة على ما صدر مني، فقال له برصيصاً: ما التدبير في أن أصير مثلك في العبادة؟

قال: اعص الله وتب منه، فإن الله كريم غفور، يغفر لك ثم تصير مثلي في العبادة ندامة على ما فعلت. قال: أي المعاishi أرتكب؟ قال: ازن، قال: لا أفعله. قال: اشرب الخمر، فإنه أصغر وأسهل منه. قال: من أين أجده؟

قال: اذهب إلى القرية الفلانية تجده فيها، فذهب برصيصاً إلى القرية مسرعاً،

١ - علل الشرائع ٢: ٣٩٤ ح ١١ بالمضمون.

٢ - الاختصاص، للمفید: ٢٤٥.

فلاقى امرأة جميلة، فاشترى منها خمراً فشربه، فلما أثر فيه الخمر دعوه نفسه إلى المرأة فزنى بها، فلما جاء زوجها قام برصيضاً وقتله، فذهب الشيطان بصورة الإنسان إلى حاكم القرية وأخبره بما فعل برصيضاً فأخذده الحاكم وضربه ثمانين سوطاً لشرب الخمر، ومائة للزناء، ثم أمر أن يصلبوه للقتل، فلما صلبوه جاءه الشيطان بالصورة التي جاءه بها أولاً وقال له: كيف ترى حالك؟ قال: من أطاع أنيس السوء فهذا جزاؤه.

قال: إني أرصدك منذ مائتين وعشرين سنة حتى ابتليتك بما ترى، أتحب أن أنجيك من هذه البلية؟ قال: نعم، قال: اسجد لي مرة حتى أنجيك. قال: كيف أسجد مرة لك وأنا مصلوب لا أقدر على السجود؟ قال: اسجد لي بالإيماء، فسجد فصار كافراً خالداً في النار^١.

٥. إنَّ الإِنْسَانَ يُولَدُ جَسْدِيَاً مِّنْ أَبْوَيْنِ عَبْرَ الْقَنُوْنَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ لِيُخْرُجَ إِلَى عَالَمِ الدُّنْيَا. فَالطَّفَلُ لَهُ أَبْوَانٌ هُمَا أَصْلُ وَجُودِهِ الْمَادِيِّ.

أَمَّا الْأَمَمُ وَالشَّعُوبُ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ فِيهَا رَسُلًا وَأَنْبِيَاءً، وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْوِلَايَةَ الْعَامَّةَ عَلَى النَّاسِ، وَهَذِهِ الْوِلَايَةُ بِمِثَابَةِ الْأَبَوَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمُلْكُوتِيَّةِ.

قال النبي ﷺ: يا عليٰ أنا وأنت أباً لهذه الأمة^٢.

إنَّ الْعُلَمَاءِ الرَّبَانِيِّينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، يَرِثُونَ عِلْمَهُمْ وَآدَابَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمُ الْفَاضِلَةُ، وَيَصِيرُهُمُ الْثَّرَوَاتُ الْمُعْرِفِيَّةُ الَّتِي تَرَقَى بِهِمْ مِنْ عَالَمِ الْمَادَّةِ إِلَى عَالَمِ الْمُلْكُوتِ. وَهَذَا هُوَ الْمُقْصُودُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ^٣.

١ - تفسير مجمع البيان ٩: ٤٣٨، لأبي الأخبار، للتويسر كاني ٢: ٢٦٦.

٢ - الأمالى للصدقى: ٤١١ ح ٥٣٣.

٣ - الكافي ١: ٣٤.

وَعَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: الْعُلَمَاءُ مَصَابِيحُ الْأَرْضِ، وَخَلْفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ، وَوَرَثَةُ النَّبِيِّينَ^١.

٦. إِنَّ الْعِلْمَ أَرْقَى الْكَمَالَاتِ وَأَعْلَاهَا وَأَسْمَى الْفَضَائِلِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ ذَاتَهُ الْمَقْدَسَةَ بِعَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. وَأَشَرَّفَ مَرَاتِبُ الْعِلْمِ مَا كَانَ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصَفَاتِهِ وَذَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ اخْتِصَاصِ عِلْمِ الْكَلَامِ الَّذِي تَنْتَهِيُ إِلَيْهِ أَصْوَلُ الْعِلْمَوْنَ. وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ الْعُلَمَاءُ الرِّبَانِيَّينَ فِي عَدَّةِ مَوَاضِعٍ بِذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ حِيثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٢.

وَقَالَ سَبِّحَانَهُ فِي شَأنِ الْكِتَابِ الْمَنْزَلِ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَرْسُلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^٣.

وَمِنْ شِرَافَةِ الْعِلْمِ وَقَدَّاستِهِ أَنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَّلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * افْرَأُوا رَبَّكُمُ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَمَ بِالْقُلْمِ * عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^٤.

٧. إِنَّ الْخَشِيشَةَ مِنَ اللَّهِ الَّتِي قَوَامُهَا الْخُوفُ وَالتَّعْظِيمُ مَلَازِمَةً لِلْعِلْمِ إِذَا كَانَ السَّالِكُ سَائِرًا فِي الطَّرِيقِ الإِلَهِيِّ الصَّحِيحِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^٥.

١ - كنز العمال ١٠: ١٣٤.

٢ - آل عمران: ١٨.

٣ - آل عمران: ٧.

٤ - العلق: ١ - ٥.

٥ - فاطر: ٢٨.

قال الصادق عليه السلام: يعني بالعلماء من صدق قوله فعله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم^١.

وعن علي عليه السلام: أعلمكم بالله أخو فكم الله^٢.

وعن علي عليه السلام: اعلموا أنَّ كمال الدين طلب العلم والعمل به^٣.

وقال النبي عليه السلام: من طلب العلم لم يصب منه باباً إلَّا ازداد به في نفسه ذلاً، وفي الناس تواضعاً، والله خوفاً، وفي الدين اجتهاداً، وذلك الذي ينتفع بالعلم فليتعلّمه^٤.

وعن علي عليه السلام قال: حسبك من العلم أن تخشى الله عزوجل، وحسبك من الجهل أن تعجب بعقلك، أو قال: بعلمك^٥.

٨. إن الذي يطلب العلم لا يريد به وجه الله، بل لأجل الدنيا والأهواء وطلب الرياسات الباطلة ومن أجل الثراء، وبدافع الرياء، فهذا لا ينطبق عليه أنه عالم رباني، بل شيطاني، ولاأشك قيد أئمَّةُ الشَّيْطَانِ عَنْهُ عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ وتجارب تفوق ما عند أتباعه ومريديه.

وقد ورد في المقام أنه قال النبي عليه السلام: من تعلم علمًا لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبؤ مقعده من النار^٦.

١ - تفسير مجتمع البيان ٨: ٢٤٢.

٢ - انظر: تفسير مجتمع البيان ٨: ٢٤٢.

٣ - الكافي ١: ٣٠.

٤ - روضة الوعاظين: ١١.

٥ - الأمازي، للطوسي: ٥٦ ح ٧٨.

٦ - سنن الترمذى ٤: ١٤١ ح ٢٧٩٣.

وقال عليهما السلام: من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعدها^١.

وعن الإمام علي عليهما السلام قال: ومن طلب العلم للدنيا والمنزلة عند الناس، والحظوة عند السلطان، لم يصب منه باباً إلا ازداد في نفسه عظمة وعلى الناس استطالة، وبالله غروراً، ومن الدين جفاء، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم، فليكف وليمسك عن الحجّة على نفسه والندامة والخزي يوم القيمة^٢.

وقيل لعلي عليهما السلام: من خير الخلق بعد أئمّة الهدى ومصابيح الدجى؟ قال عليهما السلام: العلماء إذا صلحوا. قيل: فمن شرار خلق الله بعد إبليس وفرعون وبعد المتسّمين بأسمائهم والملقبين بألقابهم، والآخذين لأمكنتهكم، والمتآمرين في ممالككم؟ قال: العلماء إذا فسدوا، وإنهم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق، وفيهم قال الله عزوجل: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْلَّاعِنُونَ﴾^٣.

وقال النبي عليهما السلام: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يا رسول الله: وما دخولهم في الدنيا؟ قال اتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم^٤.

وقال عليهما السلام: إن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: قل للذين يتفقّهون لغير الدين، ويتعلّمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة. يلبسون للناس مسوح الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب، وألسنتهم أحلى من العسل، وأعمالهم أمر من الصبر، إياتي يخادعون، وفيّ يغترّون، وبديني

١ - علة الداعي: ٦٥.

٢ - روضة الوعاظين: ١١.

٣ - الاحتجاج: ٢: ٢٦٥.

٤ - الكافي: ١: ٤٦ ح ٥.

يستهزؤون، لأتريحنَ لهم فتنَةً تدعُ الحليمَ منهم حيرانَ^١.

وقال عليه السلام: لوأنَ حملةَ العلمِ حملوه بحَقِّهِ، لآحبُّهم اللهُ وملائكتهُ، وأهل طاعتهِ من خلقهِ، ولكنَّهم حملوه لطلبِ الدُّنيا، فمقتُهم اللهُ وهانوا على الناسَ^٢.

وقال عليه السلام: إياكم والجهال من المتعبدين، والفحار من العلماء، فإنَّهم فتنَةٌ كلَّ مفتونٍ^٣.

وقال عليه السلام يوصي تلميذه كميل بن زياد: يا كميل، إنَّ هذه القلوب أوعيةٌ فخيرها أوعاها، احفظ مثي ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاعٌ، أتباع كلَّ ناعق، يميلون مع كلَّ ريح، لم يستضيئوا بنورِ العلم، ولم يلتجئوا إلى ركنٍ وثيقٍ^٤.

فإذا لم يكن طالب العلم عالماً ربانياً، ولم يكن متعلماً على طريق نجاة فهو من الهمج الرعاع الذين وصفهم معلم الدنيا عليه السلام.

وقال الصادق عليه السلام: قطع ظهري اثنان: عالم متھتك، وجاهل متنسك، هذا يصد الناس عن علمه بتھتكه، وهذا يصد الناس عن نسكه بجهله^٥.

محطة للاستراحة

حكي أنَّ أخوين كانا فيما مضى من الزمان، أحدهما عالم مقتصد في علمه، والأخر متزهد جاهل، فكانت مناقشات فيما هما فيه، فخرج المتزهد وفارق

١ - ثواب الأعمال: ٢٥٥ بتفاوت يسير.

٢ - تحف العقول: ٢٠١.

٣ - قرب الأسناد: ٧٠ ح ٢٢٦.

٤ - شرح نهج البلاغة ٤: ٣٥ الخطبة: ١٤٧.

٥ - عوالى الالئ ٤: ٧٧.

أخاه مدة من الزمان، فلما رجع إلى أخيه وقد شد إحدى عينيه، فقال له أخيه العالم: يا أخي ما أصابك في عينك؟ قال: ما أصابها إلا خير، إلا أنني شددتها لأرى الدنيا بنصف عين لاستحق الثواب عليه.

قال له أخيه العالم: يا أخي، أخطأت لأنك لو كان الأمر كما ظننت لما خلق الله لنا عينين. ولكن أخبرني عن وضوئك للصلوة، أتحل هذا من عينيك أم لا؟ قال: لا بل أمسح يدي على الخرقة. قال: منذ كم؟ قال: منذ أربعين سنة أو أقل أو أكثر. قال: أعد صلاتك التي صليتها بتلك الطهارة، فهي غير مقبولة ولا واقعة موقعها^١.

ونواصل عرض الأحاديث والروايات عن علماء السوء:

قال علي عليه السلام: إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعمله^٢.

وقال النبي عيسى عليه السلام: ويل لعلماء السوء كيف تلظى عليهم النار^٣.

وعن الصادق عليه السلام قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصده عن طريق محبتني، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المربيدين، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع مناجاتي عن قلوبهم^٤.

وقال النبي عليه السلام: يا علي، إن في جهنم رحى من حديد تطحن رؤوس القراء والعلماء المجرمين^٥.

وعن الإمام علي عليه السلام: إن في جهنم رحى، أفلاتسألوني ما طحنتها؟ قالوا: ما

١ - لآلئ الأخبار ٢: ٢٦٦.

٢ - الكافي ١: ٤٤.

٣ - نفسه ١: ٤٧.

٤ - نفسه ١: ٤٦ ح ٥.

٥ - معارج اليقين، للشيخ السبزواري: ١٣٠ ح ٥، بحار الأنوار ٨٩: ١٨٤.

طحنها يا أمير المؤمنين؟ قال: العلماء الفجرة، القراء الفسقة، والجبابرة الظلمة،
والوزراء الخونة، والعرفاء الكاذبة^١.

وروي عن عيسى عليه السلام قال: يا علماء السوء، تأمرون الناس يصومون ويصلون
ويتصدقون ولا تفعلون ما تأمرتون، وتدرسون ما لا تعلمون، فيما سوء ما تحكمون،
تربون بالقول والأمانى، وتعملون بالهوى، وما يعني عنكم أن تنقروا جلودكم
وقلوبكم دنسة.

وبحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج الدقيق الطيب، ويبقى فيه
النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم، ويبقى الغل في صدوركم.
يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنتفع
منها رغبته.

بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت
ألسنتكم، والعمل تحت أقدامكم.

بحق أقول لكم: لقد أفسدتم آخرتكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح
الآخرة، فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق
للمدلجين، وتقيمون في محل المحتيرين، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليلووها
لكم. مهلاً مهلاً، ويلكم ماذا يعني عن البيت المظلوم أن يوضع السراج فوق ظهره
وجوفه وحش مظلم، كذلك لا يعني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم،
وأجوفكم منه وحشة معطلة، يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام،
توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكتبم على

منا خركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم المعلم من خلفكم حتى يسلّمكم إلى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سواتكم ثم يجذبكم بسوء أعمالكم^١.

وقد أكّد الإسلام على وجوب بذل العلم ونشره، لما في ذلك من تحقيق مصالح العباد وتوجيههم إلى الحق والهداية.

قال الصادق عليه السلام: قرأت في كتاب علي عليه السلام: إن الله لم يأخذ على الجهل عهداً بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهداً ببذل العلم للجهال، لأن العلم كان قبل الجهل^٢.

وعنه عليه السلام قال: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يتعلّموا^٣.

وقال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سُئلَ عن عِلْمٍ فَكُتِمَ حِيثُ يُجَبِّ إِظْهَارُهُ وَتَزُولُ عَنْهُ التَّقْيَةُ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامِ النَّارِ^٤.
ونهى الإسلام عن القول بغير علم خصوصاً في مجال الإفتاء.

عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السموات والأرض^٥.

وقال علي عليه السلام: لا يفتني الناس إلا من قرأ القرآن، وعلم الناسخ والمنسوخ،

١ - جامع السعادات ٢: ٣٠٥.

٢ - الكافي ١: ٤١ ح ١.

٣ - نهج البلاغة ٤: ١١٠ حكمة: ٤٧٨.

٤ - التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري: ٤٠٢ ح ٢٧٣.

٥ - دعائم الإسلام ١: ٩٦، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥١ ح ١٧٣.

وفقه السنة، وعلم الفرائض والمواريث^١.

وقال عليه السلام: لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كلّ ما تعلم، فإنّ الله سبحانه قد فرض على جوارحك كلّها فرائض يحتاج بها عليك يوم القيمة^٢. وعنده عليه السلام قال: من ترك قول لا أدرى أصيّبت مقاتلته^٣.

أنموذج من العلماء الربانيين

كان المولى الأردبيلي إذا تكلّم معه العالم عبد الله التستري في مسألة وتكلّما فيها، سكت الأردبيلي في أثناء الكلام، وقال: حتى أراجعها في الكتب، ثمَّ أخذ بيد التستري، ويخرجان من النجف الأشرف إلى خارج البلد، فإذا انفردا قال الأردبيلي: هات يا أخي تلك المسألة، فيتكلّم فيها ويتحققها الأردبيلي، ويقول التستري: يا أخي هذا التحقيق، لم لا تكلمت به هناك لما سألك؟ فيقول له: إنَّ كلامنا كان بين الناس، ولعلَّه كان فيه تنافس، وطلب المحرّر منك أو مني، والآن لا أحد معنا إلَّا الله سبحانه.

وقد بين الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في رسالة الحقوق حق المتعلم على أستاذه: وأما حق رعيتك بالعلم، فإنَّ تعلم أنَّ الله عزَّوجلَّ إنما جعلك قياماً عليهم فيما آتاك من العلم، وفتح لك من خزائنه، فإنَّ أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله، وإن منعت الناس علمك، أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقاً على الله عزَّوجلَّ أن يسلبك

١ - مسنن زيد بن علي: ٣٨٥.

٢ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٢٦ ح ٣٢١٥.

٣ - شرح نهج البلاغة ٤: ١٩ الحكمة: ٨٥

العلم وبهاءه ويسقط من القلوب محلك^١.

إن الأستاذ والمعلم يجب أن يكون الأسوة والقدوة لתלמידه، ليتعلم منه مكارم الأخلاق وحسن السيرة والأدب. وللمعلم أثر كبير على تلميذه قد يفوق تأثيره تأثير الوالدين. ونعم ما قيل في المقام.

أرني تلاميذك أقل لك من أنت.

المطلوب من المعلم نبذ القسوة والإهانة والشدة المفرطة مع تلميذه لأن هذه التصرفات تسد عليه باب التفاعل مع التلميذ، وتخلق الكراهية والاشمئزاز والحدق على المعلم، وتدفعه إلى غرس روح المشاكسه والعناد، وقد لمسنا ذلك ميدانياً في السنين الطوال التي قضيناها في التدريس.

وقد انتبهت الجهات المسؤولة إلى مسألة التربية التي هي غاية العلم وثمرته، فقاموا بتغيير عناوين الوزارات والمديريات من المعارف إلى التربية وهو أمر حسن جداً.

إن الأستاذ يعلم ويثقف، ويراقب ويربي، ويبحث على طلب العلم مع التحلّي بمكارم الخصال، ويدعو إلى الانسجام وحسن المعاشرة، والإخلاص لله في العبادة والإيثار والتواضع.

ومقابل هذا فإن للمعلم حقوقاً على تلميذه، قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في المقام:

وحق سائسك بالعلم: التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وأن لا ترفع عليه صوتك، ولا تجib أحداً يسأله عن شيء حتى

يكون هو الذي يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عيوبه، وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدواً، ولا تعاوبي له وليناً^١.

روى الحارث الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: من حق العالم أن لا يكثرون عليه السؤال، ولا يعنّت في الجواب، ولا يلْحَ عليه إذا كسل، ولا يؤخذ بثوبه إذا نهض، ولا يشار إليه بيد في حاجة ولا يُفْشى له سرّ، ولا يغتاب عنده أحد، ويُعظّم كما حفظ أمر الله، ويجلس المتعلّم أمامه، ولا يعرض من طول صحبته، وإذا جاءه طالب علم وغيرها فوجده في جماعة عمّهم بالسلام وخصه بالتحية. وليرحّف شاهداً وغائباً، وليرى له حقه فإن العالم أعظم أجرأ من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله، فإذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثلّمة لا يسدّها إلا خلف منه، وطالب العلم تستغفر له كُلُّ الملائكة ويدعوه من في السماء والأرض^٢.

وعنه عليه السلام قال: إذا قعد الرجل إلى أخيه فليسأله تفّقهاً ولا يسأله تعنتاً^٣.

وعن علي عليه السلام قال: إذا جلست إلى العالم، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع تعلم حسن القول، ولا تقطع على حديثه^٤. وروي أن الإسكندر المقدوني كان يقوم لأستاذه ولا يقوم لوالده، فسئل عن ذلك فقال: إن أبي أنزلني إلى عالم الدنيا، وأستاذي رفعني إلى عالم السماء. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

١ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٢٠ ح ٣٢١٤.

٢ - الإرشاد للمفید ١: ٢٣٠.

٣ - كنز العمال ١٠: ٢٤٧ ح ٢٩٣٢٣.

٤ - الاختصاص، للمفید: ٢٤٥.

المبحث الخامس والستون: في القصور والتقصير

قال عليه السلام: فَإِنْ عَفَوتَ يَا رَبِّي فَطَالِمَا عَفَوتَ عَنِ الْمُذْنِبِينَ قَبْلِي، لَأَنَّ كَرَمَكَ أَيْ رَبِّي يَحِلُّ عَنْ مُكَافَأَةِ الْمُقَصِّرِينَ، وَأَنَا عَائِدٌ بِفَضْلِكَ، هَارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ، مُتَنَجِّزٌ مَا وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْحِ عَمَّنْ أَخْسَنَ بِكَ ظَنَّاً، إِلَهِي أَنْتَ أَوْسَعُ فَضْلًا، وَأَعْظَمُ حِلْمًا مِنْ أَنْ تُقَاضِيَنِي بِعَمَلي، أَوْ أَنْ تَسْتَرِلَنِي بِخَطِيئَتي، وَمَا أَنَا يَا سَيِّدِي وَمَا خَطَرَى، هَبَنِي بِفَضْلِكَ سَيِّدِي، وَتَصَدَّقَ عَلَيَّ بِعَفْوِكَ، وَجَلَّلَنِي بِسَثْرِكَ، وَاغْفُ عَنْ تَوْبِي خِيَ بِكَرَمِ وَجْهِكَ.

التنجز: المطالبة بالوعد.

يتوجه عليه السلام بالدعاء إلى ربّه سائلًا إياته العفو، والعفو لا يكون إلا عن ذنب، والذنوب مثناً كثيرة، وقد وعدنا سبحانه بالعفو بعد التوبة النصوح، وقد شمل عفوه غيرنا من الأمم والأفراد. وقد تحدّثنا في مباحث سابقة عن توبة الأولياء واستغفارهم، فلتراجع.

ويعتذر عليه السلام إلى الله سبحانه على التقصير في العبادة، وذلك شأن أصحاب المقامات السامية، وذلك لعلّهم أنّ العبد مهما بلغ من الإخلاص والتسليم والعبادة، فإنه لا يدرك حقّ الله، وكيف يدرك ذلك والعبادة توفيق إلهي يحتاج إلى شكر، والشكر نفسه توفيق يحتاج إلى شكر.

قال عليهما في مناجاة الشاكرين: فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد.^١ إذن وقعنا في تسلسل لا نهاية له إلا الاعتراف بالعجز والتقصير، بل القصور ثم يستعيذ بفضل الله ورحمته، ويسعى إلى الهرب من عذاب الله ليلجأ إلى رحمته، فالذنب لولا الفيض الإلهي عليه بالتسديد والتوفيق، لا تتحقق توبته ورجوعه عن ذنبه بالندم والاستغفار، وإذا تاب العبد قابله الله بالرحمة والقبول والمغفرة.

ثم يحتاج على الله بما وعد من الصفح عمن أحسن به ظناً، ويطالبه سبحانه أن يعامله بالفضل والتجاوز والرحمة والحلم والرفق، ومن لم تدركه رحمة الله يكن من الخاسرين. ويسأله سبحانه أن لا يؤاخذه بذنبه فيضله إضلال مجازة، ثم يعرف بضعفه وحقارته ومسكته وقلة حيلته أمام عظمة الله وجبروته، ويطلب التفضيل بالعفو والكرامة بالستر، وذلك شأنه سبحانه لأنّه مصدر الخير والكرم.

عندما نتحدث عن التقصير في العبادة في الجانب الأخلاقي والعرفاني، فالمراد به الاعتراف بأنّ العبد مهما بالغ في عبادته وإخلاصه فهو مقصّر، بل قاصر في تأدية حقّ الله عليه. وهذا الاعتراف بذاته عبادة، وقد تحدّثنا عن هذه القضية في مبحث سابق.

أما عندما نتحدث عن التقصير والقصور من الوجهة الفقهية، فالقضية تختلف كثيراً. لقد بنى الإسلام أحکامه وشاد قواعده الفقهية على مبدأ التيسير

والتسامح والامتنان خصوصاً في الشبهات الموضوعية، وقد تحدث الفقهاء الأعلام عن أصلية الحلية فصاغوا قاعدة مدركها قوله ﷺ: كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ حَلَالٌ وَحَرَامٌ، فهولك حلال حتى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه^١. وقالوا بقاعدة التجاوز التي مضمونها: من شَكَ فِي الْجُزْءِ السَّابِقِ بَعْدَ الدُّخُولِ فِي الْلَّاحِقِ بْنَى عَلَى تَحْقِيقِ مَا سَبَقَ وَلَا يَعْتَنِي بِشَكِّهِ.

ومدرك القاعدة قول الإمام الصادق ع: يا زارة إذا خرجت من شيء ثم دخلت في غيره فشكك ليس بشيء^٢.

وقالوا بقاعدة الفراغ ومضمونها: إِنَّ مَنْ شَكَ فِي صَحَّةِ صَلَاتِهِ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنْهَا حُكْمُ بِصَحَّتِهِ، ومدرك هذه القاعدة:

قال الإمام الباقر ع: كُلَّ مَا شَكَكْتَ فِيهِ مَمَّا قَدْ مَضَى فَأَمْضِهِ كَمَا هُوَ^٣.

وقال ع: كُلَّ مَا شَكَكْتَ فِيهِ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّغَ مِنْ صَلَاتِكَ فَامْضِ وَلَا تَعْذُّ^٤.

وقالوا بأصلية الطهارة التي مضمونها: كُلَّ شَيْءٍ لَكَ نَظِيفٌ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ قَذْرٌ. وقالوا بأصلية صحة عمل المسلم^٥، وقالوا بحجية أمارية سوق المسلمين^٦ كما في البناء على تذكرة اللحم المشترى منه.

١ - الكافي ٥: ٣١٣ ح ٣٩.

٢ - تهذيب الأحكام ٢: ٣٥٢ ح ١٤٥٩.

٣ - نفسه ٢: ٣٤٤ ح ١٤٢٦.

٤ - نفسه ٢: ٣٥٢ ح ١٤٦٠.

٥ - نفسه ٢: ٢٨٥ ح ١٢.

٦ - القواعد الفقهية، للجنوردي ١: ٢٨٤.

٧ - نفسه ٤: ١٥٦.

وقالوا بقاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام^١، ومضمونها: إنَّ كُلَّ حُكْمٍ يَتَسَبَّبُ مِنْ ثَبَوْتِهِ ضررٌ عَلَى الْمَكْلُفِ فَهُوَ مَرْفُوعٌ وَغَيْرُ ثَابِتٍ فِي الشَّرِيعَةِ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ الْأَنْصَارِيُّ، وَمَدْرَكُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْقَضَاءُ الْمُشَهُورُ حَوْلَ سَمْرَةَ بْنَ جَنْدَبٍ.

وقالوا بقاعدة نفي الحرج ومفادها أنَّ كُلَّ حُكْمٍ يَسْتَلِزُمُ ثَبَوْتِهِ عَلَى الْعِبَادِ الْحَرْجُ فَهُوَ مَرْفُوعٌ.

قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^٢.

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾^٣.

ومن مصاديق هذه القاعدة تشريع التيمم بدلاً عن الغسل والوضوء، وجواز كشف المرأة جسدها أو عورتها أمام الطبيبة للفحص والعلاج.

والمراد من الحرج هو المشقة الشديدة والضيق، ولا يعني سلب القدرة، والحرج المراد هنا الشخصي لا الحرج النوعي الذي يلحظ النوع والغالب.

وأما الضرر فهو مما يستوجب النقص في المال أو البدن أو غيرهما، وهو أخص من الحرج.

وهاتان القاعدتان حاكمتان على جميع التكاليف الأولية والثانوية.

ولاشك أنَّهما من القواعد التسهيلية الامتنانية الرافعة للكلفة والمشقة.

وقال الفقهاء بقاعدة مضمونها: الضرورات تبيح المحظورات^٤ ومدركتها ما ورد

١ - القواعد الفقهية، للجنوردي ١: ١٨٨.

٢ - الحج: ٧٨.

٣ - المائدة: ٦.

٤ - انظر: مستند الشيعة: ١٠: ٢٧٠.

في الحديث الشريف: ما من شيء مما حرم الله إلا وقد أحله لمن اضطر إليه^١. فجوزوا أكل الميّة للضرورة مثلاً.

أما لو كان المكلف قد خرج باغياً لقتال الإمام باختياره، ثم اضطر إلى أكل الميّة خوفاً من ال�لاك، فيأكل وجوباً لكنه آثم، لأن حكمه اختيار أقل القبيحين وأخف الضررين، وذلك من مصاديق قاعدة تقول: الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار^٢.

أما حديث رفع القلم الوارد عن الإمام الصادق حيث قال عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: رفع عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، والحسد والطيرة، والتفكير في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة^٣.

فإن هذا الحديث لا يرفع إلا الوجوب والعقاب على المخالف من جهة التكليف، لكنه لا يرفع الآثار الوضعية المترتبة على العمل.
فلو قتل الإنسان غيره خطأً، أو أضرّ بمال غيره نسياناً أو جهلاً، أو لواكه على هدم دار غيره، فإنه يضمن الديات وعوض الجنائيات، رغم كونه غير آثم.
وما روی من أن عم الصبي خطأ^٤ فهو مختص بالجنائيات، ويكون هو أو ولدُه ضامناً لما أتلف، ولكن الصبي لا يعاقب، ومنه حديث رفع القلم عن الصبي حتى يحتمل.

١ - تهذيب الأحكام ٣: ١٧٧ ح ٣٩٧.

٢ - انظر: مائة قاعدة فقهية، للمصطفوي: ٦٩.

٣ - التوحيد، للصدوق: ٣٥٣.

٤ - تهذيب الأحكام ١٠: ٢٣٣ ح ٩٢٠.

أما الجاهل فمرة يكون جهله بالموضوع، وهذا يسقط الأثر التكليفي فقط دون الأثر الوضعي كما لو تصرف أو أضر بمصالح الغير. وهو من مصاديق القاعدة التي مدركها: أيّ رجل ركب أمراً بجهالة فلا شيء عليه^١.

ومن مصاديق ذلك كمال الوصل إلى الثوب النجس أو المغصوب جهلاً أو نسياناً فتصح صلاته، وكما لوأتى امرأة أجنبية بتصور أنها زوجته، فليس بذلك من الزنا، ولكن هناك دية مقدرة شرعاً.

ومرة يكون المكلف جاهلاً بالحكم عن قصور لا تقصير، ويمكن تصور هذا في الإنسان الجديد العهد بالإسلام، أو كان متخلفاً عقلياً، أو حديث البلوغ، وجاء بأعماله العبادية وفيها بعض الخلل.

وتارة يكون عن تقصير، وقد أجمع الفقهاء على أنّ الجاهل بالحكم كالعامد في بطلان العمل المخالف للواقع إلا في موارد خاصة قد قام عليها الدليل مثل: الجهر بدل الإخفاء، والإتمام بدل القصر، حيث خرج هذان الحكمان تخصصاً.

ومن المسائل الامتنانية المعبرة عن سماحة الشريعة ما ذكره الفقهاء في رسائلهم العملية: الأول: لا حكم للمفطرات مع السهو والنسيان في جميع أقسام الصوم، لحديث الرفع المذكور، إلا مسألة البقاء على الجنابة، فإنه لو نسي جنابته وصام قضى ما صام دون كفارة. الثاني: الجماع مع الإكراه: فلو كان فاعلاً بحيث يختار الفعل خوفاً من وعيد المكره له، وهنا يبطل صومه ويقضى دون الكفارة.

أما لو كان مع المقهورية المطلقة من كل جهة فلا يفطر لسلب الاختيار عنه مطلقاً. وكذا حكم الارتماس في الماء بناءً على القول بمفطريّة ذلك.

إذن المكرّه عنده اختيار، بينما المقهور يكون مسلوب الإرادة والاختيار.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
المعصومين.

المبحث السادس والستون: وما بكم من نعمة فمن الله

قال عليه السلام: سيدى أنا الصغير الذى ربىته، وأنا الجاهل الذى علمته، وأنا الضال الذى هديتها، وأنا الوضيع الذى رفعته، وأنا الخائف الذى آمنت به، والجائع الذى أشبعته، والعطشان الذى أزوتها، والعاري الذى كسوتها، والفقير الذى أغنىتها، والضعيف الذى قوتها، والدليل الذى أغرتها، والسميم الذى شفيتها، والسائل الذى أعطيتها، والمذنب الذى سترتها، والخاطئ الذى أقلتها، وأنا القليل الذى كثرتها، والممسطضعف الذى نصرتها، وأنا الطريد الذى أويتها.

التربية: إنشاء شيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، واستعمال رب على نحو الإطلاق لا يقال إلا لله سبحانه لأنّه المتকفل بمصلحة الموجودات والمتولى لمصالح العباد، وهو مسبب الأسباب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُثُّمْ فِي رَبِّ مِنَ الْبَغْثِ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُنَزِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىٍ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمَنْ كُمْ مَنْ يَتَوَفَّى وَمَنْ كُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلًا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^١.

الآيات تتحدث عن مراحل خلق الإنسان بكل وضوح، فالإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام، خلق من طين، ثم نفح الله فيه الروح، أما نسله فكان ابتداء خلقهم من النطفة التي تلقى في رحم المرأة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^٢.

إن الإزدواج بين الذكور والإناث أساس بقاء النسل واستمرارية الحياة، وقد جعلت الغريزة الجنسية الوسيلة الضاغطة للوصول إلى تلك الغاية، ويترب على هذا الإزدواج بناء الأسرة، والسكن الروحي والاطمئنان النفسي، وزيادة عدد السكان في المجتمع، وبه تحفظ الأنساب وترعى الحرمات، وتقسم المواريث.

إن النطفة البشرية التي يضعها الرجل في رحم المرأة تتحدد مع البوياضة الأنوثية، وقد وصف الرحم بالقرار المكين الذي يحافظ عليها من الفساد والضياع.

ثم تتغذى هذه النطفة بما كتب الله لها لتنمو إلى علقة، وهي القطعة من الدم الجامد، وهذه تنمو بالتلذذية إلى مضغة من اللحم، ثم يتم تصوير الجنين الذي تنفح فيه الروح، فيخرج من بطن الأم طفل له مؤهلات البقاء، وله

١ - المؤمنون: ١٢ - ١٤.

٢ - السجدة: ٧ - ٨

الأوصاف الخاصة المميزة، وهذا يشق طريقه في خضم الحياة ليكون ذا علم وإرادة، وقدرات وطاقات إبداعية لها دورها المحسوس في ميدان الحياة، ومواصلة مسيرة التطور والتقدم والارتقاء.

ولقد أبدع الحديث الشريف في تصوير مكانة الإنسان وسمو مقامه عند الله سبحانه. قال النبي ﷺ: الإنسان بناء الله في الأرض، ملعون من هدمه^١.

ثم يعود عليه إلى ذكر من الله سبحانه عليه فيعرف بأنه الجاهل الذي علّمه الله، وهذه الجملة تشير إلى حقيقةتين:

١. انتساب العلم إلى الله سبحانه، وانتساب الإنسان إلى الجهل.
٢. إعطاء الأهمية الكبيرة لمنزلة العلم والعلماء.

قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^٢.

إن المنطق العربي يعبر بالفؤاد والقلب واللب مشيراً إلى العقل، وهو مجموع المدارك الواقية عند الإنسان.

إن الطفل الذي يولد ليس عنده معلومات ومعارف، بل عنده حواس هي: حاسة السمع، وحاسة البصر: وحاسة اللمس، وحاسة الذوق، وحاسة الشم، وبعض الغرائز التي تُعبر عن الهدایة الطبيعية عنده كما في الارتضاع ونحوه.

إن الحواس تنقل المعاني إلى الذهن البشري فت تكون عنده تصورات ذهنية أولية، فيتصور الحرارة والبرودة، والألوان والرائحة، والحلوة والمرارة وغيرها. وهذه

١ - الكشاف، للزمخشري ١: ٥٥٤.

٢ - النحل: ٧٨.

المعاني التي مصدرها الحس تشكل التصورات الثانوية، فيتمكن الذهن البشري من انتزاع معانٍ جديدة يعبر عنها بالابتكار والإنشاء. ويطلق على هذه النظرية نظرية الانتزاع، وقد اعتمدتها أكثر المفكرين الإسلاميين.

إذن نصل إلى خلاصة مفادها:

١. إنَّ الْحَوَاسِ وَالْإِحْسَاسُ هُمَا مَنْشَا التَّصْوِيرِ لِلْمَعْنَى.

٢. وَهَذِهِ التَّصْوِيرَاتُ هِيَ مِبْدَأً وَأَسَاسُ الْفَكْرِ الْبَشَرِيِّ.

إنَّ هَذِهِ الْعِلُومَ الَّتِي هِيَ كَشُوفَاتُ لِأَسْرَارِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ، كُلُّهَا حَادِثَةٌ وَكَسْبِيَّةٌ، وَهِيَ هَبَاتٌ وَمَوَاهِبٌ وَفِيوضَاتٌ إِلَهِيَّةٌ.

قال تعالى: ﴿اَقْرَأْ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمِ * عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^١.

إنَّ الْعِلْمَ لَا مَصْدَرَ لَهُ غَيْرُ اللَّهِ الْخَالِقُ، وَالْإِنْسَانُ يُفْتَحُ لَهُ وَفَقَ سَنَنَ الْأَسْبَابِ الْكَوْنِيَّةِ بَعْضَ الْفَتوحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتُكَشَّفُ لَهُ أَسْرَارُ الْآفَاقِيَّةِ وَالْأَنْفُسِيَّةِ بِقَدْرِ حَاجَةِ الْحَيَاةِ وَالْإِنْسَانِ لِتَلْكَ الْفَتوحَاتِ، وَمِنْ مَقْتضَيَاتِ هَذَا التَّعْلِيمِ أَنَّ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَيَشْكُرُهُ وَيَحْمُدُهُ.

وَقَدْ تَحَدَّثَنَا عَنِ الْحَقِيقَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ مَنْزَلَةُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ فِي الْمَبْحَثِ الرَّابِعِ وَالسَّيِّئِينَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، فَلِيَرَاجِع.

وَقَالَ عَلَيْهِ اللَّهُ أَكْبَرُ: وَأَنَا الضَّالُّ الَّذِي هَدَيْتَهُ، وَهُنَا قَدْ نَسَبَ الْهُدَى إِلَيْهِ اللَّهِ، وَجَعَلَ الضَّلَالَةَ هِيَ الْحَالَةُ الْقَائِمَةُ الْمَلَازِمَةُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سُلِّبَتِ الْهُدَى إِلَهِيَّةُ مِنْهُ، وَقَدْ تَحَدَّثَنَا فِي الْمَبْحَثِ الْعَاشِرِ عَنِ مَوْضِعِ الْهُدَى، فَلِيَرَاجِع.

وَقَالَ عَلَيْهِ اللَّهُ أَكْبَرُ: وَأَنَا الْوَاضِعُ الَّذِي رَفَعْتَهُ.

والوضع: هو الخسيس الدنيء ومن كان في حسبه انحطاط ولؤم. والإنسان ابن التراب الذي تطأه الأقدام والأظلاف، وهو ابن الماء المهين وابن الدم والأرحام، وهذه الأوصاف ملزمة للإنسان، ولكن إذا شملته الرعاية الإلهية وتعلق بأذial الكرم الإلهي، فإن ذلك يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الضعف إلى الرقي والتسامي والكمال.

أما التواضع فهو التذلل والتخاشع وهو ضد التكبر، وبهذا يكون من مكارم الأخلاق ومحمد الصفات.

وقال عليه السلام: **وَأَنَا الْخَائِفُ الَّذِي آمَنَّتْهُ**.

لقد تحدثنا في المبحث السادس عشر، والمبحث الحادي والستين عن الخوف، فليراجعوا.

أما الأمان والأمان فالمراد الحالة المعتبرة عن الطمأنينة وسكون القلب، وهو ما يقابل الخوف. وقد نسب الأمان والأمان إلى الله سبحانه لأنّ أسباب توفير الأمان مستفادة منه سبحانه. إنّ الإنسان يدافع عن نفسه بأعضائه وفكره، وسلامه وجنوده، وحصونه وأمواله، ويدافع عن نفسه من أجل البقاء، فيدفع العطش بالماء، والجوع بالغذاء، والمرض بالدواء ويدفع عن نفسه الهلاك والخسران باتباع الهدایة والرشاد، وكل ذلك منسوب إلى الله وحده. وقد وصف الله نفسه بالمؤمن حيث قال: **﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾**^١.

والمؤمن هو الذي يعطي الأمان لغيره، قال سبحانه مذكراً قريشاً بنعمه عليهم:

﴿الَّذِي أَظْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^١.

وقال عَلَيْهِ الْكَلَامُ: وَالْجَائِعُ الَّذِي أَشْبَغَتْهُ، وَالْعَظِشَانُ الَّذِي أَرْوَيْتَهُ، وَالْعَارِيُّ الَّذِي كَسَوْتَهُ.

لقد خلق الله الإنسان وتکفل بتوفير أسباب الهدایة له، سواء الهدایة العامة أو الخاصة، والدنيوية أو الأخروية. إن الخالق لابد أن يكون هو المدبر، والهدایة من فروع التدبير، والمراد بها إيضاح الطريق والإصال إلى ما فيه كمال الإنسان وسعادته ومنافعه، والإطعام والسكنى من أهم مصاديق النعم الإلهية، وذكرهما من باب المثال لا الحصر، لأن نعم الله لا تُعد ولا تحصى. قال تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي * وَالَّذِي هُوَ يُظْعِمُنِي وَيُسْقِنِي * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِنِي﴾^٢.

وأما قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَالْعَارِيُّ الَّذِي كَسَوْتَهُ، فهو من إشعاعات قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِيَاسَاً يُوَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِيَأسِ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^٣.

والآية تشير إلى عدة حقائق:

١) إن الذي يكسو الإنسان ويستر عورته هو الله سبحانه وفق سنن الأسباب التي خلقها وأجرها.

٢) إن غاية اللباس مواراة السوأة التي يأبى الإنسان انكشفها، وأما الريش فإنما يَخْذُهُ الإنسان لجمال زائد على أصل الحاجة، وهذا اللباس يواري العورة

١ - قريش: ٤.

٢ - الشعراء: ٧٨ - ٨٠

٣ - الأعراف: ٢٦.

الظاهرية.

٣) لقد أشارت الآية إلى لباس آخر وهو لباس التقوى وهي حالة روحية وصفة محمودة تستر على الإنسان الرذائل وسوء الخلق وأمراض النفس وشمار المادّة والغريزة.

ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال في تفسير هذه الآية: فأما اللباس فالثياب الذي تلبسون، وأما الرياش فالملتاع والمال، وأما لباس التقوى فالعفاف، إن العفيف لا تبدو له عورة وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من الثياب^١.

وقال عليه السلام: والفقير الذي أغنىته.

وهنا نسب عليه الفقر لنفسه، ونسب الغنى لله.

قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^٢.

إن الغنى هو الوجدان، والفقير هو فقدان، وهما متقابلان لا يجتمعان بحال، ولا يرتفعان بحال، فالشيء إما موجود أو مفقود، فإن وجد فهو لله سبحانه، يعطي من يشاء ويمتنع من يشاء، وبذلك يكون هو الغني المطلق إذ بيده الخلق وله الملك وببيده التدبير وكل شيء قائم به. أما الإنسان فهو مخلوق مدبر، وهو متعلق ذاتاً وصفاتٍ بأمر خارج عن ذاته، يتوقف عليه وجوده وكماله، وهذا مطلق الفقر. وإذا نسب الغنى إلى الإنسان فبالامتداد، وعلى نحو المجاز والتخيل، لأنَّ

١ - تفسير القمي ١ : ٢٢٥.

٢ - فاطر: ١٥.

ذلك الغنى مسبوق بالعدم، وهو قائم بالله سبحانه، وليس من الملك الحقيقى الأصيل الذى لله سبحانه.

ثم نسب عليه الضعف لنفسه والقوّة لله تعالى، وقد وحّبه الله شيئاً من ذلك الفضل.

والضعف خلاف القوّة، وقد يكون في النفس وفي البدن وفي الحال. وقال أبو هلال العسكري: الضعف بضم الضاد إنما يكون في البدن، أما الضعف بفتح الضاد في العقل والرأي^١. وقد وصف القرآن الإنسان بالضعف حيث قال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^٢.

ثم يعود عليه لينسب الذل لنفسه والعزة والإعزاز لله سبحانه. إن العزيز هو الذي يَتَّهَرُ ولا يَتَّهَرُ، ولا يتصرّف ذلك بالأصلّة وعلى نحو الإطلاق إلا لله سبحانه. إنما غيره فهو ذليل مغلوب، مقهور منقاد، وإنما يستمدّ العزة من مصدرها الحقيقي وهو والله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^٣.

فحصر الله العزة لنفسه على نحو الأصلّة، وعلى رسوله والمؤمنين بالامتداد والإعطاء، ولم يترك لغيرهم إلا الذلة والجهالة.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى فَوْضَى إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه، ألم تر قول الله سبحانه وتعالى هنا:

١ - الفروق اللغوية، للعسكري: ٣٣٠ الرقم: ١٣١٦.

٢ - النساء: ٢٨.

٣ - المنافقون: ٨

﴿وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمؤمن ينبعي أن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً^١.

نرجو مراجعة المبحث الرابع والأربعين مبحث العزة توخيأ للاختصار.

ثم نسب عليه السلام السقم والمرض لنفسه، ونسب الشفاء والمعافاة لله سبحانه،

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ﴾^٢.

إن المريض يسعى لطلب العلاج والعافية بوساطة الأطباء وأنواع العقاقير، وكل ذلك مرجة العلم والخلق وجريان سنن الأسباب، وهي راجعة إليه تعالى. ثم يستمر عليه السلام بالثناء على الله سبحانه باعتباره المعطي لمن سأله، والساتر على ذنوب من عصاه، والمقييل للعثرات، والمكثر للقلة، والناصر للمستضعف، والمؤوي للطريد.

مدخل لغوي:

الرُّشْيَة: قال سيبويه: من العرب من يقول: رُشْوة ورُشْى بضم الراء ومنهم من يقول: رِشْوة ورِشْى، والأصل رُشْى. وأكثر العرب يقول: رِشْى بكسر الراء. ورَشَاةٌ يَرْشُوهُ، رَشْواً: أَعْطَاهُ الرِّشْوَةَ^٣. وفي الحديث: لعن الله الراشي والمرتشي والرائش^٤. والرائش هو الذي يُسدي بين الراشي والمرتشي لإعانته على الوصول إلى إحقاق باطل أو إبطال حق.

والرِّشَاء: الحبل والجمع أرشية، وهو ما يوصل به إلى الماء كما يوصل بالرِّشْوة إلى ما يطلب من الأشياء.

١ - الكافي ٥: ٦٣ ح ١.

٢ - الشعراء: ٨٠

٣ - لسان العرب ١٤: ٣٢٢.

٤ - مسند أحمد ٥: ٢٧٩، عوالى الالائى ١: ٢٦٦ ح ٦٠.

الدَّاهِيَّة: جمعها دَوَاهٍ: المصيبة والأمر العظيم، الأمر المنكر. داهية دهباء: شديدة، ودواهي الدهر: نوائب.

الجَبَارُ: هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد، ولا تنفذ فيه مشيئه أحد، والذي لا يخرج أحد عن قبضته، وتقصر الأيدي دون حمى حضرته، فالجبار المطلق هو الله تعالى فإنّه يجبر كل واحد ولا يجبره أحد^١.

الجَلِيلُ: هو الموصوف بنعموت الجلال، وهي: الغنى والملك والتقدس والعلم والقدرة وغيرها من الصفات. وهذا الوصف على إطلاقه لا يليق بغير الله سبحانه. مَهَلْ: يقال: مهل في العمل: عمله برفق ولم يعجل. وأمهل: أَنْظَرَ وَأَجَّلَ، وهو من مصاديق الرفق والسكون.

ارعوي يرعوي ارعواً عن الجهل: كف عنه ورجع.

إِقْرَاراتُ أَمَامِ اللَّهِ تَعَالَى

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَا يَا رَبِّ الَّذِي لَمْ أَسْتَحِيَكَ فِي الْخَلَاءِ، وَلَمْ أَرَاقِبْكَ فِي الْمَلَائِكَةِ، أَنَا صَاحِبُ الدَّوَاهِيِّ الْعَظِيمِيِّ، أَنَا الَّذِي عَلَى سَيِّدِهِ اجْتَرَى، أَنَا الَّذِي عَصَيْتُ جَبَارَ السَّمَاءِ، أَنَا الَّذِي أَعْطَيْتُ عَلَى مَعَاصِي الْجَلِيلِ الرُّشَا، أَنَا الَّذِي حِينَ بُشِّرْتُ بِهَا خَرَجْتُ إِلَيْهَا أَشْعِي، أَنَا الَّذِي أَمْهَلْتُنِي فَمَا ازْعَوْيْتُ، وَسَرَّتْ عَلَيَّ فَمَا اسْتَحْيَيْتُ، وَعَمِلْتُ بِالْمَعَاصِي فَتَعَدَّيْتُ، وَأَشْقَطْتُنِي مِنْ عَيْنِكَ فَمَا بِالْيَتُ.

يقف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو النجم الرابع من أئمة الهدى المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس أهل البيت وطهراهم تطهيراً، يقف بكل تواضع وأدب ليعرف إلى ربّه بارتكاب المعاishi واقتراف الذنوب سرّاً وعلانية، فلم يمنعه الحباء من الله

١ - شرح الأسماء الحسني، لأبي حامد الغزالى: ٦٣.

من مقارفة الذنب في السر، ولم يراقب الله في الملأ والعلانية وعلى رؤوس الأشهاد. وإذا كان هناك سرّ وإعلان، وغيب وحضور، فإنّما هو بالمنظور البشري، أما الله فكل شيء عنده حاضر ومكشوف.

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾^١.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^٢.

وقال عز علاه: ﴿وَإِنْ تَجْهَزْ بِالْقَوْلِ إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^٣.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾^٤.

إن الإنسان الذي يخاطر مع ربّه في المعصية والتمرد والعناد والتجربة، قد أوقع نفسه في أعظم الدواهي والأمور العظيمة الخطيرة، وقد قيل:

لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى من عصيت^٥.

كيف يتجرأ العبد على سيده، وكيف يعصي العبد الذليل الحقير، المسكين المستكين جبار السماء، بل كيف يتوصل إلى المعصية بالمال والقوة والإمكانيات التي من نعم الله عليه!

وقوله عز علّيـ: أنا الذي حين بشرت بها خرجت إليها أشعى، يشير إلى الجري وراء النزوات واللهاث وراء الشهوات والباطل، والبشرارة هنا للتهكم وهي من

١ - الرعد: ١٠.

٢ - الملك: ١٣.

٣ - طه: ٧.

٤ - الأنعام: ٣.

٥ - الأمامي، للطوسي: ٥٢٨.

إشعاعات قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^١.

ثم يقول عليه السلام: بأن الله أمهله وعامله بالرفق ولم يعجل في إنزال عقابه، لكنه لم يأبه ولم يرتدع، وستر على ذنبه فما استحبى، وظل سادراً في الغي والمعاصي متعدياً حدود ما أنزل الله، منتهكاً لحرماته سبحانه، حتى إن الله أسقطه من عينه، وحط مقامه لكنه لم يبال.

إن الإمام عليه السلام، وهو سليل النبوة والمصباح الرابع من مصابيح الإمامة، ينطق على ألسنتنا، ليعلمنا الخشوع وحسن التأدب مع الله، ويرثينا التربية الروحية الصالحة والصادقة في حسن التوجه إلى الله سبحانه والإقبال عليه.

ويعلمنا التواضع أمام الله ليتنزع من نفوسنا سرابيل الزهو والعجب والغرور لئلا نستكثر أعمالنا وعبادتنا وطاعتني ونستعظم بذلك أنفسنا، وذلك من موجبات حبط الثواب والقبول.

إن الإنسان لو علم مقدار نعم الله عليه، وأنه لو لا توفيق الله وتسديده لما جاء بتلك العبادة والأعمال الصالحة، بل إن الله تعالى أولى من الإنسان بحسنته، وهو أولى بسيئاته من الله، ومن هنا نلاحظ بأن الزهاد والعرفاء كلما ازدادت عبادتهم، كلما ازدادوا خضوعاً وخشوعاً، وما ذلك إلا لل بصيرة والوعي الذي يخرجهم من عالم الجهل والغفلة والغرور والعجب.

ورد عن النبي عليه السلام قوله: إلهي ما عملت من حسنة فلا حمد لي فيها، وما

ارتکبْتُ من سوء فلأعذر لِي فِيهِ^١.

إنَّ الْحَالَةَ الصَّحِيحَةَ هِيَ أَنَّ الْعَبْدَ كَلَمَا ازْدَادَ قَرْبًا مِنَ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ وَصَالِحِ
الْأَعْمَالِ، وَكَلَمَا ازْدَادَ خَضْرَوْعًا وَخَشْوَعًا، كَانَتِ الْمُتَّهَةُ لِلَّهِ عَلَيْهِ أَعْظَمُ.

إِنَّ الْعَجْبَ نِبَاتٌ بِذُورِهِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ، إِذْ رَبِّمَا يَسْتَكْثِرُ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ فَيَرِي أَنَّ
لَهُ عَلَى اللَّهِ حَقًّا وَفَضْلًا وَمُنْتَهَى، إِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ وَسَفَاهَةِ رَأْيِهِ،
وَمُقَابِلٌ هَذَا نَرِي أَنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَحْقِرُ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ أَمَامًا عَظِيمًا لِلَّهِ وَكَثِيرًا
نَعْمَهُ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا يَدْخُلُنَّ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قِيلَ: حَتَّى أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: حَتَّى أَنَا مَا لَمْ تَدْرِكْنِي رَحْمَةُ اللَّهِ^٢.

أَخْبَرَنِي أَحَدُ أَسَاتِذَتِي مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ أَنَّهُ شَاهَدَ أَحَدَ الْعَبَادِ الزَّهَادَ قَد
وَضَعَ لَحِيَتِهِ عَلَى ضَرِيعِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ
إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ لَحِيَتِي عَلَيْكَ أَنْ تَغْفِرْ لِعَلَيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَلِسَانُ حَالِي يَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، وَمَا قَدْرُ لَحِيَتِكَ تَجَاهُ عَلَيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
أَيَّهَا الْجَاهِلُ؟ لَقَدْ قَادَكَ غُرُورُكَ لِتَصْبِحَ مَطْيَةً مِنْ مَطَايَا الشَّيْطَانِ.

الإِمامُ عَلَيَّ بْنُ الْحَسِينِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُنَا الْأَسْلُوبُ الْأَمْثَلُ فِي مَعَالِجَةِ أَمْرَاضِ
النَّفْسِ كَالْكَبْرِ وَالْعَجْبِ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَشْرِحَ صَدَوْرَنَا لِلَّهِ وَلِلْهَدِيِّ، وَنَسْدَ الْمَنَافِذِ
عَلَى الشَّيْطَانِ لِئَلَّا نَقْعُ فِي حِبَائِلِ غُوايَتِهِ وَمَكْرَهِ وَوَسُوسَتِهِ، وَمِنْ أَجْلِ إِعْمَارِ
الْقُلُوبِ بِالْحُبْ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَلَا نَتَرَكُ أَيْ فَرَاغٍ لِغَيْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا هُوَ

١ - إِقْبَالُ الْأَعْمَالِ ١: ٢٥٥.

٢ - مُسْنَدُ أَحْمَدَ ٢: ٤٧٣، تَفْسِيرُ مَجْمِعِ الْبَيَانِ ٤: ٢٠.

طريق العصمة والنجاة، ولاأشك أن علاج أمراض النفس أصعب من علاج أمراض البدن.

نرجو مراجعة المبحث السابع والثلاثين حول مسألة العجب.

قال علي عليه السلام: جهاد النفس مَهْرُ العجنة^١.

وقال عليه السلام: جهاد النفس ثمن الجنة، فمن جاهدها ملكها، وهي أكرم ثواب الله لمن عرفها^٢.

وقال النبي عليه السلام: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه^٣. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

بحث في الجحود

قوله عليه السلام: إلهي لم أَعْصِكَ حِينَ عَصَيْتَكَ وَإِنَّا بِرُبُوبِيَّتِكَ جَاهِدٌ، وَلَا بِأَمْرِكَ مُسْتَخِفٌ، وَلَا لِعَقُوبَيَّتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلَا لِوَعِيدِكَ مُتَهَاوِنٌ، لِكِنْ خَطِيئَةً عَرَضْتَ وَسَوَّلْتَ لِي نَفْسِي، وَغَلَبْنِي هَوَى، وَأَعْانَنِي عَلَيْهَا شِقْوَتِي، وَغَرَّنِي سِرْكَهُ الْمُرْخِي عَلَيَّ، فَقَدْ عَصَيْتَكَ وَخَالَفْتَكَ بِجَهْدِي، فَالآنَ مِنْ عَذَابِكَ مَنْ يَسْتَقْدِنِي، وَمِنْ أَيْدِي الْخُضَمَاءِ غَدَأَ مِنْ يُخْلِصُنِي، وَبِحَبْلٍ مَنْ اتَّصَلْ إِنْ أَنْتَ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي. فَوَاسَوْتَا عَلَى مَا أَخْصَى كِتَابِكَ مِنْ عَمَلِي الَّذِي لَوْلَا مَا أَرْجُو مِنْ كَرْمِكَ وَسَعَةِ رَحْمَتِكَ وَنَهِيَكَ إِيَّايَ عَنِ الْقُنُوطِ لَقَنَطْتُ عِنْدَمَا آتَذَكَرُهَا، يَا خَيْرَ مَنْ دَعَاهُ دَاعٌ، وَأَفْضَلَ مَنْ رَجَاهُ راجٌ

١ - عيون الموعظ والحكم: ٢٢١.

٢ - عيون الموعظ والحكم: ٢٢٣.

٣ - الأمالى، للصدوق: ٥٥٣ ح ٧٤٠.

مدخل لغوي أول:

الجحود: قال الراغب نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه^١.

قال عز جل: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتُهَا أَنفُسُهُمْ»^٢.

وقال الجوهرى: الجحود: الإنكار مع العلم^٣.

المعصية: الخروج عن الطاعة.

الاستخفاف: الطيش وخفة العقل وسفاهة الرأي، ويقابله الوقار، ويستعمل في إزالة الإنسان عن اعتقاده بما يوقعون له من الشبهات.

متعرض: متصل، متحدّ.

الوعيد: يقال: الوعد وهو ما يكون في الخير والشر، أما الوعيد ففي الشر خاصة.

متهاون: مستخف، غير مبال، مستهزئ.

يقول الداعي عليه السلام وهو في مقام الاعتذار إلى الله، فيحاول أن يسترضي سيده عمما وقع منه من خطأ، فيقول: إن تلك المعااصي لم تقع عن جحود ولا إنكار لما وعد الله عباده من أليم العقاب وسوء المال، ولم تقع عن استخفاف بالأمر الإلهي، ولا عن تحدي وعناد واستهزاء، بل صدرت عن حالة ضعف وغفلة، وكل ابن آدم خطاء، وخير الخاطئين التوابون.

إن الإنسان مركب من جسد وعقل وغريرة، والغريرة والأهواء كثيراً ما تتصدّ عن سبيل الله، فيفارق الإنسان عقله في لحظة من اللحظات، ويفارق الفطرة ليقع في دائرة اللهو واللعب، ثم يستيقظ من غفلته ليرى نفسه خارجاً عن ميدان

١ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٨٨ كلمة جحد.

٢ - النمل: ١٤.

٣ - الصحاح، للجوهرى: ٤٥١ ٢: كلمة جحد.

الحق والحقيقة. وهنا يندم ويعاتب نفسه وينوي عدم الرجوع إلى الذنب، وهذه هي مقومات التوبة التي وعدنا الله.

مدخل لغوي ثان:

سؤال: التسويل: تزيين النفس لما تحصل عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن.

الهوى: ميل النفس إلى الشهوات وأثواب النزوات. وقد صور لنا القرآن الكريم الهوى بأنه إله يطاع ويُتبع من دون الله.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هَوَاهُ﴾^١.

الشقاوة: يقال الشقاوة بكسر الشين وضمها، والشقاوة والشقاء بالفتح: هي خلاف السعادة، وكما تكون السعادة أخروية، تكون دنيوية، والسعادة الدنيوية قد تكون في النفس أو البدن أو خارجهما، وكذلك تكون الشقاوة. والتعب أعمّ من الشقاوة.

غرّة: أصابه ونال منه على حين غفلة.

ويواصل علیه تقديم فروض الاعتذار بأن ما صدر منه إنما كان عن غفلة وعن تزيين الأهواء وتسويف النفس، وغلبة الهوى، وأن سوء حظه الذي قاده إلى ما وقع منه، ولقد غرّه ستر الله المرخي على عباده المذنبين.

ثم يعود ليلقي تبعه الأعمال القبيحة على نفسه لأنّ الذنب لا يمكن أن يُنسب إلى الله. إنّ المعصية من فعل فاعلها، والذي ينسب ذلك إلى الله فله أسوة بابليس الذي نسب غوايته إلى الله حيث قال: ﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

**صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَيْئَنُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ
وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ^١.

إن الإنسان غير مسلوب الإرادة والاختيار، ولم تكن هناك قوة في الكون تستطيع أن تجبره على فعل المعصية، وحاشا لله أن يرشده إلى طريق العدل والإحسان والهدى ثم يجبره على فعل المعصية ثم يعذبه. ونعم ما قال الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء ^٢

إن الذي يقترف المعاشي يتنكب الصراط القوي الموصى إلى الحقيقة والنجاة، وبذلك يكون قد أورد نفسه موارد الهالك والخسران ثم تتقطع به الأسباب ولا تنفعه الأنساب، وينقطع حبل الوصل بينه وبين الله، وهذا الحبل قد يكون العقل والفطرة، وقد يكون الكتاب والسنّة، وقد يكون الأخلاق الفاضلة وما ندب إليه الشارع المقدس. إذن هو الضياع وعدم الانتماء الذي يقود إلى خسران النفس، وهو أعظم الخسران.

قال تعالى: ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ^٣.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاغْتَصَمُوا بِهِ فَسَيِّدُ خَلْقِهِمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ ^٤.

وقال جل جلاله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ^٥.

١ - الأعراف: ١٦ - ١٧.

٢ - وفيات الأعيان، لابن خلkan ٢: ١٤٣.

٣ - آل عمران: ١٠٣.

٤ - النساء: ١٧٥.

٥ - آل عمران: ١٠١.

لقد أمر الشارع بالتوبة النصوح، ومن شرائط قبول التوبة إرجاع حقوق العباد وإرضاء الخصوم، لأنَّ أمر المداینة بين العباد من موجبات شدة الحساب وإنزال العقاب.

وقد تحدَّثنا في المبحث السادس والعشرين عن شرائط قبول التوبة، فليراجع.

ثم يبدي الداعي أسفه وندمه على سيئاته التي أحصاها ذلك الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ويبدى انزعاجه من وطأة تلك الأعمال، لكنه يعود إلى نافذة الأمل والرجاء وانتظار سعة رحمة الله الذي نهى عن القنوط واليأس من روح الله. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾^١.

والقنوط: هو اليأس من الخير وهو منهى عنه شرعاً.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾^٢.

أما الكتاب فالمتبدِّر إلى الذهن أنه الصحف التي تكتب فيها المعلومات والمعاني لتقييدها وضبطها. وقد يتَوَسَّع في ذلك فيشمل العلوم التي يستحضرها الإنسان في ذهنه كالكتاب المحفوظ في الذاكرة.

ويطلق الكتاب على الوحي المنزَل من السماء، وهو من أسماء القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾^٣.

ويطلق الكتاب على السجل لأعمال الإنسان الفرد:

١ - الزمر: ٥٣.

٢ - الحجر: ٥٥.

٣ - سورة ص: ٢٩.

قال تعالى: «وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَاهُ طَائِرٌ فِي عُنْقِهِ وَنُخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا»^١.

ويطلق على السجل لأعمال الأمة، قال تعالى: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاهِيَّةً كُلَّ أُمَّةٍ تُذَعَى إِلَى كِتَابِهَا»^٢.

ويطلق على السجل لأعمال العباد كافة :

قال تعالى: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطُقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَشْرِخُ مَا كُنَّا نَعْمَلُونَ»^٣.

ويطلق الكتاب على اللوح المحفوظ الذي تضبط فيه الأنظمة والحوادث الكونية، وفيه علم ما كان وما يكون إلى يوم القيمة.

قال تعالى: «وَمَا يَغْرِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»^٤.

ثم يعود الداعي للثناء على الله ومدحه ووصفه بأنه خير مدعا وخير مرجو، لأن غيره إذا أجاب فعلى قدره، وإذا أكرم فعلى قدره، وإن ما يوجد به هو من عطاء الله له ونعمه عليه، لأن الملك الحقيقي المطلق لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد، والعطاء من غير الله مشوب بالمنتهى، موصوف بالانقطاع والقلة، ولا يعطى غالباً إلا مقابل شيء، وأقلها أن يبيع السائل ماء وجهه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - الإسراء: ١٣.

٢ - الجاثية: ٢٨.

٣ - الجاثية: ٢٩.

٤ - يونس: ٦١.

المبحث السابع والستون: في القرآن

قال عليه السلام: اللهم بذمة الإسلام أتوسل إليك، وبحرمة القرآن أغتمد إليك، وبمحبتي الشفيعي الأقمي القرشي الهاشمي الغربي التهامي المكي المدنى أرجو الزلفة لذئتك.

يعود عليه السلام إلى مناجاته الفياضة بالخشوع والخضوع والتوكيل إلى الله، مقدماً الإسلام، وهو الدين الخاتم، والقرآن وهو المعجزة الخالدة، وحبه للنبي الخاتم، يقدم لهم شفعاء إلى الله سبحانه راجياً التقرب منه سبحانه.

القرآن الكريم هو الكتاب المنزّل على سيدنا محمد عليهما السلام، وهو المعجزة الخالدة للنبي الخاتم الذي جاء بالشريعة الخاتمة، ويحمل من الإعجاز والقابلية على التحدّي لما يحتويه من فصاحة وبلاغة، و المعارف حقة، وعلوم ثرة، وأسرار تشريعية وتكوينية، وهو كتاب هداية وإشاعع، وأحكام وأدب رفيع، وعقيدة خالصة وأخلاق، وموعظة وإرشاد، بل هو الشروة الفكرية والمعرفية لكل جيل، وفي كل عصر، وعلى كل أرض.

عدد سوره مائة وأربع عشرة سورة، منها المكي ومنها المدنى. وعدد آياته ستة آلاف ومائتان وستة وثلاثون آية.

ومن الصعب أن يخوض العالم والأديب في غمار القرآن، إذ هو كلام الله

ومعجزة النبي الأعظم ﷺ، وأنه الدستور للأمة، والمصباح الذي ينير مسالك الأفهام وميادين الحياة عبر العصور والأجيال، وهو المتوكّل بقيادة الإنسان إلى مرفاً الأمان والعدل والكرامة والحرية.

والمفترض أن يرجع المفسر والباحث إلى أهل البيت المعصومين عليهم السلام للاسترشاد بأقوالهم وفهمهم للقرآن، لأنهم عَدْلُ القرآن، وشريكه في هداية الأنام، حسب ما ورد في حديث الثقلين الذي أجمعـت الأمة على صحة صدوره عن النبي ﷺ^١. وإذا أقصينا أهلـ بيت العصمة فـ ستكون الثروة المعرفـية طائراً يـ يريد أن يـطير بـ جناح واحد، وهذا من الفـروض المستـحيلة.

أما العـلوم التي يـحتاجـها علمـاء التـفسـير للـخوضـ في هـذا المـضمـارـ فـ هي عـديدةـ. وهي على ما أـنـهـ العـلـامـ السـيـوطـيـ خـمـسـةـ عـشـرـ عـلـمـاـ عـلـىـ ما ذـكـرـهـ في كـتـابـ الإـتقـانـ:

الـلـغـةـ، وـالـنـحـوـ، وـالـتـصـرـيفـ، وـالـاشـتـقـاقـ، وـالـمعـانـيـ، وـالـبـيـانـ، وـالـبـدـيعـ، وـالـقـرـاءـةـ، وـأـصـولـ الـدـيـنـ، وـأـصـولـ الـفـقـهـ، وـأـسـبـابـ النـزـولـ، وـكـذـاـ القـصـصـ، وـالـنـاسـخـ وـالـمـنسـوخـ، وـالـفـقـهـ وـالـأـحـادـيـثـ الـمـبـيـنـةـ لـتـفـسـيرـ الـمـجـمـلـاتـ وـالـمـبـهـمـاتـ، وـعـلـمـ الـمـوهـبـةـ، وـيـعـنـيـ بالـأـخـيـرـ ماـ أـشـارـ إـلـيـهـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ: مـنـ عـمـلـ بـمـاـ عـلـمـ وـرـثـهـ اللـهـ عـلـمـ مـاـ لـمـ يـعـلـمـ^٢.

إنـ الشـعـارـ الـذـيـ رـفـعـهـ بـعـضـ الـمـسـلـمـينـ القـائلـ: حـسـبـنـاـ كـتـابـ اللـهـ، يـمـثـلـ فـكـرـةـ غـيـرـ نـاضـجـةـ، لـأـنـ الـاستـغـنـاءـ عـنـ أـهـلـ الـبـيـتـ، كـمـاـ قـلـنـاـ كـإـرـادـةـ الـطـيـرانـ بـجـنـاحـ وـاحـدـ، لـأـنـهـ عـدـلـ الـقـرـآنـ، وـبـعـدـ أـنـ أـكـدـ النـبـيـ ﷺ عـلـىـ وجـوبـ الرـجـوعـ إـلـيـهـ لـفـهـمـ

١ - انظر: حـدـيـثـ الثـقـلـيـنـ، لـنـجـمـ الـدـيـنـ الـعـسـكـرـيـ.

٢ - الـفـصـولـ الـمـخـتـارـةـ، لـلـمـرـتـضـيـ: ١٠٧.

٣ - تـفـسـيرـ الـمـيـزـانـ ٣: ٧٧.

القرآن واستيعاب معانيه، وسبر أغواره، ومعرفة أبعاده، لأنهم أعرف الناس بأغراض القرآن ومقداره، وهم الأدلة على الطريق الذي رسمه الله للوصول إلى مرضاته، وأهل البيت أدرى بما نزل في بيوتهم.

قال أبو الطفيلي: شهدتُ علَيْتَ أَمْ لِئَلِئًا يخطب وهو يقول: سلوني من كتاب الله، فوالله ما من آية إِلَّا وأنا أعلم بليل نزلتْ أم بنهاز، أم في سهل أم جبل^١، ولو شئتْ أورقتْ سبعين بعيرًا من فاتحة الكتاب^٢.

وقال ابن عباس: علم رسول الله من علم الله تبارك وتعالي، وعلم علي عليه السلام من علم النبي عليه السلام، وعلمي من علم علي عليه السلام، وما علمي وعلم أصحاب محمد عليهما السلام في علم علي عليه السلام إِلَّا كقطرة في سبعة أبحار^٣.

وقال عليهما السلام: لقد أعطي علي بن أبي طالب عليهما السلام تسعة أعشars العلم، وايم الله، لقد شارك الناس في العشر العاشر^٤. ولما استشهد أمير المؤمنين عليه السلام قال معاوية: لقد ذهب الفقه والعلم بممات علي بن أبي طالب عليه السلام^٥.

وقد ورد حرمة تفسير القرآن بالرأي، لأن القرآن حمال ذو وجوه، وفيه المحكم والمتشابه، والعام والخاص، والمطلق والمقييد، والناسخ والمنسوخ، وله ظهر وبطن وحد ومطلع.

١ - الطبقات الكبرى، لأبي سعد ٢: ٣٣٨.

٢ - عوالي الالئ ٤: ١٠٢.

٣ - الأمازي، للمفید: ٢٣٦.

٤ - ذخائر العقبى: ٧٨.

٥ - الاستيعاب ٣: ١١٠٨.

قال النبي ﷺ: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار^١.

وقال ﷺ: من قال في القرآن بغير ما يعلم، جاء يوم القيمة ملجمًا بلجام من نار^٢.

وقال ﷺ: من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ^٣.

وعن رسول الله ﷺ قوله: المرأة في القرآن كفر^٤.

إن المفسر المطلع على علوم آل محمد ﷺ وروایاتهم، المتضلع في علومهم المتمكن من العلوم المطلوبة للتفسير، فهذا يمكنه الرجوع إلى القرآن كله ليعطي ما استفاده من آراء في تفسير كل آية آية، لأن القرآن كلام يصدق بعضه ببعضًا، ويبيّن بعضه ببعضًا، ويشهد بعضه على بعض. ولقد وصف الله سبحانه

القرآن بأنه تبيان لكل شيء^٥:

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^٦.

فاحشاً أن يكون مبييناً لكل شيء ولا يكون مبييناً لنفسه.

وقال الصادق ع: إذا حدثكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله^٧.

فضل القرآن

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

١ - عوالي الآلئ ٤: ١٠٤ ح ١٥٤.

٢ - منية المرید: ٣٦٩.

٣ - سنن الترمذی ٤: ٢٦٩ ح ٤٠٢٤.

٤ - مسند أحمد ٢: ٣٠٠، سنن أبي داود ٢: ٣٩٢ ح ٤٦٠٣.

٥ - النحل: ٨٩

٦ - المحسن ١: ٢٦٩ ح ٣٥٨، الكافی ١: ٦٠ ح ٥.

صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ^١.

وقال سبحانه: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾^٢.

وقال النبي ﷺ: فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه^٣.

وقد وصفه الحديث الشريف بأنه حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وأنه النور والسراج، والبحر، والمنهاج، والفرقان، والشفاء، والعز، والحق، وينبوع العلم، وروضة العدل، والري لعطش العلماء، وربيع قلوب الفقهاء، وأنه الذكر والرحمة للمؤمنين...^٤.

فضل قراءة القرآن

لقد أكد الشارع المقدس على شد الإنسان بالقرآن الكريم باعتباره القائد والإمام، والموجه والهادي والمرشد، وقد ندب إلى قراءته والتدبّر في آياته من أجل العمل بأحكامه والالتزام بأخلاقه وأدابه.

قال الإمام الباقر ع: قال رسول الله ﷺ: من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كتب من الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثة مائة آية كتب من الفائزين، ومن قرأ خمس مائة آية كتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كتب له

١ - إبراهيم: ١.

٢ - آل عمران: ١٣٨.

٣ - سنن الترمذى ٤: ٢٥٦ ح ٣٠٩٤.

٤ - وردت هذه الصفات في أحاديث متفرقة، راجع: الجوامر الحسان ١: ٦ للشعالبي، الدر المتشور ٦: ١٥ وج ٦: ٣٣٧.

قنطار تبر^١.

قنطار تبر: جلد ثور مملوء ذهباً.

وعن الصادق عَلَيْهِ الْكَلَام قوله: عليكم بتلاوة القرآن، فإن درجات الجنة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيمة يقال لقارئ القرآن: إقرأ وارق، فكلما قرأ آية رقى
درجة^٢.

وقال الإمام السجّاد عَلَيْهِ الْكَلَام: آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها^٣. وروي على لسان الروايات أن القراءة في المصحف خير من القراءة عن ظهر قلب، وأن القارئ في المصحف يمتع ببصره ويخفف عن والديه وإن كانوا كافرين^٤.

ورد في الحديث الشريف: أنّ البيت الذي يقرأ فيه القرآن، ويذكر الله تعالى فيه تكرّر بركته، وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدّرّي لأهل الأرض، وأنّ البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله تعالى فيه تقلّ بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين^٥.
وليس العبرة بكثرة القراءة بل بالاعتبار والتدبر، والاتّباع والتفكير.
وقد ورد في الآثار أنّ القرآن شافع مشفع لقارئه، العامل بأحكامه، المتّأدب
بآدابه.

١- الكافي ٢: ٦١٢ ح ٥.

٢- الأمامي، للصدق: ٤٤١ ح ٥٨٦.

٣- الكافي ٢: ٦١٠ ح ٢.

٤- الكافي ٢: ٦١٣ باب قراءة القرآن في المصحف.

٥- الكافي ٢: ٦١٠ ح ٣.

قال الإمام الصادق عليه السلام: يجيء القرآن يوم القيمة في أحسن منظور إليه صورة، فيمر بال المسلمين فيقولون: هذا الرجل متى، فيتجاوزهم إلى النبيين فيقولون: هو متى، فيتجاوزهم إلى الملائكة المقربين فيقولون: هو متى، حتى ينتهي إلى رب العزة عزوجل فيقول: يا رب، فلان بن فلان أظمأ هواجره، وأسهرت ليه في دار الدنيا، وفلان بن فلان لم أظمأ هواجره، ولم أسهر ليه فيقول تبارك وتعالى: أدخلهم الجنة على منازلهم، فيقوم فيتبعونه فيقول للمؤمن: إقرأ وارق، قال عليه السلام: فيقرأ فيرقى حتى يصل كل رجل منهم منزلته التي هي له فينزلها^١.

وورد أنه أنيس النفوس في الوحشة، قال علي بن الحسين عليهما السلام: لومات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي، وكان عليه السلام إذا قرأ: مالك يوم الدين، يكررها حتى كاد أن يموت^٢.

وعن علي عليه السلام قال: من أنس بتلاوة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان^٣.
وورد أنه كتاب عمل لا كتاب حفظ، بل قل: إنه نظرية تدرس للممارسة والتطبيق، إذ يرسم المنظومات العقائدية والقانونية والأخلاقية والمنهجية للإنسان.

قال الصادق عليه السلام: الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة^٤.
وعن علي عليه السلام قال: وتعلموا القرآن فإنه ربيع القلوب، واستشفعوا بنوره فإنه

١ - الكافي ٢: ٦٠١ ح ١١.

٢ - الكافي ٢: ٦٠٢ ح ١٣.

٣ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٤٣٧.

٤ - الكافي ٢: ٦٠٣ ح ٢.

شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجّة عليه أعظم، والحسنة له ألزم، وهو عند الله ألم^١.

وورد أنه الغنى الذي لا غنى بعده، فقد ورد عن الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ قوله: من قرأ القرآن فهو غنيٌ ولا فقرٌ بعده، وإنما به غنىٌ^٢.

وقال النبي ﷺ: من أعطاه الله القرآن فرأى أن رجلاً أعطي أفضل مما أعطي
فقد صغر عظيماً، وعظم صغيراً^٣.

وُسْئِلَتْ إِحْدَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ فَقَالَتْ: لَقَدْ
كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ^٤.

ولكن ورد في الأثر المعتبر: كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه^٥.
إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْعَنُ أَهْلَ الضَّلَالِاتِ وَيَلْعَنُ مَنْ يَؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْعَنُ
مِنْ يَكْتُمُ الْحَقَّ وَالْهُدَىَ، وَيَلْعَنُ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتَ، وَيَلْعَنُ الظَّالِمَ وَالْمُفْسِدَ،
وَيَلْعَنُ أَكْلَةَ الرِّبَا وَالْبَاغِينَ وَسَفَاكِيَ الدَّمَاءِ وَالْزِنَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَمَا نَفْعَلْ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ لَوْ
صَدَرَتْ مِنْ هُؤُلَاءِ؟

القرآن خالد:

قال الإمام الباقر عليه السلام: إن القرآن حي لا يموت، والآية حية لا تموت، فلو كانت

١- شرح نهج البلاغة ١: ٢١٦ الخطبة: ١١٠

٢- الكافي ٦٠٥ ح ٨

٣- الكافي ٢: ٦٠٥ ح ٧

٤ - مسند أَحْمَد ٦ : ٩١

٥ - بخار الأنوار ١٨٥ : ٨٩ ح ٢٤

الآية إذا نزلت في الأقوام وما تواترت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين^١.

وعن الصادق عليه السلام قال: إن القرآن حي لم يمت، وأنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا^٢. وورد في الحديث الشريف: ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض، ولكل قوم آية يتلوها، هم منها من خير أو شر^٣.

وقد قال علماء الفقه والأصول: إن خصوص المورد لا يخصّص الوارد^٤.

الإعجاز القرآني

الإعجاز: وهو في الاصطلاح أن يأتي المدعى لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنـه غيره شاهداً على صدق دعواه^٥. إن النبوة سفارة بين الله سبحانه وبين خلقه، والنبي هو ذلك السفير المؤمن على الوحي وعلى مصالح العباد، ولا بد له من الإتيان بالدليل القاطع على صدق نبوته.

والمعاجز ليست دليلاً على أصل النبوة، لأن منصب النبوة ضرورة اجتماعية

١ - تفسير العياشي ٢: ٢٠٣ ح ٦.

٢ - تفسير العياشي ٢: ٢٠٤ ح ٦.

٣ - تفسير العياشي ١: ١٠ ح ٧.

٤ - كما عليه السيد محسن الحكيم في: حقائق الأصول ٢: ٤١٢، والسيد سعيد الحكيم في: المحكم في أصول الفقه ٢: ٥٦ وج ٥: ٤٠٦، والسيد الروحاني في: متنقى الأصول ٤: ٢٤٦.

٥ - البيان، للسيد الخوئي: ٣٣.

بحكم العقل، إذ لا يمكن أن يخلق الله عباده ويتركهم همّلاً من دون نظام وشريعة، إن النبوة هداية تشريعية للبشر شأنها شأن الهدایة التكوينية للمخلوقات.

ولما كان العقل وحده لا يكفي للقيام بمهمة الهدایة، وربما كان ذلك باعثاً على الاختلاف، لذا كان الوحي والنبوة من الضرورات العقلية. أن مهمّة العقل هو إدراك الكليات كما لو حكم بأن شكر المنع من الواجبات، وأن مقدمة الواجب واجب، وكما لو قال بحسن العدل والصدق، وحكم بقبح الظلم والكذب، أمّا الأحكام الفرعية الجزئية فمن مهامات الكتاب والسنّة.

وليس المعجزة دليلاً على صدق المعارف الحقة وأهلية الأحكام والتشريعات التي يأتي بها الأنبياء لأنّها تطابق المرتكزات العقلية والفطرية للإنسان.

إذن المعجزة دليل قطعي على تشخيص النبي الذي نصّبته السماء لتولي القيادة والإمامية العظمى العامة والولاية المطلقة على المجتمع، وهي دليل على صدق ما يرد بواسطته من أحكام وتشريعات.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيرَةُ﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾^٢.

والآية الثانية نزلت في وجوب تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حaritha وهي كارهة لذلك الزواج، ثم طلقها زيد لعدم الانسجام بينهما، وتزوجها النبي

١ - القصص: ٦٨.

٢ - الأحزاب: ٣٦.

بأمر السماء، إنها الولاية المطلقة لله بالأصلة وللنبي ﷺ بالامتداد.

وقد ورد في الأثر المعتبر أن النبي ﷺ قد تزوجها بغير إذن، بل كانت تقول لنساء النبي ﷺ: كلّكُنْ زوجكُنْ آباؤكُنْ، أَمَا أَنَا فَقُدْ زوجنِي اللَّهُ^١.

وإذا أردنا أن نقرب الفكرة بمثال من عالم الواقع، فإن الوالي الجديد يحتاج إلى مرسوم مختوم من قبل السلطان يدل على أنه مكلف بإدارة الولاية. والمعجزة خرق للنوميس الطبيعية، وهذا لا يقع إلا وفق العناية الإلهية الخاصة للأنبياء.

والمعجزة تجيء لتحدى أرباب الفنون والصناعات والمهارات في ذلك العصر، فقد جاء موسى عليه السلام بالعصا واليد البيضاء والأيات الأخرى في زمان شاع فيه السحر والشعبنة، فعلم أرباب الفن والاختصاص أن ما جاء به موسى ليس من السحر، فكانوا أول من آمن به، وجاء عيسى عليه السلام بمعجزاته التي أحيا بها الموتى، وطبب الأكمه والأبرص، فشهد له أساطير الطلب أن ما جاء به لم يكن عن دراسة وتطبيق لقواعد وقوانين الطلب، بل هو أمر خارج عن قدرة الإنسان فكانوا أول من آمن به، وأصبحوا الحجة على قومهم.

وجاء النبي ﷺ بالقرآن الكريم في أمة كان لها قصب السبق في البلاغة والفصاحة والأدب، فاعترف له أرباب الفن أن قرائه كلام لا ينتمي إلى العقل البشري وقابلاته.

والقرآن ليس المعجزة الوحيدة للنبي ﷺ، بل ورد في بحار الأنوار للعلامة

المجلسي الثاني أنَّ معجزاته عليه السلام بلغت ٤٤٠ معجزة^١.

وقد عجز العرب وغيرهم من أصحاب الفنون والقابليات عبر كل الأجيال، وعلى كل أرض عن مجارة القرآن، بل عن الإتيان بسورة واحدة، وهي قد لا تتجاوز العشر كلمات، فوقفوا عاجزين مغلوبين، لذلك حاربوه بالدعایات والاتهامات الباطلة والأساليب الخسيسة، وشهروا سيفهم ورماحهم لمقاومة الدعوة، ولكنَّ أسلتهم كلَّت في ساحة التحدِّي لبيانه ومجاراة قرآنـه.

يقول سيدنا الطباطبائي متّبع: إنَّ الآية لا تتحدى ببلاغة القرآن وفصاحتـه فحسب، بل السياق في هذه الآية وفي سائر الآيات التي وردت مورد التحدِّي يشهد على أنَّ التحدِّي إنما هو بما عليه القرآن من صفة الكمال ونعت الفضيلة من اشتتماله على مخ المعرف الإلهية، وجوامع الشرائع والأحكام العبادية والقوانين المدنية السياسية والاقتصادية والقضائية والأخلاق الكريمة والأدب الحسنة، وقصص الأنبياء والأمم الماضية، والملاحم والأخبار الغيبية، ووصف الملائكة والجنّ والسماء والأرض والحكمة والموعظة، والوعد والوعيد، وأخبار البدء والعود، وقوَّة الحجَّة وجزالة البيان، والنور والهدىـة، من غير أن يختلف جزء منه عن جزء، أضيف إلى ذلك وقوعه في بلاغته وفصاحتـه موقعاً تقصير عن البلوغ إليه أيدي البشر^٢.

إنَّ المعجزة سببها غير مغلوب لأنَّ لها انتساباً إلى الله سبحانه، أما الفنون والصناعات والاكتشافات فترجع إلى إعمال القدرات والمواهب وإلى الجهد البشري، وهذه أسباب محدودة، مغلوبة بالأسباب التي تقابلها.

١ - بحار الأنوار ١٧: ٣٠١ ح ١٣ عن مناقب آل أبي طالب.

٢ - تفسير الميزان ١٠: ٦٥.

بل جعل الله عدم ورود الاختلاف والتناقض فيه دليلاً على صدوره عن الله، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا﴾^١.

عدم التحريف وعدم الزيادة أو النقصان في القرآن

إن مذهب أهل البيت عليهما السلام والذى عليه أساطين العلماء والفقهاء يجمع على أن القرآن قد جمعه النبي عليهما السلام^٢ ، ولا أقل من كونه محفوظاً في صدر أمير المؤمنين عليهما السلام والزهراء والأئمة المعصومين عليهما السلام ، بل كان موضع اهتمام الصحابة الكرام، الأخيار الأبرار، وأنه محفوظ بالإرادة التكوينية والعناية الإلهية من كل ما يمكن أن يعتريه من تحريف أو ضياع أو زيادة أو نقصان.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الدِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٣.

إن القرآن وعلى لسان السنة الشريفة هو الثقل الأكبر، وأهل البيت هم الثقل الأصغر، وإنهما لا يفتران حتى يردا الحوض، والتمسك بهما هو صمام الأمان للأئمة من الوقوع في الضلال، فكيف يمكن تصور وجوب التمسك بشيء فيه اختلاف وتناقض وتحريف وزيادة ونقصان.

ولقد ورد على لسان الروايات أنَّ ما خالف كتاب الله من حديث أو قول أو فعل أو اعتقاد فاضربوه على الجدار، واحكموا بطلانه، ومن هنا وجب الحكم بحفظ القرآن. والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ المعصومين.

١ - النساء: ٨٢

٢ - انظر: البيان، للسيد الخوئي: ٩٠

٣ - الحجر: ٩

المبحث الثامن والستون: في النبي محمد ﷺ

نرجو القارئ العزيز مراجعة مبحث النبوة من كتابنا الموسوم بالباحث الواضحة^١، ومراجعة مبحث النبي محمد ﷺ في كتابنا الموسوم بالنجوم الظاهرة في سماء العترة الطاهرة للاستزادة ومجانبة الإطالة والتكرار.

ولادته ﷺ

لقد كانت ولادة النبي الأعظم ﷺ حادثاً مدوياً كبيراً يتاسب مع عظمة صاحب الرسالة.

عن علي عليه السلام قال: لما ولد رسول الله ﷺ أقيمت الأصنام في الكعبة على وجوهها، فلما أمسى سمع صيحة في السماء: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً^٢.

ولقد رأى الملائكة ليلة ولد ﷺ تتصعد وتتنزل، وتسبح وتقدس، وتضطرب النجوم، وتساقط علامة لميلاده، ولقد هم إبليس بالظعن من السماء لما رأى من الأعاجيب في تلك الليلة، وكان له مقعد في السماء الثالثة، والشياطين

١ - المباحث الواضحة: ٦٢ - ٧٧.

٢ - المناقب، لابن شهر آشوب ١: ٣١.

يُسترقون السمع، فلما رأوا العجائب أرادوا أن يسترقوا السمع فإذا هم قد حجبوا عن السماوات كلها، وزُرموا بالشہب، دلالة لنبوة محمدٍ ﷺ^١.

وقد أجمع المؤرخون على انفطار إيوان كسرى وسقط منه أربع وعشرون شرفة، وانطفاء نار المجنوس، وغاصت بحيرة ساوة ليلة ولادته، فهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤي بن غالب، بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب المذكور في نسبة ﷺ وهو الجد الخامس له:

نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا
مَا فِيهِ إِلَّا سَيِّدٌ مِنْ سَيِّدٍ حَازَ الْمَكَارَمِ وَالثُّقَى وَالْجُودَا^٢
ولقد ولد ﷺ يوم السابع عشر من ربيع أول على روايات مذهب أهل البيت، وذلك عام الفيل^٣، وذكر الكليني في الكافي أن هناك رواية تقول يوم الثاني عشر من ربيع أول^٤، والأشهر هو الأول عندنا.

والامر أعمق من ذلك وأسبق تاريخاً وذكراً، فقد روى الصدوق في إكمال الدين بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عليهما السلام عن النبي ﷺ قال: والله ما خلق

١ - الاحتجاج، للطبرسي ١: ٣٣١.

٢ - يذكر مثل هذا الشعر في مقام بيان الحسب الرفيع فقد نقله في: كشف الغمة ٢: ١٤٠ في مقام بيان نسب الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، ونقله ابن الأثير في: الكامل في التاريخ ١٢: ٤٣٧ في: بيان نسب المتوكّل على الله ابن المعتصم.

٣ - المقنة: ٤٥٦، تهذيب الأحكام ٦: ٢.

٤ - الكافي ١: ٤٣٩.

الله خلقاً أفضلي مني، ولا أكرم عليه مثني، ثم يستطرد الحديث ذكر النبي عظمته عليه السلام إلى أن يقول: إن أول ما خلق الله تعالى أرواحنا، فانطبقنا بتوحيده وتمجيده، ثم خلق الملائكة، فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمورنا، فسبحنا لتعلم الملائكة أنا خلق مخلوق، وأنه تعالى منزه عن صفاتنا، فسبحت الملائكة لتسبيحنا، ونرّهته عن صفاتنا...^١

وعن علي عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد عليه السلام قبل خلق السماوات والأرض، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، والجنة والنار، وقبل أن خلق آدم ونوحأ و Ibrahim و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و موسى و عيسى و داود و سليمان^٢.

وعنه عليه السلام قال: إن الله خلق نور محمد عليه السلام قبل خلق المخلوقات كلها بأربعين ألف سنة وأربعة وعشرين ألف سنة وخلق منه اثنين وعشرين حجاباً^٣. وقد ورد ذكره الشريف على لسان الأنبياء السابقين بالنص القرآني والسنة الشريفة، فقد ورد عنه عليه السلام قوله: أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى قومه^٤.

وفيه إشارة إلى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: «رَبَّنَا وَابْنَنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَنْهَا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرِيكِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^٥. وقوله على لسان عيسى عليه السلام: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ يَا أَيُّنِي إِنِّي رَسُولٌ

١ - إكمال الدين: ٢٥٤ ح ٤.

٢ - الخصال: ٤٨٢ ح ٥٥.

٣ - بحار الأنوار ٢٥: ٢٤ ح ٤٣.

٤ - الطبقات الكبرى، لابن سعد ١: ١٥٠.

٥ - البقرة: ١٢٩.

الله إلينكم مصدقًا لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدِي اسمه أَخْمَدُ^١. بل ورد في الآثار المعتبرة أنَّ آدم سأله الله بحقِّ محمد وآلِه الكرام طلباً للتوبة بعد أن شاهد أسماءهم على ساق العرش^٢.

شبهة ورد

هناك شبهة يثيرها بعض أهل الأديان السابقة مفادُها أنَّ جميع أتباع الشرائع الإلهية السابقة يقرُّون ويعرفون بنبوة موسى عليه السلام مثلاً، وبصحة صدور معجزاته، لكنَّ اليهود والنصارى لم يؤمنوا بنبوة محمد عليه السلام، والأولى اتّباع ما ثبت اتفاق الجميع عليه، ونبذ ما اختلفوا فيه.

ولكن هناك مغالطة واضحة، إذ نحن كمسلمين لم نعاصر موسى عليه السلام ولم نشاهد معجزاته وأياته، ولم يكن هناك دليل قاطع على صدورها لولا أنَّ القرآن الكريم والنبي الأعظم عليه السلام قد أثبتا ذلك فاما به فنحن آمنا بالنبي محمد عليه السلام وبما جاء به من عند الله، وهذا هو الذي قادنا للإيمان بنبوة الأنبياء السابقين وبصحة صدور المعجزات على أيديهم.

وقد وردت هذه الشبهة على لسان رجل نصراني أثارها في مجلس الإمام الرضا عليه السلام فقال: أصلحك الله، ما تقول في فرقة ادعوت دعوةً فشهدت لها فرقة أخرى معدلون؟

قال عليه السلام: لا شيء لهم، قال: فإنَّا نحن ادعينا أنَّ عيسى عليه السلام روح الله وكلمته، فوافقنا على ذلك المسلمون، وادعى المسلمون أنَّ محمداًنبيٌّ فلم نتابعهم

١ - الصف: ٦.

٢ - رسائل المرتضى ٣: ١١٦.

عليه، وما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه.

فقال الرضا عليه السلام: ما اسمك؟ قال: يوحنا. قال عليه السلام: يا يوحنا، إنا آمنا بعيسى روح الله وكلمته الذي كان يؤمن بمحمد وبشربه، ويقرّ على نفسه أنه عبد مربوب، فإن كان عيسى الذي هو عندك روح الله وكلمته هو الذي آمن بمحمد وبشربه، ولا هو الذي أقرّ الله بالعبودية، فنحن منه براء، فأين اجتمعنا^١؟

منزلته وفضله ومناقبه

قال النبي عليه السلام: إن الله تعالى بعثني إلى كل أحمر وأسود ونصرت بالرعب، وأحل لي المغنم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة للمذنبين من أمتي يوم القيمة^٢. وقال عليه السلام: كل نسب منقطع يوم القيمة إلا نببي ونبي^٣.

ويكشفه فخرأ قول الله تعالى فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَئْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾^٤.

وقد أجمع المفسرون العظام أن المقام المحمود هو الشفاعة الكبرى له عليه السلام. وسئل الصادق عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: نعم، فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد عليه السلام؟ قال عليه السلام: نعم، للمؤمن خطايا وذنوب، وما من أحد إلا ويحتاج إلى شفاعة محمد عليه السلام يومئذ^٥.

وقد تحدثنا في المبحث الخامس عشر من هذا الكتاب عن موضوع

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٥٤ ح ٥٦.

٢ - تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٢٩٦ ح ١٥٩٢.

٣ - الأمازي، للطوسي: ٣٤٠ ح ٦٩٥ / ٣٥.

٤ - الإسراء: ٧٩.

٥ - تفسير العياشي: ٢: ٣١٤ ح ١٥٠.

الشفاعة، فليراجع. وفي الحديث القدسي، قال الله تعالى: يا محمد، وعزّتي وجلاي، لولاك ما خلقت أرضي ولا سمائي، ولا رفعت هذه الخضراء – السماء –
ولا بسطت هذه الغراء^١.

وقد حدثنا تلميذه الأوفي عَلَيْهِ الْبَلَاغُ عن علمه عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ فقال: علم النبيَّ عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ علم جميع النبيين، وعلم ما كان، وعلم ما هو كائن إلى يوم قيام الساعة^٢.

وقد مدحه الله في كتابه المبين، ووصفه بالحرص على المؤمنين، وبالرأفة والرحمة بهم، وبأنه أذنَ خيرِ لهم، وأنه لعلى خلق عظيم.

أخلاقه وصفاته وسلوكيه
لقد كان النبيَّ عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ الأنموذج الأكمل خَلْقًا وخلقاً وسيرةً، وكان له من تمام القوة والثبات والتحمل، والعظمة والكمال ما لم يكن لغيره يأجماع المؤرخين وأصحاب السير.

قال عليَّ عَلَيْهِ الْبَلَاغُ: كان عَلَيْهِ أَجود الناس، وأسخاهم كفأً، وأوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفاهم ذمةً وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رأه بدبيهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر مثله قبله ولا بعده عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ^٣.
ويقول عَلَيْهِ الْبَلَاغُ في شجاعته عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ: لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبيِّ عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذِ بأساً^٤.

ولم يعرف النبيَّ عَلَيْهِ اللَّهُ الْجَلَالُ الترف والتتوسعة في المعاش أبداً.

١ - سبل الهدى والرشاد ١: ٧٥.

٢ - بصائر الدرجات: ١٤٧ ح ١.

٣ - الفارات ١: ١٦٧.

٤ - مكارم الأخلاق: ١٨، نظم درر السعطين: ٦٢.

قال علي عليه السلام: ما شبع النبي عليه السلام من خبز بثلاثة أيام حتى مضى لسبيله^١.
 وقال عليه السلام: كنامع النبي عليه السلام في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة عليه السلام ومعها كسرة خبز، فدفعتها إلى النبي عليه السلام فقال: ما هذه الكسرة؟ قالت: قرصاً خبزته للحسن والحسين عليهما السلام وجئتكم منه بهذه الكسرة، فقال النبي عليه السلام: أما إنك أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث^٢.

ولقد خرج عليه السلام من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة، ولا حجراً على حجر، وكان يخيط ثوبه بيده، ويخصف نعله بيده، ويكتس البيت، ويشتري ما يحتاج من السوق ويحمله إلى بيته.

سئل علي عليه السلام: كيف حبكم لرسول الله عليه السلام؟ فقال عليه السلام: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأبائنا وأمهاتنا وأبنائنا ومن بذل الشراب على الظماء^٣.

وقال أبوذر رضي الله عنه: كان رسول الله عليه السلام يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حين يسأل، فطلبنا إلى النبي عليه السلام أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه^٤.

وقال علي عليه السلام: سمعت النبي عليه السلام يقول: بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها^٥.
 وقال أبو سعيد الخدري: كان رسول الله عليه السلام أشد حياءً من العذراء في

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٧٠ ح ٢٨١.

٢ - عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٣ ح ١٢٣.

٣ - إمتناع الأسماع ١٣: ١٧٨.

٤ - مكارم الأخلاق: ١٦، سنن النسائي ٨: ١٠١.

٥ - الأمالى للطوسى: ٥٩٦ ح ١٢٣٤.

خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه^١.

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: أتى رسول الله عليه السلام ملوك فقال: إن الله يخبارك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً أو ملكاً رسولاً. فنظر إلى جبرائيل وأومنا بيده أن تواضع، فقال عليه السلام: عبداً رسولاً متواضعاً، فقال الملك مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً. قال: ومعه مفاتيح خزائن الأرض^٢.

وعن علي عليه السلام قال: وكان عليه السلام يبكي حتى يبتلى مصلاه خشية من الله عزوجل من غير جرم^٣.

وكان عليه السلام كثير التوبة والاستغفار والذكر، وكان يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، وكان كثير البر بالإخوان وبالمؤمنين، بل كان يحب أن يداعب إخوانه وزائريه، وكان معروفاً بالعفو والصفح عن من أساء إليه. وكان عليه السلام شديد الاهتمام بالصلاة حتى قال: جعل قرة عيني في الصلاة^٤.

وقالت عائشة: كان رسول الله عليه السلام يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه^٥، وكان عليه السلام كثير الصيام والاعتكاف وقراءة القرآن والصلاحة بالليل.

معاجزه عليه السلام

لقد تحدثنا في المبحث السابق عن معاجز النبي عليه السلام وقلنا: إن أشهرها

١ - مكارم الأخلاق: ١٧، صحيح البخاري ٧: ٩٦.

٢ - الكافي ٢: ١٢٢ ح ٥.

٣ - الاحتجاج، للطبرسي ١: ٣٣١.

٤ - الكافي ٥: ٣٢١ ح ٧.

٥ - عوالى اللالى ١: ٣٢٤ ح ٦١.

وأفضلها القرآن، وقد بلغت معاجزه الآلاف، وقد روى لنا المؤذخون وأصحاب السيرائه كان يتحدث عن المغيبات، ويكلّم الحيوان والأشجار والصخور والحصى وكلها تسبيح بين يديه بصوت مسموع. قال علي عليهما السلام: دعاني النبي وأنا أرمد العين، فتفل في عيني وشد العمامه على رأسي وقال: اللهم، أذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت بعدها حرًا ولا بردًا^١.

وقال علي عليهما السلام: خرجنا مع النبي عليهما السلام في غزوة عطش الناس، ولم يكن في المنزل ماء، وكان في إماء قليل ماء، فوضع عليهما أصابعه فيه فتحلب منها الماء حتى روي الناس والإبل والخيول، فتزود الناس، وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير، ومن الخيول اثنا عشر ألف فرس، ومن الناس ثلاثون ألفاً^٢.

وقال عليهما السلام: انشق القمر بمكة فلقتين، فقال رسول الله عليهما السلام: اشهدوا، اشهدوا بهذا^٣. وروي أن قريشاً سألت رسول الله عليهما السلام أن يريهم آية، فدعاه الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم، فقالوا: هذا سحر مستمر^٤.

ورواة الأحاديث في هذه الواقعة كثير من الصحابة، منهم: علي بن أبي طالب عليهما السلام، وأنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وجبير بن مطعم، وعبد الله بن عباس، وحذيفة بن اليمان. وقال أصحاب الصناعة: إن الحديث بلغ حد التواتر عند الفريقيين.

إن المعاجز التي تظهر على يد الأنبياء إنما تكون بالإذن الإلهي، وبما أتاهم الله

١ - الأمازي، للمفید: ٣١٨.

٢ - الأمازي، للطوسي: ٣٤١ ح ٦٩٧، بحار الأنوار ١٨: ٢٥ ح ٣.

٣ - الأمازي، للطوسي: ٣٤١ ح ٦٩٧.

٤ - تفسير القمي ٢: ٣٤٠، صحيح مسلم ٨: ١٣٣.

من كمال وتركية تؤهّلهم للقيام بأعباء المهام الملقاة على عواتقهم، ولما كان لا نستبعد قيام الملائكة بالوساطة في أمر التدبير من إماتة وإحياء وغيرها وذلك لكمالهم وطهارتهم، فلماذا نستبعد ذلك من الرسل والأنبياء، وقد قيل: حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد^١؟ ونحن في كل هذا لا نقول باستقلالية الملائكة والأنبياء في خرق العادة والنوميس، بل ننسب ذلك لـلإذن الإلهي.

قلنا: إن الاعتقاد بالنبوة هو امتداد طبيعي للاعتقاد بالتوحيد، ولما كان منصب النبوة ضرورة عقلية، وكان الإنسان مفطوراً على الاختيار، كان لا بد من توفر عنصرين مهمين لمواصلة الحياة القائمة على التوحيد:

وجود النظرية الشاملة التي تستوعب الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية، وقيام الأنظمة التي تحدد مسارات الحياة، على أن تتصف بالموضوعية والواقعية، وترتبط بين الإنسان وخالقه، وبين الفرد ومجتمعه، وبين الدنيا والآخرة، وفي هذا ضمان أكيد لكي تصب منافع الفرد في بحر المجتمع الكبير، وتصب مصلحة المجتمع في مصلحة الفرد ولو أخره.

القيادة الحكيمية التي يكون وجودها ناطقاً عن الله المتصف بالكمال المطلق، والخير المطلق، لتكون الأسوة الحسنة فكراً وسلوكاً وممارسة.

وليس هذا الأمر من البساطة بمكان إذا كان نطالب الإنسان بصياغة نظرية كاملة مترابطة تستوعب كل ميادين الحياة و مجالاتها، وتجسيدها عملياً. وكل ما شاهدناه وعاصرناه وقرأناه على مسرح الحياة الكبير عبر التاريخ، لم يستطع أن يوفر ذلك خارج المناهج التي جاءت بها الأديان والشائع. لقد كانت الشعارات

البرّاقة كثيرة، والوعود الخلابة تعمي الأبصار، كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

والنظرية التي جاء بها النبي ﷺ يشير محتواها إلى يد الربوبية المتصفة بالكمال المطلق، لأنَّ الإنسان فكراً وسلوكاً ابن بيته، وكلنا نعلم أنَّ الجزيرة العربية كانت في فراغ كبير من الفكر والحضارة والتقدُّم، بل كانت ساحة للشرك والوثنية والجهل والعصبيات والمظالم والأمية والتأنّّى عن ركب الحضارات. نعم كان هناك أفراد من أصحاب المذاهب والقابليات الفذة في مجال الشعر والخطابة، وبعضهم ممَّن يتَّصف بالنبل والكرم ومحاسن الأخلاق، لكنَّهم قليل. ولم يكن النبي ﷺ إلى أنَّ بلغ الأربعين من عمره الشريف من أصحاب القابليات الأدبية، ولا من أصحاب النظريات والدعوات، بل كان رجلاً معروفاً بالصدق والأمانة ورجاحة العقل والمرءة. ولقد جاءت النظرية الإسلامية لتحمل فكر السماء وقيم الألوهية، فأقامت صرح العدل والمساوة، وأرست قواعد التوحيد والعلم والتحرر الذهني الذي يتماشى مع فطرة الإنسان وفطرة الكون.

وجاءت التشريعات لتنظم حياة الفرد في كلّ مجالات الحياة، وجاءت بالتعاليم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية والصحية، وبالتكافل والضمان الاجتماعي، ولا يمكن أن يصدر هذا من رجل أمي ابن تلك البيئة المتقوّقة على جهلها وعزلتها وجاهليتها.

وجاءت الرسالة الإسلامية لتشهد عن الرسل والأنبياء وتصفهم بكل ما هم أهلـه من الصدق والجهاد والفضيلة والتضحية في سبيل الله والدفاع عن المبادئ.

وهنا تتحدث الآيات القرآنية عن تاريخ سحيق لم يسمع به النبيَّ ﷺ من قبل، ولم تذكره كتب أهل الأديان إلَّا بشكل ممسوخ محرف، وليس هذا إلَّا من إخبار الغيب، ويشير كذلك إلى أخلاقية الرسول وعظمته رسالته، ونعود من جديد لنقول بأنَّ يد الغيب وراء ذلك كُلُّه. وقد تحدَّثنا في المبحث السابق عن بلاغة القرآن وفصاحته حتَّى شهد له ألدُّ أعداء الإسلام وهو الوليد بن المغيرة بقوله المشهور: والله لقد سمعت كلامًا، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلىه لمثير، وإنَّ أسفله لمعذق، وإنَّه ليعلو وما يعلى عليه، وإنَّه ليحطِّم ما تحته^١.

هذا من ناحية المحتوى الفكري، أمَّا من ناحية الممارسة والتطبيق العملي، فقد كان النبيَّ ﷺ يمثل الرسالة ويجسدُها بكلِّ أبعادها وأخلاقيتها وعطائها، واستطاع في فترة قصيرة أن يبني النفوس الكبار والأرواح السامية والقلوب العاملة بالإيمان والتضحية، ويخرج جيلًاً كان له شرف الفتوحات في كل ميدان، بل كان له شرف الشهادة على الأمم والواسطة في ذلك.

والمراد من الوسطية والشهادة هو أنَّ النبيَّ الأنموذج الأكمل الذي يوزن به أفراد الأمة فكراً وسلوكاً ومنهجية، وتكون الأمة التي خرَّجها هي الشاهدة على بقية الأمم، وهي التي لها دورها الفاعل في الريادة والقيادة في كلِّ مجال، وهي الأمة التي وصفها الله بائنها خيرأمة أخرجت للناس.

قال تعالى: «وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»^٢.

١ - تفسير جوامع الجامع ٣: ٦٧٣.

٢ - الحج: ٧٨.

ولابد أن نشير إلى حقيقة مهمة وهي أنّ الحاكمية لله وحده، أمّا النبي فهو مبلغ عن الله سبحانه، وهو مسدّد بالعصمة الإلهية في مجال التلقّي والتبلّغ والسلوك الشخصي، والستة النبوية الشريفة التي هي عدل القرآن لها تمام الحجّية باعتبار أنّ النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، فقوله وفعله وتقريره حجّة على العباد، والقرآن هو الذي أمر بطاعة الرسول، وجعل طاعته كطاعة الله، وطاعة الرسول ﷺ تقع في طول طاعة الله لا في عرضها.

والله سبحانه له الولاية المطلقة بالأصلالة على خلقه وذلك من ناحية التشريع وتدبير الأمور الدنيوية، وهي للنبي ﷺ بالامتداد والتبعية، إذ هو أولى بهم من أنفسهم، وهذه الولاية والقيمة القائمة على التصرف والحبّ والامتزاج من أعظم نعم الله، وهي صمام الأمان لضمان المسيرة وسلامتها من التحريف والتغيير والضياع.

ولقد ابْتَلَى النَّبِيَّ ﷺ كَمَا ابْتَلَى مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، بِالْعُتَةِ وَأَهْلِ
الْعِنَادِ وَالْحَسْدِ وَالْجَهَالَاتِ، لَقَدْ كَانَ الْعَوَامُ وَالْمُصَابُونَ بِالاضْطَرَابِ وَالخَلْلِ
الْفَكْرِيِّ وَالسُّطْحِيَّةِ وَالسُّذَاجَةِ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ يَجْبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ طَرَازِ آخَرِ فِي
الْخَلْقِ وَالْقَدْرَاتِ، بَلْ كَانُوا يَرِيدُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَكُونُ لَهُمْ اسْتِقْلَالٌ عَنِ اللَّهِ،
وَعَنِ سُنْنِ الْأَسْبَابِ فِيمَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ.

وَكَانُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ يَجْبُ أَنْ يَكُونَ مَمْنَ أُوتِيَ سُعَةً فِي الْمَالِ وَبِسْطَةً فِي
الْجَسْمِ، وَعِلْمًا بِالْمُغَيَّبَاتِ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِقْلَالِيَّةِ وَعَلَى نَحْوِ الْأَصْلَالِ، بَلْ كَانُوا
يَرِونَ أَنَّ النَّبِيَّ يَجْبُ أَنْ لَا يَأْكُلَ وَلَا يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لِلتَّكَبُّ.

ولقد أكَّدَ الْأَنْبِيَاءُ لِأَقْوَامِهِمْ أَنَّ النَّبُوَّةَ وَالْبَشَرِيَّةَ لَا تَتَعَارِضُانِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ بَشَرٌ
يُوحَى إِلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ لِحَمْلِ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ. قَالَ تَعَالَى: «قُلْ مَا كُنْتُ بِذِعَا»

مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكُنْ إِنْ أَتَبْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ^١.
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآلته الطيبين الطاهرين.

المبحث التاسع والستون: بين الحرية والعبودية

قال عليهما: فَوَعِزْتَكَ لَوِ اتَّهَمْتَنِي مَا بَرِحْتُ مِنْ بَإِلَكَ، وَلَا كَفَقْتُ عَنْ تَمْلِقِكَ لِمَا أَلْهِمَ قَلْبِي مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِكَرَمِكَ وَسَعَةِ رَحْمَتِكَ، إِلَى مَنْ يَذْهَبُ الْعَبْدُ إِلَى إِلَى مَوْلَاهُ، وَإِلَى مَنْ يَلْتَجِئُ الْمُخْلُوقُ إِلَى خَالِقِهِ، إِلَهِي لَوْقَرْنَتَنِي بِالْأَصْفَادِ، وَمَنْعَتَنِي سَيِّبَكَ مِنْ بَيْنِ الْأَشْهَادِ، وَدَلَّتَ عَلَى فَضَائِحِي عَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَمْرَتَ بِي إِلَى النَّارِ، وَحُلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَبْرَارِ، مَا قَطْعْتُ رَجَائِي مِنْكَ وَمَا صَرَفْتُ تَأْمِيلِي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلَا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبِي.

مدخل لغوي:

نَهَرَهُ: زجره، طرده صائحاً به. وتملق: أظهر الود والتلطف والتذلل.

ال العبودية: قال الراغب في المفردات: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ﴾^١.

ال عبد الآبق: المملوك الهاوب من سيده.

قَرن: قيد وربط وأوثق. الأصفاد: الأغلال والقيود التي تجمع اليدين إلى

العنق. والسيب: العطاء. والأشهاد: جمع شاهد. الأبرار: جمع باز وَبَرٌّ. والبِرُّ: العطية، اللطف، الشفقة والتوسيع في الخير والإحسان، وينسب ذلك إلى الله تعالى نحو: «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُ الرَّحِيمُ»^١.

ويُنسب إلى العبد تارةً، فيقال: بَرٌّ العَبْدُ رَبُّهُ، أي بالغ في طاعته، فالبِرُّ من الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة.

هذا المقطع يرسم لنا صورة رائعة فياضة بالمشاعر، دافقة بالأحساس، صورة تعبّر عن اللجوء والانقطاع المطلق إلى الله سبحانه والاعتصام بعروته الوثقى، فلو نهره الله فإنه آلى على نفسه ألا يغادر، لا عصياناً بل لجوءاً واستعاذه، وأن لا يكف عن التوسل وإظهار سمة العبودية والذلة، معرفة منه بكرم الله وسعة رحمته.

ثم يتحجّج على الله متبعاً آداب العبودية بأكمل معانيها وأعمق صورها، فالعبد الآبق المتمرّد على سيده لابد أن يرجع إلى مولاه، وأنه لا يجد أحداً يجبره سواه، والمخلوق لا يجد ملجاً من الله إلا إليه، فماذا يفعل من ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، ماذا يفعل وهو في قبضة الله، إذن لابد من معالجة الموقف بالثناء والحمد، والاعتذار والتوكيل لمن بيده الأمور كلّها.

ثم يرسم لنا صورة تعبّر عن حالة عميقه مؤثرة لرجائه وحسن ظنه بالله وعفوه وكرمه، فلو وضع القيد في يديه وغلّتا إلى عنقه، ومنع عنه عطاء الله وكرمه، وكشفت الحجب والأستار عن الموبقات والمعاصي، فبدت واضحة أمام أهل الموقف، ثم صدر الأمر الإلهي بورود النار واقتحام الأخطار، فإنه عليه لا يقطع رجاءه ولا تخيب آماله في نيل العفو الإلهي، ويبقى قلبه عامراً بحبّ الله.

قلنا في المدخل اللغوي أن العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها وهي من استحقاق الله وحده.

وال العبودية تشير إلى الاسترقاق والتملك، وهي على إطلاقها لا تليق إلا أن تكون لله وحده، إن الله هو الخالق والمالك والمدير لأمر الكون والحياة، ومن هنا حكمنا له بلسان الحال ولسان المقال بالسيادة المطلقة التي تقابلها العبودية المطلقة، ولما كان الخلق والإيجاد له وحده فهو المالك وحده على نحو التكوين، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾^١.

وحيث أن التدبير له وحده كانت له الولاية المطلقة على نحو التشريع كذلك. إذن من ناحية التكوين يكون الإنسان مسلوب الإرادة والاختيار حتى في خلقه وخروجه من الدنيا، كغيره من المخلوقات، وأما من ناحية التشريع فالله يأمر ويشرع ويحكم، وللإنسان حرية الاختيار في الطاعة والمعصية، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكُفِرْ﴾^٢.
ولولا هذا الاختيار لما صلح العقاب ولا التكليف.

إذن السلطة الحقيقية محصورة بالله سبحانه، ومن حقه نفوذ إرادته في مخلوقاته كما هي في التكوين، ومسألة انقياد الإنسان لخالقه هي منشأ سعادته وضمان سلامته مسيرته وصلاحه في أمور دينه ودنياه. ومن هنا يكون الإنسان على مفترق طرقين لا ثالث لهما: الإيمان أو الكفر، أو قل: الإسلام والجاهلية. والعبودية لله سبحانه هي الوسام الإلهي الذي يحقق له سمو المقام

١ - مريم: ٩٣

٢ - الكهف: ٢٩

وغلّة المنزلة.

روي عن علي عليهما السلام قوله: كفاني فخرًا أن تكون لي ربًا، وكفاني عزًّا أن أكون لك عبدًا^١.

وقد وصف الله سبحانه ملائكته المقربين وأنبياء المسلمين بالعبودية قبل أن يصفهم بالرسالة والنبوة لأن العبودية هي المدخل لتلك المناصب والأوصاف، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَحْنُ﴾^٢.

وقال الله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادُ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^٣.

وقال علي لسان عيسى عليهما السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^٤.

وقال عز علاه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَنْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾^٥.

وقد ورد لفظ العبادة والعبودية في ما يقارب المائتين وسبعين موضعًا من القرآن الكريم، وما ذلك إلا لأهمية هذا المفهوم.

ومن خلال هذا العرض نصل إلى نتيجة مهمة، وهي أن الماليكية الإلهية تستلزم حرية التصرف، وسلب الإرادة، ووجوب الطاعة، وهذا لا ينافي كون الإنسان مختاراً في مسألة الطاعة والمعصية في جانب التشريع.

أما الاستعباد الدائم بين أفراد النوع البشري، فالاسترقاق له تاريخ طويل، وله

١ - شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٥٥ وانظر: الخصال: ٤٢٠.

٢ - الزخرف: ١٩.

٣ - الأنبياء: ٢٦ - ٢٧.

٤ - مريم: ٣٠.

٥ - الإسراء: ١.

أحكامه وقوانينه عند الأمم والشعوب، لقد كان العبيد والإماء بمثابة الحيوان الذي يُباع ويُشتري ويُستعمل في الخدمة، والعبد مسلوب الإرادة ولا يتمتع بالحرية، وتكون منافعه لمولاه، والاسترقاق له ثلاثة مناشئ، وهي:

١. الحروب التي يؤسر فيها المقاتل المحارب فُيُسترقق ويُستعبد.

٢. الولاية على الأولاد، وهذه كانت تعطي للأب حق التصرف في أولاده بالخدمة أو البيع أو الهبة وغيرها، وهذا أمر معروف عند الأمم الخارجة عن التشريعات الإلهية.

٣. الرئاسة والسلطنة التي تعطي صاحبها حق الاستعباد لأبناء الشعب ومصادرة حرّياتهم والتصرف فيهم كيما شاء ذلك الحاكم المتسلط.

والموالي المالكون يسخرون العبيد في ميادين العمل والإنتاج والخدمة ويحتلّون طاقاتهم، ويستغلّون قابلياتهم سعيًا وراء الإثراء والإسراف، وإشباع الشهوات وغيرها من الأهداف الدنيوية والغايات الشخصية.

وقد جاء الإسلام ليمارس دوره في إعمار الدنيا، فوجد نظام الاسترقاق قائماً، وكان العبيد هم عصب الحياة، والوقود لإدارة ماكينة الحياة، وحاول أن يقف الموقف الصحيح من مسألة الاستعباد، فقد حدد ولادة الآباء على أبنائهم، ومنعهم من حرية التصرف بهم، وأوجب عليهم حق الحضانة والإنفاق وال التربية إلى حد البلوغ، ليكون الولد والده على حد سواء في الحقوق والواجبات.

وجعل الإسلام الحرية هي الأصل، فالمولود يولد حرّاً، وكذلك منع المرأة حريتها المسلوبة، فمنع استرقاقهم واستعبادهم وحكم بالمساواة بين أفراد المجتمع، وجعل الكرامة الدينية هي التقوى.

وألغى الإسلام الفوارق الطبقية بين الحاكم والممحوم، فالحاكم الشرعي

الذي له نحو ولادة على الناس ليس له امتيازات واحتياجات تبيح له حق التصرف بالشعب وموارده ومقدراته ومقدساته، بل هو راعٍ ومسؤول عن رعيته، يقودهم بالعدل، ويصونهم بالحكمة، ويرعى الحرمات والمقدسات، ويبذل قصارى جهده لحفظ النفوس، وصيانة الأعراض والكرامات، والحفاظ على الملكيات العامة والخاصة.

إذن ألغى الإسلام منشأين من مناشئ الاسترقاق والاستعباد، وبقي القسم الثالث وهولاء هم أسرى الحروب، ويمكن تقسيمهم إلى قسمين:

الأول: الأسرى من الفرق الإسلامية المقاتلة، وهولاء لا يجوز استرقاقهم ولا مصادرة أموالهم كغنيمة، وقد رأينا سيرة أمير المؤمنين عليه السلام مع الناكثين لبيعته يوم النصر المبين في معركة الجمل، لقد أصدر الإمام عليه السلام التعليمات القتالية قبل بدء المعركة قائلاً:

وإذا هزمتموهם فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا أستره، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف العقول والأنفس، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات^١.

وعندما أراد المنتصرون اقتسام الغنائم والأسرى، قال عليه السلام لهم: لا، فال القوم أمثالكم. فقالوا: كيف تُحلّ لنا دماءهم وتحرّم علينا سببهم؟ فقال عليه السلام: كيف تحلّ لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام؟

وعندما أنكروا عليه ذلك، وألحوا في عنادهم وعننتهم، قال عليه السلام: اقترعوا، هاتوا

سهامكم، فأنتم يأخذ أمه (أي عائشة) في سهمه؟ أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة...^١.

فبهم القوم واستغفروا الله واعتذروا إليه، ثم قام عليه السلام بزيارة عائشة في خبائها، وهو يعلم أنها كانت تؤوي بعض الفارين من ساحة القتال، وبعض الجرحى من أعدائه، لكنه سلم عليها وخاطبها بالأئمة للمؤمنين ولاطفها. ولما أراد أن يسيرها إلى المدينة أمر أخاه محمد بن أبي بكر، والحسن والحسين بمرافقتها، وأرسل معها حرساً شديداً يجاوز الأربعين، ولما بلغت دارها كشف الفرسان عن حقيقتهم فإذا هم نساء^٢.

ولا يسعنا إلا أن نقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا معلم الدنيا، ونبراس الحق والعدل والإحسان.

الثاني: العدو المحارب الذي يكون وجوده منشأ لسفك الدماء وإهلاك الحرج والنسل، وهدم القيم الدينية وهتك الحرمات والمقدّسات، فيعد هذا في نظر الإسلام غدة سرطانية لابد من استئصالها، فهو لاء المفسدون يقف الإسلام منهم موقف الدفاع المستميت عن أتباعه ومقدّساته.

إن المحارب إما أن يواصل القتال إلى آخر رمق، وإما أن يدفع حرّيته مقابل حياته بالاستسلام، إذن يكون مبدأ الاسترقة له اختياراً، بعد أن وقف في خط المقاومة والعنف تجاه المبادئ والأصول الإنسانية والدينية.

ولانتصور أن الإسلام يسترقّ أهل الذمة والمعاهدين من أهل الكتاب

١ - شرح نهج البلاغة ١: ٢٥٠.

٢ - القصة بتمامها في: الكامل في التاريخ ٣: ٢٥٤، والبداية والنهاية ٧: ٢٧٤، والفصل المهمة، لابن الصباغ ١: ٤٢٥.

وغيرهم، فهو لاء تفرض عليهم الجزية، وهي مسألة رمزية، ولهم مقابل ذلك مجموعة من الامتيازات، كتوفير الأمان، والإعفاء من الخدمة العسكرية في الجيش الإسلامي، بل لهم ما لل المسلمين من ضمان اجتماعي وغيره.

وقد ذكر لنا التاريخ أنَّ أمير المؤمنين عَلِيًّا وفي خلافته الظاهرية شاهد رجلاً يستجدي فغضب لذلك وسأل خازن بيت المال عن هذه الظاهرة الغريبة، فقال الخازن: إنَّه من أهل الكتاب، فانظر إلى الزنار المعلق عليه، لكن الإمام أمر بإجراه الراتب الشهري له أسوة بأي مواطن لثلاثة تضطرب الحاجة إلى الاستجداء أو الانحراف^١.

ويكون المسلمون ملتزمين بما عاهدوا عليه الله سبحانه وتعالى مع غيرهم إلى الأجل الضروب، وقد منع الإسلام قتل الأولاد والنساء والشيوخ والقاعددين والمسالمين ممن لم يرفعوا السيف، ولم يجوز تعذيب الأسرى ولا التمثيل بهم. نعم هنا يصبح الأسير ملك يمين، فتسليبه عنده الحرية، وتكون منافعه لسيده، مع ضمان نفقته على سيده، وقد جرت سيرة المسلمين على رعايتهم وتأديبهم والقيام بشؤونهم، وحرم الإسلام سببهم وظلمهم وتکلیفهم بما لا يطيقون، بل نَدَبَ إلى تزويجهم والتخفيف عنهم وتعليمهم آداب الإسلام وأحكامه.

وقد وضع الإسلام مجموعة كبيرة من الأحكام التي توجب عتقهم كالكافرات، أو تندب إلى تحريرهم إذا ثبت صلاحهم، وللحاكم الشرعي الولاية في عتقهم بعد شرائهم من مواليهم إذا رأى الصلاح والحكمة في ذلك. بل رأينا

١ - ورد مضمون هذه القصة في: تهذيب الأحكام ٦: ٢٩٣ ح ١٨.

أن الأئمة عليهم السلام والأخيار والصلحاء كانوا يتزوجون الجواري والإماء، وبذلك يكون لهن السبيل إلى العتق، لأن الأمة إذا ولدت تصبح ملكيتها متزللة، وإذا مات سيدها فإنها تعتق على نحو الوجوب من حصة ولدها. ولربما يعترض قائل فيقول:

١. لماذا صادر الإسلام الحرية عن هؤلاء؟

٢. لماذا ألغى حرية التملك عنهم، وجعل منافعهم لأسيادهم؟

٣. لماذا يكون أولادهم ونساؤهم أسرى بذنب غيرهم؟

وهنا لابد من مجانية العواطف والسطحية، ولا بد من تحكيم العقول، فلا يمكن لعاقل أن يتصور أن من الحكمة إطلاق سراح المحارب ليستعد ثانية لمواصلة القتال والبغى والإفساد. ولا يمكن تصور إمداد هؤلاء بالمال وهو عصب الحياة ليزيد في قوتهم ومقاومتهم حتى يواصلوا الخصومة والمحاربة.

أما سبب الذراري والنساء فإنما كان بذنب آبائهم، فلعل هذا الموقف الحازم الشديد يدعو المحارب للعودة إلى صوابه وينظر إلى مستقبل هؤلاء فلا يتجرأ لحمل السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وهذا من الآثار الوضعية، وقد تحدثنا عن هذا في مبحث سابق، فليراجع.

ولقد بالغ الإسلام في موقفه الحازم من هؤلاء، فلم يجعل إعلان الإسلام وسيلة للتحرر من العبودية، لأن ذلك سيساعدهم على الالتفاف والتحايل في تنفيذ مآربهم.

أما الكلام في مسألة الحرية فيقع ضمن عدة نقاط:

منها: إن الإنسان خلق مفطوراً على الاختيار في أفعاله، ولكن البناء الاجتماعي القوي يستوجب تحديد الحريات الفردية عندما تصطدم بالمصالح

العليا وقواعد النظام والقوانين التي شرعت من أجل بقاء المجتمع وسلامته، وصيانة مصالح المواطنين.

إن الإنسان عندما تحدّد حرّيته الفردية ضمن ضوابط مدرّوسة، فهذا يشكّل نوع ضمان لحرّيته، لأنّ إطلاق الحرّيات وانفلاتها يشكّل ظاهرة خطيرة في العدوانية على المصالح الفردية والعامّة، ومن هنا وضع العقلاء والمشرّعون القوانين والتشريعات لتقييد الحرّيات ضمن ضوابط مدرّوسة عندما تصطدم مع حرّيات الآخرين، ونعم ما قيل: إنّ حرّيتك تنتهي عندما تصطدم بحرية غيرك.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
المعصومين.

المبحث السابع: في أحوال القيامة

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَسِّبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾^١.

تصور لنا الآيات الكريمة مشهدًا رهيباً مهولاً من مشاهد القيامة، يوم يقف الإنسان مذعوراً، طائش العقل، يغمره الخوف والرعب والحيرة وانقطاع السبل به، لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، لقد جيء به ليسمع النداء الإلهي صارخاً بالحق: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الدِّينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيْكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعِمُونَ﴾^٢.

لقد خارت قواهم وذهب مكرهم وكيدهم أدراج الرياح، ولم تمنعهم جنودهم وحصونهم من عذاب الله شيئاً، لقد بروزا لله الواحد القهار، وترى المجرمين يومئذ

١ - إبراهيم: ٤٧ - ٥٠

٢ - الأنعام: ٩٤

مقرئين، لقد ختم الله على أنفواهم، وظهرت الحقائق المستورة، وانكشف الغطاء، وأصبح الغيب شهادة، وتساقطت كل العلل والأسباب، لقد عاينوا آثار أعمالهم، ومخلفات جرائمهم، ومكرهم الذي تزول منه الجبال، فأين المهرب وإلى من الفرار؟!

ولا شك أن هذه المواقف أشد رهبةً من الموقف الذي سبقه، حيث قال تعالى: ﴿إِذَا الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوَنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَشَكُّرُونَ﴾^١.
وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^٢.
ولقد قيل في الآثار المعتبرة: إذا مات ابن آدم قامت قيامته^٣، ولكن كل مشهد وموقف يكون أشد مما سبق، إنهم بين يدي رب عزيز ذي انتقام، لقد سيقوا بين يدي ربهم ليذيقهم صنوف العذاب بما اعتدوا وكانوا يشركون.

وإذا كانت العقوبة في دار الدنيا هي تأديب المجرم وردعه وتأديب غيره به من أجل صيانة وحدة المجتمع، وحفظ الحقوق، وشيوخ الأمن، وحافظاً على المقدسات، ورعاية للحرمات، ومن أجل التنفيس عن المظلوم والتشفي من ظالمه، فالأمريوم القيامة مختلف جداً، فالأمر كله لله، والملك كله لله، وليس اليوم يوم تنفيس عن عقد وأحقاد، وليس الدار دار تأديب وردع، إنه يوم جراء ودار عقاب من الله الذي لا تضره إساءة المسيء ولا تنفعه طاعة المطيع.

١ - الأنعام: ٩٣.

٢ - الأنفال: ٥٠ - ٥١.

٣ - بحار الأنوار ٥٨: ٧.

وإذا كان الانتقام الفردي والاجتماعي صادراً عن انفعالات نفسية، وتأثير قلبي، فهذا لا يمكن نسبته إلى الله، فانتقامه سبحانه هو ترتيب الأثر بإذن العقاب بمن أساء وأفسد، وبغي وحسد، وهتك حرمة الشريعة وحرمة حملة الرسالة من أهل الإيمان.

إن الإنسان مكلف في دار الدنيا، وهناك ملزمة عضوية وموضوعية بين التكليف والجزاء، إذ لا يصح التكليف بلا جزاء، ومن هنا قلنا بوجوب المعاد والحساب عقلأً قبل أن ثبت ذلك بالأدلة النقلية، والمعاد أساس الدنيا والأخرة، ولو لاه يبطل التكليف.

والحديث عن أهواك القيامة طويل، وقد قيل: ما لا يدرك كله لا يترك كله^١. وأنصح إخواني وأبنائي المؤمنين بقراءة تفسير القرآن الموسوم بـ(في ظلال القرآن) لسيد قطب، وعند تعذر ذلك فليرجعوا إلى كتاب (اليوم الآخر في ظلال القرآن) للأستاذ أحمد فائز، وهذا الكتاب مستمد من تفسير القرآن لسيد قطب رحمه الله.

ورد عن علي عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ﴾^٢، قال: إن معناه أن ربكم قادر على أن يجزي أهل المعاشي جزاءهم^٣. وقال الصادق عليه السلام: المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد^٤.

١ - عوالي اللائى ٤: ٥٨ ح ٢٠٧.

٢ - الفجر: ١٤.

٣ - تفسير مجمع البيان ١٠: ٣٥١.

٤ - نفسه.

وقال أبو جعفر الباقر علیه السلام في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّا دَكَّا﴾^١ ، قال: هي الزلزلة^٢.

وقال النبي ﷺ هل تدرؤن ما تفسير هذه الآية: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّا دَكَّا﴾ قال: إذا كان يوم القيمة تقاد جهنم بسبعين ألف زمام بيد سبعين ألف ملك، فتشهد شردة لولا أنَّ الله حبسها لأحرقت السماوات والأرض^٣.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَنِيعٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُنْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^٤.

لقد أ وعد الله أعداء الدين وأعداء الإنسانية بالسلسل والأغلال، ونار لا تبقي ولا تذر، وبالزقوم والضرير، والماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم، بل وعدهم بالخلود في النار، لكنهم ركبوا أهواءهم، واتبعوا شهواتهم، وركضوا وراء سراب خادع، وجانبوا الحق والحقيقة، فقدوا أنفسهم إلى الهلاك والخسران المبين.

ولقد نطق القرآن الكريم بتصوير يوم القيمة ومشاهدها ورسم لنا صوراً تقشعر لها الجلد، وتشيب منها الرؤوس، فقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾^٥ ، وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾^٦ ، وقال عزوجل: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَزْدَةً كَالذِّهَانِ﴾^٧ ،

١ - الفجر: ٢١.

٢ - تفسير القمي: ٢: ٤٢٠.

٣ - الأمالى للطوسى: ٣٣٧ ح ٦٨٤.

٤ - الحج: ١ - ٢.

٥ - الانشقاق: ١.

٦ - الانفطار: ١.

٧ - الرحمن: ٣٧.

وقال تعالى: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَّافٌ مِّنْ نَارٍ وَنَحَاشٌ فَلَا تَتَصَرَّفُونَ»^١.

هناك انقلاب كوني هائل لا تتصوره العقول، البحار تستعر ناراً، والأرض تميد بأهلها وتذوب، والجبال تسير، والسماء تطوى كطي السجل للكتب، لا ترى غير الدخان والظلام والبراكين وما لا تصل لتخيله العقول.

ورد على لسان الروايات المعتبرة أن المواقف في عرصات القيامة خمسون موقفاً، بعضها أشد من بعض، وعقبات يتبع بعضها بعضاً^٢.

ورد في حديث المعراج أن الرسول ﷺ مر على قوم معلقين بعراقيبهم بكلاليب من نار، وبعضهم تفرض شفاههم بمقاريض من نار، وبعضهم متسليل بسراويل من نار، وبعضهم مصلوبون على جذوع من نار^٣.

إنه يوم شديد لا تقبل فيه فدية ولا شفاعة إلا بإذن الله، يوم تتجسد فيه القطيعة بين الأرحام والأصدقاء: قال تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْدُ الْمُجْرِمُ لَوْيَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَيْنِهِ * وَصَاحِبِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَاعَةً لِلشَّوَى * تَذَعُوا مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى»^٤.

إنه يوم لا تنفع فيه ندامة، ولا يقبل فيه اعتذار ولا فداء، ولا يخفف عن أهله، يوم تهتك فيه الأستار، وتفضح فيه الأعمال، يوم توبيخ وعتاب، وما أشد ذلك، حتى ورد عن الإمام الصادق ع عليه قوله: والله لتبين الجليل ساعة أشد من عذاب

١ - الرحمن: ٣٥.

٢ - تفسير القمي ٢: ٣٨٦.

٣ - الأمالي، للصدوق: ٥٣٤ ح ٧٢٠.

٤ - المعارج: ٨ - ٨.

ألف عام^١.

وورد في دعاء كمبل المأثور: فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك^٢.

وورد في الآثار المعتبرة لوازن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله في كتابه وضع على جبال الدنيا لذابت، ولو ازن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وُضعت على الدنيا لذابت عن حرّها، ولو ازن دلواً من غسلين جهنّم ضُبّت على الأرض لتنبت بأهلها^٣.

إنّ ابن آدم لا طاقة له ب النار أَجْجَهَا عَبْدُ لِلَّهِ وَلِعَبْدِهِ، فَمَا عَسَاهُ يَفْعَلُ إِذَا أُمْرَبَهُ إِلَى نَارٍ أَجْجَهَا جَبَارٌ لِإِنْتِقَامِهِ وَغَضَبِهِ، نَارٌ وَصَفَّهَا قَائِلًا: ﴿إِذَا رَأَتُمُّ مِنَ الْمَكَانِ بَعِيدًا سَمِعُوا لَهَا تَغْيِظًا وَزَفِيرًا﴾^٤. هذه النار لهاوعي وإرادة ومعرفة بأهلها، فهي تنتظر قدومهم، وتتلئف بشوق لتلقفهم، نار قال الله واصفاً إياها: ﴿نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَغْصُونَ اللَّهُ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾^٥.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرِ الْقَصْرِ﴾^٦، كأنه جمالت صُفْرٍ^٧، عندئذ ينادي كل مخلوق: نفسي، نفسي، هنا يتبرأ التابع من المتبع، والوالد من ولده وتنقطع

١ - الكافي: ٦: ٣٩٩ ح ١٦.

٢ - مصباح المتهجد: ٨٤٧

٣ - بحار الأنوار: ٦٧: ٣٩٣

٤ - الفرقان: ١٢.

٥ - التحرير: ٦

٦ - المرسلات: ٣٢ - ٣٣

بهم الأسباب.

ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام قوله: إنَّ فِي النَّارِ لَوادِيًّا يُقالُ لَهُ سَقْرٌ، لَمْ يَتَنَفَّسْ مِنْذَ خَلْقِهِ اللَّهُ، لَوْأَذْنَ لَهُ فِي التَّنَفُّسِ بِقَدْرِ مِحْيَطِ الْأَرْضِ مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ لِيَتَعَوَّذُونَ مِنْ حَرَّ ذَلِكَ الْوَادِيِّ وَنَتْنَهُ وَقْدَرُهُ وَمَا أَعْدَ اللَّهُ فِيهِ لَأَهْلِهِ^١.

وقال أبو جعفر الباقر عليهما السلام: إنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَعَاوَنُونَ فِيهَا كَمَا تَعَاوَى الْكَلَابُ وَالذَّئَابُ مِمَّا يَلْقَوْنَ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ، فَمَا ظَنَّكَ بِقَوْمٍ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، عَطَاشٌ جِيَاعٌ، كَلِيلٌ أَبْصَارُهُمْ، صَمٌّ بَكْمٌ عَمِيٌّ، مَسُودٌ وَجْهُهُمْ خَاسِئُنَّ فِيهَا نَادِمِينَ، مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَرْحَمُونَ مِنْ الْعَذَابِ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَفِي النَّارِ يُسْجَرُونَ.

وَمِنَ الْحَمِيمِ يَشْرِبُونَ وَمِنَ الرَّزْقِ يَأْكُلُونَ، وَبِكَلَالِيبِ النَّارِ يُحَطِّمُونَ، وَبِالْمَقَامِ يُضْرِبُونَ، وَالْمَلَائِكَةُ الْغَلَاظُ لَا يَرْحَمُونَ، فَهُمْ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ يُسْجَبُونَ، وَمَعَ الشَّيَاطِينَ يُقْرَنُونَ، فِي الْأَنْكَالِ وَالْأَغْلَالِ يُصْقَدُونَ، إِنَّ دَعَوَالَمْ يُسْتَجَبُ لَهُمْ، وَإِنْ سَأَلُوا حَاجَةً لَمْ تُقْضَ لَهُمْ، هَذِهِ حَالٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ^٢.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ الْمَعْصُومِينَ الطَّاهِرِينَ.

١ - الخصال: ٣٩٨ ح ١٠٦.

٢ - الأَمَالِيُّ، لِلْصَّدُوقِ: ٦٥١ ح ٨٨٦

المبحث الحادي والسبعون: في الشهادة

الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو البصيرة، ويقال: مشاهد الحجّ، وهي مواطنه الشريفة التي يحضرها الملائكة والأبرار من الناس، والشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر، وعالم الشهادة: ما يقابل عالم الغيب.

قال تعالى: ﴿وَكَذِلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾^١.

لقد جعل النبي ﷺ هو الشاهد بالحق على هذه الأمة، وهو بمثابة الميزان المستقيم الذي تُوزن به الأعمال، وجعل سبحانه الأمة المسلمة الصالحة التي شرفها بحمل مسؤولية الخلافة الأرضية والوراثة هي الأمة الشاهدة على خلقه، بها توزن أعمالهم وتتقاس أحوالهم، ولا يمكن تصور ذلك في كل أو أغلب أفراد الأمة، بل في نماذج خاصة لهم هذه الكرامة والامتياز.

قال الباقر علیه السلام: ولا يكون شهداء على الناس إلا الأئمة والرسول، وأما الأمة فغير

جائز أن يستشهد بها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل^١.

وفي حديث علي عليه السلام قال: فيقوم الرسول فَيُسأَلُ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هُؤُلَاءِ شَهِيداً»^٢، وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل^٣.

قال تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَمٌ الْغُيُوبِ»^٤.

الآية الكريمة تشير بوضوح إلى كون الأنبياء شهوداً على أممهم، وكيف لا يكونون كذلك، وهم أشرف الخلق وأعظمهم طهارة وقداسة، وهم الذين لاقوا من أممهم كل صنوف التعذيب والتنكيل، والمحاربة والمقاطعة، والتكميم والإيذاء، والاستهزاء والسخرية، بل وصل بهم إلى قتلهم وإحراقهم بالنار ونشرهم بالمناشير.

ويقف الرسل والأنبياء موقف العبودية والأدب الرفيع أمام عظمة الله لينفوا العلم عن أنفسهم تأدباً وخصوصاً أمام ساحة الربوبية المطلقة، ويعرفون بأنَّ المختص بعلم الغيب بالأصالة، وب بواسطن الأمور وخفايا الأشياء وحقائقها، وبالأسرار وال المتعلقات هو الله وحده، وذلك هو العلم الحقيقي، وإنَّ ما يعلمه الأنبياء هو شيء من الإفاضات الإلهية عليهم، وهو شيء يسير محدود بالنسبة إلى علم الله المطلق. إذن يكون النفي لا لمطلق العلم.

١ - المناقب، لابن شهر آشوب ٣: ٣١٤.

٢ - النساء: ٤١.

٣ - تفسير العياشي ١: ٢٤٢ ح ١٣٢.

٤ - المائد़ة: ١٠٩.

والنبي شاهد على أعمال أمته في حياته، وهو الشاهد عليهم يوم القيمة، وشهادة الأنبياء بمثابة الرقابة والرصد والوساطة، وليس شهادة على نحو الاستقلال والإطلاق، فلهذا عَقَب عيسى عليه السلام بـأَن الرقابة والشهادة المطلقة والحقيقة هي لـلـه سبحانه لا يشاركه فيها أحد.

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُفِعَ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَئْءٍ شَهِيدٌ﴾^١.

وشهادة الله قائمة حال وجود النبي وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهي من العلم المختص به، وعلمه تعالى عين ذاته.

وقد خُصَّ النبي الخاتم عليهما السلام بكرامة أعظم وأوسع من كرامة الأنبياء السابقين، فقد جعلت له الشهادة على الرسل والأنبياء.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هُؤُلَاءِ شَهِيداً﴾^٢.

وكذلك جعلت له الشهادة على أعمال أمته حياً وميتاً، فقد ورد في الآثار أنَّ أعمال أمته تعرض عليه كل يوم اثنين وخميس، فيدعوه صالحهم ويستغفر لهم سائئهم^٣، وقد تكلمنا عن هذه المسألة في مبحث سابق.

ومن هذا نعلم أنَّ الشهادة على نحو الأصالة والإطلاق هي لـلـه وحده، وتكون للأنبياء والرسل والأئمة على نحو التمكين والامتداد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَئْءٍ شَهِيدٌ﴾^٤، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً

١- المائدة: ١١٧.

٢- النساء: ٤١.

٣- الدروع الواقية: ٢٦٨ بالمضمون.

٤- الحج: ١٧.

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا^١.

وتكون الشهادة للأمة المسلمة الصالحة التي كَرَّمَها الله بحمل الخلافة الأرضية، تكون شهادتها على أصحابها وعلى بقية الأمم.

قال رسول الله ﷺ: احفظوا أنفسكم، ما من أحد يعمل خيراً أو شرّاً إلّا أخبرت به الأرض يوم القيمة^٢، وقال علي عليه السلام: اتقوا الله في عباده وببلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاء والبهائم^٣.

وقال النبي ﷺ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ * و قال الإنسان مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدَّثُ أَخْبَارَهَا^٤ ، أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمله على ظهرها^٥ . وورد أن المساجد تشهد للمصلين فيها، القرآن يشهد لقارئه، والملائكة شهود، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾^٦ .

والزمان الذي هو عمر الإنسان بساعاته وأيامه وسنينه شاهد، وجوارحه أعظم الشهد علىه وعلى أعماله قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٧ .

والشهيد هو الذي يقتل في سبيل الله لينال مرتبة الحياة والرزق، قال تعالى:

١ - الأحزاب: ٤٥.

٢ - تفسير مجتمع البيان ١٠: ٤١٩ بالمضمون.

٣ - شرح نهج البلاغة ٢: ٨٠

٤ - الزلزلة: ٢ - ٤.

٥ - مسند أحمد ٢: ٣٧٤.

٦ - الطارق: ٤.

٧ - فصلت: ٢.

﴿وَلَا تَخْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^١، وقال رسول الله ﷺ: الخير كله في السيف، وتحت ظل السيف، ولا يقيم الناس إلا السيف، والسيوف مقايد الجنة والنار^٢. والمقاييس: المفاتيح.

وعن النبي ﷺ قال: للجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه فإذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم، قال: فمن ترك jihad ألبسه الله ذلاً وفقرًا في معيشته، ومحقاً في دينه، إن الله أغني (أعز) أمتي بسبابك خيلها ومراكز رماحها^٣.

وقال ﷺ: خيول الغزاة في الدنيا خيولهم في الجنة، وإن أردية الغزاة لسيوفهم^٤، وقيل للنبي ﷺ: ما بال الشهيد لا يُفتَن في قبره؟ قال: كفى بالبارقة فوق رأسه فتنة^٥.

ومعنى الحديث أن عذاب القبر مرفوع عن الشهداء ببركة القتل في سبيل الله.

وعنه ﷺ: ما من قطرة أحب إلى الله عزوجل من قطرة دم في سبيل الله^٦.
وخطب أمير المؤمنين علیه السلام يوم الجمل قائلاً: أيها الناس، إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهاوب، ليس عن الموت محيص، ومن لم يمُتْ يُقتل، وإن

١ - آل عمران: ١٦٩.

٢ - الكافي ٥: ٢ ح ١.

٣ - ثواب الأعمال: ١٨٩.

٤ - الكافي ٥: ٣ ح ٣.

٥ - الكافي ٥: ٥٤ ح ٥.

٦ - الكافي ٥: ٥٣ ح ٣.

أفضل الموت القتل، والذي نفسي بيده، لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على فراش^١، وقال الصادق عليه السلام: من قُتل في سبيل الله لم يُعرفه الله شيئاً من سيئاته^٢.

وقال النبي عليه السلام: للشهيد سبع خصال من الله: أول قطرة من دمه مغفور له كل ذنب، والثانية يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين، وتمسحان الغبار عن وجهه، وتقولان: مرحبا بك، ويقول هو مثل ذلك لهما، والثالثة يُكسى من كسوة الجنة، والرابعة تبتدره خزنة الجنة بكل ريح طيبة أيهم يأخذها معه، والخامسة أن يرى منزله، وال السادسة يقال لروحه: إسرح في الجنة حيث شئت، والسابعة أن ينظر في وجه الله، وإنها الراحة لكل نبي وشهيد^٣.

وقال عليه السلام: فوق كل ذي بِرٍ حتى يُقتل في سبيل الله فإذا قُتل في سبيل الله ليس فوقه بِرٌ^٤.

وهناك الشهداء تنزيلاً وهؤلاء بحكم الشهيد من ناحية الثواب، فقد ورد عن النبي عليه السلام قوله: من قتل دون مظلمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد^٥.
 وقال الصادق عليه السلام: من مات على أمرنا كان كمن استشهد مع رسول الله عليه السلام^٦.
 وقال النبي عليه السلام: إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً^٧.

١ - الكافي ٥: ٥٤ ح ٤.

٢ - الكافي ٥: ٥٤ ح ٦.

٣ - تهذيب الأحكام ٦: ١٢١ ح ١٠٨.

٤ - الكافي ٥: ٥٣ ح ٢.

٥ - الكافي ٥: ٥٢ ح ٢.

٦ - المحسن ١: ١٧٢ ح ١٤٤.

٧ - منية المرید: ١٢٢.

وقال الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْأَمِينُ: المرأة إذا ماتت في نفاسها لم ينشر لها ديوان يوم القيمة^١.
 وعن علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْأَمِينُ قال: الغريق شهيد، والحريق شهيد، والغريب شهيد،
 والملدوغ شهيد، والمبطون شهيد، ومن يقع عليه البيت فهو شهيد، ومن يقع
 فوقه البيت فتندق رجله أو عنقه فيما موت فهو شهيد، ومن تقع عليه الصخرة فهو
 شهيد، والغیری علی زوجها کالمجاهد فی سبیل الله فلها أجر شهید، ومن قتل
 دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون نفسه فهو شهيد، ومن قُتل دون أخيه فهو
 شهيد، ومن قتل دون جاره فهو شهيد، والأمر بالمعروف والنناهي عن المنكر
 شهید^٢.

وأختم هذا المبحث بقول النبي الأعظم عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْأَمِينُ: من مات على حب آل
 محمد عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْأَمِينُ مات شهيداً^٣.
 والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين
 المعصومين.

١ - من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٩ ح ٣٧٨، بحار الأنوار ٧٨: ٨١ ح ١.

٢ - الجامع الصغير، للسيوطى ٢: ٢٠٣ ح ٧٩٣، كنز العمال ٤: ٤١٥ ح ١١١٧٢.

٣ - تفسير الثعلبي ٨: ٣١٤، المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز ٥: ٣٤.

المبحث الثاني والسبعون: في الأبرار

الأبرار: جمع بَرٍ وهو المحسن الواسع العطاء، وقد وصف الله سبحانه نفسه بذلك حيث قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُ الرَّحِيمُ﴾^١، ووصف ملائكته بالبر حيث قال: ﴿بِأَيْدِي سُفْرَةٍ * كَرَامَ بَرَّةٍ﴾^٢.

ووصف بعض أنبيائه بالبر حيث قال: ﴿وَبَرًا بِوَالَّدِينِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا﴾^٣، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لِفِي نَعِيمٍ﴾^٤.

وقد وصف الله تعالى الأبرار حيث قال: ﴿لَيْسَ الْبَرُ أَنْ تُؤْلُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَاتَّى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذُوِّي الْقُرْبَى وَالْيَسَامِيَّ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقامَ الصَّلَاةَ وَاتَّى الزَّكَوةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^٥.

١ - الطور: ٢٨.

٢ - عبس: ١٥ - ١٦.

٣ - مريم: ١٤.

٤ - الانفطار: ١٣.

٥ - البقرة: ١٧٧.

والمتذمّر في مضمون هذه الآية الكريمة يتوصّل إلى تركيبة الشخصية المتصفّة بالبَرِّ القائمة على ثلاثة أصول:

١. الاعتقاد: فقد وصفهم الله بالإيمان به واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وهذا هو المقدار الجامع المانع للعقيدة والمعارف الأصيلة التي تمثل المنطلق للعمل والسلوك الصحيح.

٢. العمل: وقد ذكر تعالى إيتاء المال المتمثل بالزكاة بالمعنى الأوّل، وصرف المال في الموارد التي ندب إليها الشارع المقدّس، كمساعدة ذوي القربى واليتامى والفقراة والمساكين وابن السبيل، وعتق الرقاب وغيرها من مصاديق البر. ولا ننسى أنّ نية البذل يجب أن تكون بعنوان القرابة إلى الله.

ولا شكّ أنّ هذه السلوكية لها أثراً إيجابياً في صلاح المجتمع وتنمية أواصر الحبّ والمودّة والإخاء والمعايشة تحت ظلّ الرحمة التي أراد الله نشرها بين عباده.

٣. الأخلاق: والمراد بذلك الانطباع على السجّايا الكريمة كالمرءة والسخاء والعفة والتواضع ونحوها، وقد أشارت الآية الكريمة إلى عنوانين من مصاديق الجانب الخلقي الذي تتميّز به الشخصية الإسلامية من باب المثال لا الحصر، وهما: الوفاء بالعهد والصبر، ولهذين الوصفين الأثر البالغ في تماسك الشخصية وائزناها وعدم تزلّلها أمام عواصف الضغوط الداخلية والخارجية، ومن اتصف بهذين الوصفين، كانت بقية الموصفات الأخلاقية بمثابة الفروع من هذين الأصلين.

ثمّ وصفهم الله سبحانه بالصدق والتقوى، وهذا الوصفان هما العنوان الجامع لكلّ الفضائل والأخلاق الحميدة.

وقد وعد الله أهل هذه الطبقة الإيمانية الراقية بالفوز في أعلى مقامات الجنة ونعيمها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يُشَرِّبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِرَاجِهَا كَأْفُورًا﴾^١، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلَيْينَ﴾^٢ ، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^٣ ، وسئل النبي ﷺ: ما تمام البر؟ فقال عليه السلام: أن تعمل في السرّ ما تعمل في العلانية^٤.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - الإنسان: ٥.

٢ - المطففين: ١٨.

٣ - المطففين: ٢٢.

٤ - المعجم الكبير ٢٢: ٣١٧، أسد الغابة ٥: ٢٤٠.

المبحث الثالث والسبعون: في الاصطفاء

قال عليه السلام: أنا لا أنسى أيديك عندي، وسترك على في دار الدنيا، سيدني آخر من حب الدنيا من قلبي، واجتمع بيئني وبين المصطفى وأله خيرتك من خلقك وخاتم النبيين محمد عليهما السلام.

مدخل لغويٌّ

نسي: ضد حفظ، والنسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع إما غفلةً، وإما عن قصد، ونسيان الفضل من باب نكران الجميل.

اليد: الجارحة، وتجمع على أيدي، واليد: النعمة، وتجمع على أيادي. وتأتي بمعانٍ آخر مثل: القدرة والسلطان، الجاه، الولاية، والقدرة على التصرف. السر: تغطية الشيء وإخفاؤه.

الخيرة: المصطفى، المنتجب، المنتخب، المختار.

يتوجه عليه السلام إلى ربـه ليعرف بنعمـه الظاهرة والباطنة عليهـ، ونعمـ الله لا تـعد ولا تـحصـى، ومن تلك النعمـ ستـره على العـبد فيـ دارـ الدـنيـا، وقد تـحدـثـناـ عنـ مـوضـوعـ: الـسـترـ الإـلـهـيـ فيـ المـبـحـثـ الـأـرـبـعـينـ، وـتـحدـثـناـ عنـ مـوضـوعـ الدـنيـاـ فيـ المـبـحـثـ الـحادـيـ وـالـخـمـسـينـ، فـلـيـرـاجـعاـ.

وبعد أن سأله عليه السلام ودعاه سبحانه أن يخرج حب الدنيا من قلبه، لأنّ حب الدنيا رأس كلّ خطيئة، نراه يتوجه بالدعاء، فيطلب أعظم ما يمكن أن يخطر ببال أحد، وهو أن يجمعه مع النبي الأعظم عليه السلام الكرام الطاهرين في بحبوحة رحمته، إنّ الذي يقف على باب الكريم المطلق يمكنه أن يسأل على قدر المسؤول لا على قدر نفسه.

ومن أدب الدعاء أن يقبل الإنسان على ربّه ويظنّ حاجته بالباب، وذلك من حسن الظنّ.

قال الصادق عليه السلام: ما من عبد يمدّ يده إلى السماء إلا استحيى الله عزوجل أن يردها صفرًا حتى يجعل فيها من فضل رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدهم فلا يرده يديه إلا بعد أن يمسح بهما وجهه لأنّهم لم يرجعوا صفرًا وفيهما من رحمة الله تعالى^١.

بل إنّ من العيب وقلة الحباء، والسفاهة أن يسأل الإنسان القليل القليل من ربّه، بل عليه أن يطلب الكثير الكثير، لأنّ طلب الكثير هو طلب المعرفة والوثوق وطلب الوعي وال بصيرة.

قال تعالى في الحديث القدسي: لو أنّ أولكم وأخركم، وحيّكم وميتكم وثق بالله وتمتّى ما بلغت أمنيته فأعطيته لم ينقص من ذلك شيء من ملكي^٢.

وقال الباقر عليه السلام: لو أنّ أهل السماوات والأرض سألوا الله واستجيب لكلّ واحد ما سأله لا ينقص من ملكه تعالى مثل جناح بعوضة^٣.

١ - الكافي ٢: ٤٧١ ح ٢.

٢ - صحيح مسلم ٨: ١٧ بالمضمون.

٣ - الأمازي، للطوسى: ٥٨٤ بالمضمون.

وقال النبي ﷺ: سلوا الله وأجزلوا فإنه لا يتعاظمه شيء^١.
 كم الفارق بين الأعرابي المسكين الذي جاء إلى النبي ﷺ وسأله قضاء حاجة له، فقال له النبي ﷺ: سل ما شئت يا أعرابي، فقال المسكين: يا رسول الله، راحلة ورحلها وزادها^٢، وبين خادمه ربعة الذي وعده النبي ﷺ بإجابة سؤاله، فقال: يا رسول الله، تسأل الله أن يدخلني معك الجنة^٣.
 وكم الفارق بين الأعرابي وعجوزبني إسرائيل، فقد روی في الآثار المعتبرة أن موسى عليه السلام لما أراد أن يقطع البحر انتهی إلى نقطة امتنعت دوابه عن المسير، فأوحى الله إليه أن هناك قبر يوسف عليه السلام، وأنه مأمور بنقل جسده الشريف، فسأل امرأة عجوزاً عن قبره، فقالت: لا أدلك حتى تعطيني ما أطلب، فقال لها: لك ذلك، فقالت: إني أسألك أن تكون معك في الجنة.^٤

قال عليه السلام: سلي الجنة، فقالت: لا والله، بل أكون معك في درجتك، وحاول عليه السلام إقناعها فلم تستجب له، فأوحى الله إليه: أعطها ما طلبت، ودلّه على القبر الشريف.^٥

ما أفقه هذه المرأة وما أعظم وعيها وبصيرتها وثقتها بالله ! لقد علمت أنَّ كرم الله ليس له قيد ولا شرط، ولا حد ولا قدر، وليس في ساحته بخل ولا شح فنالت بوعيها ونفذ بصيرتها ما نالت، ونال الأعرابي بجهله وضيق أفقه ما نال، وكلُّ يُؤتى على قدر عقله. وتوجه أحد العارفين إلى ربِّه داعياً إياه في صلاة الاستسقاء

١ - علة الداعي: ٣٦، بحار الأنوار ٨: ٢٢١ / ٢١٦.

٢ - الدعوات، للراوندي: ٤١ ح ١٠٠.

٣ - الدعوات، للراوندي: ٣٩ ح ٩٥.

٤ - الدعوات، للراوندي: ٤١ ح ١٠٠.

قائلاً: إلهي وسيدي ومولاي، أنفِدْ ما عندك، ألم نقص ما في خزائنك، أقسمت عليك بحبيك لي إلّا ما أُسقيتنا غيثك الساعة^١.

وُسْئلَ لِمَاذَا لَمْ تَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَقْسَمُ عَلَيْكَ بِحُبِّي لَكَ، فَقَالَ: مَحْبَبُهُ لِي عَلَى قَدْرِهِ، وَمَحْبَبُتِي لَهُ عَلَى قَدْرِي، لَقَدْ نُورَ اللَّهُ بِصِيرَةُ هَذَا الْعَارِفِ بِاللَّهِ فَأَجْرِي ذَلِكَ الدُّعَاءَ عَلَى لِسَانِهِ، وَالدُّعَاءُ فَنٌّ مِنَ الْفَنُونِ، وَمَوْهَبَةٌ مِنَ الْمَوَاهِبِ، وَمَنْ وَجَدَ اللَّهَ فَقَدْ وَجَدَ كُلَّ شَيْءٍ وَمَنْ فَقَدَ اللَّهَ فَقَدْ كُلَّ شَيْءٍ.

وَإِنَّ مَسَأَلَةَ الْاَصْطِفَاءِ وَالْاَخْتِيَارِ لِلنَّبِيِّ ﷺ يُشَيرُ إِلَى خَلُوصِ الإِيمَانِ وَنَقَائِهِ مِنْ كُلِّ شُوبٍ، وَإِلَى تَمَامِ الْانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِيَكُونَ الْمَصْطَفِيُّ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَعِبَادِهِ، وَالْحَامِلُ لِمَهْمَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بِهَا خُتِّمَ جَمِيعُ الشَّرَائِعِ وَالْأَدِيَانِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَصْطَفِيُّ مِنْ أَصْحَابِ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَّةِ السَّامِيَّةِ لِيَسْتَحِقَ كُلَّ ذَلِكَ التَّمِيزِ وَالتَّفَضُّلِ.

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَغْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»^٢.

إِنَّ هَذَا الْاَصْطِفَاءَ لَمْ يَكُنْ عَبْثِيَاً وَلَا جُزَافَاً، بَلْ كَانَ قَائِمًا عَلَى أَسْسِ ثَابِتَةٍ، وَمُوازِينَ دِقِيقَةٍ، وَمُعَايِرٍ تَطَابِقُ الْحَقَّ وَالْحَقِيقَةَ، فَهُؤُلَاءِ أَعْظَمُ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ، وَهُمْ ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ تَتَصَفُّ بِالْفَضَائِلِ وَالْمَقَامَاتِ الْعَالِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، وَالْأَنْسَابِ الشَّرِيفَةِ.

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُمْ صَفَوَةُ الْبَشَرِيَّةِ، وَسَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الصَّفَوَةُ مِنْ تِلْكَ الصَّفَوَةِ

١ - المستطرف، للأ بشيهي ١: ١٤٦، حلية الأولياء، لأبي نعيم ١٠: ١٧٣.

٢ - آل عمران: ٣٣ - ٣٤.

المباركة.

قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نحن منهم ونحن بقية تلك العترة^١.

قال علي عليه السلام في ذكر النبي عليه السلام: بعثه الله بالنور المضيء، والبرهان الجلي، والمنهاج الباقي، والكتاب الهدى، أسرته خير أسرة، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، وثمارها متهذلة، مولده بمكة، وهجرته طيبة، علا بها ذكره، وامتد بها صوته، أرسله بحججة كافية، وموعظة شافية، ودعوة متلافية، أظهر بها الشرائع المجهولة، وقمع بها البدع المدخلة، وبين به الأحكام المفصولة^٢.

وقال عليه السلام في ذكر النبي عليه السلام: أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء، فرق به المفافق، وساور به المغالب، وذلل به الصعوبة، وسهّل به الحزونة حتى سرّح الضلال عن يمين وشمال^٣.

وورد عن علي عليه السلام عن رسول الله عليه السلام قال: قال جبرئيل عليه السلام: يا محمد، إن الله عز وجل أطلع إلى الأرض اطلاعة فاختارك من خلقه وابتعدتك برسالاته، ثم أطلع إلى الأرض ثانية فاختار لك منها أخا وزيرا وصاحبأ وختنا...^٤.

وآل محمد عليهم السلام هم الامتداد الطبيعي لوجود جدهم المصطفى عليه السلام، وهم عدل القرآن والثقل الأصغر على لسان الأحاديث الصحيحة بل المتواترة، وهذا من مصاديق الاصطفاء الإلهي.

١ - تفسير العياشي ١: ١٦٨ ح ٢٩.

٢ - شرح نهج البلاغة ٢: ٦١.

٣ - نفسه: ٢: ١٩٤.

٤ - المناقب، للخوارزمي: ٣٤٦.

قال علي عليه السلام في ذكر آل محمد عليهما السلام: هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سمع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعااته قليل^١.

وقال رسول الله عليهما السلام: إن الله أخذ ميثاق أهل البيت من أعلى عليين، وأخذ طينة شيعتنا منا، ولو جهد أهل السماء وأهل الأرض أن يغيروا من ذلك شيئاً ما استطاعوا^٢.

وقال علي عليه السلام: نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد، فيما نزل القرآن وفيينا معدن الرسالة^٣.

وقال رسول الله عليهما السلام: أنا الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرها، وأغصان الشجرة ذاهبة على ساقها، فأيّ رجل تعلق بغضن من أغصانها أدخله الله الجنة برحمته، قيل: يا رسول الله، قد عرفنا الشجرة وفروعها، فمن أغصانها؟ قال عليهما السلام: عترتي، فما من عبد أحبتنا أهل البيت، وعمل بأعمالنا، وحاسب نفسه قبل أن يحاسب، إلا أدخله الله عزوجل الجنة^٤.

وعن علي عليه السلام قال، قال رسول الله عليهما السلام: من آذاني في أهل بيتي فقد آذى الله^٥.

١ - شرح نهج البلاغة ٢: ٢٣٢.

٢ - الاختصاص، للمفید: ١٩٠.

٣ - عيون أخبار الرضا عليهما السلام ١: ٧١ ح ٢٩٧.

٤ - الأمالی، للطوسي: ٦١١ ح ١٢٦٤.

٥ - كتاب الأربعين، لمحمد طاهر القمي الشيرازي: ٤٧٢.

وقال النبي ﷺ: إنا أهل البيت قد أذهب الله عنّا الفواحش ما ظهر منها وما
بطن^١.

وقال علي عليه السلام: إن الله ظهرنا وعصمنا، وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته
في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبـين الطـاهـرين
المعصومـين.

١ - مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٤.

٢ - بصائر الدرجات: ١٠٣ ح ٦.

المبحث الرابع والسبعون: في البكاء

قال عليه السلام: وانقلني إلى درجة التوبة إليك، وأعني بالبكاء على نفسي، فقد أفتئت بالتسويف والأمال عمرى، وقد نزلت منزلة الآيسين من خيرى، فمن يكون أسوأ حالاً مني إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبري، لم أمهد له لرقدتى، ولم أفرشة بالعمل الصالح لضجعتى، وما لي لا أبكي ولا أذري إلى ما يكُون مصيرى، وأرى نفسي تخادعني، وأيامى تخاتلىنى، وقد خفقت عند رأسى أجنحة الموت، فما لي لا أبكي، أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبri، أبكي لضيق لحدى، أبكي لسؤال منكر ونكير إياتى، أبكي لخروجي من قبri عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري، أنظر مرأة عن يمينى وأخرى عن شمالى، إذ الخلاق فى شأن غير شانى (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنىه * وجوده يومئذ منفعة * ضاحكة مُنتبِشَرَة * وجوده يومئذ عليهما غيرة * ترهقها قترة) وذلة.

مدخل لغوي

البكاء: سيلان الدموع عن حزن وعويل. والتباكي: تكليف البكاء.

التسويف: المماطلة، والأمل: الرجاء.

الأمنية: الْبُغْيَةُ وَإِرَادَةُ الشَّيْءِ. قال الراغب: الأمنية: الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء، ولما كان الكذب تصور ما لا حقيقة له وإيراده باللفظ صار التمني كالمبدأ للكذب، فصح أن يعبر عن الكذب بالتمني^١.
مَهَدَ: هِيَأَ، وَأَعْدَ، وَوَظَأَ.

خادع: أَظْهَرَ لِلْمُقَابِلِ أَمْرًا عَلَى خَلْفِ مَا يَخْفِيهِ لِلْاحْتِيَالِ عَلَيْهِ.

خاتل: خَدْعٌ. مسفرة: مشرقة.

مستبشرة: فرحة، مسرورة، غَبَرَةً: ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه، وهو كناية عن تغيير الوجه للغم والحزن.
ترهقها: تغشاها بقهر، حملها ما لا تطيق.
قَرَّةً: الفقر، وضيق العيش.

الفقرة المزبورة تشير إلى أن التوبة تمثل نقلة نوعية في حياة الإنسان، إذ هي عملية الخروج من عالم الظلمات إلى عالم النور، ومن حالة السقم إلى حالة الصحة الروحية، والخروج من ولاية الشيطان إلى ولاية الله. وقد تحدّثنا عن موضوع التوبة في المبحث السادس والعشرين.

ويتوجه عليه بالدعاء طالباً المعونة من ربه والتوفيق للبكاء على نفسه على ما فرط في جنب الله، والإمام عليه ي يريد أن يعلمـنا آداب الدعاء وكيفية التوجـه إلى الله، ونعم ما قيل في المقام: إـيـاكـ أـعنـي واسـمعـي يا جـارـةـ.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُنْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُوا

١ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٤٧٦

سُجَّداً وَبِكِتَابَهُ^١.

تحدّث الآية عن مقام النبيين الذين أنعم الله عليهم بالهدایة الخاصة وسدّد خطابهم بالتأييد والرشاد، وبالسعادة الخالصة، التي لا تشوبها شقاوة، وبالنعمـة التي لا تتبعها نـقمة، وهـل سـلوك طـريق الدـين إـلا سـلوك طـريق السـعادة، ونعمـا قال الإمام الحسين عليهما السلام: إـنـي لـأـرـى الـمـوـت إـلا سـعـادـة وـالـحـيـاة مـعـ الـظـالـمـين إـلا بـرـمـاً^٢.

والآية تشير إلى عصمة الأنبياء من الضلال والانحراف بعد الهدایة والاجتباء، ثم تصفـهم بـوصـفـين مهمـين:

١. السجود الذي هو كمال الخصـوـع.
٢. البـكـاء الذي هو كـمال الـخـشـوع، وـذـلـك عـنـدـمـاً تـلـى عـلـيـهـم آـيـات الله وـكـلامـه.

ولولا أهمـية البـكـاء لـذـكـرـ الله لـمـا قـرـنـه تـعـالـى بـالـسـجـود، وـلـمـا قـدـمـ هذا الوـصـفـ كـمـصـدـاقـ من مـصـادـيقـ الـكـمالـ والـرـفـعـةـ عـلـىـ غـيرـهـ.

والـبـكـاءـ المرـادـ هناـ ماـ كانـ صـادـراـ عنـ خـشـيةـ وـخـوفـ وـاقـعـيـتينـ لـاـ مجـرـدـ الـبـكـاءـ. قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: وليس الخوف من بكى وجرت دموعه ما لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله، وإنما ذلك خوف كاذب^٣.

وهـذا الـبـكـاءـ هوـ عـيـنـ الرـحـمـةـ الإـلهـيـةـ، وـيعـتـرـعـنـ رـقـةـ الـقـلـبـ وـنـورـانـيـتـهـ، وـلـهـ آـثـارـ وضعـيـةـ مهمـةـ عـلـىـ الإـنـسـانـ وـسـلـوكـهـ.

١ - مريم: ٥٨.

٢ - المناقب، لابن شهر آشوب ٣: ٢٢٤.

٣ - علة الداعي: ١٦٣.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: بكاء العيون وخشية القلوب من رحمة الله تعالى ذكره، فإذا وجدتموها فاغتنموا الدعاء^١.
وعن علي عليه السلام قال: البكاء من خشية الله ينير القلب، ويعصم من معاودة الذنب، وما جفت الدموع إلا لقسوة القلب^٢، وما قست إلا لكثره الذنب^٣.
أما ثواب البكاء من خشية الله وعطاؤه الأخرى، فقد ورد في الآثار فيه ما لا يُحصى.

قال النبي عليه السلام: يُبني لك بكل دمعة ألف بيت في الجنة^٤.
وقال النبي محمد عليه السلام في حديث المناهي: ومن ذرفت عيناه من خشية الله، كان له بكل قطرة من دموعه قصر في الجنة مكمل بالدر والجوهر، فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^٥.
وقال النبي عليه السلام: ليس شيء إلا وله شيء يعدله إلا الله فإنه لا يعدله شيء، ولا إلا الله لا يعدله شيء، ودمعة من خوف الله فإنها ليس لها مثقال، فإن سالت على وجهه لم يرهقه قترة ولا ذلة بعدها أبداً^٦.

وقال الصادق عليه السلام: إن الرجل ليكون بينه وبين الجنة أكثر مما بين الشري والعرش لكثره ذنبه، فما هو إلا أن يبكي من خشية الله عز وجل ندماً عليها حتى

١ - مكارم الأخلاق، للطبرسي: ٣١٧.

٢ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٢١.

٣ - علل الشرائع: ٨١ باب ٧٤ ح ١.

٤ - الكافي: ٨ ح ٧٩.

٥ - الأمالي، للصدوق: ٥١٧.

٦ - ثواب الأعمال: ٣.

يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إلى مقلته^١.

وقال الباقر عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: ما من قطرة أحب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من قطرة دموع في سواد الليل مخافة من الله لا يراد بها غيره^٢.

وقال الصادق عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: ما من شيء إلا وله كيل وزن إلا الدموع، فإن قطرة تطفئ بحراراً من نار، فإذا اغورقت العين بمائتها لم ترهق وجهه قَتَرٌ ولا ذلة، وإذا فاضت حرمتها الله على النار، ولو أن باكيأ بكى في أمّة لرحموا^٣.

وقال الصادق عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: أوحى الله إلى عيسى عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: يا عيسى، إبك على نفسك بكاء من قد وَدَعَ الأهل، وقلت الدنيا، وتركها لأهلها، وصارت رغبته فيما عند الله^٤.

وقال النبي عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: كل عين باكية يوم القيمة إلا ثلات أعين: عين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين ساهرة في سبيل الله^٥.

وقال النبي عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: من خرج من عينه مثل الذباب من الدمع من خشية الله، آمنه الله يوم الفزع الأكبر^٦.

وقال النبي عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: البكاء من خشية الله مفتاح الرحمة وعلامة القبول وباب الإجابة، وإذا بكى العبد من خشية الله تعالى تحاثت عنه الذنوب كما يتحاث

١ - عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ ١: ٦ ح ٤.

٢ - الكافي ٢: ٤٨٢ ح ٣.

٣ - الكافي ٢: ٤٨١ ح ١.

٤ - الكافي ٨: ١٣٢.

٥ - الخصال: ٩٨ ح ١٠٣.

٦ - مكارم الأخلاق، للطبرسي: ٣١٦.

الورق فيبقى كيوم ولدته أمه^١.

وإذالم يكن البكاء عن ورع وخشية، ومعبراً عن الندم والرجوع عن المعصية إلى الطاعة، فهو كمثل بكاء اللعين عمر بن سعد عندما أمر عتاته بذبح الإمام الحسين عليهما السلام وكانت عيناه تفيضان بالدموع الغزار على لحيته^٢.

وهناك بكاء لعله على سبيل الكنية التخييلية عن مدى تأثير المعاالم الكونية على فقد المؤمن.

قال الصادق عليهما السلام: ما من مؤمن يموت في غربة من الأرض فيغيب عنه بواكيه إلا بكته بقاع الأرض التي كان يعبد الله عليها، وبكته أثوابه، وبكته أبواب السماء التي كان يصعد بها عمله، وبكاه الملكان الموكلان به^٣.

ثم يعترف الداعي بإفشاء العمر بالتسويف والمماطلة والأمال العريضة التي هي من نسيج الخيالات الفاسدة، وبالأمانى الضالة التي هي بضائع النوكى - الحمقى - وهي من المثبتات، وتعبر عن دناءة النفس، وقصور الهمة وسخف العقل.

والتسويف: هو التوانى عما ينفع الإنسان في العاجل أو الآجل ومنها تأخير التوبة، ومنشأ هذه الحالة السلبية هو العجز والفشل وغلبة الهوى، فيكون صاحبه كاللاهث وراء السراب، والطالب للخير والغنى بغير عمل.

وقد يكون للأمل دور إيجابي إذا كان مقترباً بالرغبة الصادقة، والنية السليمة، ولو لا الأمل لما سعى الإنسان لبناء المستقبل وعمارة الأرض، ولضاقت عليه

١ - جامع أحاديث الشيعة ١٤: ١٨٠ نقاً عن: إرشاد القلوب.

٢ - مقتل الحسين عليهما السلام، لأبي مخنف الأزدي: ١٩٥، تاريخ الطبرى ٤: ٣٤٥.

٣ - ثواب الأعمال: ١٦٩.

الأرض بما رحبت، بل تضيق عليه نفسه، ونعم ما قيل:

أَعْلَى النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقَبَهَا مَا أَضِيقَ الْعِيشَ لَوْلَا فَسْحةً الْأَمْلِ^١

قال النبي ﷺ: **الْأَمْلُ رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَمْتِي، وَلَوْلَاهُ مَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا، وَلَا أَرْضَعَتْ أُمٌّ وَلَدًا^٢.**

ويحدّرنا نبي الرحمة ﷺ من التسويف والمماطلة وطول الأمل، لأن ذلك من الموبقات المهلّكات.

قال النبي ﷺ: **إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَحْدُثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَحْدُثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخَذْ مِنْ حَيَاكَ لَمْوَتَكَ، وَمِنْ صَحْنَكَ لَسْقَمَكَ، فَإِنَّكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَدْرِي مَا اسْمُكَ غَدًا^٣.**

وقال النبي ﷺ: **أَكَلَّكُمْ يَحْبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: قَصَرُوا الْأَمْلَ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ^٤.**

وقال أحد العارفين: كم من مستقبل يوماً وليس بمستكمله، ومنظر غداً وليس من أجله، ولو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره^٥.

وقال علي عليه السلام: ما أنزل الموت حق منزلته من عدّ غداً من أجله، وقال عليه السلام: ما أطّال عبد الأمل إلا أساء العمل^٦.

١ - حكاية ابن خلkan في: وفيات الأعيان ٣: ١٨٧.

٢ - بحار الأنوار ٧٤: ١٧٣، كنز العمال ٣: ٤٩١ ح ٧٥٦٠.

٣ - الأمازي، للطوسي: ٣٨١ ح ٨١٩ ح ٧٠.

٤ - كنز العمال ١٥: ٩٣٨ ح ٤٣٦١١.

٥ - كنز العمال ٣: ٤٩٣ ح ٧٥٧٣.

٦ - الكافي ٣: ٢٥٩ ح ٣٠.

ويرشدنا النبي ﷺ وأهل بيته الكرام عليهما السلام إلى أهمية استثمار واستغلال الوقت الذي هو عمر الإنسان ورصيده لكسب الحسنات والإتيان بالطاعات واجتناب المعاصي.

قال النبي ﷺ: كن على عمرك أشحّ على درهمك ودينارك^١.

ويحدّرنا النبي ﷺ من التمادي والمماطلة لئلا تترسخ ملكة المعصية في النفس فيصعب علاجها.

قال ﷺ: من جاوز الأربعين ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار^٢.

ثم يعترف باليأس من خير نفسه المتمردة الجمough التي لا تنقاد ولا تنسّاك الكلمة الحق، وفي هذا يشير إلى أهمية طلب العون الإلهي والتسديد منه تعالى والتوفيق للتمكّن من السيطرة على النفس، ولو لا رحمته وعونته لما نجا من أحد أبداً، والذي يتكل على عمله يكون من الخاسرين، ولو أن الله يؤاخذ عده بالعدل خسر، ولكتنا نسأله أن يعاملنا بلطفه ورحمته وكرمه.

أما اليأس من روح الله ورحمته والمعبر عنه بالقنوط فأمر منهي عنه شرعاً، وقد عدّه الفقهاء في رسالاتهم العملية من الكبائر، لما فيه من تحديد قدرتـ على، وتضييق دائرة ساحة رحمته، وهو من مصاديق الكفر. فمهما بلغت الشدة، وضاقت الطرق للنجاة، وانقطعت السبل والأسباب الظاهرة، فالله سبحانه هو مسبب الأسباب، وبيده خزائن الرحمة، ومن عنده الفرج بعد الشدة، واليس بعد العسر.

١ - الأمازي، للطوسي: ٥٢٧.

٢ - مشكاة الأنوار: ٢٩٥.

قال تعالى: «وَلَا يَأْسُوا مِنْ رَفِيعِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَنَائِشُ مِنْ رَفِيعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»^١.
وقال سبحانه: «قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ»^٢.

ثم يعود الداعي عليه السلام ليتحدث عن القبر الذي لم يعمره صاحبه بالعمل الصالح، ولم يفرشه بالباقيات الصالحات والورع والتقوى، ولم يمهده لضجعه بالإخلاص واليقين وحسن الخلق، وقد تحدثنا في المبحث الثامن والأربعين عن مشاهد القيمة، وفي المبحث التاسع والأربعين عن تجسم الأعمال.
والقبر كما أسلفنا إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، وهو أول منازل الآخرة، ونتيجة أعمال ابن آدم وما كسب في دنياه.

ويشير عليه السلام إلى الحالة المرعبة المهولة التي يجدها الإنسان ويواجهها شاء أم أبى، عندما يحل بساحتته الأجل المحتوم، وتتحقق فوق رأسه أجنحة الموت، ويشاهد الملائكة قد أحاطت به، وحيل بينه وبين قواه وأعوانه وأولاده.

حينئذٍ تتقطع به الأسباب ولا تنفعه الأنساب، وتعطل الأعضاء، وتخدم الأنفاس، وتنسل الروح من الجسد لتذهب إلى عالمها الذي أعدته لنفسها، فالأخيار يذهبون إلى روح وريحان وجنة نعيم، ويذهب الفجاح إلى عذاب مهين، وعقاب مقيم، وعندها يتتبه الإنسان من غفلته، ويدرك عاقبة سوء عمله، ويرى آثار التمرد والعناد، والظلم والإفساد، والاستغراق في الملذات، واللهاث وراء الشهوات.

وكيف لا يبكي الإنسان وهو يرى هول المطلع وفرق الأحبة، والسفر إلى عالم مجهول لا يدرى ما سوف يكون مصيره، ونعم ما قال المعصوم عليه السلام: الناس نائم

إِذَا ماتوا انتبهوا^١.

وفي القبر يحشّ المجرم بضيق القبر وظلمة اللحد، ويلاقي من الملائكة الموكلين بالحساب أشدّ أنواع العقاب ومختلف صنوف العذاب، ذلك بما كسبت يداه وما الله بظلام للعبيد، ويبيقى في عذابه إلى يوم البعث إلا إذا أدركته رحمة الله. ويصور لنا القرآن الكريم مجموعة من المشاهد الرهيبة، والحالات المهولة التي تنتظر الإنسان في عرصات القيمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً فَبَضَطَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُنْ قِيَامٌ يُنْظَرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهِدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُنْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوَفَّيْتَ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمْرَادَ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتُحِتَ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَّتْهَا أَلْمَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرَادَ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتُحِتَ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَّتْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْشُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَغَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَالَمِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِلِينَ^٢.

١ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٦٦، بحار الأنوار: ٥٠: ١٣٤.

٢ - الزمر: ٦٧ - ٧٥.

المبحث الخامس والسبعون: في توحيد الذات والصفات

قال عليه السلام: سَيِّدِي عَلَيْكَ مُعَوَّلِي وَمُغَتَّمِدي وَرَجَائِي وَتَوْكِلِي، وَبِرَحْمَتِكَ تَعْلَقِي،
تُصِيبُ بِرَحْمَتِكَ مَنْ شَاءَ وَتَهْدِي بِكَرَامَتِكَ مَنْ تُحِبُّ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا
نَفَيْتَ مِنَ الشِّرْكِ قَلْبِي، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى بَسْطِ لِساني، أَفِيلِسانِي هَذَا الْكَالِ
أَشْكُرُكَ، أَمْ بِغاِيَةِ جُهْدِي فِي عَمَلي أُزْضِيكَ، وَمَا قَدْرُ لِساني يَا رَبِّي فِي جَنْبِ
شُكْرِكَ، وَمَا قَدْرُ عَمَلي فِي جَنْبِ نِعْمَكَ وَإِخْسَانِكَ، إِلَهِي إِنَّ جُودَكَ بَسْطَ أَمْلِي،
وَشُكْرَكَ قَبْلَ عَمَلي.

مدخل لغويٌّ

عَوْلٌ: استعان واثكل واعتمد. والتَّوْحِيدُ: اعتقاد وحدانية الله تعالى.

والشَّرْكُ: وهو على ضربين:

- الشرك العظيم وذلك بإثبات شريك لله تعالى، وهو من الظلم الذي لا يغفره الله إذا مات الإنسان عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.^١

٢. الشرك الخفي: وذلك باتباع الهوى والجري وراء النزوات، والحكم بغیر ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^٢.

وورد عن النبي ﷺ قوله: الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا السوداء^٣ ، ولا يكاد يخلو من هذا الشرك أحد من عامة المؤمنين. وكأن الشرك المقصود هنا يشير إلى وقوع الإنسان في شرك الدنيا.

الكفر: في اللغة ستر الشيء وإخفاؤه وتغطيته، ويقال للزارع: كافر لأنّه يضع البذور في التربة ويسترها. والكفر في الاصطلاح ضد الإيمان. وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران: جحود النعمة بترك الشرك، والكافر: هو الساتر للحق على وضوحيه.

يتوجه الداعي ﷺ إلى ربه بقلب لا يشغله شاغل عن ذكر الله، فليس فيه أحد غير الله، فلا يعتمد على عمل ولا يتوكّل على سبب، ولا يرجو غيره ولا يتعلّق إلا بحباب رحمته، فإنّ الرحمة بيده لا بيد سواه، وهو الذي يهدي بكرامته من يشاء ويرضى، ويحمده على جعل مرآة قلبه صافية نقية من كلّ شوب وصداً، ومن كلّ نقص ورذيلة ومن قدارات الشرك وركام الماديات والأهواء، ويعرف بعجزه وتقصيده عن بلوغ درجة الرضا لأنّ نعم الله وأفضاله ومواهبه لا تُعد ولا تُحصى.

فكيف يصفها ويشكرها اللسان الكليل! وكيف يصف المحدود غير المحدود! وكيف يقابلها الإنسان بالعمل القليل، لكنه يعود ليثنى على ربه

١ - الفرقان: ٤٣.

٢ - يوسف: ١٠٦.

٣ - تفسير القمي ١: ٢١٣.

ويصفه بالجود والكرم ويجعل ذلك ذريعة لقبول عمله وتنزيكته لنيل درجة القرب والرضا.

ولعل ما يلفت النظر أنَّه علَيْهِ يَحْمُدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةِ مَهْمَةٍ مِّنْ نِعْمَتِهِ الَّتِي لَا تَعُدُّ
وَلَا تَحصُى أَلَا وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى نَقَى قَلْبَهُ مِنَ الشَّرِكِ، وَهَذَا يُشَيرُ إِلَى حَقِيقَتَيْنِ
مَهْمَتَيْنِ:

١. إنَّ الشَّرِكَ مِنَ الْقَدَارَاتِ الْمَعْنُوَيَّةِ وَالْدَّنْسِ الرُّوحِيِّ الَّذِي يُعَكِّرُ أَجْوَاءَ النَّفْسِ،
وَيَهْبِطُ بِهَا إِلَى الْهَاوِيَّةِ، وَيُورِدُهَا عَالَمَ الظُّلْمَاتِ وَالْكَدُورَاتِ.
٢. إِنَّ تَنْقِيَةَ الْقَلْبِ هَذِهِ بِيَدِهِ سَبْحَانَهُ، وَلَوْلَا التَّوْفِيقُ الْإِلَهِيُّ وَالتَّسْدِيدُ الرَّبَّانِيُّ
لَمَا اسْتَطَاعَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْلَكَ نَفْسَهُ مِنَ الْقِيُودِ الَّتِي كَبَلَ نَفْسَهُ بِهَا، وَيَخْلُصَ رُوحَهُ
مِنْ حَبَالَاتِ الْجَاهْلِيَّةِ وَرِبْقِ الْمَادَّةِ وَالشَّهَوَاتِ.

وَتَنْقِيَةُ الْقَلْبِ عَمْلِيَّةٌ اِنْتِقَالٌ إِلَى مِيدَانِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ بِكُلِّ أَبْعَادِهِ، بِلِ
هِيَ مُحاوَلَةٌ إِعادَةِ الْمِيَاهِ إِلَى مَجَارِيهَا الْأُولَى، لَأَنَّ الإِنْسَانَ مُفَطَّرٌ عَلَى التَّوْحِيدِ،
وَكُلَّ ضُرُبٍ مِّنْ ضُرُوبِ الشَّرِكِ مِنَ الْقَضَايَا الْعَارِضَةِ.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا فِظَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^١. فَالإِنْسَانُ يَعْرِفُ رَبَّهُ مَعْرِفَةً حَضُورِيَّةً، وَيَحْمَلُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَدَايَا
الْفَطَرِيَّةِ وَالْطَّبَعِيَّةِ مَا تَقْوِدُهُ وَتَرْتَقِي بِهِ فِي سَلَالَمِ الْكَمَالِ وَالتَّوْجِهِ الإِيمَانِيِّ
وَالسُّلُوكِ الْعَرْفَانِيِّ إِذَا ظَلَّتِ الْفَطْرَةُ عَلَى نَقَائِهَا، وَكَانَ الْعُقْلُ هُوَ الَّذِي يَوْجِهُ
السُّلُوكَ وَيَحْكُمُ التَّصْرِيفَاتِ.

قال الإمام الصادق علَيْهِ السَّلَامُ: كُلُّ مُولُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفَطْرَةِ حَتَّى يَأْتِي أَبُوهُهُ فِيهَوْدَانَهُ أَوْ

ينصرانه أو يمجسانه^١.

إن الشهوات والنزوات والأهواء الفاسدة تشكل الحجب والرکام على مرآة القلب، وتغلق الأبواب والنوافذ فلا يدخل النور الإلهي إلى ساحة الروح، ويضع العرقيل والمعوقات في مسيرة الإنسان القائمة على التوحيد الفطري، فيكون للانحراف أثره العملي وأثاره من المثبتات والغفلة ظاهرياً وباطنياً، فيُصاب العقل بالضعف والخدر والشلل، وتختل المدارك وتضطرب الموازين، ويخرج الإنسان من طور الإنسانية إلى طور البهيمية أو ما هو دون ذلك، وصدق الله القائل: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَانُوا نَعَمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^٢.

وقد يقوده التمادي والتسويف وركوب مطاييا الشر ليكون قبلة مؤقتة تنفجر في أوساط الأمة فيحرق الرطب واليابس، ويهلك الحرج والنسل.

قال النبي ﷺ: ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هو متبوع^٣.

إن الرسالات السماوية كنظريات صالحة تهدف إلى بناء الإنسان المستقيم، ومهمة الدعاة الرساليين والعلماء الربانيين إذا تظافرت فستكون مهمتها هي إزالة الصدأ والرین والتراكمات المادية، وتهذيب النفوس، وإحياء القلوب وإنقاذهما من نتن الجاهلية، وعلاجها من أمراض النفس كالطغيان والكبر والحسد والانشداد إلى عالم الأرض والزخرف.

وهنا تتحقق العودة إلى تسليم السلطة إلى قيادة صالحة رشيدة، وهذه

١ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٩ ح ١٦٦٨، عوالى الالئ ١: ٣٥ ح ١٨.

٢ - الفرقان: ٤٤.

٣ - المعجم الكبير ٨: ١٠٣.

القيادة الشرعية تمثل بالعقل وتدور مدار صلاحه ووضعه الصخي.

قال تعالى: «وَنَزَّلْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»^١.

وقال سبحانه وتعالى: «قَدْ جَاءَتُكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ»^٢.

والفطرة تشكل الدليل الأول والأقوى على وجود الله سبحانه، ولا نحتاج إلى أي دليل خارجي لإثبات وجوده سبحانه، هذا مع سلامه الفطرة.

قال تعالى: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^٣.

وورد في دعاء عرفة عن الإمام الحسين عليه السلام: كيف يستدلّ عليك بما هو مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً^٤.

والإمام الحسين عليه السلام لا يدعو على العين التي لا تراه سبحانه عليها رقيباً، بل هو من باب الإخبار والتشخيص.

وورد عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قوله: بك عرفتك وأنت دلتني عليك^٥.

وحينما يدخل الشك والوسوسة، والارتياح والتزلزل في النفس الإنسانية، فعندها نكون مضطرين إلى سلوك طريق آخر غير طريق الفطرة، لأننا كنا أمام شخص سليم معافي، واليوم نقف أمام شخص مريض قد يحتاج علاجه إلى

١ - الإسراء: ٨٢

٢ - يونس: ٥٧

٣ - إبراهيم: ١٠

٤ - بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٦

٥ - إقبال الأعمال ١: ١٥٧

أكثر من أسلوب وعملية، وهنا نرجع إلى دنيا الاستدلالات العقلية والفلسفية والمنطقية لنعيد المرء إلى حاليه الصحيحة الأولى.

إن العقل يحكم بقانون العلية الجاري والحاكم على مفاصل الكون ومفردات الحياة، فال الموجودات الخارجية كلها معلومات لعلة خارجة عنها، ولا يمكنها أن تختلف عن تلك العلة المطلقة. وهذا النظام الجاري والدقة المتناهية، وجمال الصنع كلها لسان واحد ناطق عن وجود صانع عظيم، حكيم مبدع، متصرف بالكمال المطلق، ونعم ما قيل في المقام: فاقد الشيء لا يعطيه^١.

ومن هذه المقدمة نخرج بخلاصة مفادها أن التوحيد الحق يقتضي توحيد الله سبحانه وتعالى من جميع الجهات، فنحن نوحده بالذات، ونوحده بالصفات، ونوحده في العبادة، وننزعه عن الشريك، وكذلك نوحده بالأفعال.

١. التوحيد الذاتي: ومفاده الإقرار بأحديته البسيطة التي لا تقبل الشبيه والنظير، ولا التعدد ولا التجزئة ولا التركيب.

٢. التوحيد العبادي: ومفاده انحصر العبادة به دون غيره لأنه مصدر كل كمال وخير، وجلال وعظمة، وإذا وصف غيره بمثل هذه الصفات فإنها من رشحات وجوده وصفاته.

وعندما انحرف الإنسان عن مسار الفطرة الذي كان يوحد الصفوف وقع الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾^٢.

وحدثت الانقسامات وقع الإنسان في متأهات وضلالات، وتخبط عشوائي،

١ - أصوات البيان، للشنقيطي ٨: ٧٨.

٢ - يونس: ١٩.

وتناقضات وتناحرات، وازدواجيات في الشخصية، وقادتهم تلك الحالة إلى عمى البصائر والغفلة، وإلى ولایة الشیطان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^١. وترتب على هذا الانحراف أن قام قسم يإنكار وجوده سبحانه، ورفعوا شعارات الإلحاد، ونشروا رايات الكفر الصريح، معتبرين أن الدين أفيون الشعوب، وهو من صنع البشر، وإنما جاء لحماية مصالح الأغنياء والمترفين على حساب مصالح المهمومين والكادحين، ووعدوا الناس ولوحوا لهم بالرغيف، وكانت شعاراتهم البراقة ووعودهم المعسولة كسراب بقعة يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً^٢.

وعندما انتبه المغرر بهم من غفلتهم وجدوا أنفسهم يخوضون في لجة من الدماء حصيلة ملايين من الضحايا، وظلوا يلعقون جراهم منتظرين دجالا آخر يرفع لهم شعاراً جديداً، ويقدم لهم وعداً جديدة، وهم بدورهم يقومون بالتصفيق والهتافات.

وقام قسم بنسبة الإحياء والإماتة إلى الدهر، وقسم آمن بوجوده الشريف لكنهم أنكروا أصل المعاد فسلبوا ربهم الحكمة ونسبوا إليه العبث، وأخرون عبدوا الكواكب، وقسم عبدوا أشخاص عظمائهم وصوروا لهم التماشيل والنُّصب، ونسبوا لهم أمر التدبير، وأعطوه دور الشفاعة، وأخرون عبدوا الملائكة الكرام والجن، وقسم عبدوا أنبياءهم وأعطوه مقام الربوبية والألوهية.

١ - المؤمنون: ٥٣.

٢ - مقتبس من الآية: ٣٩ من سورة النور.

٣. التوحيد الصفاتي: ومفاده الاعتقاد باتحاد الصفات الذاتية مع الذات المقدسة وجوداً وعيناً، فعلاً وتائراً، فعلمه وقدرته، وحياته وقيمومته وغناه عين ذاته، وليس بشيء خارج وطارئ عليها.

وقد قسموا الصفات الإلهية إلى:

أ) الصفات الثبوتية الكمالية، كالعلم والقدرة، والغنى والإرادة، والحياة وغيرها من صفات الكمال والجمال، وهذه الصفات عين الذات، بل كلّ صفة عين الصفة الأخرى، فهو قادر من حيث هو حي، وهو حي من حيث هو قادر، وهو سميع من حيث هو بصير، وهو بصير من حيث هو سميع، وإذا كان هناك اختلاف فإنما هو بحسب المعاني والمفاهيم لا في حقائق الصفات ووجوداتها.

ب) الصفات الثبوتية الإضافية، مثل الخالقية والرازقية والتقدم والعلية، وهذه من لوازم القيمة، فهو تعالى يخلق الموجودات ويفيض عليها القوانين والسنن والحياة، ويتولى أمر تدبيرها، وهي لا تستغني عن القيام به وجوداً وبقاءً. ويُطلق على هذا القسم الصفات الفعلية.

ولكي لا يختلط علينا الأمر نقول: إنَّ علم الله مثلاً هو علم حضوري، ولكن هذا العلم ينقسم إلى نوعين من العلم: الأول: علمه بالأشياء قبل خلقها، وهذا العلم عين الذات المقدسة، والثاني: علمه بالأشياء بعد خلقها، وهذا عين وجود الأشياء، ونقول: إنَّ الله تعالى خالق أزلٍ بالقوة قبل خلق الموجودات، أما بعد خلقها فهو خالق بالفعل.

ج) الصفات السلبية: ويُطلق عليها صفات الجلال، فنحن ننزعه عن الجسمية والصورة، والحركة والسكن، والعجز والجهل، وال الحاجة والاتّصاد بالظلم، وعن الجهبية والاتحاد بالغير، وعن كلّ نقص ومحدودية.

إن الصفات الذاتية ثابتة لا تتبدل، أما الصفات الفعلية فهي طارئة ومتغيرة بتغير الفعل الخارجي، فلوقلنا: إن الله سبحانه يغضب فليس المراد الانفعال والتأثير، بل غضبه إنزال العقاب والانتقام من العبد المستحق لذلك بسوء عمله وفساد اعتقاده، وعندما نقول: إنه تعالى يرضى. فالمراد شمول العبد بالرحمة والمواهب.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
العصومين.

المبحث السادس والسبعون: في مراقي العبادة

قال عليه السلام: سيدى إلينك رغبتي، وإلينك رهبتى، وإلينك تأملى، وقد ساقنى إلينك أملى، وعلينك يا واحدى عكت همتى، وفيما عندك ابسطت رغبتي، ولك خالص رجائى وخوفي، وبك أنسى محبتى، وإليك القيث بيدي، وبخبل طاعتكم مددت رهبتى، يا مولاي بذكرك عاش قلبي، وبمناجاتك بردث الم الخوف عنى، فيما مولاي ويا مؤملى ويا منتهى سولى فرق بيني وبين ذئبي المانع لي من لزوم طاعتكم، فائماً أشألك لقدم الرجاء فيك، وعظيم الطماع منك، الذي أوجنته على نفسك من الرأفة والرحمة، فالأمر لك، وحدك لا شريك لك والخلق كله عيالك وفي قبضتك، وكل شيء خاضع لك تبارك يا رب العالمين.

يتوجه الإمام عليه السلام إلى ربه بقلب تتوزن فيه قوتا الرغبة مع الرهبة، والخوف مع الرجاء، ونفسه عامة بالأمل والافتتاح، والتفاؤل وحسن الظن بالله سبحانه، وهذا الأمل هو القوة الفاعلة المحركة للإنسان للتوجه والسعى نحو هدفه.

وليس هناك هدف أو غاية أعظم من طلب رضوان الله، وإن تعددت الغايات وتشعبت السبل، فقد ورد في الآثار المعتبرة أن أبواب وطرق العبادة إلى الله بعدد

أنفس الخلائق، ولكن شتان بين التبر والتراب، والمحض واللائي.

قال علي عليهما السلام في وصف المتقين: ولو لا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الشواب وخوفاً من العقاب^١.

ثم يرسم الإمام عليهما السلام تلك الصورة الفنية الرائعة للمعتكف في ساحة الربوبية وميدان الرحمة بكل عزم وإرادة معتبراً عن حالة من الإقبال والتعلق، والانسداد والانقطاع، انطلاقاً من صدق العلاقة بين العبد وخلقه، وعمق الصلة، ونبذ الأغيار والأنداد من فضاء القلب العامر بالإيمان، الذي لا يتسع لشيء غير الله تعالى، ولا يتضمن إلا التقديس والتنزيه، والشوق والحب، والأنس والعشق لله تعالى.

ومن هذا المنطلق نرى أولياء الله يجاهدون في طلب طول اللقاء بالله والخلوة معه، ومناجاته، والعزلة عما يحجبهم عن وجهه الكريم، فترى أحدهم كالطير الظمان الذي يسعى لإطفاء حرارة الظمآن من قلبه.

انظر هذه المحاورة بين الله سبحانه وعبده موسى عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَىٰ أَتَوَكَأُ عَلَيْهَا وَأَهْبَشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلَىٰ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى﴾^٢.

لقد كان بإمكان موسى عليهما السلام أن يقول: عصا، لكنه أطرب وأطال ذكر نعوت عصاه وخواصها، وما ربه فيها، لقد كان عليهما السلام في حالة اللقاء والمناجاة، والأنس والسرور بلقاء حبيبه وقرة عينه، لقد كان يتذوق حلاوة اللقاء، فأراد الإطالة وطول

١ - شرح نهج البلاغة ٢: ١٦١، خطبة المتقين.

٢ - طه: ١٧ - ١٨

الإقامة.

إنَّ الوعي ونور البصيرة يقود صاحبه إلى سلوك طريق الحق وسبيل النجاة
الموصل إلى ولية الله.

قال عليٌ عليه السلام في وصف هذه الشريحة من أهل التقوى، التي هي معيار
الأكرمية: عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن
رأها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رأها فهم فيها مُعذبون.
ويختصر الإمام عليٌ عليه السلام ذلك الشخصيات بأبلغ الكلام وأوجزه قائلاً: الخير منه
مأمول، والشرّ منه مأمون.

ثم يصور الإمام عليٌ عليه السلام لنا عبادتهم لله تعالى قائلاً: أما الليل فصافون أقدامهم
تالين لأجزاء القرآن يرثلونه ترتيلًا يحزنون به أنفسهم ويستثiron به دواء دائهم...^١.
لقد غمرهم النشاط فقاموا للعبادة، وترسخت أشجار التقوى في حدائق
صدورهم، فمنحهم ذلك القوة في الالتزام، والسعى الدؤوب في العمل، ونعم ما
قيل في المقام:

وإذا حلَّت الهدایة قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء^٢

لقد عاصرنا بعض العلماء الربانيين وعايشناهم من كثب، فكانوا حركة دائمة
في العبادة، وطلب العلم ونشره، وكتابة المباحث، ورعاية الأمة، وحل مشاكل
المؤمنين والسعى في قضاء حوائجهم، لقد كانوا لا ينامون أكثر من ثلاثة أو أربع
ساعات في اليوم، لقد روض هؤلاء أنفسهم فلم يعطوها أكثر من الحاجة

١ - شرح نهج البلاغة ٢: ١٦١، خطبة المتّقين.

٢ - السيرة الحلبية ١: ٣٨٢.

الضرورية، فانقادت لهم، وبقي سلطان العقل هو المهيمن والسيطر في المسيرة إلى الله. وهكذا يفعل طول اللقاء مع الله، والانقطاع إليه.

ورد في الحديث القدسي أنَّ الله خاطب عبده موسى عليهما السلام قائلاً: كذب من زعم أنه يحبني، فإذا جنَّه الليل نام عنِّي^١.

ثم ينتقل الإمام عليهما السلام إلى ساحة الأنس والمحبة، والحب أقوى الدوافع والحوافز للإقبال على الله والانقطاع إليه، وهو أفضل العبادة، وهذه العبادة أقوى من عبادة الخوف والرعب التي هي عبادة العبيد، وأقوى من عبادة الطمع والرغبة، وهي عبادة التجار. إنَّ عبادة الله حبًا ومن حيث إِنَّه أهل للعبادة، ليس وراءها هدف إِلَّا طلب رضوان الله.

قال علي عليهما السلام: الجلسة في الجامع أحب إلى من الجلسة في الجنة، فإنَّ الجلسة في الجامع فيها رضا ربِّي، والجلسة في الجنة فيها رضا نفسي^٢.

ومن خلال النظر والتدبر في روایات أهل البيت عليهم السلام نرى أنَّ العبادة تدور حول ثلاثة محاور ومنظلات:

١. العلم: وهو يقود صاحبه إلى الخوف والرعب، وهذه الحالة النفسية تدعو إلى الهروب عن الذنوب والمعاصي، والنتيجة هي النجاة من عذاب الله. وهنا يصوّر لنا الإمام الصادق عليهما السلام أنَّ هذه الحالة تشبه دخول الحرم المكي الذي يحقق الأمان والأمان لصاحبِه، وهنا تتحقق أهداف العبادة من العبيد.

٢. اليقين: وهو يقود صاحبه إلى الرجاء والأمل والطمع بما عند الله سبحانه،

١ - الأمازي، للصدق: ٤٣٨ ح ٥٧٧.

٢ - عذَّة الداعي: ١٩٤.

وهذه الحالة النفسية تشكل الدافع نحو طلب ما يرجوه، والنتيجة هي تحقيق طموحات الإنسان وتعلمهاته. ويصور لنا الإمام الصادق عليه السلام هذه الحالة مثل دخول المسجد الحرام، إذ يكف الإنسان جوارحه عن المعاشي والآثام ويوجهها إلى الطاعة وممارسة الأعمال العبادية، وهذا من مصاديق عبادة التجار.

٣. المعرفة: وهي أرقى حالات البناء النفسي للشخصية الإسلامية الوعية، والمعرفة تقود إلى عالم الحب، وهذا الحب يغرس في النفس إيثار المحبوب على ما سواه، وهذه الحالة العرفانية لها نتائج إيجابية مهمة مثل التوجّه العميق والإقبال على الله والتعلق بأذیال رحمته والانقطاع إليه سبحانه، وهذه الحالة تمثل قمة الطاعة وتاج العبادة، ويصور لنا الإمام الصادق عليه السلام هذه الحالة بدخول الكعبة الشريفة الذي يحقق الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي فلا يستغل المرء بغير ذكر الله تعالى، وهكذا تتحقق عبادة الأحرار بكل أبعادها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والحب، فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحب فرع المعرفة. فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه. فإذا تحقق العلم في الصدر خاف، وإذا صاح الخوف هرب، وإذا هرب نجا، وإذا أشراق نور اليقين في القلب شاهد الفضل، وإذا تمكّن من رؤية الفضل رجا، وإذا وجد حلاوة الرجاء طلب، وإذا وفق للطلب وجد، وإذا تجلّى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحببة، وإذا هاج ريح المحببة استأنس ظلال المحبوب، وأثر المحبوب على ما سواه، وبasher أوامرها.

ومثال هذه الأصول الثلاثة كالحرم والمسجد والكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في المعصية، ومن

دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغله بغير ذكر الله^١.

إن لذة الحب الإلهي لا يجدها، بل لا يتصورها إلا من ذاق حلاوتها، فإنه لا يؤثر شيئاً عليها وإن جلّ وعظم، فمن وجدها أغنته عن كلّ خير سواها، ومن لم يذقها فقد فقد كنزاً من كنوز المعرفة والوعي وال بصيرة، ولم تصل به المراقي والسلام إلى مراتب الهيام والعشق والوله والحرية.

يقول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: سيدي أنا من حبك جائع لا أشبع، وأنا من حبك ظمان لا أروى^٢.

إن الإنسان تركيبة كاملة من الفقر وال الحاجة، والجهل والضعف والضلال، ولو لا أن الله سبحانه قد منّ عليه بسد النقص ورفع الحاجة، لما كان للحياة الإنسانية - بكل الأبعاد وعلى كل المستويات - عين ولا ثر. ومن السنن الإلهية أن يقوم القوي بسد حاجة الضعيف، بل إن القوي يحمل في ذاته التوجّه لسد حاجة الضعيف، كما أن الضعيف متوجّه بطبعه إلى القوي ليسعفه برفع ضعفه.

يقول المفكّر الإسلامي العلامة الشيخ محمد مهدي الأصفي مانصه: فإن المخلوق يستنزل رحمة الخالق، والحقير يستنزل رحمة العظيم، والضعيف يستنزل رحمة القوي، والفقير يستنزل رحمة الغني، والمرزوق يستنزل رحمة الرازق، والمبتلى يستنزل رحمة المعافي، والضال يستنزل رحمة الهدى، والمذنب يستنزل رحمة الغفور، والمتّحير يستنزل رحمة الدليل، والمغلوب

١ - مصباح الشريعة: ١١٩.

٢ - إقبال الأعمال: ١: ١٣٥.

يُسْتَرِّي رحمةُ الْعَالَمِ.

وهذه من السنن الكونية لله تعالى، ولن تتبّدّل سنن الله، فمهما كانت حاجته وفقره كانت رحمة الله وفضله عندهما، وكما ينزل الماء إلى الموضع المنخفض، تنزل رحمة الله تعالى على مواضع الحاجة، وذلك أنه تعالى كريم جود، والكريم يرعى مواضع الحاجة ويخصّها برحمته^١.

ويعد الإمام علياً ليعلن ولاءه وانتقامه لله الملك الحق المبين الذي بيده
الخلق والتدبر وله الحاكمة المطلقة، وبذلك يضمن سبباً أصيلاً من أسباب
مواصلة البقاء على عرصة الإيمان وساحة التقوى، وهذا السبب هو ذكر الله على
كل حال إذ به تحيا القلوب، وترفرف الأرواح، وتطمئن النفوس، وتبرد حرقة
الاعراض، وتخفّ لوعة البعد والهجران.

وبعد هذا المدح والثناء والإطراء على الله تعالى، يطرح مسألته المعبرة عن فقره المطلق، فيسأل الله - من رحمته وفضله وإحسانه - أن يمحو ذنبه التي تحجبه عن طاعة الله، وتعيقه من الوصول إلى مراتب رضاه سبحانه.

إن حركة الإنسان وسلوكيته حالة متوسطة بين محورين:
الأول: التوفيق الإلهي لسلوك طريق الطاعة فكراً واعتقاداً، وممارسةً سلوكاً،
ولولاه لما استطاع الإنسان أن يحقق لنفسه خيراً ولا نفعاً. سلب التوفيق من
الحجب والموانع عن طاعة الله.

الثاني: الاستجابة وتحقيق الأمانى والأمال الإنسانية، وترتّب الأجر والثواب على العمل.

١ - الدعاء عند أهل البيت عليهما السلام: ٢٤٤

انظر هذا التسلسل :

ال توفيق الإلهي ثم الطاعة ثم ترتب الثواب.

إن التوفيق الإلهي هو بمثابة التمكين من مفاتيح الخزائن الإلهية، ثم يأتي دور الإنسان للقيام بعملية فتح الخزائن، وعندها يجد ما طلب وأراد من الكنوز والثروات.

قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في مناجاة المطعدين: اللهم أهمنا طاعتك، وجتنبنا معصيتك، ويسر لنا بلوغ ما ننتمنى من ابتلاء رضوانك، وأحللنا بحبوحة جنانك، واقشع عن بصائرنا سحاب الارتياح، واكشف عن قلوبنا أغشية المِرْيَاة والحجاب، وأزهق الباطل عن ضمائernا، وأثبت الحق في سرائرنا، فإن الشكوك والظنون لواقع الفتنة، ومُكَدّرة لصفو المنائح والمنن.

اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتّعنا بلذذ مناجاتك، وأوردننا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنّا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت، إلهي أجعلني من المُضطَفَيْنَ الأخيار، وألحقني بالصالحين الأبرار، السابقين إلى المكرمات، المسارعين إلى الخيرات، العاملين للباقيات الصالحات، الساعين إلى رفع الدرجات، إنك على كل شيء قادر، وبالإجابة جدير، برحمتك يا أرحم الراحمين^١.

وقال الإمام الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام في مناجاته: فَأَعْنَى عَلَى طاعتك، ووقفني لما أوجبت علىي من كل ما يرضيك، فإني لم أر أحداً بلغ شيئاً

من طاعتك إلّا بنعمتك عليه قبل طاعته، فأنعم على بنعمة أنان بها رضوانك^١.
وورد عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قوله في مناجاته: اللهم اجعلني أصول
بك عند الضرورة، وأسائلك عند الحاجة، وأتضرع إليك عند المسكنة، ولا تفتني
بالاستعانة بغيرك إذا اضطررت^٢.

وصدق الله القائل حيث يخاطب نبيه الأعظم: ﴿وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمِيتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى﴾^٣.

وقوله عليهما السلام: ولا تتكلّني إلى نفسي طرفة عين أبداً^٤، إشارة إلى سلب التوفيق.
إن الإقبال من الله على عبده هو الذي يدعوه إلى ممارسة أعمال الطاعة
والدعاة، وحينما يؤدي العبد ما افترض الله عليه وندب، فإنه يتفضل عليه
بالإجابة.

إذن يوجد عندنا نوعان من التفضيل الإلهي:
الأول: الفضل الأرقى بإقبال الله على العبد، وهذا ما لا تُوزن به نعم الدنيا
والآخرة.

الثاني: الفضل الأدنى ويتمثل باستجابة الدعاء وترتب الجزاء، وهذا لا قيمة
له أمام إقبال الله على الإنسان، ومن هنا كانت عبادة الأحرار أرقى من عبادة
التجار والعبيد. ولقد كان بعض العارفين بالله عندما يقبل على الله بالدعاء
والمناجاة تأخذه نسوة اللقاء فينسى حاجته.

١ - فلاح السائل: ٣٩.

٢ - الصحفة السجادية: ١١٣.

٣ - الأنفال: ١٧.

٤ - مصباح المتهجد: ٦٠.

إذن يكون التحرّك على ثلاثة محاور: اثنان من الله، وواحد متوسط بينهما من العبد.

قال علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: ثم جعل - الله - في يدك مفاتيح خزائنه، بما أذن من مسأله، فمتى شئت استفتحت بالدعاء خزائنه^١.

قال علي عليه السلام: الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح^٢.

ولأنسى أن هناك ملزمة بين الدعاء مثلاً وبين الأسباب وال السنن الكونية القائمة على العمل والسعى، إذ لا يمكن الطيران بجناح واحد مهما عظم الطائر. ورد في الحديث القدسي: يا عبادي كلّكم ضال إلّا من هديّه، فاسألوني الهدى أهدكم، وكلّكم فقير إلّا من أغنيته، فاسألوني الغنى أرزقكم، وكلّكم مذنب إلّا من عافيته، فاسألوني المغفرة أغفر لكم^٣.

وممارسة الإنسان للمعصية، وركوب مطاييا الآثام من دواعي وضع الحجب والعوائق التي تدعوي إلى سلب التوفيق الذي هو الباب الأول للدخول على ساحة الربوبية، وقد تحدثنا بإسهاب عن هذه النقطة في المباحث السابقة.

وقد ورد في ما يستفاد من الآثار المعتبرة أن الذنوب تخلف الرّين والظلمات على مرايا القلوب فتنعدم الرؤية، ويفقد الإنسان توازنه، وأنها تسلب التوفيق، وتكون حاجباً عن صعود الأعمال وقبول الطاعات وترتب الأثر وهو الثواب. بل لها آثار وضعية منظورة، منها: أنها تورث قساوة القلب، وظلمة النفس، ولا يجد صاحبها طعم الذكر وحلوة اللقاء، وتدّي إلى خبث السريرة، والنفاق،

١ - شرح نهج البلاغة ٣: ٤٨ وصيته عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام.

٢ - الكافي ٢: ٤٦٨ ح ٢.

٣ - التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٢.

والحسد، والإعراض عن الله.

قال الإمام الباقر عليه السلام: إن العبد يسأل الله تعالى الحاجة، فيكون من شأنه
قضاءها إلى أجل قريب، أو وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تعالى
للملك: لا تقض حاجته، واحرمها إياها فإنه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان

^١
مني .

وقال النبي عليه السلام: مرّ موسى عليه السلام على رجل وهو ساجد، فانصرف من حاجته وهو
ساجد، فقال عليه السلام: لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها لك، فأوحى الله إليه:
يا موسى، لو سجد حتى ينقطع عنقه ما استجبت له حتى يتحول عمّا أكره إلى
ما أحب ^٢.

وورد في الأثر أنَّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إني حُرمت الصلاة
بالليل، فقال عليه السلام: أنت رجل قيدتك ذنوبك ^٣.

وعن الإمام الصادق عليه أنه قال: إن الرجل يذنب الذنب، فيحرم صلاة الليل،
وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم ^٤.

وأنا أقول: يا سيدي ويَا مولاي يا أبا عبد الله الصادق، لقد أصبحت الأعمال
السيئة في مجتمعنا أسرع من النار في الهشيم.

وأنا أكتب هذه السطور إذ دخل على أحد ثقات المؤمنين ليقول: اجتمع
عدد هائل من المصلين في أحد مساجد البلد، وضاق المسجد بأهله مما جعل

١ - الكافي ٢: ٢٧١ ح ٤١.

٢ - نفسه ٨: ١٢٩ ح ٩٨.

٣ - نفسه ٣: ٤٥٠ ح ٣٤.

٤ - نفسه ٢: ٢٧٢ ح ١٦.

بعض الصفوف تقف خارج المسجد، فقام إمام الجماعة وقال: أيها المصلون لا يصلّي خلفي إلا من يؤذى القسم الشرعي بعد وضع يده على المصحف الشريف على أنه لم يسرق من أموال الدولة، فبئثت المصلون، ثم انصرفوا ولم يبق إلا سبعة منهم.

إذن هناك سنة إلهية مفادها أن التعرّض لسخط الله يستوجب التوفيق، ويغلق باب الدخول إلى ساحة رحمة الله تعالى.

أما القلوب العاصرة بالإيمان والتقوى، والحب والرأفة والتسامح والافتتاح، والانشراح لكلمة الحق ومقدمة الصدق فإنّها تدخل إلى ساحة الرحمة من أوسع أبوابها، ولا يقف حاجب ولا مانع في طريق صعودها إلى الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَضْعُدُ الْكَلِمُ الظَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^١.

وقال رسول الله ﷺ: لا تزال أمتي بخير ما تحابوا، وأدوا الأمانة، وآتوا الزكاة، وسيأتي على أمتي زمان تخبت فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، أن يعمّهم الله ببلاء فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجاب لهم^٢.

وعن الإمام الصادق ع عليهما السلام قوله: لا يقبل الله من مؤمن عملاً وهو مضمّر على أخيه المؤمن سوءاً^٣.

ثم يعود الإمام ع ليشير إلى حقيقتين هما:

١. إن جميع الخلق هم عيال الله من جهة الفقر وال حاجة، فكلّهم قائم به وجوداً وبقاءً، وهذا من المسلمات العقلية.

١ - فاطر: ١٠.

٢ - الكافي ٢: ٢٩٦ ح ١٤.

٣ - الكافي ٢: ٣٦١ ح ٨

٢. إن جميع المخلوقات في قبضة الله تعالى يحكم فيهم كيف يشاء، يعطي من يشاء، وينعم من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً فَبَنَصَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَظْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾^١.

وقال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجادية: أصبحنا في قبضتك، يحولنا ملكك سلطانك، وتضمنا مشيئتك، ونتصرف عن أمرك، ونتقلب في تدبيرك، ليس لنا من الأمر إلا ما قضيت، ولا من الخير إلا ما أعطيت^٢.

وقال علي عليهما السلام في دعاء كميل: اللهم عظم سلطانك، وعلامك، وخفى مكرك، وظهر أمرك، ولا يمكن الفرار من حكمتك^٣.

إن مسألة الفرار هي الحركة من المحور ثم العودة إليه، والفار هو الإنسان، والمحور هو الله، فالإنسان يفتر من الله إليه.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأً مِّنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾^٤.

والفار يتمثل في حركتين:

١. الفرار إلى الله، وذلك بالانقطاع إليه سبحانه بتوحيده ونبذ الأغيار والشركاء له، والالتزام بطاعته والسير وفق شرائعه وأحكامه، وهذا الفرار يمثل الهدامة

١ - الزمر: ٦٧.

٢ - الصحيفة السجادية: ٥٦.

٣ - مصباح المتهجد: ٨٤٥

٤ - التوبة: ١١٨.

الخاصة.

قال تعالى: «فَإِنَّمَا يُنذَّرُ الْمُجْرِمُونَ»^١.

٢. الفرار من الله إليه، وذلك عندما تكشف الحجب وتزول العوائق فيرى الإنسان أنه في قبضة الله، وقد أحاطت به خطئته، وحاق به ذنبه، وليس هناك حصن يلجم إلينه، ولا مجير يجيره، ولا مجال للفرار من حكمة الله، فعندما تنقطع السبل يلتتجئ إلى خالقه طالباً العفو والرحمة والمغفرة.

وإذا كان هذا الأمر واضحاً جلياً في مجال الدنيا، فهو أشد وضوحاً وجلاءً في عرصات القيامة.

قال تعالى: «يَوْمَ تُنَزَّلُ السَّرَّائِرُ» فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ^٢.

وقال تعالى: «فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ» وَخَسَفَ الْقَمَرُ» وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» يَقُولُ إِنَّمَا يَوْمَئِذٍ أَئِنَّ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَرَأَ» إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسْتَقْرِرُ»^٣.

ورد عن علي عليه السلام قوله: لا تنشق الأرض عن أحد يوم القيمة إلا وملكان آخذان بضبعه يقولان: أجب رب العزة^٤.

الضَّبْع: وسط العضد من اليد.

وقال عليه السلام: وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين، لنشاش الحساب وجزاء الأعمال، خضوعاً، قياماً، قد الجهم العرق، ورجفت بهم الأرض، فأحسنهم

١ - الذاريات: ٥٠.

٢ - الطارق: ٩ - ١٠.

٣ - القيامة: ٧ - ١٢.

٤ - الأمالى، للصدوق: ٤٩٧ ح ٦٨١ / ١٠.

حالاً من وجد لقدميه موضعًا، ولنفسه متسعاً^١.

فأَعْظُمُوا عِبادَ اللَّهِ بِالْعُبُرِ النَّوافِعِ، وَاعْتَبَرُوا بِاللَّآيِّ السُّواطِعِ، وَازْدَجَرُوا بِالنَّذْرِ
الْبَوَالِغِ، وَانْتَفَعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتُكُمْ مِنْ خَالِبِ الْمُنْتَيَةِ، وَانْقَطَعَتِ
مِنْكُمْ عَلَائِقُ الْأَمْنَيَةِ، وَدَهْمَتُكُمْ مَفَطَعَاتُ الْأَمْوَرِ، وَالسِّيَاقةُ إِلَى الْوَرَدِ الْمُورُودِ، فَ
«كُلَّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقِ وَشَهِيدٌ»: سَاقِ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشِرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشَهِدُ عَلَيْهَا
بِعَمَلِهَا^٢.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينِ الطَّاهِرِينِ
الْمَعْصُومِينَ.

١ - شرح نهج البلاغة ١: ١٩٦ الخطبة: ١٠٢.

٢ - شرح نهج البلاغة ١: ١٤٨ الخطبة: ٨٥

المبحث السابع والسبعون: في الفقر

قال عليه السلام: إلهي أرحمني إذا انقطع حجتي وكأَلْ عَنْ جَوَابِكَ لِساني، وطاش عنَّد سؤالِكَ إِيَّاَيَ لَبِي، فَيَا عَظِيمَ رَجَائِي لَا تُخَيِّبْنِي إِذَا اشْتَدَّ فَاقْتِي، وَلَا تَرْدَنِي لِجَهْلِي، وَلَا تَمْنَعْنِي لِقِلَّةِ صَبْرِي، أَعْطِنِي لِفَقْرِي وَأَرْحَمْنِي لِضَعْفِي.

مدخل لغوي

الحجَّة: البرهان والدلالة.

كلَّ: تعب وأعيا، طاش: خف ونزنق، وذهب عقله.

اللب: العقل الخالص من الشوائب، وبين العقل واللب تخصيص وعميم، فكلَّ لبٌ عقلٌ، وليس كلَّ عقلٌ لبًا. والفاقة: الحاجة والفقر.

خاب: لم يظفر بما طلب، انقطع أمله. ختب: خذل غيره ولم ينله مطلوبه.

الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، وضده الجزع والفقر؛ ضد الغنى، وهو على أقسام منها:

١. إذا نسب للمخلوقات مقابل ما عند الله فهو الفقر المطلق، إذ لا قوام لها وجوداً وبقاءً إلا بالله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتْمُمُ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^١.

٢. الفقر ما يقابل الغنى بالفهم العرفي، فنقول: الفقير من لا يملك قوت سنته بالقوّة أو بالفعل، ويقابلها الغنيّ، والمسكين أسوأ حالاً منه.

٣. فقر النفس: والمراد عدم القناعة. الضعف: خلاف القوّة، وقد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال. ووصف الإنسان بالضعف لكثره حاجاته. يتوجّه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ربّه بالدعاء طالباً الرحمة في عرصات القيامة في يوم عصيب شديد، يوم يجعل الولدان شيئاً، يوم يقف فيه الإنسان بين يدي ربّه للحساب، وقد انقطعت به السبل، وضاقت به الموارد، يوم تنصب فيه الموازين، وتنشر الدواوين، يوم تجد كلّ نفس ما عملت حاضراً وما يظلم ربّك أحداً، يوم عسير وصفه الله وسماته الصاخة والقارعة والطامة، والحالة والراجفة والرادفة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيهِ﴾^٢.

إنّه يوم مهول فقد وصفه الله تعالى بأدقّ وصف، وأروع صورة حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلَتِهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُنْ بِسُكَارَى وَلِكُنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^٣.

وقد رسم لنا القرآن صوراً مهولة عن الانقلاب الكوني والمشاهد المرعبة ما

١ - فاطر: ١٥.

٢ - عبس: ٣٣ - ٣٧.

٣ - الحج: ١ - ٢.

يطيش لها لب الحليم.

قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِرتَ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سِرَرَتْ * وَإِذَا
الْعِشَارُ عُظِلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبَحَارُ سُجَرَتْ﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَافِكُ انتَرَتْ * وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِرَتْ *
وَإِذَا الْقُبُورُ بُغِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَرَتْ﴾^٢.

إنَّه يوم يقف فيه الإنسان بين يدي ربِّه، لا يدرِّي ما يُفَعَّلُ به، ويكون مصيره مجهولاً، والحجَّةُ عليه قائمة، لسانه كليل عن الدفاع عن نفسه، ولبه طائش متحيَّر، والملائكة الحفظة شاهدون على أفعاله وحركاته وسكناته، وجوارحه ناطقة بأفعاله، وبقاع الأرض تنطق بالحقَّ على ما فعل عليها، وما خفي على هؤلاء وكان عند الله معلوماً أكبر.

والإمام عَلَيْهِ التَّكْبِيرُ يتوجَّهُ بالدعاء إلى ربِّه ليغيثه يوم لا مغيث سواه، ويرحمه يوم لا راحم غيره، ثمَّ يعود عَلَيْهِ إلى مطالب الدنيا التي هي قنطرة الآخرة ومزرعتها، فيسألَهُ أن لا يرَدَّهُ إلى عالم الجهل والخطيئة بعد العلم والهدايَّ، وأن لا يمنع سبِّيه^٣ عنه إذا جزع فقد صبره، ثمَّ يسألَهُ أن يمنَّ عليه بمواهبه السنَّية وعطائيَّاه الهنَّيَّة، ليسَدَّ فقره وحاجته بفضلِه الدائم وكرمِه القديم المعهود.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^٤.

١ - التكبير: ١ - ٦.

٢ - الانفطار: ١ - ٥.

٣ - السَّبِّ: سَبِّ الله عزَّ وجلَّ، وهو فضله وعطاؤه، ثمَّ كثُرَ حتى سُمِّيت الكنوز سِيُوبًا. ويقال لما تخرَّجه المعادن سِيُوب (ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٢٥٣ «سب»).

٤ - فاطر: ١٥.

إنّ الغنى المطلق هو لله سبحانه وحده، حيث لا تعلق له بغيره، لا في ذاته ولا في صفاتيه، بل هو في وجوده وكماله منزه من التعلق بما هو خارج عنه، والغنى الحقيقي أن يكون صاحبه لا حاجة له إلى غيره، وهذا المعنى منحصر به تعالى، أما إذا نسب الغنى إلى غيره فيما من الله على صاحبه من فضله ورحمته وفيوضاته.

من هنا نصل إلى أنّ الفقر المطلق من صفات الإنسان، لأنّه قائم بالله وجوداً وبقاءاً، وهذا الفقر منزل من منازل هبوط الرحمة الإلهية، فهو يعم المؤمن والكافر، ومن سأل الله ومن يسأله تحتنأ منه ورحمة.

إنّ الفقر يكون على ضربين:

١. الفقر الحقيقي: وهو أن لا يملك الإنسان قوت سنته، وربما قوت شهره أو يومه.

٢. الفقر غير الحقيقي: وهو أن يعيش الإنسان الغنى حالة الفقر بما فرضه على نفسه من أطواق بسبب الطمع والشره والحرص وخوف الفقر، فقد ورد عن علي عليه السلام قوله: الطمع فقر حاضر^١.
وقال عليه السلام: أفق الناس الطامع^٢.

وأسأله عليه السلام ولده الحسن عليه السلام: ما الفقر؟ قال: الحرث والشره^٣ ، وقال النبي عليه السلام: الفقر فقر القلب^٤ ، وقال عليه السلام: الفقر فقر النفس^٥.

١ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٣٩، التمهيد، لابن عبد البر: ١٧: ٤٤٢.

٢ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ١١٧.

٣ - معاني الأخبار: ٢٤٤ ح ١.

٤ - بحار الأنوار: ٦٩: ٥٦.

٥ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٢٩٥.

ولعل أشد أنواع ومصاديق الفقر هو خوف الفقر، وقد حذرنا النبي ﷺ وأهل بيته الكرام من هذه السجية المذمومة التي هي من مصاديق سوء الظن بالله.

ورد عن علي عليهما السلام قوله: أهلك الناس اثنان: خوف الفقر، وطلب الفخر^١.

وروي في الأثر المعتبر: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرهم بثلاثة أشياء: رجل مؤمن قتل مؤمناً، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر^٢.

وقال ذو النون المصري: علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر^٣.

وقال بعض الصلحاء: الغنى والفقير من قبل الناس لا في المال^٤.

الفقر الحقيقي

إن الإنسان الوعي المتبصر بالأمور يستطيع أن يحول الفقر إلى رصيد ضخم لينقله إلى عالم الآخرة متأسياً بالنبياء والأولياء والصلحاء، والذي يظهر على لسان الروايات المعتبرة أنَّ الفقر شعار الأولياء، وحلية الأصفباء، وموهبة من موهاب الآخرة، وكنز من كنوز الجنة، وقد اختاره الله الملك الحق المبين للصفوة من خاصته، ووصف الفقر بأنه سرّ من أسرار الله لا يضعه إلا عند من يحمله بصدق وأمانة، وإذا صاحب الفقر صبر جميل وشكراً فقد صلح الاستغناء بالله وحده، وهو كمال الغنى، ونعم ما قيل في المقام: لا يوزن غدائاً الفقر ولا الغنى،

١ - الخصال: ٦٩ ح ١٠٢.

٢ - الرسالة القشيرية ١: ١٢٣ باب الفقراء.

٣ - الرسالة القشيرية ١: ١٢٤ باب الفقراء.

٤ - جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٢: ٢٠.

وإنما يوزن الصبر والشكر^١.

إذن الفقر حالة قائمة ولكن الفضل في طريقة التعامل معها، فإذا صاحبها الجزع فربما تقود صاحبها إلى الانحراف وفي ذلك خسران الدنيا والآخرة، وإذا تعامل معها بالحكمة والصبر فإنها تبني النفوس وتطهر الأرواح وتقود إلى رضا الله والجنة، ومن هنا تكتسب الحالة إيجابيتها أو سلبيتها.

قال إبراهيم الخواص: نعم الفقير سكون النفس عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود^٢.

وقال بعض الصلحاء: دخلت بعض المساجد وإذا فيه فقير، فلما رأني تعلق بي وقال: أيها الشيخ، تعطف على فإن محنتي عظيمة، فقلت: وما هي؟ فقال: فقدت البلاء، وقويت بالعافية، فإذا قد فتح له شيء من حطام الدنيا^٣.

وورد عن النبي ﷺ قوله: الفقر خزينة من خزائن الله، والفقر كراوة من الله، والفقرشيء لا يعطيه الله إلا نبياً مرسلاً ومؤمناً كريماً على الله تعالى. وورد في الأثر: الفقر شينٌ عند الناس، وزينٌ عند الله^٤.

وقال النبي ﷺ: الفقر فخرٌ وبه أفتخر^٥.

وقال الله سبحانه: يا موسى إذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل: إنما الله وإنما إليه راجعون، عقبة عجلت في الدنيا، وإذا رأيت الدنيا مدبرة عنك فقل: مرحباً

١ - شرح العقيدة الطحاوية: ٤٠٧.

٢ - تفسير السعدي: ١: ٢٧٩.

٣ - الرسالة القشيرية: ١: ١٢٦ باب التصوف.

٤ - كنز العمال: ٦: ٤٧١ ح ١٦٥٩٥.

٥ - علة الداعي: ١١٢، عوالى اللآلئ: ١: ٣٩ ح ٣٨.

بشعار الصالحين^١.

وقد ورد في فضل الفقير المؤمن ما يذهل الألباب، فقد قال النبي ﷺ: لا تستخفوا بفقراء شيعة عليٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وعترته من بعده، فإنَّ الرجل منهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر٢، وقال ﷺ: من أكرم فقيراً مسلماً لقي الله يوم القيمة وهو عنده راض٣.

وقال الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: من لقي فقيراً مسلماً فسلم عليه خلاف سلامه على الغني لقي الله يوم القيمة وهو عليه غضبان٤.

وقال النبي ﷺ: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسين سنة عام٥.

وقال ﷺ: يا بلال، بالفقر تصل إلى الله لا بالغنى، والفقراً حبُّ الصفات إلى الله.

وقال ﷺ: لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين. والفقراء لصبرِهم جلساء الله تعالى في الجنة يوم القيمة٦.

وقال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ميسير شيعتنا أمناؤنا على محاويجنا، فاحفظونا يحفظكم الله٧.

وروي في الأثرأنَّ الله سبحانه وأوحى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتريد أن يكون لك يوم القيمة مثل حسنات الناس أجمع؟ قال: نعم، قال الله: عُدِّ المريض، وكن

١ - كنز العمال ٦: ٤٨٤ ح ٤٦٥١.

٢ - كتاب التمحیص: ٤٧ ح ٤٧، الأمالي، للصدوق: ٣٨٣ ح ١٦.

٣ - الأمالي، للصدوق: ٥١٤، من لا يحضره الفقيه ٤: ١٢.

٤ - جامع الأخبار: ١٣٠، مستدرک الوسائل ٩: ١٥٨ ح ١٥.

٥ - سنن الترمذی ٤: ٨ ح ٢٤٥٨، محاسبة النفس، للكفعمي: ١٥٩، معارج اليقين في أصول الدين: ٣٠١.

٦ - الكامل، لأبن عدي٦: ٦ / ٣٧٨، ١٨٥٩، ميزان الاعتدال، للذهبی٤: ١٢٥، جامع السعادات ٢: ٦٧.

٧ - الكافي ٢: ٢٦٥ ح ٢١، شرح اصول الكافی ٩: ٢٢٩.

لثياب الفقير فالياً، فجعل موسى عليهما السلام على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلّي ثيابهم، ويعود المرضى. التفصية: تنقية الثوب من القمل.

ومن عجيب الأدعية دعاء النبي عليهما السلام الوارد عن طريق الفريقيين: اللهم توفّني فقيراً، ولا تتوفّني غنياً، واحشرني في زمرة المساكين^١.

ودخل النبي عليهما السلام على فاطمة عليهما السلام وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: تجرّعي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة^٢.

وعن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال: إن الله عزوجل يقول: لم أغبن الغني لكرامة به عليّ، ولم أفرق الفقير لهوان به عليّ، وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولو لا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة^٣.

وقال النبي عليهما السلام: إن الله ينظر إلى هذه الأمة بالعلماء والقراء، وقال عليهما السلام: العلماء ورثتي والقراء أحبابي، وخلق الله الخلق من طين الأرض، وخلق الأنبياء والقراء من طين الجنة، فمن أراد أن يكون في عهد الله فليكرم القراء.

وقال النبي عليهما السلام: من آذى مؤمناً فقيراً بغير حق، فكأنما هدم مكة عشر مرات، والبيت المعمور، وكأنما قتل ألف ملك من المقربين^٤.

وقال عليهما السلام: لعن الله من أكرم الغني لغناه، ولعن الله من أهان الفقير لفقره، ولا

١ - الكامل، لابن عدي ٣: ١٢، كنز العمال ٦: ٤٨٩ ح ١٦٦٧١.

٢ - ورد مضمونه في بحار الأنوار ٦٥: ٢٢.

٣ - الكافي ٢: ٢٦٥ ح ٢٠، كتاب التمحیص، للإسکافی: ٤٧ ح ٦٩، مشکاة الأنوار: ٥٠١.

٤ - ذكر أخبار إصیهان: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٣٥: ٣٩٢ ح ٣٩٥٢.

يفعل هذا إلا منافق^١.

وقال الصادق عليه السلام: حرمة المؤمن الفقير أعظم عند الله من سبع سماوات وسبع أرضين والملائكة والجبال وما فيها.

وورد في الأثر المعتبر: أن آخر الأنبياء دخولاً إلى الجنة سليمان عليه السلام وذلك لما أعطي من الدنيا^٢.

وتستمد فضيلة الفقر أهم مقوماتها من الابلاء وطريقة التعامل معه، والابلاء مقاييس الأفضلية والأكرمية في حسابات السماء، فقد روي أن أشد الناس ابتلاء الأنبياء والأوصياء ثم الأمثل، وللفقير أسوة حسنة بالنفر الصالح من أصحاب الرسالات وأمناء الرسل.

ومن هنا رأينا بعض العارفين يطلب الفقر ويترك الغنى بعنوان القرابة إلى الله، فقد روي أن العبد الصالح إبراهيم بن أدهم قد أتاه رجل بستين ألف درهم، فأبى أن يقبلها وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بستين ألف درهم، إني تركتُ السلطة والملك العظيم ليكتب اسمي في ديوان الفقراء^٣.

وجاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال: إني أحبك، فقال عليه السلام: استعد للفقر، فقال: إني أحب الله، فقال عليه السلام: استعد للبلاء^٤.

وقال رجل لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، إني أحبك، فقال عليه السلام: اذهب واتخذ للضر جلباباً، فإني سمعت رسول الله عليه السلام يقول: يا علي بن أبي طالب، والله، الفقر

١- لأبي الأخبار: ١٢٨ (الطبعة الحجرية).

٢- كتاب التمهيص، للإسكافي: ٤٩، بحار الأنوار ١٤: ٧٥ ح ١٨ و ٧٠ ح ١٠٧.

٣- حكاية في: كتاب آداب النفس ٢: ١٦ ورياض السالكين ٤: ٣٦١.

٤- الخصائص الفاطمية ٢: ٤٥٣.

أسرع إلى محبينا من السيل في بطن الوادي^١، وقال النبي ﷺ: كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته^٢.

وقال ﷺ: لولا إلحاح المؤمنين على الله في طلب الرزق لنقلهم من الحال التي هم فيها إلى حال أضيق منها^٣.

وقال الله في الحديث القدسي: وعزتي وجلاي، لولا حيائي من عبدي المؤمن، ما تركت له خرقه يواري بها جسده، وإنني إذا أكملت إيمان عبدي المؤمن ابتليته بفقر الدنيا في ماله، أو مرض في بدنـه، فإن هوجزع أضعفـ ذلك عليه، وإن هو صبر باهـيـتـ به ملائكتـي^٤.

وقال عيسى عليه السلام: إن أكناـفـ السماء خالية من الأغنيـاءـ، ولـدخلـ الجـملـ في سـمـ الخـياـطـ لا يـسـرـ من دـخـولـ الغـنـيـ الجـنـةـ، وـاطـلـعـتـ عـلـىـ الجـنـةـ فـوـجـدـتـ أـكـثـرـ أـهـلـهاـ الفـقـراءـ وـالـمـساـكـينـ^٥.

والمراد من الغنى هو الذي يدعـو صـاحـبهـ إـلـىـ الطـغـيـانـ وـالـبـطـرـ فيـجـعـلهـ من المفسـدينـ، كـماـ أـخـبـرـنـاـ القـرـآنـ الـكـرـيمـ عنـ قـارـونـ وـأـمـالـهـ.

ورد عن الصادق عليه السلام قوله: إن فقراء المسلمين يتقلبون في رياض الجنة قبل أغـنـيـائـهـ بـأـرـبعـينـ خـرـيفـاـ^٦، وقال ﷺ: إذا قـامـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ قـامـ عـنـقـ طـائـفةـ - من

١ - بصائر الدرجات: ٤١١ ح ٢، كتاب المؤمن، للحسين بن سعيد: ١٦ ح ٥، بحار الأنوار ٢٥: ١٤.

٢ - الكافي ٢: ٢٦١ ح ٤، كتاب التمحص، للإسكافي: ٤ ح ٥٨، مشكاة الأنوار: ٢٢٦.

٣ - الكافي ٢: ٢٦١ ح ٥، كتاب التمحص، للإسكافي: ٤٩ ح ٨٤ مشكاة الأنوار: ٤٩١.

٤ - إعلام الدين في صفات المؤمنين: ٢٧٨.

٥ - عدة الداعي: ١١٣، بحار الأنوار ٦٩: ٥٥ ح ٨٥.

٦ - الكافي ٢: ٢٦٠ ح ١، الأمالي، للمفيد: ١٤١، عدة الداعي: ١٠٥.

الناس حتى يأتوا بباب الجنة فيضربوا باب الجنة فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الفقراء، فيقال لهم: أقبل الحساب؟ فيقولون: ما أعطيتمنا شيئاً تحاسبوننا عليه، فيقول الله تعالى: صدقوا، ادخلوا الجنة^١.

نواذر الفقراء

ورد في الأثر المعتبر، جاء رجل موسراً إلى رسول الله ﷺ نقيّ الثوب، فجلس إلى رسول الله ﷺ، فجاء رجل معسر درن - وسخ - الثياب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله ﷺ: أخفت أن يمسك من فقره شيء؟ قال: لا.

قال ﷺ: أخفت أن يمسكه من عناك شيء؟ قال: لا، قال ﷺ: فخفت أن يوسعك ثيابك؟ قال: لا.

قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، إنّ لي قريناً يزيّن لي كلّ قبيح، ويقيّح لي كلّ حسن، وقد جعلت له نصف مالي، فقال رسول الله ﷺ للمعسر، أقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: ولِمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك^٢.

وروى أنس بن مالك فقال: بعث الفقراء رسولاً منهم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ الفقراء قالوا: إنّ الأغنياء ذهبوا بالحسنة، يحجّون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل مالهم ذخيرة لهم.

فقال رسول الله ﷺ: بلّغ عنِي الفقراء إن اصبروا وأحتسب منكم ثلاثة خصال

١ - الكافي ٢: ٢٦٤ ح ١٩.

٢ - الكافي ٢: ٢٦٣ ح ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ ح ١٠٨.

ليست للأغنياء، أما خصلة: فإن للجنة غرفةً من ياقوت أحمر ينظر أهل الجنة إليها كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبيٌّ فقير، أو شهيدٌ فقير، أو مؤمنٌ فقير.

والثانية: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسةٌ مائة عام، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده ويُستخرج. والثالثة: إذا قال الغني: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغني بالفقير، وإن أنفق عشرة آلاف درهم، وكذلك الأعمال كلها، فرجع إليهم فقالوا رضينا رضينا^١.

وقال ابن عباس: جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن الأغنياء يصلون كما نصلّى، ويصومون كما نصوم، ولهم أموال ينفقون ويعتقون ويتصدقون، قال ﷺ: فإذا صلّيتم فقولوا: سبحان الله ثلاثة وثلاثين، والحمد لله ثلاثة وثلاثين، والله أكبر ثلاثة وثلاثين مرّة، ولا إله إلا الله عشر مرات، فإنكم تدركون به من سبقكم، ولا يسبقكم منْ بعدكم^٢.

وقال أبو ذرٌ: الخائفون الخاشعون المتواضعون الذاكرون الله كثيراً يسبقون إلى الجنة؟ فقال ﷺ: لا، ولكن فقراء المؤمنين يأتون فيتخطّون رقاب الناس فيقول لهم حزنة الجنة: كما أنتم حتى تحاسبوا، فيقولون: بِمَ نحاسب؟ فوالله ما ملکنا فنجور ونعدل، ولا فيض علينا فنقبض ونبسط، ولكنّا عبدنا ربنا حتى أتانا اليقين^٣.

١ - جامع السعادات ٢: ٦٩.

٢ - سنن الترمذى ١: ٢٥٦، سنن النسائي ٣: ٧٨، مستدرك الوسائل ٥: ٣٩ ح ٥.

٣ - الأمازي، للطوسى: ٥٣٢

وقد تحدّثنا عن إبراهيم بن أدهم الذي فرّ من الغنى والملك إلى الفقر، ورفض أن يُمحى اسمه من ديوان القراء بستين ألف درهم^١، وورد عن النبي ﷺ قوله: ثلاثة يشفعون يوم القيمة في الناس مثل شفاعة النبيين: العالم، والخادم له، والفقير الصابر.

شرائط الفقر الممدوح

إن الفقر الإيجابي الممدوح الذي يتربّب عليه الأجر والثواب، ونيل رضوان الله له شرائط نذكر قسماً منها:

١. العفة، وقد مدح الله سبحانه الفقراء المتعففين حيث قال الله سبحانه: «لِلْفَقَرَاءِ الَّذِينَ أَخْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ بَخْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءِ مِنَ التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَحَافًا»^٢.

إن هؤلاء الفقراء ممّن وصفهم القرآن بالتعفف وصون الوجه، وعدم إظهار الفقر والشكوى، إنهم يسترون فقرهم و حاجتهم بستر العزة والكرامة طلباً لمرضاة الله وجزيل ثوابه، وقد ورد في الحديث الشريف: إن الله يحبّ الفقير المتعفف أبا العيال^٣.

٢. إظهار التجمّل والغني بين الناس قولًا وفعلاً باللباس وغيره، وكان أئمّة أهل البيت عليهم السلام الأنموذج الأرقى في تمثيل هذه الصفة، إذ كانوا ينفقون الأموال وهم في أشدّ الإعسار.

١ - آداب النفس ٢: ١٦، رياض السالكين ٤: ٣٦١.

٢ - البقرة: ٢٧٣.

٣ - المعجم الكبير ١٨: ٢٤٢، الجامع الصغير، للسيوطى ١: ٢٨٧ ح ١٨٨٧.

٣. عدم الشكوى، وهذه من ثمار الصبر الجميل على شدة الحال، وصعوبة الظرف. قال علي عليه السلام: أربع من كنوز الجنة: كتمان الحاجة، وكتمان الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان الوجع^١.

وهذه الصفة تحتاج إلى بناء نفسي متمسك متين، ولا يتأتى ذلك إلا بال التربية الصحيحة والمجاهدات والرياضات النفسية.

٤. القناعة: وهي الرضا بما قسم الله سبحانه وتعالى لعبداته، ووصفه بأنها كنز لا يفنى، فقد روي عن النبي الكريم عليه السلام قوله: كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً^٢.

وقال أحد الصلحاء: الفقراء أموات إلا من أحياه الله تعالى بعزّ القناعة، والقناعة ملوك لا يسكن إلا في قلب المؤمن^٣.

وشكا رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه يطلب فيصيب ولا يقنع، وتنافزه نفسه إلى ما هو أكثر منه، وقال: يا ابن رسول الله، علمتني شيئاً أنتفع به.

فقال عليه السلام: إن كان ما يكفيك يغريك، فأدنى ما فيها يغريك، وإن كان ما يكفيك لا يغريك فكل ما فيها لا يغريك^٤.

وقال عليه السلام: خمس من لم تكن فيه لم يتنهأ بالعيش: الصحة، والأمن، والغنى،

١ - الدعوات، للراوندي: ١٩٤، معدن الجوامر: ٣٩.

٢ - كنز العمال ١٥: ٨٨٢ ح ٤٣٤٩٨، مستند الشهاب، لابن سلامة ١: ٣٧١ ح ٦٣٨.

٣ - شرح نهج البلاغة ١١: ١٩٩، شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: ٣٩ ح ٤٧.

٤ - الكافي ٢: ١٣٩ ح ١٠، مشكاة الأنوار: ٢٣٢.

والقناعة، والأنيس الموافق^١.

وورد عن علي عليه السلام في موارد مختلفة: القناعة عز^٢، والقناعة عفاف^٣ والقناعة علامة الأتقياء، والقنوع عنوان الرضا^٤.

والقانع غني وإن جاء أو عرى^٥ والقانع ناج من آفات المطامع^٦.

٥. الصبر الجميل، وهو ما يكون من غير شكوى، والصبر في الحديث مفتاح الفرج، ويكتفى الصابرين فخرًا قول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَلَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^٧.

والصبر على لسان الروايات: رأس الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: ثلات بهن يكمل المسلم: التفقه في الدين، والتقدير في المعيشة، والصبر على النوائب^٨.

وسنفرد للصبر مبحثاً مستقلًا بعد هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

٦. الرضا: وهو من المقامات العالية، ومعناه الرضا بكل ما كتب الله له، ففي

١ - المحاسن ١: ٩ ح ٢٥، مشكاة الأنوار: ٢٦٠.

٢ - عيون الحكم والمواعظ، للبيشى: ٣٠.

٣ - نفسه: ٣٤.

٤ - نفسه: ٥١.

٥ - غرر الحكم ١: ٥٢ ح ١٤٤٦، مستدرك الوسائل ١٥: ٢٢٨ ح ٢٠.

٦ - عيون الحكم والمواعظ، للبيشى: ٥٣.

٧ - البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

٨ - الخصال: ١٢٤.

رواية أن الإمام الباقر عليه السلام سأله الصحابي الكبير جابر بن عبد الله الأنصاري عن حاله، وكان شيخاً كبيراً فقيراً ضعيفاً، وقد أصابه العمى.

فقال جابر: أنا في حال الفقر أحب إلى من الغنى، والمرض أحب إلى من الصحة، والموت أحب إلى من الحياة.

فقال الباقر عليه السلام: أمنا نحن أهل البيت، مما يرد علينا من الله من الفقر والغني، والمرض والصحة، والموت والحياة فهو أحب لنا^١.

قال النبي عليه السلام: إن جبريل جاءه فقال: يا رسول الله، إن الله أرسلني عليك بهدية لم يعطها لأحد قبلك، قال رسول الله عليه السلام: وما هي؟ قال: الصبر، وأحسن منه، قلت: وما هو؟

قال: القناعة، وأحسن منها، قلت: وما هو؟ قال: الرضا، إلى أن قال: قلت: وما تفسير الرضا؟ قال: الراضي الذي لا يسخط على سيده أصاب من الدنيا أو لم يصب، ولم يرض من نفسه باليسير من العمل^٢.

وقال الصادق عليه السلام: صفة الرضا أن يرضى المحبوب والمكرورة، والرضا شعاع نور المعرفة، والرضا اسم يجتمع فيه معاني أنواع العبودية، وتفسير الرضا سرور القلب^٣.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله^٤.

وقال أيضاً: عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله له إلا ما كان خيراً له، وإن

١- معاني الأخبار: ١٨٩.

٢- معاني الأخبار: ٢٦١.

٣- مصباح الشريعة: ١٨٢.

٤- الكافي ٢: ٦٠، كتاب التمحیص: ٦٠ ح ٦٣٠.

فُرض بالمقاريض كان خيراً، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له^١.
ويصور لنا علي عليه أرقى صورة من مقامات الرضا حيث يقول مخاطباً ربَّه: لو
أدخلتني نارك لم أقل إنها نار، وأقول: إنها جنة، لأنَّ جنتي رضاك، فأينما
أنزلتني أعرف أنَّ رضاك فيه^٢.

وقال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيمة أنبتَ الله لطائفه من أمتي أجنهحة
يطيرون بها إلى الجنة، ويسرحون فيها، وينعمون بما شتهيه أنفسهم، وتقول لهم
الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ يقولون: ما رأينا الحساب، يقولون لهم: هل مررت
على الصراط؟ يقولون: ما رأينا الصراط.

ويقولون: هل رأيتم جهنم؟ يقولون: ما رأينا شيئاً، تقول لهم الملائكة: أنتم من
أمة أيّنبي؟

يقولون: من أمة محمد ﷺ، يقولون لهم: أقسمتكم بالله، أخبرونا ما كان
عملكم في دار الدنيا؟

يقولون: كانت فينا خصلتان بلغنا الله تعالى بفضله ورحمته هذه المنزلة،
تقول لهم الملائكة: ما الخصلتان؟

يقولون: كنا إذا خلونا استحبينا أن نعصيه، وكنا نرضى بما قدر لنا من اليسير،
تقول الملائكة: حق لكم هذا المقام^٣.

وورد في الحديث القدسي: أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم

١ - الكافي ٢: ٦٢ ح ٨ و ج ٥: ٦٩ ح ١.

٢ - حكاية النوري في: نفس الرحمن في فضائل سلمان: ٣٢٧.

٣ - مسكن الفؤاد: ٨١ الجوامر السننية: ٧٨.

يرضَ بقضائي، فليتَخذ ربًا سواي^١ ، ومن أصبح على الدنيا حزيناً، أصبح على الله ساخطاً^٢ .

لاحظنا أنَّ الصبر يقود إلى القناعة، والقناعة تقود إلى الرضا، والرضا يقود إلى الشكر، وهذه الصفات كلُّها روافِد تصب في بحر مرضاة الله.

٧. الشكر: قال تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاءْدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ﴾^٣ .

والشُّكر هو تصيير النعمة وإظهارها، وضدُّه الكفر، وقد يكون الشُّكُر بالقلب بتصور النعمة، وقد يكون باللسان وهو الثناء على المنعم، وقد يكون بالجوارح بالمكافأة على الجميل، فهنا يتجاوز الإنسان حالة الصبر والتحمُّل ليصل إلى شكر المنعم على جميع أحواله، وذلك بحمد الله.

قال الإمام الصادق عليه السلام: شكر كل نعمة وإن عظمت أن يُحمد الله^٤ .

وقال الصادق عليه السلام أيضاً: وما أنعم الله على عبدٍ بنعمة صغرٌ أو كبرٌ فقال: الحمد لله، إلَّا أَدَى شكرها^٥ .

وقال الصادق عليه السلام: إنَّ داود النبي عليه السلام قال: يا رب، أخبرني عن قريني في الجنة، ونظيري في منازلي، فأوحى الله إليه أنَّ ذلك متى أبويونس عليه السلام.

قال عليه السلام: فاستأذن الله في زيارته فأذن له، فخرج سليمان ابنه حتى أتيا

١ - الدعوات، للراوندي: ١٦٩ ح ٤٧١، بحار الأنوار ٧٩: ١٣٢ ح ١٦، وقطعته الأخيرة في: شرح نهج البلاغة ٤: ٥٠ ح ٢٢٨.

٢ - الاختصاص، للمفید: ٢٢٦، تفسیر القمی ١: ٣٨١.

٣ - سیا: ١٣.

٤ - بحار الأنوار ٦٨: ٣٢ ح ٩.

٥ - الكافي ٢: ٩٦ ح ١٤.

موضعه، فإذا هو بيت من سعف، فقيل لهم: هو في السوق فسألا عنه ﷺ، فقيل لهم: اطلباه في الحطابين، فسألا عنه، فقال لهم جماعة من الناس: نحن ننتظره الآن حتى يجيء، فجلسوا ينتظرانه إذ أقبل وعلى رأسه وقرآن (حرمة) من حطب، فقام إليه الناس، فألقى عنه الحطب وحمد الله وقال: من يشتري طيباً بطيب؟ فساومه واحد، وزاده آخر حتى باعه من بعضهم.

قال ﷺ: فدنيا منه وسلمًا عليه، فقال: انطلقا بنا إلى المنزل، واشتري طعامه بما كان معه، ثم وضعه بين حجرين (الرحي) قد أعدهما لذلك، وطحنه، ثم عجنه في نقير-إماء من حجر-، ثم أتّجج ناراً وأوقدها، ثم جعل العجين في تلك النار، وجلس معهما يتحدث، ثم قام وقد نضجت خبزته، فوضعها في النقير، وفلقها وذرّ عليها الملح، وجعل إلى جنبه مطهرة ماء ك الإبريق وجلس على ركبتيه، وأخذ لقمة، فلما رفعها إلى فيه - فمه - قال: بسم الله، فلما ازدردها قال: الحمد لله.

ثم فعل مثل ذلك بأخرى وأخرى، ثم أخذ الماء فشرب منه، فذكر اسم الله، فلما وضعه قال: الحمد لله، يا رب، من ذا الذي أنعمت عليه وأوليته مثل ما أوليتني، قد صحيحت بدني وسمعي وبصري ويدي، وقويتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولا زرعته ولم أهتم لحفظه فجعلته لي رزقاً، وأعانتني على قطعه وحمله، وهياكلت لي من اشتراه مني، فاشترى بثمنه طعاماً لم أزرعه، وسخرت لي حبراً - الرحي - طحنته، والنار فأنضجته، وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد.

قال الصادق ﷺ: ثم بكى، فقال داود ﷺ لولده سليمان: يا بنى قم فانصرف

بنا، فإني لم أر عبداً قط أشكر الله من هذا^١.

٨. الشوق: وهو من أعلى المقامات، وهو عبارة عن الميل والرغبة إلى شيء عند غيبته، إذ لا يمكن الاستيقاظ إلى شيء موجود حاضر، ولا يمكن الاستيقاظ إلى شيء ليس له صورة في الذهن كذلك.

قال رسول الله ﷺ في مناجاته: اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك^٢.

وقال الله في الحديث القدسي: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق^٣، والشوق إلى الفقر هو فرع الزهد الصادق الواعي.

٩. الفقر مع عدم الاعتراض على أمر الله.

١٠. الاجتناب عن الشبهات فضلاً عن المحرمات، فقد ورد في الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب^٤.

وورد في الحديث الشريف: ما ملأ آدمي وعاء شرّاً من بطنه^٥.

وقال الباقر ع: الناس كلهم بهائم إلا القليل^٦، أي همهم بطونهم وفروجهم. وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست

١ - بحار الأنوار ١٤: ٤٠٢ ح ١٦، قصص الأنبياء، للجزائري: ٤٩٤، عن: تنبيه الخاطر: ١٨.

٢ - المستدرك، للحاكم ١: ٥١٦.

٣ - تفسير القرطبي ١١: ٢٣٣، جامع السعادات ٣: ١٠٣.

٤ - كفاية الأثر، للخزاز القمي: ٢٢٧، بحار الأنوار ٤: ٤٤، ١٣٩.

٥ - المجازات النبوية: ٤٤٣ ح ٣٦٠، مشكاة الأنوار: ٥٦٤.

٦ - بصائر الدرجات: ٥٤٢ ح ١٣، الكافي ٢: ٢٤٢ ح ٢.

الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة^١.

هذا في تناول لقمة الحلال مع الإسراف، فكيف بتناول اللقمة عن طريق الشبهة والمحرمات !

وورد في الأثر المعتبر عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَتِ الدُّنْيَا مِنْ نَفْسِي إِلَّا مَنْزَلَةُ الْمَيِّتَةِ، إِذَا اضطُرِرْتُ أَكُلُّ مِنْهَا^٢.

وفي رواية: أن إبليس لعنه الله كان كثيراً ما يأتي إلى يحيى بن زكريا عَلَيْهِ الْكَلَمُ، فأتاه يوماً فقال له: يا أبا الحارث، أي شيء تحب متى؟

فقال: يا يحيى ما أحبت منك إلّا أنت قد تملأ بطنك فتؤخر صلاتك عن أول وقتها، فقال يحيى عَلَيْهِ الْكَلَمُ: عاهدت الله أن لا أشبع من طعام ما دمت في الدنيا، فقال الشيطان: وأنا عاهدت الله أن لا أنصح مسلماً، ما بقيت في الدنيا.

وورد عن النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُ قوله: من جعل شهوته تحت قدميه فر الشيطان من ظله^٣، ومن قل طعامه صح بدنـه، وصفا قلبه^٤.

وهناك أمور نمر علىها مرور الكرام تجتنبـاً للإطالة، منها: الالتزام بالواجبات والإتيان بالمندوبات على قدر الاستطاعة، ومنها: الانتهاء عن المحـرمـات والمعـاصـي، ومنها: عدم الفتور عن العبـادـة، ومنها: عدم الـآذـارـ الزـائـدـ عن الحاجـةـ، ومنها: عدم طلبـ الـزيـادـةـ علىـ الكـفـافـ؛ ومنها: عدمـ الخـوفـ منـ الفـقـرـ، ومعـهاـ: عدمـ مـخـالـطـةـ الـأـغـنـيـاءـ لـغـنـاهـمـ، وـعـدـمـ التـمـلـقـ لـهـمـ طـمـعاـ بـمـاـ فـيـ أـيـديـهـمـ،

١- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/٨٦ جامع السعادات ٢:٤.

٢- تفسير القمي: ٢:١٤٦، سعد السعدي: ٨٧ بحار الأنوار ٢:٢٧ ح ٥.

٣- روضة الوعظين: ٤٢١، مشكاة الأنوار: ١٥٨.

٤- الدعوات، للراوندي: ٥٩:٢٦٨ ح ٥٣، بحار الأنوار ١٨٧ ح ٧٧.

ومنها: عدم السؤال من غير الله تعالى، ومنها: قطع الطمع عما في أيدي الناس،
ومنها: التوكل على الله.

وقد أبدع المحقق الشيخ محمد بن التويسر كاني رحمه الله صاحب لآلئ الأخبار فيما كتبه في بداية المجلد الثاني عن الفقر، وقد أخذنا معظم الأحاديث والشروط من دراسته رحمه الله تعالى، نرجو القارئ العزيز الاستفادة مما كتبه رحمه الله.

الفقر السلبي

وهي الحالة التي يصاحبها الجزع وفقدان التوازن، وقد تقود صاحبها إلى الانحراف، وقد ورد في الآثار: أن الفقر أشد من نار نمرود، وأنه الموت الأحمر، وأنه أشد الأشياء مرارةً، وقد يلاقي الفقير الازدراء والاحتقار ممن أطغاهم وفرة المال فأعمى أبصارهم.

قال علي عليهما السلام: لا تلم إنساناً يطلب قوته، فمن عدم قوته كثرت خطایاه، يا بني، الفقر حقير لا يسمع كلامه ولا يعرف مقامه، ولو كان الفقير صادقاً يسمونه كاذباً، ولو كان زاهداً يسمونه جاهلاً، يا بني، من ابتلي بالفقر، فقد ابتلي بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياة في وجهه^١.

هذه هي نظرة المجتمع بعيد عن الله، وعن القيم والأخلاق، ونعم ما قاله العباس بن الأحنف:

يمشي الفقر وكل شيء ضده
والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب
ويرى العداوة لا يرى أسبابها

حَتَّى الْكَلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَاثِرَةً
خَضَعَتْ لِدِيهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَابِرًا
نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَثَرَتْ أَنْيَابُهَا^١

وقال آخر:

الْمَالُ يَرْفَعُ سَقْفًا لَا عِمَادَ لَهُ
وَالْفَقْرُ يَهْدِمُ بَيْتَ الْعَزَّ وَالشَّرْفِ^٢
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ
الْمَعْصُومِينَ.

١- حكاية الأ بشيبي في: المستطرف في كل فن مستطرف: ١٣٣٣ عن ابن الأحنف، وحكاية
البغدادي في: ذيل تاريخ بغداد ٢: ٢٥ عن: الأحنف العكبري.
٢- حكاية الأ بشيبي في: المستطرف في كل فن مستطرف: ١٣٣٢.

المبحث الثامن والسبعون: في الصبر

قال تعالى: ﴿فَاضْرِبْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^٢.

وقال عز من قائل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ﴾^٣.

الصبر ضد الجزء: وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائيد والمصائب، بأن تقاوم معها بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر، وما كانت عليه قبل من السرور والطمأنينة، فيحبس لسانه عن الشكوى، وأعضاءه عن الحركات غير المتعارفة، وهذا هو الصبر على المكره، وضده الجزء، وله أقسام أخرى لها أسماء خاصة تُعدَّ فضائل أخرى كالصبر في الحرب، وهذا من أنواع الشجاعة، وضده الجن.

والصبر في كظم الغيظ، وهو الحلم، وضده الغضب، والصبر على المشاق

١ - الأحقاف: ٣٥.

٢ - الزمر: ١٠.

٣ - البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

كالعبادة، وضدّه الفسق، أي الخروج عن العبادات الشرعية، والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات، وهي العفة، وضدّه الشره، والصبر على فضول العيش، وهو الزهد، وضدّه الحرص، والصبر في كتمان السر، وضدّه الإذاعة^١.

وقالوا: الصبر مقاومة الأهواء النفسية، وتصوير هذا المفهوم يستدعي التمعن في هذا المخطط:

المعرفة تقود إلى تسلیح العقل النظري، وهو بدوره يتولى قيادة العقل العملي، فتكون ساحة القلب ميداناً لصراع جيშين:

١. جيش الرحمن الذي قوامه العقل.
٢. جيش الشيطان الذي قوامه الأهواء والشهوات.

فعندما يحتمد الصراع، فإن سيطر العقل العملي على الأهواء، كانت الغلبة لجند الله، والعكس صحيح، وكلما تحول الصبر إلى ملكة متجلدة في أعماق النفس، فإنه يقود صاحبه إلى مقامات الرضا والمحبة.

وقال الخواجة الأنباري: الصبر حبس النفس عن جزع كامن عن الشكوى^٢.

وقال الشيخ نصير الدين الطوسي: إنه امتناع النفس عن الشكوى على الجزع المستور^٣.

وقال ابن عطاء: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب^٤.

وقال ذو النون المصري: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكوت عند

١ - جامع السعادات ٣: ٢٨٠.

٢ - حكاہ فی: تاج العروس ٧: ٧١.

٣ - حکاہ عنه فی: بحار الأنوار بالمضمون ٦٨: ٦٨.

٤ - شرح صحيح مسلم: للنووي ٣: ١٠٢، سبل الهدى والرشاد ١: ٤٧٦.

تجرّع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة^١.

وقالوا: الصبر هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى^٢.

وقيل: الصبر المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام في العافية^٣.

وقال محمد الجريري: الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما، أما التصبر فهو السكون مع البلاء مع وجdan أثقال المحنـة^٤.

وقالوا: الصبر هو حبس النفس عما تشتهيه من المقتـبات وحملها على الطاعـات^٥.

مراتب الصبر

للصبر مراتب ودرجات تختلف باختلاف القابلـيات والرياضـات والمجاهـدات النفـسـية، فـمن الصـبر ما يـكون عـلـى عدم الشـكـوى، وـهـوـمـن ثـمـار التـوبـة، وـمـنـها ما يـكون بالـرـضا بـالـحـالـات الـتـي تـعـتـرـيه وـتـنـتـابـه، وـهـذـا مـن ثـمـار الزـهـد، وـالـصـبر الأـرـقـى مـرـتـبـة مـنـهـما هـوـصـبـرـالـمـحـبـة وـالـلـذـة بـمـا يـصـنـع بـهـ، وـهـوـمـن ثـمـار المـعـرـفـة بـالـلـهـ سـبـحـانـهـ.

ورد في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: قال رسول الله عليه السلام: الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر عند المصيبة حتى يردها بحسن عزائـها كـتـبـ اللـهـ لـهـ ثـلـاثـمـائـة درـجـةـ، ما بـيـنـ الدـرـجـةـ

١ - تفسير السلمي ٢: ١٨٩.

٢ - حكاـهـ في: تاجـالـعروـسـ ٧: ٧١.

٣ - تفسير السلمي ٢: ١١٩ـ بالمضـمونـ.

٤ - سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـشـادـ ١: ٤٧٦ـ.

٥ - وـرـدـ مـضـمـونـهـ في: تـفـسـيرـ مـجـمـعـ الـبـيـانـ ١: ٤٣٦ـ.

والدرجة كما بين السماء والأرض.

ومن صبر على الطاعة، كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة، كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية، كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم السماء إلى منتهى العرش^١.

نستنتج من هذا الحديث الشريف الصحيح أن الصبر عند المصيبة هو المرتبة الأولى، وثوابه أقل من القسمين اللذين بعده.

والصبر على الطاعة، هو المرحلة المتوسطة، ويكون ثوابه أرقى من سابقه، وأقل من لاحقه.

أما الصبر عن المعصية فهو أرقى حالات الصبر، وأعظمها ثواباً.

يقول سيدنا الإمام الخميني^{متَّهِّ}: الصبر على المصيبة يبعث على تقوى النفس، والصبر على الطاعة يسبّب الاستئناس بالحق عزوجل، والصبر على البلايا يوجب الرضا بالقضاء الإلهي^٢.

فضيلة الصبر

إن الصبر يبعث الحياة في القلوب الميتة، ويطهر النفوس من الدنس والكدورات، ويفتك أغلال الغفلة، وينقي القلوب عن المعاصي والذنوب، ويبحث على فعل الطاعات واجتناب الخطئات، ويعين صاحبه على سلوك طريق التوبة، بل يقود إلى نيل أسباب النصر على أعداء الإنسان، سواء كانوا من

١ - الكافي ٢: ٩١ ح ١٥، مسكن المؤود: ٥١.

٢ - الأربعون حدثاً: ٢٤٨.

الأعداء الباطئين الذين هم جند الشيطان، أو الخارجين بكل مصاديقهم وأفرادهم، ومن هنا رأينا كيف وصل العارفون بالله إلى المراتب العالية والمقامات السامية.

الصبر منزلة من منازل القرب إلى الله، ومن فضيلته أن الله ذكره في ما يزيد على سبعين موضعًا من كتابه العزيز، اهتماماً بشأنه.

وقد وصف الأنبياء ورسله وأولياءه وجنوده بالصبر، ووعدهم عظيم الأجر والثواب، بل من فضائل الصبر وعلو مقامه أن وصف الله سبحانه نفسه بالصبر، فقد روي في الحديث القدسي: يا داود، تخلق بأخلاقي، إن من أخلاقي أني أنا الصبور^١.

وورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: الصبر كنز من كنوز الجنة^٢. والصبر طريق رسمه الله لسالكيه يقودهم إلى الجنة: قال الإمام الباقي عليه السلام: الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار^٣.

والصبر من سمات العقلاء وأولي الألباب، لأن الجزع طريق مسدود بوجه سالكيه، أما الصبر فإنه يقود إلى رضا الله ونيل ثوابه، بل نفهم من ظاهر الروايات أن الجزع لا يغير مجرى الأمور، ولا مدخلية له في تغيير مسائل القضاء والقدر، ولا

١ - تفسير السعدي ٢: ٣٤٤، ونقل بالمضمون في كتاب: مسكن الفؤاد: ٤٧، بحار الأنوار ١٣٧: ٧٩ ح ٢٢.

٢ - مسكن الفؤاد: ٤٧، بحار الأنوار ١٣٧: ٧٩.

٣ - الكافي ٢: ٨٩ ح ٧، مسكن الفؤاد: ٥١.

يعطل السنن الإلهية، ولا يغير مجرى الأسباب.

قال علي عليه السلام: إذا صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإذا جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأذور^١.

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لبعض أصحابه: إن تصبر تغبط، وإن لا تصبر يُقدر الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً^٢.

ونعم ما قيل في المقام:

هي المقادير تجري في أعتها فاصبر وليس لها صبر على حال يوماً ترىك خسيس القوم ترفعه إلى العلاء ويوماً تخفض العالى^٣

وقال الإمام علي عليه السلام: المصيبة واحدة، فإن جزعت صارت اثنتين^٤.

هذا هو الصبر على البلاء، ولعل الصبر على الرخاء أشد على العبد، فإن الإمدادات الدنيوية من الأسباب التي تخلق البطرووالطغيان في النفس الإنسانية فيختل توازنها، وتندم مقاييسها، وتضييع مصاديقها وموضوعيتها مع الله، ويحسن الإنسان بانتفاح غير حقيقي، وقد رأينا ما فعل الطغاة بشعوبهم بسبب كثرة الأتباع ووفرة الأموال، وقدرات السلطان.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَظْفَى * أَنْ رَأَهُ اشْتَغَنَى﴾^٥.

١ - مسكن الفواد: ٤٨، بحار الأنوار ٦٨: ٩٢.

٢ - الكافي ٢: ٩٠ ح ١٠، بحار الأنوار ٧٨: ٧٤ ح ٧.

٣ - حكاية ابن أبي الحديد في: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٧٩ عن: إسحاق بن إبراهيم الموصلي والشعابي في تفسيره ٤: ٣٠١، ولم ينسبه لأحد، والخطيب في: تاريخ بغداد ٦: ١٤٣.

٤ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٢٦، وورد مضمونه في: شرح نهج البلاغة ١: ٣٢٢.

٥ - العلق: ٦ - ٧

تقوية ملكرة الصبر

١. قلنا: إن المعرفة تسلح العقل النظري، وهو بدوره يتمكّن من قيادة العقل العملي، وهنا تبدأ الإمدادات الإلهية والمواهب والفيوضات القدسية على النفس، فتندحر قوى الشيطان، إذن لابد من طلب العلم والاطلاع على سيرة الصالحة، وما خطّته أقلام العلماء لاكتساب الثروة المعرفية والكنوز الفكرية.

٢. المقارنة بين تفاهة الدنيا وعظمة الآخرة، فكلّ ما يجري على الإنسان في هذه الدنيا فهو على حدّ تعبير أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ فِي دُعَائِهِ كميل حيث يقول: يا ربّ وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره على أهلها، على أنّ ذلك بلاء ومكروه، قليل مكثه، يسير بقاوئه، قصير مدّته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة، وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدّته، ويدوم مقامه، ولا يخفّ عن أهله، لأنّه لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض^١.

فالصبر على القليل حصاده الأجر الكبير والخلود في الجنان، والعاقل هو الذي يتدبّر في عواقب الأمور.

ورد في الحديث الشريف: كلّ نعيم دون الجنة حقير، وكلّ بلاء دون النار يسير^٢. وورد في الأثر المعتبر: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى، فالآخرة خير من الدنيا، فكيف والآخرة ذهب يبقى^٣.

وورد في قصّة نبي الله سليمان أنّ ملكاً في السماء نادى لمن أعجب بملكه

١ - مصباح المتهجد: ٨٤٧ ح ٩١٠، إقبال الأعمال ٣: ٣٣٤، مصباح الكنعمي: ٥٥٧.

٢ - تفسير الشعالي: ٢: ٢١١، محاسبة النفس، للكنعمي: ١٤٢.

٣ - ورد مضمونه في: شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٩٠.

العظيم وقال: ثواب تسبيبة واحدة أفضل من ملك سليمان بن داود^١.

٣. العلم بأنّ الجزء لا يغير القدر المقدور، وأنه يحط الأجر والثواب كما أسلفنا.

٤. مجاهدة النفس وترويضها على سلوك طريق الطاعة، ومفارقة طريق المعصية، وكبح جماحها عن الجري وراء الشهوات، واللهاث وراء النزوات، بل ترويضها على ترك بعض المباحثات كذلك.

نواذر الصبر

لقد امتدح الله سبحانه وتعالى عبده أيوب بالصبر حيث قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَلُ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^٢.

وقد روي أنّه عليه السلام لما اشتدّ به البلاء، قالت له امرأته يوماً: إنّ دعاء الأنبياء مستجاب، فلو سألت الله كشف ما بك، فقال لها: يا هذه، متعنا الله بالنعم سبعين سنة، فدعينا نصبر على بلائه مثل ذلك^٣.

ومن أعظم التجارب البشرية قصة إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله بذبح ولده، فقابل أمر الله بالتسليم والرضا، وسارع إلى تنفيذ أمر الله بذبح ولده، فأخذ السكين والحبال، وانطلق مع ولده إلى جبل، فقال إسماعيل: يا أبا إبراهيم، أين قربانك للبيت الحرام؟

فقال عليه السلام: يابني، إن الله أمرني بذبحك، فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبا إبراهيم، أفعل ما

١ - تفسير القمي ٢: ٣٣٨.

٢ - سورة ص: ٤٤.

٣ - انظر: جامع البيان، للطبراني ١٧: ٩٣.

تُؤمر، ستتجدني إن شاء الله من الصابرين، يا أبتي، أشد دوّاثقي كي لا أضطرب،
وأجمع ثيابك حتى لا يصل إليك رشاش الدم فتراه أُمّي فيشتد حزنها، وأسرع
إمرار السَّكين على حلقي ليكون أهون للموت عليّ، وإذا رأيت أُمّي فاقرأ السلام
عليها^١.

وخرج إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل بأعظم النتائج من هذه التجربة المريمة،
فقد لدهما الله وسام الصابرين، وكتب لهما الأجر على البلاء المبين، وجعلهما
ذكراً يتلى إلى قيام يوم الدين.

وبعد كلّ ما فعلته زليخا بسيدنا يوسف عليه السلام، وبعد خلاصه من السجن،
وقفت على طريق موكيه بعد أن آتاه الله الملك، فقيل لها: نخاف عليك منه،
فقالت: وأنا لا أخاف من يخاف الله، ولما اقترب عليه منها قالت: سبحان من
جعل الملوك بالمعصية عبيداً، والعبيد بالطاعة ملوكاً^٢!

وجاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وأخبره بأنه يعيش جارية نفيسة لجاره،
فقال عليه السلام: قل كلّما رأيتها: اللهم إني أسألك من فضلك، فكان يفعل ذلك، فشاء
الله أن يسافر مولاها ويأتمنه عليها، بعد أن قوم ثمنها عليه. وخاتمه بين إرجاعها
وبين دفع ثمنها، فدفع ثمنها وتزوجها^٣.

وروي أنّ مؤذناً كان يهوى جارية للإمام عليه السلام، فكلّما قابلها قال: أصبر
حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين، فأخبرت الجارية أمير المؤمنين عليه السلام
بهوى المؤذن لها.

١ - ورد مضمونه في: تفسير الشعبي ٨: ١٥٤، وزاد المسير، لابن الجوزي ٦: ٣٠٤.

٢ - تفسير مجتمع البيان ٥: ٤١٨، تفسير العزّ بن عبد السلام ٢: ١٢٨.

٣ - القصة مفصلة في: الكافي ٥: ٥٥٩ ح ١٥، عدّة الداعي: ٢٩٢.

فقال عليه السلام: ما قال لك؟ قالت: كلاماً رأني قال لي: أصبر حتى يحكم الله لي، فطلبه عليه السلام فقال: يا فلان، الآن حكم الله، فزوجها إيمانه، فاستمتع معها حلالاً.

وقال أحد التابعين: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام فوجده قد أثْرَ فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى كم تصبر في مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

إصبر على مضض الإدلاج في السحر وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
 إنِّي رأيْتُ وفي الأيام تجربةً للصبر عاقبةً محمودة الأثرِ
 وقلَّ مَنْ جَذَّ في أمرِيؤْمله واستصحب الصبر حتى فاز بالظفر^١

أحاديث في الصبر

قال الإمام الباقي عليه السلام: لما حضرت أبي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة، ضمّني إلى صدره وقال: يا بني، أوصيك بما أوصاني به أبي الحسين عليهما السلام حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن آباء أوصاه به: يا بني اصبر على الحق وإن كان مرآتُك بغير حساب^٢. قال تعالى: إذا وجهت إلى عبدٍ من عبيدي مصيبة في بدنك أو ولدك، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيمة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً^٣.

وقال جابر الأنصاري: قلت لأبي جعفر الباقي عليه السلام: يرحمك الله ما الصبر الجميل؟ قال عليه السلام: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس^٤.

١ - تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٥٢٩، مناقب أمير المؤمنين، للكوفي ٢: ٥٧٧.

٢ - من لا يحضره الفقيه ٤: ٤١٠ ح ٥٨٩١.

٣ - الدعوات، للراوندي: ١٧٢ ح ٤٨٤، مسكن المؤواد: ٤٩.

٤ - الكافي ٢: ٩٣ ح ٢٣.

وورد في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيمة يقوم عَنّْي حشد - من الناس فـيأتون بـاب الجنة فـيضرـبونه فـيقال لهم: من أنتـم؟ فـيقولـون: نـحن أـهل الصـبر، فـيقال لهم: على ما صـبرـتـم؟ فـيقولـون: كـنـا نـصـبر عـلـى طـاعـة اللهـ، ونصـبـر عـلـى مـعـاصـي اللهـ، فـيقولـ اللهـ عـزـوجـلـ: صـدـقاـوا، أـدـخـلـوهـمـ الجـنـةـ، وـهـوـ قولـ اللهـ عـزـوجـلـ: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^١.

والحمد للـه ربـالـعالـمـينـ وصـلـىـ اللهـ عـلـىـ مـحـمـدـ وـآلـهـ الطـيـبـيـنـ الطـاهـرـيـنـ المعـصـومـيـنـ.

في ظل رحمة الله

قال عليه السلام: سـيـديـ عـلـيـكـ مـعـتمـدـيـ وـمـعـولـيـ وـرـجـائـيـ وـتـوـكـليـ، وـبـرـحـمـتكـ تـعـلـقـيـ، وـبـفـنـائـكـ أـحـظـ رـحـلـيـ، وـبـجـودـكـ أـقـصـدـ طـلـبـتـيـ، وـبـكـرـمـكـ أـيـ رـبـ اـسـتـفـتـحـ دـعـائـيـ، وـلـدـيـكـ أـرـجـوـ فـاقـتـيـ، وـبـغـنـائـكـ أـجـبـرـ عـيـنـتـيـ، وـتـحـثـ ظـلـ عـفـوـكـ قـيـامـيـ، وـإـلـىـ جـوـدـكـ وـكـرـمـكـ أـرـفـعـ بـصـريـ، وـإـلـىـ مـعـرـوفـكـ أـدـيمـ نـظـريـ، فـلـأـتـحـرـقـنـيـ بـالـتـارـ وـأـنـتـ مـؤـضـعـ أـمـلـيـ، وـلـأـشـكـنـيـ الـهـاـوـيـةـ فـإـنـكـ قـرـرـ عـيـنـيـ، يـاـ سـيـديـ لـاـ تـكـذـبـ ظـنـيـ يـاـ خـسـانـكـ وـمـعـرـوفـكـ فـإـنـكـ ثـقـتـيـ، وـلـأـتـحـرـمـنـيـ ثـوابـكـ فـإـنـكـ الـعـارـفـ بـفـقـرـيـ.

مدخل لغوـيـ:

معتمـدـيـ: اـتـكـالـيـ، معـولـيـ: اـعـتمـادـيـ وـاستـعـانـتـيـ، الفـنـاءـ: السـاحـةـ أـمـامـ الـبـيـتـ، أـحـظـ رـحـلـيـ: أـنـزـلـ وـأـقـيمـ، الفـاقـةـ: الـفـقـرـ وـالـحـاجـةـ، جـبـرـ الشـيـءـ: أـصـلـحـهـ، العـيـلةـ: الـفـقـرـ، الـهـاـوـيـةـ: جـهـنـمـ، قـرـةـ الـعـيـنـ: السـرـورـ.

يتوجه الإمام إلى ربـهـ بـذـكـرـ مـحـامـدـهـ وـالـثـنـاءـ عـلـىـ آـلـهـ، فـهـوـ مـعـتمـدـ الـمـؤـمـنـيـنـ

١ - مشـكـاةـ الـأـنـوارـ: ٤، بـحـارـ الـأـنـوارـ: ٦٦، وـالـآـيـةـ فـيـ سـوـرـةـ الزـمـرـ: ١٠.

وعليه اتکالهم، ومنه يطلبون العون والمدد والفيوضات، وبأذیال رحمته تتعلق
أيديهم، وبساحة رحمته يقيمون، وفي ضيافته يرتعون، وإلى جوده يقصدون،
وإلى كرمه أنظارهم يديمون، وإلى معروفة في سفن الآمال يجررون، وإلى ساحة
قدسه بالدعاء يتوجهون.

إنَّه يستعيد برحمة الله من عقابه، ويحصن نفسه بالأمل والرجاء ليطفئ نار
غضبه، فإنَّه سبحانه أمل القلوب، وقرة عين المكروب، وهو العفو ذو الرحمة،
الغفور لمن أحسن به ظنًا، وهو ثقة الراجين، وغياث المفتقرين.

المبحث التاسع والسبعون: في الأجل

قال عليه السلام: إلهي إن كان قد دنا أجلني ولم يقرببني مثلك عملي فقد جعلت الإعتراف إليك بذنبي وسائل عللي، إلهي إن عفوت فمن أولى مثلك بالعفو، وإن عذبت فمن أعدل مثلك في الحكم، ارحم في هذه الدنيا غربتي، وعند الموت كربتي، وفي القبر وحدتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نشرت للحساب بين يديك ذلل مؤقفي، وأغفر لي ما خفي على الآدميين من عملي، وأدّم لي ما به سترتني.

إن الإنسان الوعي الذي هو على بصيرة من أمره، لا يغفل عن ذكر الموت، ويرى أن الحياة والأمال العريضة والأمانى الفاسدة بضائع النوكى^١، وعليه أن يقصر أمله ليتذكر الآخرة ويضعها نصب عينيه، وبهذا يحقق فراغ القلب من علائق الدنيا، وينقى روحه من كدورات الهوى، وينفذ نفسه من دركات الردى.

وكل نفس يتنفسه الإنسان هو بمثابة خطوة إلى أجله الذي لابد منه، فالإنسان دخل الدنيا مكرهاً، والعبرة بما قدمه من زاد ما بين دخوله وخروجه، إذ هو رصيده

١ - النوك: الحمق، رجل آنوك وامرأة نوكاء من قوم نوك ونوكى. (ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٤٨٥) (نوك))

ال حقيقي . والروايات تطالب الإنسان أن يغتنم الفرص فإنها تمر من السحاب ^١
فعليه أن يغتنم شبابه قبل هرمه ، وصحته قبل سقمه ، وغناه قبل فقره ، وفراغه
قبل شغله ، وحياته قبل موته ^٢ .

إن الذكر الحقيقي نور يقذفه الله في صدور من يشاء من عباده ، فيقوده إلى
التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله ،
فإن الإنسان ضيف مرتاح ، وكل حطام الدنيا عارية ، وكل عارية مستردة .

قيل لأحد المحتضرين : كيف أصبحت يا عبد الله ؟ قال : أصبحت من الدنيا
راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملي ملقياً ^٣ .

إن الحياة كلها عبر ودروس ، ولكن ما أكثر العبر وأقل المعتبرين ! فنحن
نحضر إخواننا في ساعة النزع والاحتضار ، ونمسي خلف جنائز الموتى ، وندفنهم
ونهيل عليهم التراب بأيدينا ، ولا نتفكر بأننا في الأثر سائرون ، بل تقوتنا الغفلة
وقسواة القلب إلى الغفلة ونسيان الآخرة وكأننا مخلدون .

إن الإنسان له أجل ، بل الأمم لها آجال لا تتعاداها ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمَّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَتَتْمُ تَمْتَرُونَ﴾ ^٤ .

وقال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّ أَكْنَمٍ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ

١ - شرح نهج البلاغة ٤: ٦ ح ٢١.

٢ - من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٥٧، الدعوات، للراوندي: ١١٣ ح ٢٥٧.

٣ - حكاية الذهبي في : سير أعلام النبلاء ١٠: ٧٥ عن الشافعي ، والصفدي في : الواقفي بالوقتات ٢:
١٢٦ عن : الشافعي أيضاً .

٤ - الأنعام: ٢.

لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمَّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^١ ، وَقَالَ عَزَّ عَلَاهُ:
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^٢ .

إِنَّ أَجَلَ الْإِنْسَانِ الْمَرَادُ هُنَا هُوَ الَّذِي يَقْارِنُ نَزْولَ الْمَوْتِ، قَالَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^٣ .

وَقَالَ بَعْضُ الْأَعْلَامِ: إِنَّ الْأَجَلَ هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، إِذْ جَعَلَ الْحَيَاةَ
الْبَرْزَخِيَّةَ امْتَدَادًا لِلْعَالَمِ الدُّنْيَا، كَمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ كُمْ لِبَثْثُمْ فِي
الْأَرْضِ عَدَدَ سِينِينَ * قَالُوا لِبَثْثَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ * قَالَ إِنَّ لِبَثْثُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ
أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٤ .

وَالْأَجَلُ: هُوَ الْمَوْعِدُ الْمَحْدُودُ الَّذِي لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَمَوْعِدُهُ نَزْولُ الْمَوْتِ.

وَقَالَ عَلَمَاؤُنَا: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِهِ أَجْلًا نَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ، وَهُوَ الَّذِي
أَشَارَ إِلَيْهِ سَبَّحَانَهُ حِيثُ يَقُولُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ﴾^٥ .

وَهَذَا الْأَجَلُ هُوَ الْمُثَبَّتُ فِي الْلَوْحِ الْمَعْبَرِ عَنْهُ بِأَمْرِ الْكِتَابِ.

أَمَّا الْأَجَلُ الْمُخْرُومُ فَهُوَ الْمُكْتَوبُ فِي لَوْحِ الْمَحْوِ وَالْإِثْبَاتِ، وَهُوَ حَاضِعٌ
لِمَسَائِلِ الْبَدَاءِ، فَيُزِيدُ وَيُنَقُصُ وَفَقِ السُّنْنِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ الْكُوْنِيَّةِ، فَلَوْ قَامَ
الْإِنْسَانُ بِالْقَاءِ نَفْسِهِ مِنْ شَاهِقٍ، أَوْ احْتَسَى السَّمَّ الْقَاتِلِ، أَوْ قَامَ غَيْرَهُ بِإِطْلَاقِ

١ - الأنعام: ٦٠.

٢ - الأعراف: ٣٤.

٣ - العنكبوت: ٥٧.

٤ - المؤمنون: ١١٢ - ١١٤.

٥ - الأعراف: ٣٤.

الرصاص عليه، فهذا ليس من فساد البنية الذي يمثل الموت الطبيعي، بل نقض البنية، فهنا يحلّ أجله قبل انقضاء الأجل المسمى له، وليس في هذا خروج عن النواميس والسنن، ومن هنا قال الله سبحانه وتعالى في نبئته عليه ﷺ: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾^١.

النتائج:
أما الأمم فإن الله سبحانه قد أوجب على نفسه من باب لطفه أن يهدي الأنام إلى صراطه القويم وذلك بإرسال الرسل، وهؤلاء بدورهم حجّة على العباد، يبلغونهم أحكام الدين ويقيمون النظام، فإذا آمنت الأمم واتّبعت هديهم ففي ذلك رشادهم وسعادتهم، وإذا كذّبوا الرسل وتنكّبوا الصراط فإن السنن الإلهية والنوميس الكونيّة قضت بإهلاكهم بالاستئصال. ومن هنا نصل إلى هذه

١. لكل أمة رسول بمثابة السفير بين الله وعباده، وقد حكم العقل بطبع العقاب بلا بيان.

٢. إذا خالفت الأمم رسلاها نزل بهم عذاب الاستئصال.

٣ . لا يخرج عن هذه القاعدة أمة من الأمم حتى أمة محمد ﷺ، ولو كان العذاب مرفوعاً عنها، لأنها أصبحت التكاليف والأحكام من العبث. وفي هذا اختلال النظام، وهتك الحرمات، وإيجاد المظالم والفساد، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْدِبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

إن العذاب يمكن أن ينزل بالمكذبين دون غيرهم من المؤمنين والمستغفرين، كما نزل بأبي جهل وأبي ل heb والحارث بن نعمان الفهري

۱ - آل عمران: ۱۴۴

٢ - الأنفال: ٣٣

وغيرهم من الطغاة والجبابرة.

٤. إن آجال الأمم من مختصات الغيب التي استأثر بها سبحانه، ويكون نزوله فجأة فلا يفلت منه أحد.

٥. إذا نزل العذاب فلا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، لأن الإيمان هنا ليس طوعياً ولا اختيارياً، بل هو إيمان جبرى اضطرارى.

ويعود الإمام عثيلاً للتوجّه إلى ربّه بالاعتراف بذنبه كوسيلة لنيل مرضاته وعفوه، فلو حان أجله، ولم يقربه العمل الصالح ولم يرفعه إلى ساحة الرضا، فلعل الاعتراف والتذلل واللجوء تكون من أسباب نيل القبول والرضوان، إنه يطالب الله بعفوه وكرمه، إنَّ في ذلك التجاوز عن الذنب والمؤاخذة إحساناً وكرماً، ويسأله أن لا يعامله بعدله لأنَّ العدل يقتضي المقاومة والمداقة والعقوبة بالحق.

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على محمد وآلِه الطيبين الطاهرين المعصومين.

المبحث الثمانون: في الغربة

ثم يتحدث عليهما عن غربته في هذه الدنيا الدنيئة، وليس الأمر غريباً، إذ هي سجن المؤمن وجنة الكافر^١، ولا سيما إذا تغير الزمان وغلب طابع الشر، وانقلب المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فيصبح القايبض على دينه كالقايبض على جمرة من النار^٢.

قيل للإمام الصادق عليهما: نراك قد اعتزلت الناس ! فقال عليهما: فسد الزمان، وتغير الإخوان، وصار الانفراد أسكن للفؤاد، أقلل معارفك، وأتذكر من تعرف منهم^٣.

ففي هذه الظروف الاستثنائية القاسية، على الإنسان أن يفتر من الناس فراره من الأسد والأفاعي، وتكون له الخلوة والعزلة خير منزل، يستأنس به بقاء ربّه، ويتفرّغ للذكر والعبادة والمناجاة.

وهذا لا يتعارض مع وجوب العمل والدعوة إلى الله، وإصلاح المجتمع

١ - فقه الرضا عليهما: ٢٣٩، الدعوات، للراوندي: ٢٨٠ ح ٨١٧

٢ - انظر: الأمالي، للطوسي: ٤٨٤ ح ٤٠٦٠، العمدة، لابن البطريق: ٤٣٥.

٣ - العدد القويّة: ١٥٣ ح ٧٩، بحار الأنوار ٤٧: ٦٠ ح ١١٦.

والأفراد والمشاركة في المشاريع والنشاطات وإقامة الشعائر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لكل حادث حدثاً، ولكل مقام مقالاً، ولكل ظرف سلوكية خاصة به.

ثم إن الخمول الذي هو ضد الشهادة وحب الظهور من شعب الزهد ومن سمات المؤمنين وصفات المتقين، وإن الكثير من أهل العلم والعرفان والفقاهة العالية كانوا من أهل العزلة، فإذا حضروا لم يعودوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، ولكن منزلتهم عند الله وعندهم أهل الإيمان والمعرفة عالية راقية.

ثم يعود عائلاً ليسأله رب الرحمة إذا نزل به الموت - أعننا الله عليه - وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق من المباحث، ويسأله عائلاً الرحمة في القبر واللحد.

والحديث عن القبور بلسان المقال ليس بأبلغ من حديث القبور وهي تتحدث بلسان الحال، فقد روي في الآثار أن لسان حالها يقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة، وبينت الغربة، وبينت الظلمة، هذا - يا ابن آدم - ما أعددت لك، فما

أعددت لي^١؟

وروي عن أبي ذر رض قوله: يوم حاجتي يوم أوضع في قبري^٢.

وكان بعض العارفين يزور القبور ليلاً، ويناجي الموتى، ويبكي حتى تبتلى لحيته.

وقال أحدهم: من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار، والأول من نتائج الذكر، والثاني من نتائج الغفلة.

١- وردت هذه المضامين في: الكافي ٣: ٢٢٣ ح ٢ وصفحة ٢٤١ ح ١ والأمالى، للمفید: ٢٦٥.

٢- المصطفى، لابن أبي شيبة ٨: ١٨٣ ح ٥، الدر المتشور ٢: ٥١، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٢٠٥.

وَقَامَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ بِحَفْرِ قَبْرِهِ دَارِهِ، وَكَانَ كَلَّمَا وَجَدَ الْقَسْوَةَ فِي قَلْبِهِ،
وَالْغَفْلَةَ فِي نَفْسِهِ اضطَجَعَ فِيهِ حَتَّى يَلِينَ قَلْبَهُ وَيَصْحُو ضَمِيرَهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ عَلَيَّ بْنُ الْحَسِينِ تَلِيلًا: كَأَنْ قَدْ أَوْفَيْتَ أَجْلَكَ، وَقَبْضَ الْمُلْكَ
رُوحَكَ، وَصَرَّتِ إِلَى مَنْزِلِ وَحِيدًا، فَرَدَ إِلَيْكَ رُوحَكَ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْكَ فِيهِ مَلْكَكَ
مُنْكِرٍ وَنَكِيرٍ لِمَسَاءِ لَتَكَ، وَشَدِيدٌ امْتَحَانَكَ، أَلَا وَإِنَّمَا يَسْأَلُكَ عَنْ رَبِّكَ الَّذِي
كُنْتَ تَعْبُدُهُ، وَعَنْ نَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ، وَعَنْ دِينِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَدَبَّرُ بِهِ،
وَعَنْ كِتَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَلَوَّهُ وَعَنْ إِمَامِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَوَلَّهُ، ثُمَّ عَنْ عُمْرِكَ فِيمَا
أَفْنَيْتَهُ، وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ اكتَسَبْتَهُ، وَفِيمَا أَتَلَفْتَهُ، فَخُذْ حَذْرَكَ، وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ، وَأَعْدَّ
الْجَوابَ قَبْلَ الْامْتِحَانِ وَالْمَسَاءَةِ وَالْأَخْتِبَارِ^١.

وَوَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ: زورُوا مُوتَاكُمْ، وَصَلُّوا عَلَيْهِمْ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ
فِيهِمْ عِبْرَةً^٢.

ثُمَّ يَسْأَلُ رَحْمَةَ رَبِّهِ إِذَا قَامَ لِلْحِسَابِ بَيْنَ يَدِيهِ، يَوْمَ ثُبُلَى السَّرَّائِرِ، وَتَكْشِفُ
الضَّمَائِرُ، وَتَظَهَّرُ الْخَفَافِيَا وَالْبَوَاطِنُ، فَيَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمَهْلِ^٣، وَتَكُونُ
الْجَبَالُ كَالْعَهْنِ^٤، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا، يَوْمَئِذٍ يُبَعْثَثُ النَّاسُ حَفَاظًا غَرَّلًا^٥،
قَدْ أَجْمَمُوهُمُ الْعَرْقُ وَبَلَغَ شَحْوَمُ الْأَذَانِ، عَنْدَهَا تَوْضُعُ الْمَوَازِينِ، وَتَنْشَرُ الدَّوَاوِينِ،

١- الكافي ٨: ٧٣ ح ٢٩، الأمازي، للصدوق: ٥٩٣ ح ٨٢٢ تحف العقول: ٢٤٩.

٢- إحياء علوم الدين، للغزالى ٤: ٤١٦.

٣- المهل: ما ذاب من صفر أو حديد، وكذلك فسر في التنزيل. (ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٣٧٦)
(«مهل»)

٤- العهن: الصوف، وأكثر ما يسمى المصبوغ والمنفوش منه. (ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٦١٧ «عهن»)

٥- الأغرل: جمعه غرل وهو الذي لم يختن، والأغرل والأقلف والأغلف واحد. (ترتيب جمهرة
اللغة ٢: ٦٤٨ «غرل»)

وتسرّع النيران، وتفتح أبواب الجنان، فطوبى لمن سلك طريق الإيمان، وفاز بالجنة والرضوان.

إن الجنة عروس نفيسة مهرها ترك الدنيا المذمومة، وإن الفرصة سانحة ما دام في الصدر نفس، فرحم الله امرأً جدًّا واجتهد، وسعى ووعى وعلم وعمل، ونصح وأرشد.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أخبركم بالفقيه حقًا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال عليه السلام: من لم يقتنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمّنهم من عذاب الله، ولم يرّخص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة إلى غيره. ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه.^١

وقال النبي عليه السلام: لو أن البهائم يعلمن من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميّنا.^٢

وقال علي عليه السلام: عجبت لمن يرى أنه ينقص كل يوم في نفسه وعمره وهو لا يتأهّب للموت.^٣

وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: لم يخلق الله عز وجلّ يقيناً لا شكّ فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.^٤ اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - معاني الأخبار: ٢٢٦ ح ١، بحار الأنوار ٢: ٤٨ ح ٨

٢ - الأمازي، للطوسي: ٤٥٣ ح ٤٥٣، مشكاة الأنوار: ٥٢٦.

٣ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٣٣٠.

٤ - الخصال: ١٤ ح ٤٨، من لا يحضره الفقيه ١: ١٩٤ ح ٥٩٦.

المبحث الحادي والثمانون: في فقه الموت

قال عليه: وَازْحَمْنِي صَرِيعاً عَلَى الْفِرَاشِ يُقْلِبِنِي أَنِّي أَحَبَّتِي، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ
مَمْدُوداً عَلَى الْمُغْشَسِلِ يُقْلِبِنِي صَالِحٌ جِيرَتِي، وَتَخَنَّنْ عَلَيَّ مَخْمُولاً قَدْ تَنَاؤلَ
الْأَقْرَبَاءُ أَطْرَافَ جَنَازَتِي، وَجُذْ عَلَيَّ مَنْقُولاً قَدْ نَزَلْتُ بِكَ وَحِيداً فِي حَفْرَتِي،
وَازْحَمْ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ غُرْبَتِي، حَتَّى لَا أَسْتَانِسْ بِغَيْرِكَ.

يتوجه الإمام عليه إلى ربّه سائلاً إياه أن يمطر عليه سحائب رحمته في يوم
يرحل فيه عن الدنيا وأهلها بعد أن يصرعه الموت الذي لابد منه، فهو ما بين
أحبائه يقلبونه على فراش الموت، وبين جثة هامدة بين يدي الغاسل يقلبها
كيفما شاء، وبين مجموعة من المشيعين له إلى حفرة إذا زاد فيها حافرها ما
تجاوزت ثلاثة أذرع، حفرة تغمرها الظلمة والضيق، وتملاها الوحشة والغربة.

ويرى بعض السذج وضعاف العقول أن الموت هو الفناء بالمعنى الدقيق
الفلسفي بمعنى الاندثار، فقالوا مثل قول أسلافهم من أجلال الجاهلية وجهالها
وسفالئها، ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾^١.

وقال سبحانه على لسانهم: ﴿أَيَعْدُكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ

مُخْرَجُونَ^١.

ولكن المتدبر في سورة الرحمن إذا نظر إلى قوله تعالى حيث يقول: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ﴾ * وَيَنْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^٢.**

فسيلوح له بكل جلاء عدّة حقائق:

١. إن آيات السورة المباركة جاءت لتعدد آلاء الله سبحانه على الجن والإنس، وهذه الآية بالذات تتحدث عن نعمة الفناء.
٢. إن الفناء لو كان بالاندثار فسيكون الخلق والإيجاد ضرباً من ضروب العبث واللهو الباطل، وهذا ما لا يليق بساحة الله سبحانه، وكذا لا يمكن عدّه من آلاء الله سبحانه.
٣. إن الفناء المقصود هنا هو انتهاء أمد النشأة الدنيوية، التي هي مقدمة للوصول إلى عالم الآخرة الذي هو الغاية وراء الخلق، إذن هو عالم انتقال من عالم محدود إلى عالم مطلق.
٤. والإنسان عند معاينة مشاهد الغيب، تقطع علاقته بالدنيا، ويصبح من الوفدين إلى عالمه الجديد الذي هو عالم الخلود، ولذلك العالم أحکام وقوانين، وسنن ونوميس تختلف عما يجري في هذه النشأة.

نكات حول الموت

أولاً: استحباب ذكر الموت وما بعده والاستعداد لذلك.
قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: يا أبا عبيدة، أكثر ذكر الموت، فإنه لم يكثر

١- المؤمنون: ٣٥.

٢- الرحمن: ٢٦ - ٢٨.

إنسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا^١.

وقال النبي ﷺ: أكيس الناس من كان أشد ذكرًا للموت^٢.

وقال الإمام الصادق علیه السلام لأبي بصير: أما تحزن؟ أما تهتم؟ أما تألم؟ قلت: بلى والله، قال علیه السلام: فإذا كان ذلك منك فاذكر الموت، ووحدتك في قبرك، وسيلان عينيك على خذيك، وقطع أوصالك، وأكل الدود من لحمك، وبلاك وانقطاعك عن الدنيا، فإن ذلك يحثك على العمل ويردعك عن كثير من الحرص على الدنيا^٣.

ثانياً: كراهة طول الأمل وعده غد من الأجل:

قال الإمام علي علیه السلام: ما أنزل الموت حق منزلته من عدّ غدا من أجله، وما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل، ولو رأى العبد أجله وسرعته إليه لأبغض العمل من طلب الدنيا. ومن جرى في عنان أمله عشر بأجله، وإذا كنت في إدبار الموت في إقبال فما أسرع الملتقى^٤.

ثالثاً: استحباب حسن الظن بالله عند الموت.

قال النبي ﷺ: لا يموتن أحدكم حتى يحسن ظنه بالله عزوجل، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة^٥.

رابعاً: وجوب توجيه المحتضر إلى القبلة بأن يجعل وجهه وباطن قدميه

١- الكافي ٢: ١٣١ ح ١٣

٢- روضة الوعاظين: ٤٨٧، بحار الأنوار ٦: ١٣٠ ح ٢١

٣- الأمازي، للصدوق: ٤٢٦ ح ٥٦١

٤- الكافي ٣: ٢٥٩ ح ٣٠

٥- الأمازي، للطوسي: ٣٧٩ ح ٨١٤ تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٤٠٨

إليها.

دخل النبي ﷺ على رجل من ولد عبد المطلب وهو في النزع، وقد وجهه إلى غير القبلة، فقال ﷺ: وجئوه إلى القبلة، فإنكم إذا فعلتم ذلك أقبلت عليه الملائكة، وأقبل الله عزوجل عليه بوجهه، فلم يزل كذلك حتى يقبض^١.

خامساً: استحباب تلقين المحاضر الشهادتين وغيرها من الاعتقادات الحقة:

قال الإمام الصادق علیه السلام: إذا حضرت الميت قبل أن يموت فلقنه شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه^٢.

وقال علیه السلام: إنَّ ملكَ الموت يتصلَّح الناسُ في كُلِّ يومٍ خمس مراتٍ عند مواقِيْتِ الصلاةِ، فإنْ كانَ ممَّن يواطِبُ عَلَيْهَا عِنْدَ مواقِيْتِهَا لِقَنَهُ شهادةً أنَّ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولَ الله، ونَحْنُ عنْه ملوكُ الموتِ إبليس^٣.

وقال النبي ﷺ: لَقُنُوا موتاكم لا إله إلا الله، فإنَّ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة^٤.

وفي الكافي الشريف عن أبي جعفر الباقر علیه السلام قوله: فلقنه كلمات الفرج والشهادتين، وتُسمى له الإقرار بالأئمة علیهم السلام واحداً بعد واحد^٥.

أما كلمات الفرج فهي على ما جاء عن النبي ﷺ: لا إله إلا الله الحليم

١ - دعائم الإسلام ١: ٢١٩.

٢ - الكافي ٣: ١٢١ ح ١.

٣ - الكافي ٣: ١٣٦ ح ٢ مع اختلاف يسير.

٤ - الدعوات، للراوندي: ٢٥٠ ح ٧٠٣.

٥ - الكافي ٣: ١٢٤ ح ٦.

الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السماوات السبع، ورب الأرضين السبع، وما فيهنّ وما بينهنّ، ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين^١.

ويُستحب أن يقول المحتضر، كما ورد عن النبي ﷺ: اللهم اغفر لي الكثير من معاصيك، واقبل مني اليسير من طاعتك^٢.

ونقول: المحتضر بفتح الضاد لمن حضره الموت، ولعل ذلك لحضور الكائنات الغيبية كالملائكة والجن وأرواح المؤمنين.

سادساً: استحباب نقل من اشتد عليه النزع إلى مصلحة الذي كان يصلّى فيه أو عليه:

قال الإمام الصادق ع: إذا عُسر على الميت موته ونزعه قرب إلى مصلحة الذي كان يصلّى فيه^٣. ومن آثار هذا العمل أنه يخفّف عنه ويُسهل أمره بإذن الله.

سابعاً: استحباب قراءة «الصفات» ويس عند المحتضر:

قال الإمام موسى بن جعفر ع: لولده القاسم ع: قم يابني فاقرأ عند رأس أخيك: والصفات صفا حتى تستتمّها، فلما بلغ قوله سبحانه: «أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً مَّنْ خَلَقْنَا»^٤، قضى الفتى، فلما سُجِّي وخرجوا، أقبل يعقوب بن جعفر فقال: كنا

١- الكافي ٣: ١٢٢ ح ٣.

٢- المصباح، للكفعمي: ٢٩١، بحار الأنوار ٦: ١٩٦ ح ٤٨ وج ١٢٥ ح ٩٥.

٣- الكافي ٣: ١٢٥ ح ٢، تهذيب الأحكام ١: ٤٢٦ ح ١.

٤- الصفات: ١١.

نعهد الميت إذا نزل به الموت يقرأ عنده ﴿يسْ وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ﴾^١، فصرت تأمننا بالصافات، فقال عليه السلام: يا بني لم تقرأ عند مكروب ومن موته فقط إلا عجل الله راحتة^٢.

ثامناً: كراهة ترك الميت وحده، وكراهة حضور الحائض والجنب عند المحتضر:

قال أحدهم لأبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: المرأة تقعع عند رأس المريض وهي حائض في حد الموت؟ فقال: لا بأس أن تمرضه، فإذا خافوا عليه وقرب ذلك، فلتُنبع عنده وعن قربه، فإن الملائكة تتأذى بذلك^٣.

وقال الصادق عليه السلام: لا تحضر الحائض ولا الجنب عند التلقين، لأنّ الملائكة تتأذى، بل يكره مثُل الميت حال احتضاره^٤.

ثقل ابن الإمام الصادق عليه السلام، وأبو جعفر الباقر عليهما السلام جالس في ناحية، فكان إذا دنا منه إنسان قال: لا تمسه فإنه إنما يزداد ضعفاً، وأضعف ما يكون في هذه الحال، ومن مسنه على هذه الحال أعنان عليه، فلما قضى الغلام أمر به فغمضت عيناه، وشد لحياه.^٥

تاسعاً: كراهة ترك الميت وحده، واستحباب الإسراج عنده ليلاً، بل دوام الإسراج في ذلك البيت:

١ - يس: ١ و ٢.

٢ - تهذيب الأحكام ١: ٤٣٧ ح ٣.

٣ - الكافي ٣: ١٣٨ ح ١، الدعوات، للراوندي: ٢٥٢ ح ٧١١.

٤ - نقل مضمونه في: فقه الرضا عليه السلام: ١٦٥ ح ٢٢.

٥ - تهذيب الأحكام ١: ٢٨٩ ح ٩، طب الأئمة: ٨٠

قال الصادق عليه السلام: ليس من ميت يموت ويترك وحده إلا لعب الشيطان في جوفه^١.

ولما قبض الإمام الباقر عليه السلام، أمر ولدُه الإمام الصادق عليه السلام بالإسراج في البيت الذي كان يسكنه والده، حتى قبض الصادق عليه السلام. ثم أمر الإمام الكاظم عليه السلام بعد وفاة والده أن يُسْرَج في البيت الذي قبض فيه حتى أخرج من العراق.

عاشرًا: استحباب تعجيل تجهيز الميت:

قال النبي عليه السلام: يا معاشر الناس، لا ألفين رجلًا مات له ميت ليلاً فانتظر به الصبح، ولا رجلًا مات نهاراً، فانتظر به الليل، ولا تنتظروا بموتاكم طلوع الشمس وغروبها، عجلوا بهم إلى مصاجعهم يرحمكم الله^٢. وقال النبي عليه السلام: إذا مات الميت أول النهار فلا يُقيِّل إلا في قبره، وكراهة الميت تعجيشه^٣.

أحد عشر: وجوب تغسيل الميت:

قال الإمام الصادق عليه السلام: غسل الجنابة واجب، إلى أن قال عليه السلام: وغسل الميت واجب^٤.

كتب الإمام الرضا عليه السلام في جواب عن مسألة: علة غسل الميت أنه يُغسل لأنَّه يطهر وينظف من أدناه مرضه، وما أصابه من صنوف علل، لأنَّه يلقى الملائكة، ويباشر أهل الآخرة، فيستحب إذا ورد على الله عزوجل ولقي أهل الطهارة ويماسونه ويماسُهم أن يكون طاهراً نظيفاً متوجهاً به إلى الله عزوجل

١ - الكافي ٣: ١٣٨ ح ١، تهذيب الأحكام ١: ٢٩٠ ح ١٢.

٢ - الكافي ٣: ١٣٧ ح ١، من لا يحضره الفقيه ١: ١٤٠ ح ٣٨٦.

٣ - الكافي ٣: ١٣٨ ح ٢، تهذيب الأحكام ١: ٤٢٨ ح ٥، من لا يحضره الفقيه ١: ١٤٠ ح ٣٨٥.

٤ - الاستبصار ١: ٩٧ ح ٣١٥.

ليطلب وجهه، وليشفع له، وعلة أخرى أنه يخرج منه المني الذي منه خلق فيجنب فيكون غسله له^١.

وورد عنهم عليهما السلام: ليس من ميت يموت إلا خرجت منه الجنابة فلذلك وجب الغسل^٢.

وقد أجمعوا الروايات أن غسل الميت كغسل الجنابة الترتيبية، وأنه يغسل ثلاثة أغسال: الأول بماء السدر، والثاني بماء الكافور، والثالث بالماء القراب، ثم تحيط مساجده السبعة بالكافور، ويُكفّن بثلاثة أثواب: المئزر، والقميص، والإزار^٣.

وورد استحباب إجادرة الكفن والمغالاة في ثمنه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إن أبي أوصاني عند الموت: يا جعفر، كفّني في كذا وكذا، واشتري لي بُرداً واحداً وعمامة، وأجدهما، فإن الموتى يتباهاون بأكفانهم^٤.
وقال عليه السلام: أجيدوا أكفان موتاكم فإنها زينتهم^٥.

وورد في الأثر الصحيح أن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام كُفن في حَبْرَة استعملت له بـألفين وخمسمائة دينار عليها القرآن كله^٦. ويُستحب كتابة اسم

١ - علل الشرائع ١: ٣٠٠ ح ٣، عيون أخبار الرضا عليهما السلام ١: ٩٦.

٢ - علل الشرائع ١: ٢٦٨، عيون أخبار الرضا عليهما السلام ١: ١٢٠.

٣ - انظر: رسائل الشريف المرتضى ٣: ٥٠.

٤ - تهذيب الأحكام ١: ٤٤٩ ح ٩٨.

٥ - الكافي ٣: ١٤٨ ح ١، الدعوات، للراوندي: ٢٥٤ ح ٧١٨.

٦ - مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب ٣: ٤٤١.

الميت على الكفن، وأنه يشهد بالشهادتين والاعتقادات الحقة^١.

اثنا عشر: وجوب الصلاة على الميت:

ووجوبها على نحو الكفاية. وهذه الصلاة ليست صلاة حقيقة إذ لا يتشرط فيها الطهارة، وليس فيها قراءة ولا ركوع ولا سجود ولا تسليم، بل هي بمثابة الدعاء للميت، ولا يجوز أخذ الأجرة عليها.

ثلاثة عشر: استحباب تشييع الميت والدعاء له:

قال الإمام الباقي عليه السلام: كان فيما ناجى به موسى عليهما السلام ربّه أن قال: يا ربّ، ما لمن شيع جنازة؟ قال: أوكّل به ملائكة من ملائكتي معهم رايات يشيعونهم من قبورهم إلى محشرهم^٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: أول ما يتحف به المؤمن في قبره أن يغفر لمن تبع جنازته^٣.

أربعة عشر: وجوب دفن الميت:

قال الإمام الرضا عليه السلام: إنما أمر بدفن الميت لئلا يظهر الناس على فساد جسده، وقبح منظره، وتغيير رائحته، ولا يتآذى الأحياء بريحة، وما يدخل عليه من الآفة والفساد، ولن يكون مستوراً عليه من الأولياء والأعداء، فلا يشمّت عدوه، ولا يحزن صديقه^٤.

ويستحب الدفن في الحرم المكي والمشاهد المشترفة.

١ - انظر: البيان، للشهيد الأول: ٣٦.

٢ - الكافي ٣: ١٧٢ ح ٨، ثواب الأعمال: ١٩٤.

٣ - من لا يحضره الفقيه ١: ٤٥٦ ح ١٦٢.

٤ - عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢١، بحار الأنوار ٤٦: ٧٩ ح ٤٦.

قال الإمام جعفر الصادق علیه السلام: من دُفن في الحرم أمن من الفزع الأكبر، فقيل له: من بَرِّ الناس وفاجرهم؟ قال علیه السلام: من بَرِّ الناس وفاجرهم^١.
وورد أن الدفن عند علي علیه السلام يرفع عذاب القبر ويسقط محاسبة منكرون كثيرون^٢.
وورد استحباب قراءة القرآن عند القبر، وتلقين الميت الشهادتين والاعتقادات الحقة، والدعاء له بالمؤثر، ويُستحب رش الماء على القبر. فقد ورد عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: يتجافي عنه العذاب ما دام الندى في التراب^٣.

وورد استحباب وضع الجريدتين الخضراءين مع الميت:
قال الإمام الباقر علیه السلام: يتجافي عنه العذاب والحساب ما دام العود رطباً، إنما العذاب والحساب كلّه في يوم واحد، وفي ساعة واحدة، قدر ما يدخل القبر، ويرجع القوم، وإنما جعلت السعفتان لذلك، فلا يصيبه عذاب ولا حساب بعد جفوفهما إن شاء الله^٤.

خمسة عشر: استحباب زيارة القبور:
ورد عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله الصادق علیه السلام: الموتى نزورهم؟ قال علیه السلام: نعم، قلت: فيعلمون بما إذا أتيناهم؟ فقال: إني والله، إنّهم ليعلمون بكم، ويفرحون بكم، ويستأنسون بكم^٥.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين

١ - الكافي ٤: ٢٥٦ ح ٢٦، المحاسن ١: ٧٢ ح ١٤٧.

٢ - حكاہ في: إرشاد القلوب: ٤٣٩، وانظر: مدينة النجف، لمحمد التميمي: ٩٠.

٣ - الكافي ٣: ٢٠٠ ح ٦، علل الشرائع ١: ٣٠٧ ح ١.

٤ - الكافي ٣: ١٥٢ ح ٤، علل الشرائع ١: ٣٠٢ ح ١، من لا يحضره الفقيه ١: ١٤٥ ح ٤٠٧.

٥ - من لا يحضره الفقيه ١: ١٨١ ح ٥٤٠، فلاح السائل: ٨٥

المعصومين.

رفع شعار الضعف والتوكل

قال عليه السلام: يا سيدِي إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي هَلْكُثُ، سَيِّدِي فَبِمَنْ أَسْتَغْيِثُ إِنْ لَمْ تُقْلِنِي عَثْرَتِي، فَإِلَى مَنْ أَفْزَعُ إِنْ فَقَدْتُ عِنَائِتَكَ فِي ضَجْعَتِي، وَإِلَى مَنْ أَتَجَهُ إِنْ لَمْ تُنَفِّشْ كُرْبَتِي، سَيِّدِي مَنْ لِي وَمَنْ يَرْحَمْنِي إِنْ لَمْ تَرْحَمْنِي، وَفَضْلَ مَنْ أَوْفَلُ إِنْ عَدِمْتُ فَضْلَكَ يَوْمَ فَاقْتِي، وَإِلَى مَنِ الْفِرَازُ مِنَ الذُّنُوبِ إِذَا انْقَضَى أَجْلِي، سَيِّدِي لَا تُعَذِّبْنِي وَأَنَا أَرْجُوكَ، إِلَهِي حَقِّ رَجَائِي، وَأَمِنْ خَوْفِي، فَإِنَّ كَثْرَةَ ذُنُوبِي لَا أَرْجُو فِيهَا إِلَّا عَفْوُكَ، سَيِّدِي أَنَا أَسْأَلُكَ مَا لَا أَسْتَحِقُ وَأَنْتَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، فَاغْفِرْ لِي وَالْبِسْنِي مِنْ نَظَرِكَ ثَوْبًا يُغَطِّي عَلَيَّ التَّسْعَاتِ، وَتَغْفِرْهَا لِي وَلَا أَطَالَبُ بِهَا، إِنَّكَ ذُو مِنْ قَدِيمٍ، وَصَفْحٌ عَظِيمٌ، وَتَجَاؤزٌ كَرِيمٌ.

مدخل لغوي :

قيل: عندما نقول: أقال الله عثرتك: أي أنهضك من سقوطك، وأخذ بيده،
والمراد: الصفح والعفو وترك المؤاخذة.

الكربة: شدة الحزن والمشقة.

التبعه: ما يتربّ على الفعل من الخير والشر، إلا أن استعماله في الشر أكثر،
يقال: لهذا الفعل تبعه، أي لحقه شر وضرر.

أهل التقوى: الأهلية: الجدارة والاستحقاق لأن يتحقق.

المن: ويقال: المتن. أي النعمة الثقيلة.

يتوجه الإمام عليه السلام إلى ربّه رافعاً شعار الضعف والفقير المطلق، فلو وَكَلَ الله
العبد إلى نفسه فقد سلبه التوفيق، وسلب التوفيق من أشد النقم الإلهية، ولا

يمكننا أن نتصور ذلك ابتداءً، بل عن مجازاة على ذنب، وإن الإنسان وإن كان له الاختيار والإرادة في إيقاع الفعل سلباً أو إيجاباً، وله القدرة على الفعل أو الترك، لكنَّ المشيئة الإلهية لا تخلُّ عن كلِّ أعماله وتصرفاته، ولو لاهما استطاع الإنسان أن يفعل شيئاً، وبتعبيرأوضح: إنَّ الإنسان ليس له استقلال في الإرادة، بل هو خاضع للإرادة الإلهية والقوانين والسنن والنوميس.

وسلب التوفيق يقود إلى الهلاك المبين والاندحار الأكيد أمام جند الشيطان.

لقد تحدَّثنا في المبحث السابع عشر عن التوكل وأبعاده ومعطياته، والآن نجد أنفسنا مضطرين للعودة إلى فكرة التوكل، لأنَّ الزمام ليس بآيدينا، بل بيد الله سبحانه كما بيَّنَها الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه، فالتوكل من أرقى المقامات وأعلى المراتب الإيمانية في طريق إكمال النفوس، حيث إنَّ العبد في هذه المرتبة الارتقائية يرى أن لا مؤثر في هذا الوجود إلَّا الله سبحانه، فهو الذي له الولاية التكوينية والتشريعية وببيده مقاليد السماوات والأرض، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا راد لحكمه.

والتوكل على الله قوة إيمانية لها دورها الإيجابي على حياة الإنسان واستقامة مسيرته، فالعبد يشعر أنَّ الله عاصمه ورازقه، وهو المتوكَّل بتدبير أمره، وأنَّ كلَّ الأسباب الأخرى بيد سبحانه، وليس لها شيء من الاستقلال، إذن فلنرجع إلى مسبب الأسباب فهو حسينا.

روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: من توكل على الله لا يُغلب، ومن اعتمد بالله لا

يُهزم^١.

وإذا وقع الإنسان بين براثن الشر، ومخالب البلاء، وأنياب الفتنة، فإن التوكل على الله هو المفتاح الذي يمكنه من الدخول إلى باب الفرج والخلاص، فعند الفزع فإلى الله المفزع.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^٢.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسِنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسِنَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٣.

وهدّ التوكل أن لا يخاف مع الله أحداً ولا شيئاً^٤، حتى قال أحد العارفين: حدّ التوكل أن تكون في جنبك السباع ولا يتغير حالك ولا يخاف قلبك.

لقد دخل أحد علمائنا الأبرار على طاغوت عصره، وهذا المجرم قد أعدّ الملايين من أبناء شعبه، وشرّد الملايين، ولم تنجُ من بطشه عائلة، فوضع هذا العالم يده على قلبه، وبعد أن نجاه الله من فم هذا الثنين، سأله بعض مرافقيه: لماذا وضعت يدك على قلبك، قال: لوازدادت دقات قلبي خوفاً من هذا الطاغية لشككث في إيماني، ولكني والحمد لله وجدته ثابتاً مستقراً.

وقد رسم تاريخ الإسلام صوراً فريدة لبعض العرفاء والصالحين من المتأوّلين

١ - روضة الوعاظين: ٤٢٥، مشكاة الأنوار: ٥١.

٢ - الطلاق: ٢ - ٣.

٣ - الأنعام: ١٧.

٤ - انظر: الأمالي، للصدوق: ٣١١ ح ٣٦٠، مشكاة الأنوار: ٤٥.

والصادقين: فقد روي أن حاتماً الأصم^١ ، قال لزوجته يوماً: إنني أريد السفر، كم أعطيك لنفقتك؟ قالت: بقدر حياتي، قال: حياتك ليست بيدي، ولا في قدرتي، قالت له: فرزقي أيضاً ليس بيديك، قال: لها أحسنت. فلما سافر حاتم، قالت لها امرأة: كم ترك حاتم لك؟ قالت: هو كان من المرتزقين، وأمّا الرازق فهو هنا ولم يسافر.

وقيل لرجل من العارفين: من أين قوئك؟ قال: من يد رب عزيز عليم، ثم أومأ إلى أسنانه وقال: الذي خلق الرحى يأتيها بالحب^٢.

وروي عن معروف الكرخي الذي أسلم على يد الإمام الرضا عليه السلام وأصبح من خاصته وتلاميذه، أنه صلى خلف إمام، فلما انفتل من صلاته، قال إمام الجماعة: من أين نأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتي خلفك، لأنّ من شك في رزقه شك في خالقه^٣.

وقال هارون العباسى لبهلو: نأمر لك بربق، ويأتي إليك حتى تموت؟ قال: نحن عبدان الله أيدرك وينسانى^٤؟

ولا ينبغي للإنسان العابد أن يتكل على عبادته للنجاة من عذاب الله ونيل رضوانه، لأن الثواب وترتب الأجر تفضل وليس استحقاقاً، لأنّ العبد وما يملك لسيده، وحيث إنّ الإنسان لا يستطيع أن يتوجه إلى الطاعات لولا التوفيق الإلهي والتسديد الرباني، فالله أولى بحسناتنا منا، ونحن أولى بسيئاتنا.

١ - انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١١: ٤٨٤ / ١٢٨.

٢ - حكاہ في: تفسیر القرطبی ٩: ٦.

٣ - انظر ترجمته مفصلة في: معجم رجال الحديث ١٩: ٢٥٢ / ١٢٥٠٩.

٤ - حکى ذلك ابن عساکر في: تاريخ مدينة دمشق ٥: ٤٠٨ / رقم الترجمة ١٨٢.

ورد في الأثر المعتبر عن الإمام الصادق عليه قوله: إن عابداً كان في الأعصار السابقة يعبد الله في كهف جبل صائمًا نهاره، قائماً ليله، وكان قد أنبت الله على باب ذلك الكهف شجرة رمان، فكان يأكل منها كل ليلة رمانة واحدة، ويدخل منها لشأنه، فبقي يعبد الله خمسمائة عام تقريباً، فإذا كان يوم القيمة أمر الله بإحضار ذلك العابد، فيقول له ملائكة الرحمة: إني قد عفوت عنه فأدخلوه الجنة بفضلي. فيقول العابد: يا رب، إني قد عبديك كثيراً، وأريد أن أدخل الجنة بعبادتي، فيقول الله سبحانه: أراد من العدل يا ملائكتي، زروا عبادته مع ما أنعمت عليه في الدنيا، فتوضع أعماله كلها في كفة من الميزان، وتوضع رمانة واحدة من ذلك الرمان فترجح الرمانة الواحدة على كل ذلك العمل، فيبقى العابد متحيراً، فيقول: يا رب، ألمس منك الفضل فيدخله الجنة.

ونحن نقول: اللهم لا تعاملنا بعذلك، بل بفضلك وكرمك، فإنك إن تعاملنا بعذلك نكن من الخاسرين.

ثم يتوجه الإمام عليه إلى ربه مستغيثاً به، يسأله أن يقيل عثراته، ويصفح عن جرمه وسيئاته، ويتجاوز عن سقطاته، لأن كل ذلك بيده لا يشاركه فيه أحد، ويفرغ إلى الله طالباً الإغاثة في فقر الدنيا، وفقر القبر، ويوم وقوفه بين يديه للحساب، ويأسأه كشف ما نزل به من هم وغم وحزن، إنها مسألة الفرار من الله إليه، والفار من الذنب للاستظلال في حدائق العفو والرحمة.

إن الله مصدر كل خير وعطاء، لأنّه رمز الغنى المطلق، والإنسان منزل من منازل الفقر إلى الله سبحانه، وإنّ الغنى بطبيعته يسعى نزولاً لمقابلة موطن الفقر، والفقربطبعه يسعى صاعداً لطلب الغنى، فإذا كان الخير نازلاً، والفقر صاعداً، فما أسرع الملتقى لو كثنا نفقه الأمور، ونتدبّر حقائق القدر المقدور !

ثُمَّ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب، أنت أهل التقوى وأهل المغفرة. إشارة إلى كونه سبحانه
أهلاً وجديراً وحررياً لأن يُتقى، حيث له المالكية والولاية، وببيده التدبير، وتحت
سلطانه أسباب الشقاء، وهو سبحانه أهل لأن يُتقى، لكنه وصف نفسه بالغفور
الرحيم لمن تنكب الصراط، ثم عاد إلى صوابه، ولمن فارقه عقل ثم عاد إليه
بتوفيق من الله.

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ»^١،
قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال الله عز وجل: أنا أهل أن أُتقى ولا يشرك بي عبدي شيئاً، وأنا أهل إن
لم يشرك بي عبدي شيئاً أن أدخله الجنة^٢.

ونحن نسأل الله سبحانه كما سأله الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: اللهم إنا نسألك العفو
والعافية، والأمن والأمان من كل أمر مخوف، ومن تبعات الذنوب، ونسألك جنة
واقية من المظالم والآثام، وأن تظلنا في بر عفوك ورحمتك، وأن تستر على كل
قبیح كان مينا، وأن تغمرنا بجودك وكرمك وإحسانك.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين
المعصومين.

١ - المذشر: ٥٦.

٢ - التوحيد، للصدوق: ١٩ ح ٦، مشكاة الأنوار: ٩٤

المبحث الثاني والثمانون: في الصدق

قال عليه السلام: إلهي أنت الذي تفيض سبباً على من لا يسألك وعلى الجاجدين بربوبيتك، فكيف سأليك وآتنيك وآتنيك أنت الخلق لك، والأمر إليك، تبارك وتعالىت يا رب العالمين، سأليك عندك ببابك أقامته الخاصة بين يديك يفرغ باب إحسانك بدعائي، فلا تغرس بوجهك الكريم عني، واقبل مني ما أقول، فقد دعوت بهذا الدعاء وأنا أرجو أن لا ترددني، معرفة مني برأفتك ورحمتك، إلهي أنت الذي لا يخفيك سائل، ولا ينفعك نائل، أنت كما تقول وفوق ما نقول، اللهم إني أسألك صبراً جميلاً، ورجاً قريباً، وقولاً صادقاً، وأجرأ عظيماً.

مدخل لغوي

السبب: النهر الجاري، وقد استعمل اللفظ مجازاً للعطاء والكرم والمال.

الجاجد: النافي والمنكر للحق الثابت.

الخاصة: الفقروسوء الحال.

حَفَّ الرَّجُلُ: جُهْدٌ وَقَلَّ مَالُهُ، وَضَاقَ مَعَاشُهُ.

نائل: من النوال، وهو العطية.

يتوجه الإمام عليه السلام إلى ربِّه ليشمله بكرمه وجوده محتاجاً، بل متوكلاً إليه

بأسباب خمسة:

١. إن الله يفيض رحمته وكرمه وجوده على جميع مخلوقاته ومنهم الإنسان، وتعتمد رحمته المؤمن والكافر، والبار والفاجر، وهذه هي الرحمة العامة، ولا شك أنَّه عَلَيْهِ يُسْتَحْقَ - من باب لطفه سبحانه - ذلك أسوة بغيره.
٢. إن المؤمن الموحد الموقن بأنَّ الخلق لله وحده، وأنَّ بيده أزمة التدبير هو أحق بالرحمة الخاصة من الكافر والفاجر.
٣. إن صاحب الفقر وال الحاجة ومن يصف نفسه بالضعف وسوء الحال أحق بالرحمة من غيره، لأنَّ الفقر من منازل الرحمة الإلهية ومهابطها.
٤. إن الذي يسأل ويقرع باب الرحمة بدعائه أحق ممَّن لا يسأل. وقد تحدَّثنا عن هذا في مبحث الدعاء.
٥. إن سؤال العارف بالله، صاحب الوعي وال بصيرة يستحق الإجابة في دعائه أكثر من الجاهل والغافل، وكم الفرق بين من يدعوه وبين من يقرأ الدعاء ! وقد أشبعنا هذه المواضيع في المبحثين: السابع عشر، والثالث والعشرين، فليراجعا.

ثم يعود ثانية ليثنى على ربِّه ويُمجِّده ويُحمد آلاءه، فهو سبحانه الذي لا يحفيه سائل، ولا ينقصه نائل، إذ هو صاحب الجود المطلق، والكرم الواسع، وببيده الخزائن الإلهية التي لا تنفد، ويعرف بعجزه عن وصف ربِّه، إذ لا يمكن للذهن البشري، وللسان الإنساني، وكلامهما محدود، أن يصف الخالق المطلق، فالله كما وصف نفسه، لكنه فوق ما نصفه.

وبعد هذا يتوجه إلى ربِّه سائلاً إيماناً أن يهبه بعض مصاديق الخير:

١. يسأله أن يمنَّ عليه بالصبر الجميل، والصبر الجميل ما كان من غير

شكوى. وقد تحدثنا عن الصبر في المبحث الثامن والسبعين.

٢. وأن يرزقه الفرج القريب، والفرج كشف الغم، وإزالة الهم، والخلاص من الشدة، وما أكثر هموم الإنسان، وما أعظم غمّه في هذه الدنيا القائمة على الابتلاء والاختبار والتمحيص !

٣. وأن يهبه ملكة الصدق في القول، فإن الصدق معيار الإيمان، وميزان الإخلاص، فمن كان باطنه كظاهره فهو مؤمن، ومن كان باطنه خيراً من ظاهره فهو قدّيس، ومن كان ظاهره خيراً من باطنه فذلك المرائي والمنافق، إن صدر ذلك منه عن قصد.

قال النبي ﷺ: اللهم اجعل سريري خيراً من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة^١.

وورد في الأثر المعتبر: إذا ساوت سريرة المؤمن علانيته، باهى الله به الملائكة، يقول: هذا عبدي حقاً^٢.

٤. ثم يسأله سبحانه والأجر العظيم تفضلاً منه على أعماله التي جاء بها بعنوان القربة لوجهه الكريم، وترتّب الأجر والثواب من أسمى الغايات التي يطلبها المؤمن، وقد لا يكون ذلك بكثرة العمل، بل بمقدار الإخلاص، وعمق التقوى، فإن الله إذا أحب عبداً رضي عنه بيسير من العمل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^٣.

وقال سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

١- المصنف، لابن أبي شيبة الكوفي ٧: ١٣٤، كتاب الدعاء، للطبراني: ٤٢٣ ح ١٤٣١.

٢- جامع السعادات ٢: ٢٥٩، وروى قسماً منه الطبرسي في: مشكاة الأنوار: ٥٥٤.

٣- التوبة: ١١٩.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبْدَأَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^١.

الصدق: ضد الكذب، وقيل: الصدق هو الحكم المطابق للواقع.

وقالوا: الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والاعتقاد^٢.

إن الصدق من مصاديق الحُسْن العُقْلِي قبل الشرعي، وهو من الفضائل الروحية، والكمالات الأخلاقية، وللصدق أنواع كثيرة نذكر منها:

١. الصدق في القول: فإذا أخبر الإنسان عن شيء، كان عليه الاجتهاد في الإخبار بما يطابق الواقع والاعتقاد، ولكن أين نحن من هذا الشرط؟ ونعم ما قال العارف بالله السيد بحر العلوم في أرجوزته الغراء:

تلهج في إياك نستعين^٣ وأنت غير الله تستعين

بل تحولت صفة الكذب والمبالغة والمغالطات، وعملية خلط الأوراق في كلامنا إلى حالة لا تُحمد عقباها، حتى صار سؤالنا تعنتاً، وجدا لنا عقيماً، وثقافتنا من أجل الظهور والسمعة، نعوذ بالله من ذلك.

٢. الصدق في النية والعزم على الفعل والوفاء: فعل المؤمن أن يفكرو يتدبّر ويترىث قبل إعطاء العهود والمواثيق، أو إجراء النذور والأيمان، فإن لم يجد نفسه قادراً على الوفاء والتنفيذ فلا ينبغي أن ينبعش بينت شفة.

٣. الصدق في العمل: وذلك بأن تكون سيرته مطابقة لظاهره، قوله مطابقاً لاعتقاده وكلامه.

قال علي عليه السلام: إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنها لكم عن

١ - المائدة: ١١٩.

٢ - الفروق اللغوية، للعسكري: ٤٤٩ / ١٨٠١، شرح أصول الكافي ١: ٢٥١.

٣ - حكاہ عنه فی: مستدرک سفینۃ البحار ٧: ٦٥.

معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها^١.

وروي أن عبداً مملوكاً قد بلغ به الضعف حالة العجز عن خدمة مولاه، فذهب إلى أحد خطباء المنبر الإسلامي وطلب منه أن يشفع له عند سيده ليعتقه من الرق. فقال الخطيب: سأفعل. وبقي الخطيب ستة أشهر ولم يتحدث في هذا الموضوع حديثاً عاماً ولا خاصاً، وبعدها تكلم حديثاً عاماً ثم خاصاً مع المولى، فوافق على عتق العبد، فجاء العبد شاكراً للخطيب سعيه، وسأله عن سبب التأخير لستة أشهر، فقال: لقد جمعت مالاً وشتريت عبداً، وجاهدت نفسي على عتقه، ثم تكلمت في موضوعك، لأنني لا أقول شيئاً إلا وألزم نفسي به قبل ذلك.

ونعم ما قيل في الصدق: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحيي من سرره لو كشف^٢.

أحاديث في الصدق :

روي عن الإمامين الصادق والباقي عليهم السلام: إن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقاً^٣.

وقال الصادق عليه السلام: كونوا دعاةً للناس بغير أسلوبكم، ليروا منكم الاجتهد والصدق والورع^٤.

وسئل النبي عليه السلام: يكون المؤمن جباناً؟ قال عليه السلام: نعم. ويكون بخيلاً؟

١ - شرح نهج البلاغة ج ٢: ٩٠ ح ١٧٥، عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ١٦٩.

٢ - حكاية السيد علي خان في: رياض السالكين ٧: ٤٣٧ عن: أبي سعيد القرشي.

٣ - الكافي ٢: ١٠٥ ح ٨، بحار الأنوار ٦٨: ٦ ح ٨

٤ - الأصول ستة عشر: ١٥١، مشكاة الأنوار: ٩٦.

قال: نعم. ويكون كذلك؟ قال: لا^١.

وقال الصادق عليه السلام: إن الله لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر^٢.

وقال عليه السلام: عدّ المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولم يقته تعريض، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ مَنَعُوكُم مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتَأً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^٣.

وورد في مدح الصدق على لسان الروايات:

الصدق أمانة اللسان^٤، وهو فضيلة، وأخو العدل، ولسان الحق، ولباس الدين، ورأس الدين، وأنه نجاة وكرامة^٥.

وللصدق آثار وضعية، فقد ورد في الأثر المعتبر: من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مدد له في عمره^٦.
وروي أن الله أوحى إلى عبده داود عليه السلام: يا داود، من صدّقني في سريرته، صدّقته عند المخلوقين في علانيته.

وقيل: إذا طلبت الله بالصدق، أعطاك مرأة تبصر فيها كل شيء من عجائب

١ - المحاسن ١: ١١٨ ح ١٢٦، روضة الوعاظين: ٤٦٨.

٢ - الكافي ٢: ١٠٤ ح ١.

٣ - الكافي ٢: ٣٦٣ ح ١، والآية في سورة الصافات: ٢ و ٣.

٤ - عيون الحكم والمواعظ، للبيشني: ٢٧.

٥ - تجد نحو هذه المعانى في: ميزان الحكمة ٢: ١٥٧٣ الباب ٢١٩٠.

٦ - الكافي ٢: ١٠٥ ح ١١، الخصال: ٨٨ ح ٢١.

الدنيا والآخرة^١.

نواذر الصدق :

قال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^٢.
والذي عليه روایات أهل البيت علیهم السلام أن إسماعيل عليه السلام الذي ذكر في هذه الآية، وقد مدحه الله بصدق الوعد، وشهد له بالرسالة والنبأة، لم يكن إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام، بل هو إسماعيل بن حزقيل^٣.

وروي عن محمد بن أبي عمير، عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إنما سمي إسماعيل عليه السلام صادق الوعد لأنّه وعد رجلاً في مكان فانتظره سنة، فسمّاه الله صادق الوعد، ثم إنّ الرجل أتاه بعد ذلك، فقال إسماعيل: ما زلت منتظرًا لك^٤.

وهناك رواية أخرى عن الإمام الرضا عليه السلام بنفس المضمون^٥.

وفيها: قال عبد الله بن سنان: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إنّ رسول الله عليه السلام وعد رجلاً إلى صخرة، فقال: أنا لك هنا حتى تأتي، قال: فاشتدت الشمس عليه، فقال له أصحابه: يا رسول الله، لوأنك تحولت إلى

١- التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: ٣٣، فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي: ٤٥٢ / ٥٥٣٦.

٢- مريم: ٥٤.

٣- انظر: تفسير السمعاني ٣: ٢٩٨.

٤- الكافي ٢: ١٠٥ ح ٧، بحار الأنوار ٦٨: ٥ ح ٧.

٥- وسائل الشيعة ٨: ٥١٥ باب استحباب الصدق في الوعد

الظلّ، قال ﷺ: قد وعدتُه إلى هنا، وإن لم يجيء كان منه المحشر^١.
وليس هذا غريباً من سلوكية الأنبياء، وأدابهم وسيرتهم، فإنهم الأسوة الحسنة
لكلّ الأنام وحجة الله الملك العلام، وذلك مما يتنااسب مع قداسة نفوسهم،
وصدق مواقفهم مع الله سبحانه.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين
المعصومين.

١- مشكاة الأنوار: ٣٧٠، بحار الأنوار ١٦: ٢٣٩.

المبحث الثالث والثمانون: في المروءة

قال عليه السلام: أَسْأَلُكَ يَا رَبِّي مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ مِنْ خَيْرٍ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ عِبَادُكَ الصَّالِحُونَ، يَا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ، وَاجْوَدَ مَنْ أَعْطَى، أَعْطِنِي سُؤْلِي فِي نَفْسِي وَاهْلِي وَوَالِدِي وَوَلَدِي وَاهْلِ حُزَانَتِي وَاهْوَانِي فِيكَ، وَارْغِدْ عَيْشِي، وَاظْهِرْ مُرْوَّتِي، وَاضْلِعْ جَمِيعَ أَخْوَالِي، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ أَطْلَتْ عُمْرَهُ، وَحَسَنَتْ عَمَلَهُ، وَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ، وَرَضِيتَ عَنْهُ وَأَحْيَيْتَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي أَدْوَمِ السُّرُورِ، وَأَسْبَغْ الْكَرَامَةِ، وَاتَّمْ الْعَيْشِ، إِنَّكَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ وَلَا تَفْعَلُ مَا يَشَاءُ غَيْرُكَ.

مدخل لغوي :

أهل حزانتي: عيالي الذين أتحرّن وأهتمّ بهم.
وأرغد عيشي: اجعله في سعة ورفاهية. وأسبغ الكرامة: أوسعها وأتمّها.
وهنا يتصرّر الإمام عليه السلام نفسه أمام بحر القدرة والكرم الذي لا ساحل له، وإن الله سبحانه هو الذي دعا إلى ضيافته، وفتح له كل الأبواب على مصاريعها، وأمره بالدعاء والسؤال، وضمن له الإجابة.

إن الوقوف على باب الله لقرعه بالدعاء يقتضي الوعي والبصيرة في عدّة أمور:

١. إن فقر الإنسان لا حدود له وهو صفة ملزمة لوجوده وبقائه.

٢. إن الغنى والكرم على وجه الحقيقة وبالأصلالة منحصر بالله وحده ولا حدود

له مطلقاً.

٣- إن الوقوف على باب الكريم والغنى المطلق إذا دعانا إلى مأدبه فذلك

يستدعي مثا طلب نفائس الأمور، وجليل النعم، وجميع ما يخطر بالبال وما لا

يتصوره العقل البشري.

٤. إن الأمور الصغيرة والكبيرة عند الله سواء، ومن العيب والنقص أن يطلب

الإنسان توافقه الأمور من ربّه الغنيّ الكريم.

٥. إن ملك الله وخزائنه لا تنفذ ولا تنقص بالإعطاء، فلا ينبغي أن نستكثر عليه

شيئاً سبحانه، ولا مانع أن نسأله الرحمة والمغفرة، والقوة والكمال، وعلو المنزلة

في الدنيا والآخرة. وما المانع أن نسائله دخول الجنة بغير حساب، بل أن يحشرنا

في درجة الأنبياء والمرسلين !

إن الإمام عَلَيْهِ السَّلَام يعلمـنا أن نـسأل ربـنا من كـل خـير مـعلوم، وـمن كـل فـضل مجـهـول

لا يـعلـمـه إـلا هـو، وـنـسـأـلـه خـيرـ ما سـأـلـه عـبـادـه الصـالـحـون العـارـفـون، وـيـعـلـمـنا أـن نـسـأـلـ

طـلـبـ الخـيرـ لـأـنـفـسـنـا وـأـلـدـنـا، وـأـرـحـامـنـا، وـإـخـوانـنـا فـي اللهـ.

وـأـنـ نـطـلـبـ حـظـنـا مـنـ العـيشـ الرـغـيدـ، وـإـظـهـارـ المـرـوـءـ وـالـفـتـوـةـ فـي سـلـوكـنـا،

وـإـصـلاحـ أـمـورـ دـيـنـنـا وـدـنـيـانـا، وـأـنـ يـمـنـ عـلـيـنـا بـطـولـ العـمـرـ لـنـزـدـادـ مـنـ الصـالـحـاتـ،

وـأـنـ يـرـزـقـنـا الـحـيـاةـ الطـيـبـةـ القـائـمـةـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ الـحـقـ لـاتـبـاعـهـ، وـتـشـخـصـ الـبـاطـلـ

وـمـوـارـدـ الشـبـهـاتـ لـاجـتـنـابـهـ وـأـنـ نـرـجـوـ الـحـيـاةـ الـفـضـلـىـ.

وـهـيـ الـحـيـاةـ التـيـ تـدـيرـهـ يـدـ الـرـحـمـةـ وـالـقـدـرـةـ الـمـطـلـقـةـ، الـحـيـاةـ التـيـ تـؤـديـ إـلـىـ

نيل مرضاة الله، والاستقرار في ظل رحمته، وهي الحياة النقية من شوب الجاهليات، وكدورات العصبيات، وقدارة الأنانيات وقبائح الأعمال. وأن يفيض علينا أسباب السرور والكرامة من أوسع الأبواب، إله على كل شيء قادر وبالإجابة جدير.

يقول العلامة ابن منظور في موسوعة لسان العرب مانصه: المروءة: كمال الرجولية، والمروءة: الإنسانية. وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة. وسئل آخر عن المروءة، فقال: المروءة أن تفعل في السر أمراً وانت لا تستحيي أن تفعله جهراً^١.

إذن المروءة أصل جامع مانع شامل لمكارم الأخلاق، بل هي الدرجة الأرقى من صفات الجود والكرم، والسخاء، والنخوة والإيثار: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^٢.

وقال بعض أزواج النبي ﷺ: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكننا نؤثر على أنفسنا^٣، وقد كان النبي ﷺ وأل بيته ﷺ الأنموذج الأسمى للإيثار الإنسانية جماعة.

ومن آثار ملائكة المروءة مكارم الأخلاق، فقد ورد في الأثر المعتبر أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَّا خرج على أصحابه وهو يتذاكرون المروءة فقال: أين أنتم من كتاب الله؟ قالوا: في أي موضع؟ فقال عَلَيْهِ الْكَلَّا: في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

١ - لسان العرب ١: ١٥٥.

٢ - الحشر: ٩.

٣ - مجموعة وراثم: ١٤١، جامع السعادات ٢: ٩٢.

وَإِيَّاهُ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ^١.

فالعدل: الإنصاف. والإحسان: التفضل، وهذه الآية الشريفة تسمى آية مكارم الألْهَاق.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: يا بني، ما المروءة؟ فقال: العفاف وإصلاح المال^٢.

وورد عن علي عليه السلام قوله: المروءة: العفاف في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على النائبة^٣.

وقال الإمام الحسن عليه السلام: المروءة: حفظ الرجل دينه، وقيامه في إصلاح ضياعته، وحسن منازعته، وإفشاء السلام، ولين الكلام، والكف عن الأذى والتحبب إلى الناس^٤.

ونعم ما قال الجاحظ: ثلاث كلمات لعلي عليه السلام فَقَأَ عين البلاغة: استغن عن شئت فأنت نظيره، واحتج إلى من شئت فأنت أسيره، وأحسن إلى من شئت فأنت أميره^٥.

قال صاحب الوسائل: تذاكر الناس عند الصادق عليه السلام أمر الفتوة فقال عليه السلام: تظنون أن الفتوة بالفسق والفحور، إنما الفتوة والمروءة طعام موضوع، ونائل مبذول بشيء معروف، وأذى مكفوف، وأما تلك فشطارة وفسق.

١ - النحل: ٩٠

٢ - معاني الأخبار: ٤ ح ٢٥٨، المعجم الكبير، للطبراني: ٢: ٦٨ ح ٢٦٨٩

٣ - معاني الأخبار: ٥ ح ٢٥٨

٤ - معاني الأخبار: ٣ ح ٢٥٧، مشكاة الأنوار: ٣٦٧

٥ - كنز الفواد، للكراجي: ٢٨٩، فيض القدر شرح الجامع الصغير: ١: ١٢٤

ثُمَّ قال عَلَيْهِ الْكَفَلَةُ: ما المروءة؟ فقال الناس: لا نعلم، قال عَلَيْهِ الْكَفَلَةُ: المروءة - والله - أن يضع الرجل خِوانه بفناء داره، والمروءة مروءتان: مروءة في الحضر، ومروءة في السفر.

فأَمَا الْتِي فِي الْحَضْرِ فَتَلَوْةُ الْقُرْآنِ، وَلِزُومِ الْمَسَاجِدِ، وَالْمَشِي مَعَ الْإِخْرَانِ فِي الْحَوَائِجِ، وَالنِّعْمَةُ تُرِى عَلَى الْخَادِمِ، إِنَّهَا تَسْرُ الصَّدِيقَ، وَتَكْبِتُ الْعَدُوَّ.

وَأَمَّا الْتِي فِي السَّفَرِ فَكَثْرَةُ الرِّزَادِ وَطَيْبِهِ وَبَذْلِهِ لِمَنْ كَانَ مَعَكَ، وَكَتْمَانُكَ عَلَى الْقَوْمِ أَمْرَهُمْ بَعْدَ مَفَارِقَتِكَ إِيَّاهُمْ، وَكَثْرَةُ الْمَزَاحِ فِي غَيْرِ مَا يُسْخَطُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ قال عَلَيْهِ الْكَفَلَةُ: وَالَّذِي بَعَثَ جَدِّي عَلَيْهِ اللَّهُ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِي رَزَقَ الْعَبْدَ عَلَى قَدْرِ الْمَرَوْءَةِ، وَإِنَّ الْمَعْوَنَةَ تَنْزَلُ عَلَى قَدْرِ الْمَؤْوَنَةِ، وَإِنَّ الصَّابِرِيْنَ يَنْزَلُ عَلَى قَدْرِ شَدَّةِ الْبَلَاءِ^١.

وقال الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَفَلَةُ لِلْمَعْلَى بْنِ خَنِيسِ: عَلَيْكَ بِالسَّخَاءِ وَحْسَنِ الْخُلُقِ، فَإِنَّهُمَا يَزِينُانِ الرَّجُلَ كَمَا تَزَينُ الْوَاسِطَةَ الْقَلَادَةَ^٢.

ونعم ما قيل في العبودية لله سبحانه وآثارها: إن العبد جارحة من جوارح الله سبحانه، ولا يمكن أن نتصور أن الجارحة تعصي صاحبها.

وذكر الجارحة جاء على نحو المجاز لا الحقيقة، بل ورد في الآثار أن المروءة تقتضي الرفق بالحيوان حيث ورد عن النبي عَلَيْهِ الْكَفَلَةُ قوله: من قتل عصفوراً عيناً جاء يوم القيمة وله صراغ حول العرش يقول: رب، سُلْ هَذَا فِيمَ قُتْلَنِي مِنْ غَيْرِ مُنْفَعَةٍ^٣.

١ - من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٩٤ ح ٢٤٩٨.

٢ - الأمازي، للطوسي: ٣٠١ ح ٤٣.

٣ - مسنده الشهاب، لابن سلامة ١: ٣١٢ ح ٥٢٤، وجاء في كتاب: فيض القدير شرح الجامع الصغير عن رواية للقضاعي ٦: ٢٥٠ ح ٨٩١٠.

وورد في الأثر المعتبر: في علامة المؤمن أنه الذي لا يؤذى الذر^١، والذر هو صغار النمل^٢.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون كامل العقل، ولن يكون كامل العقل حتى يكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، يستقل كثير الخير من نفسه، ويستكثرون قليل الخير من غيره، ويستكثرون قليل الشر من نفسه، ويستقل كثير الشر من غيره.

ولا يتبرّم بطلب الحوائج قلبه، ولا يسام من طلب العلم عمرة، الذل أحب إليه من العز، والفقر أحب إليه من الغنى، حسبه من الدنيا القوت، والعاسرة: لا يلقى أحداً إلا قال: هو خير مني وأتقى، إنما الناس رجلان: رجل خير منه وأتقى، وآخر شرّ منه وأدنى، فإذا لقي الذي هو خير منه، تواضع له ليلحق به، وإذا لقي من هو شرّ منه وأدنى قال: لعل شره هذا ظاهر، وخierre باطن، فإذا فعل ذلك فقد علا وساد أهل زمانه^٣.

والذل المستحب هنا ما أشارت إليه الآية الشريفة في وصف المؤمنين: ﴿أَذْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٤.

كان الداعي الصغير أميراً على طبرستان^٥، وكان يوزع ما بقي في خزانته عند

١ - تفسير السمعاني ١: ٣٨٩، تفسير النسفي ٤: ٣٢٤.

٢ - كتاب العين ٨: ١٧٥، معجم مقاييس اللغة ٢: ٣٤٣.

٣ - مجموعة وراثم ٢: ١٨٣.

٤ - المائدۃ: ٥٤.

٥ - هو الحسن بن القاسم بن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد ابن الحسن عليه السلام، ورد الري مع كياكى ماها، قتل بأمل سنة ٣١٦ هجرية من شهر رمضان كما في كتاب سر السلسلة العلوية: ٣٣.

رأس كل سنة، وكانت تقدم له قوائم بأسماء العلوين أولاً، ثم القرشيين، ثم بقية الناس، وفي اليوم الذي وقف يوزع على العلوين عطاءهم، وقف له رجل فقال: أعطني عطائي مع العلوين، فقال له الداعي الصغير: هل أنت علوى؟ إن اسمك لم يرد في قوائم العلوين، فقال الرجل: أنا من أبناء عمومتهم.

قال: من أنت؟ فسكت الرجل، فقال له: لعلك منبني أمينة؟

قال: نعم. قال: من أيهم أنت؟ فسكت الرجل، فقال له: لعلك منبني حرب؟ قال: نعم. قال: ابن من بنى حرب؟ فسكت الرجل، فقال: لعلك من أبناء معاوية؟ قال: نعم، قال من أيهم أنت؟ فسكت الرجل. قال: من أبناء يزيد؟ قال: نعم.

فاغتاظ العلويون، فقال الداعي الصغير للعلويين: دعوه، وسأنقل لكم قضية لهافائدة، فأعطاه كما يعطي للعلويين، وأرسل معه رجلين حماية له حتى خرج إلى المكان الذي يريد.

قال الداعي الصغير: كنت في مكة للحج، وكان المنصور العباسى في البيت فجاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ عندي درة كبيرة ثمينة لا تليق إلا بك، ولا يعرف ثمنها غيرك.

قال: هاتها، فأخرج الرجل تلك الدرة، وأخذ المنصور يتصرفها، وفكّر ملياناً لأنّه سبق أن رأها في خزانة هشام بن عبد الملك بن مروان، فلما أحس الرجل بأنّ المنصور قد عرف الدرة، هرب واختفى في زاوية من زوايا المسجد، وكان خائفاً عليه أمارات القلق والهلع، فرأه رجل من الحجاج وسألته: لم أنت خائف في مكان هو أمان حتى للمجرمين؟ قال: هل في صدرك موضع للسر؟ قال: نعم. فقضى عليه ما حدث بينه وبين المنصور، وقال له: إنّ المسجد مطوق بالشرطة

للقبض عليه، فقال الرجل: لا عليك، سأخلصك إن شاء الله تعالى، فأخذه وجعل عمامته في عنقه، وأقبل يجره إلى باب المسجد، وقال للشرطى: هذا جمال أخذ نقودي ليوصلني إلى بلدى، وعندما وجد ثمناً أعلى تركنى، وإتى أريد أن أخذه إلى القاضى، فأرسل معه شرطين، وساروا في الطريق حتى ابتعدوا عن المسجد، فقال له: هل تعيد نقودي أم أذهب بك إلى القاضى؟

قال الرجل: بل أعيد لك نقودك، فالتفت الرجل إلى الشرطين وقال: إذهبا فإن الرجل سيدفع لي ما أعطيته.

ثم قال للرجل: هل عرفتني؟ فقال له: لا، قال: أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين الذى قتله أبوك هشام بن عبد الملك بن مروان. فقال الرجل: يا ويلاه، هلكت والله. فقال الرجل: لا، وطلب أن يسامحه على ما فعل به، وأكرمه وانصرف.

قال الداعي الصغير: هذه أخلاقنا، وهذه أخلاق آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ونعم ما قال أحدهم :

| | |
|---|----------------------------|
| ولما حكمتم سال بالدم أبلغ | ملكتنا فكان العدل منا سجية |
| وكل إماء بالذى فيه ينضح ^١ | وحسبكم هذا التفاوت بيننا |
| والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين | |
| المعصومين. | |

١ - ذكره الصدّيقي في: الواقفي بالوقتات ١٥: ١٠٤.

المبحث الرابع والثمانون: في الرياء

قال عليهما السلام: اللهم خصني منك بخاصية ذكرك، ولا تجعل شيئاً مما أتقررت به في آناء الليل وأطراف النهار رباء ولا سمعة ولا أشرا ولا بظرا، واجعلني لك من الخاشعين، اللهم اعطني السعة في الرزق، والأمن في الوطن، وقرة العين في الأهل والمال والولد، والمقام في نعمك عندي، والصحة في الجسم، والقوه في البدن، والسلامة في الدين، واستعملني بطاعتك وطاعة رسولك محمد ﷺ أبداً ما استغمستني.

مدخل لغوي :

آناء الليل: ساعاته، والواحد: إني وإنى، والسمعة: طلب الصيت والذكر، وحب الظهور.

البظر: الطغيان بالنعمة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَظْفَى * أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾^١.

الأشر: شدة البظر.

المقام بفتح الميم: المقعد والمنزلة. والمَقام: اسم مكان القيام، ويكون المقام مصدراً.

المُقام بضم الميم: محل الإقامة، والمستقر الدائم.

استعمره: أمره بعمارة الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَغْرِكُمْ﴾^١.

الخشووع: الضراعة، وقد يكون في القلب أو الجوارح.

روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: لو خشع قلبه

لخشت جوارحه^٢.

يتوجه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه سائلاً ربه الذي بيده مقاليد السماوات والأرض أن يجعله من الذاكرين العارفين، وأن يجعل عمله الذي يتقرب به إلى الله آناء الليل وأطراف النهار خالياً ونقيناً من الرياء والسمعة، والطغيان والبطر، وأن يهبه رقة القلب والضراعة.

ثم يسترسل في طلب النعم والأفضال الإلهية فيسأله سبحانه السعة في الرزق والأمن في الوطن، وراحة النفس في الأهل والمال والولد، والمنزلة الاجتماعية، ويسأله الصحة والمعافاة والقوة في البدن، والاستقامة في أمور دينه، وأن يجعل تلك النعم الرصيد والسلاح لطلب مرضاه الله، وسلوك سبيل طاعته وطاعة رسوله ﷺ ما دام فيه عين تطرف، وعرق ينبض.

بحث في النية

قلنا في مباحث سابقة: إن النية روح العمل، وقيام النية قصد الفعل بعنوان الامتثال والقربة، هذا في العبادات، أما في التوصليات فيكتفي قصد ذات الفعل.

١ - هود: ٦١.

٢ - مسند زيد بن علي: ١٢٠.

والآن نقف على بحر من بحار الثروة المعرفية والفقهية لنستفيد قبساً مما كتبه سيد الفقهاء وإمام المجتهددين، العارف بالله السيد عبد الأعلى السبزواري ^ت في موسوعته الكاملة الموسومة بمهدب الأحكام:

يقول سماحته: الأفعال الصادرة عن المكلف تارة تكون بلا داع عقلائي وشرعي ويُعتبر عنها بالعبد، وأخرى تكون لداع عقلائي غير منهي عن شرعاً وهذه الأفعال التي يقوم بها النظام وتحصل بها مقاصد الأنام، وثالثة تكون لأجل التقرب بها إلى المعبد ويُعتبر عنها بالعباديات، وهي أفعال خاصة كالصلة والزكاة والحجّ ونحوها، ويعتبر في ترتيب الأثر عليها قصد القربة بفطرة كل عابد بالنسبة إلى معبده^١ انتهى.

إذن خلوص النية ومجانبة الرياء مطلوب في العبادات، وهذا الإخلاص يستوجب القرب، والآن نجد أنفسنا مضطرين للحديث عن ثلات نقاط:

١. قرب العبد من الله.
٢. قرب الله من العبد.
٣. القرب المعنوي والروحاني المتربّ على القربين.

ويقول سيدنا السبزواري أيضاً: إن التقرب إلى العظيم من كل جهة مطلوب فطري لكل عاقل، فتكون العبادة موجبة للقرب إليه تعالى، والمراد بقرب العبد إليه عزّوجلّ القرب إلى رحمته ومحباته غفرانه وثوابه، لا القرب المكانية لتنزّهه عزّوجلّ عن المكان، ولا يعقل ذلك بالنسبة إليه، وهو تعالى أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد، مطيناً كان أو عاصياً.

كما أن المراد بقرب الله تعالى من عبده نعمة وألطافه وبره وإحسانه، ويمكن أن يراد القرب المعنوي الروحاني، ويشهد له صحيح أبوان بن تغلب، عن أبي جعفر الباقر عليهما السلام قوله: قال الله عزوجل: ما تقرب إلي عبد من عبادي بشيء أحب مما افترضت عليه، وإنما ليتقرّب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها^١.

ولاريب في ظهوره في القرب المعنوي الذي يحصل به من العبد بعض أفعاله الربوبية^٢ انتهى.

ومما يؤيد صحة ما ذهب إليه^٣ قوله تعالى: «وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»^٤.

وورد في الأثر المعتبر: اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله^٥.

وورد كذلك: عبدي أطعني تكن مثلي، أقول للشيء كن فيكون، وتقول للشيء كن فيكون^٦.

إذن سينحصر حديثنا حول خلوص مطلق العبادات عن الرياء.

تعريف الرياء

يقول الإمام السيد الخميني^٧ في الأربعين حديثاً: أعلم أن الرياء هو عبارة

١ - الكافي: ٢: ٣٥٢ ح ٨

٢ - مهذب الأحكام: ٦: ١٢

٣ - الأنفال: ١٧

٤ - المحاسن: ١: ١٣١ ح ١

٥ - الجواهر الستة: ٣٦١

عن إظهار وإبراز شيء من الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة، أو العقائد الحقة الصحيحة للناس لأجل الحصول على منزلة في قلوبهم، والاشتهر بينهم بالصلاح والاستقامة والأمانة والتدين، بدون نية إلهية صحيحة^١.

ويقول الشيخ النراقي: الرياء هو طلب المنزلة في قلوب الناس بخصال الخير أو ما يدل عليها من الآثار^٢. قال تبارك وتعالى في ذم الرياء: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّيْنَ * الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ * الَّذِيْنَ هُمْ يُرَاوِونَ * وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ﴾^٣.

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^٤. وقال عز علاه: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾^٥.

ويتحدد سيدنا السبزواري^{متبرئ} عن نقطتين مهمتين:
الأولى: الرياء في العبادة حرام تكليفاً، بل من الكبائر، لإطلاق الشرك عليه، ولتوسيع النار به، وإن له جهة وضعية - مضافاً إلى الحرمة التكليفية - وهي كونه موجباً لبطلان العبادة.

الثانية: الشرك بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى إنما وجودي بأن يجعل له شريك له جل جلاله في مرتبة ذاته، وإنما فعلني بأن يجعل شريك له في أفعاله، وإنما عبادي بأن يجعل شريك له في عبوديته، وهو على قسمين: فتارة يأتي بالعبادة لأجل عبادة غير الله تعالى كما يعبد الله.

١ - الأربعون حديثاً: ٤٥.

٢ - جامع السعادات ٢: ٣٨٤.

٣ - الماعون: ٤ - ٧.

٤ - الكهف: ١١٠.

٥ - البقرة: ٢٦٤.

وآخرى: يأتي لإرادة الغير فقط من دون عبادته، ولا ريب في أن كلامهما شرك، بل الأول يوجب النجاسة، ولكن الرياء المبحوث عنه في الفقه من القسم الأخير لمن يعتقد بوحدانية الله ذاتاً وفعلاً وعبادةً.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: كل رياء شرك، إنما من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل الله كان ثوابه على الله^١. انتهى.

وهنا نقف عند مجموعة من النقاط واللحظات التي ذكرها آية الله السيد

السبزواري تبرئه:

١. إن ظاهر الأدلة هي حرمة الرياء نفسياً، كحرمة الغصب وكحرمة لبس الذهب والحرير على الرجال في الصلاة، فينتزع الفساد من الحرمة النفسية في العبادة.

٢. تسالم أهل الفن والصناعة على بطلان الأعمال العبادية بالرياء وعدم ترتيب الأثر عليها من الأجر والثواب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُؤمر برجال إلى النار فيقول لهم خازن النار: يا أشقياء، ما كان حالكم؟ قالوا: كنا نعمل لغير الله، فيقال لهم: خذوا ثوابكم ممن عملتم له^٢.

٣. إن الرياء من الأمور القصدية المتقومة بالقصد والاختيار، وهو تارة يكون يأثير العبادة لمجرد إرادة الناس من دون قصد القربة، وأخرى يأتي بالعمل بقصد القربة، لكن بداعي أن يجعل نفسه عند الناس في عداد الصالحين، أو لرفع الذم عن نفسه، أو لجلب خير الناس إلى نفسه، أو لمجرد كونه في مجتمع

١- مهذب الأحكام ٦: ١٣١.

٢- علل الشرائع ٢: ٤٦٦ ح ١٨.

من الناس، أو لمجرد الشهرة بالعبادة، أو لغير ذلك من الأغراض، والذي يكون حراماً ويوجب بطلان العبادة هو الأول دون البقية مع تحقق قصد القرابة فيها إذا كانت تلك الدواعي في طولها لا في عرضها بحيث تنافيها، ولكن لا ريب في أنها تنافي الإخلاص والخلوص وإن صحت العبادة بحسب القواعد الفقهية.

٤. الظاهر على لسان الروايات أن الرياء الذي يحبط الأعمال ويوجب الحرمان هو المختص بالعبدات، فقد ورد في صحيح زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليهما السلام قوله: لوأن عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله والدار الآخرة وأدخل فيه رضا أحد من الناس كان مشركاً^١.

وعن أبي عبد الله الصادق عليهما السلام قوله: من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله^٢.

٥. بناءاً على حرمة الرياء النفسية، فإن العبادات المندوبة تبطل ويكون العابد آثماً، وهذا من رأي سيدنا السبزواري عليهما السلام، أما بناءاً على الحرمة الغيرية في المندوبات فإنها تقع باطلة، لكن العابد لا يأثم.

٦. في العمل المركب من أجزاء، فإن العبادة تبطل إذا رأى العابد في أصل العبادة، أو رأى في جزء من أجزاء العمل المركب إذا كان بطلان الجزء يسري إلى إفساد العمل المركب كلياً، لأن القاعدة تقول: إن المركب ينتفي بانتفاء أحد أجزائه^٣.

١- المحاسن ١: ١٢٢ ح ١٣٥.

٢- الكافي ٢: ٢٩٣ ح ٣.

٣- جارية على لسان العلماء مثل الرضي في: شرح الكافي ٤: ٧٦، والسيد علي الموسوي في: تعليقه على معالم الأصول ٣: ١٩، والشيخ رضا الهمданى في: مصباح الفقيه ٢: ٢٢١.

٧. إذا حصل له سرور بعمله، وحالة فرح بعبادته، أو فرح بأن يراه الناس مصلّياً - مثلاً - فكل ذلك ليس من الرياء، لقول أبي عبد الله الصادق عليهما السلام: من سرت به حسنة وسأته خطيئة فهو مؤمن^١.

وعن أبي جعفر الباقر عليهما السلام، قوله: سُئلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ خِيَارِ الْعِبَادِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشِرُوا، وَإِذَا أَسَوَّا اسْتَغْفِرُوا، وَإِذَا أَعْطُوا شَكْرُوا، وَإِذَا ابْتَلُوا صَبَرُوا، وَإِذَا غَضِبُوا غَفَرُوا^٢.

٨. لا بأس بتحسين العبادة لترغيب الغير إليها، أو لغرض صحيح للأصل، وخبر عبيد بن زراة حيث قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليهما السلام: الرجل يدخل في الصلاة فيجود صلاته ويحسنها رجاء أن يستجر بعض من يراه إلى هواه؟ قال عليهما السلام: ليس هذا من الرياء^٣.

وعلى هذا وكانت الصلاة في البيت - مثلاً - على نحو، وفي الملايين آخر بداعي تعليم الناس وترغيبهم إلى الاهتمام بالصلاה، أو لغرض شرعى آخر لا بأس به، ولكن لا بد من الحذر عن خدائع الشيطان إذ المقام من مزال الأقدام^٤. انتهى.

ونستمتع سيدنا ناصر لإضافة بعض الملاحظات:

١. إن الرياء لا شك من أخطر أنواع النفاق ومصاديقه وأشدّها فتكاً بجسد الأمة الإسلامية، لأن المرائي يُظهر الإيمان ويُستبطن الكفر والشرك، فنراه يظهر

١ - تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: ٥٨ / ٣٥٧ - ٧٤٦٢.

٢ - الكافي ٢: ٣١ ح ٢٤٠، فقه الرضا عليهما السلام: ٣٥٤ ح ٩٥.

٣ - مستطرفات السرائر: ٦٣٢.

٤ - مهذب الأحكام: ٦ - ١٣٢ - ١٣٥.

العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة والمعارف الأصيلة، لكنَّ قلبه وسريرته مرتع للشيطان.

يقول سيدنا الإمام الخميني رض: ولكنَّ هذه الفجيعة الموبقة، وهذه السريرة المظللة، وهذه الملكة الخبيثة تؤدي بالإنسان في النهاية إلى أن تصبح دار قلبه مختصة بغير الله، وتؤدي ظلمة هذه الرذيلة بالإنسان تدريجياً إلى الخروج من هذه الدنيا بدون إيمان، وهذا الإيمان الخيالي الذي يمتلكه هو صورة بلا معنى، وجسد بلا روح، وقشر بلا لب، ولا يكون مقبولاً عند الله تعالى.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: قال الله عز وجل: أنا خير شريك، فمن أشرك
معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً. انتهى.

٢. إن التقية ليست من النفاق كما يصورها بعض السذج والمغرضين، إذ
التقية توجب صورة الولاية في الظاهرون دون حقيقتها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعُلْ ذَلِكَ فَلَئِسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءَ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ﴾^٢.

وقال علي عليه السلام: وأمرك الله أن تستعمل التقية في دينك، فإن الله يقول: وإياك
ثم إياك أن تتعرض للهلاك، وأن ترك التقية التي أمرتك بها، فإنك شaitan^٣
بدمرك ودم إخوانك، معرض لزوال نعمك ونعمهم، مذلهم في أيدي أعداء الله

١ - الأربعون حديثاً: ٤٦.

٢ - آل عمران: ٢٨.

٣ - يقال: أشاط بدمه يشيط، إذا عرضه للقتل. (ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٣٣١ «شيط»)

وقد أمرك يا عزازهم^١.

وقال النبي ﷺ: لا دين لمن لا تقية له^٢، وقال الباقر علیه السلام: التقية في كل شيء اضطر إلى ابن آدم فقد أحل الله له^٣.

الرياء على لسان الروايات

قال الإمام الصادق علیه السلام: عباد بن كثير البصري في المسجد: ويلك يا عباد، إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له^٤.

وقال رسول الله ﷺ: ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق^٥.

وقال الصادق علیه السلام: من عمل للناس كان ثوابه على الناس، يا يزيد، كل رياء شرك^٦.

وقال النبي ﷺ: يا أيها الناس، إنما هو الله والشيطان، والحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغى، والعاجلة والعاقبة، والحسنات والسيئات، فما كان من حسنات فللله، وما كان من سيئات فللشيطان^٧.

وقال الصادق علیه السلام: قال أبو جعفر الباقر علیه السلام: من كان ظاهره أرجح من باطنه

١- الاحتجاج ١: ٣٥٤.

٢- الكافي ٢: ١٢٧ ح ٢، الخصال: ٢٢ ح ٧٩.

٣- المحسن ١: ٢٥٩ ح ٢٠٨.

٤- الكافي ٢: ٢٩٣ ح ١.

٥- الكافي ٢: ٣٩٦.

٦- المحسن ١: ١٢٢ ح ٦٥، علل الشرائع ٢: ٥٦١ ح ٤.

٧- المحسن ١: ٢٥١ ح ٢٦٨.

خفّ ميزانه^١.

وقال النبي ﷺ: فاتقوا الله في الرياء فإنه الشرك بالله، إن المرائي يُدعى يوم القيمة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على محمد وآلِه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - مشكاة الأنوار: ٥٥٤، بحار الأنوار: ٦٨: ٣٦٥ ح ٩.

٢ - ثواب الأعمال، للصدوق: ٢٥٥.

المبحث الخامس والثمانون: في الدين والقرض

قال عليه السلام: واجعلني من أوفى عبادك عندك نصيباً في كل خير أنزلته وتنزله في شهر رمضان في ليلة القدر، وما أنت مُنزل في كل سنة من رحمة تنشرها، وعافية تلبسها، وبلية تدفعها، وحسنات تتقبلها، وسعيات تتجاوز عنها، وازفني حجج بيتك الحرام في عامنا هذا وفي كل عام، وازفني رزقاً واسعاً من فضلك الواسع، وأصرف عني يا سيدي الأسواء، وأقض عني الدين والظلمات، حتى لا أتأذى بشيء منه، وخذ عني باسمك وأبصار أعدائي وحسادي والباغين علىي، وانصرني عليهم.

مدخل لغوي

ال العبودية: قال الراغب في المفردات: العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، والعباد هم الذين أخلصوا عبادتهم لله، أما العبيد فأعم من العباد^١.

نزل: النزول: هو الانحطاط من علو، وإنزال النعم: إعطاؤها وإفاضتها، وتكون

١ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٣١٩.

إِنْزَال أَسْبَابِهَا وَالْهُدَايَا إِلَيْهَا^١.

الأسوء: جمع سوء، والسوء: كلّ ما يغنم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأهوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال وجاه فقد حميم^٢.

الظلمة: من الظلم، وهو مجاوزة الحقّ.

البغى: تجاوز الحق إلى الباطل.

الحسد: تمّتى زوال نعمة الغير المستحق لها، وربما كان في ذلك سعي في إزالتها. والنصر: العون.

يتوجه الداعي علیه السلام إلى ربّه ليخصّه بالنصيب الأوفر من الخير الإلهي كما خصّ الصالحين بألطفافه ونعمه وفيوضاته وكرمه، ذلك الكرم النازل في شهر رمضان وخصوص ليلة القدر، لأنّ الرحمة لها منازل ومهابط مقدّسة، وليلة القدر من أعظم المنازل، إنّه يسأل ربّه من كلّ رحمة ينشرها على البلدان، وعافية يلبسها الأبدان، وأن يدفع عنه كلّ بلاء ويقبل منه صالح الأعمال، ويتجاوز عن سيئاته بالعفو والمغفرة، وأن يرزقه حجّ بيت الله الحرام.

وقد تحدّثنا في المبحث السابع والستين عن القرآن الكريم، وأنّه نزل في ليلة القدر.

قال في الميزان: وشهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية بين شعبان وشوال، ولم يذكر اسم شيء من الشهور في القرآن إلا شهر رمضان، والنزول هو الورد على المحلّ من العلو، والفرق بين الإنزال والتنزيل أنّ الإنزال دفعيٌّ

١ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٤٨٨.

٢ - مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٢٥٢.

والتنزيل تدريجيٌ^١. انتهى.

والإنزال كليٌّ، أما التنزيل فجزئيٌّ، وليلة القدر ليلة معينة نزل فيها القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، والغرض منه تخريج القائد وإعداده، وهو النبي ﷺ الذي تحمل أمانة قيادة البشرية إلى مرافع السعادة في الدارين، فكان جبرئيل عليه السلام هو المعلم والمربى، والنبي ﷺ هو التلميذ، وقد استغرقت هذه الدورة التربوية أربعين عاماً.

أما التنزيل فقد تم في ثلات وعشرين سنة، وكانت الآيات تنزل نجوماً، والغرض منها تربية الأمة، ومن هذا نفهم أهمية دور القائد في الحياة. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع وعن ليلة القدر في كتابنا الموسوم بالباحث الميسرة^٢.

وتحدثنا عن فقه الحج وفلسفته وأثره الاجتماعي والتربوي في البحث السادس والخمسين، وتحدثنا في البحث الثلاثين عن موضوع الرزق، فليراجع.

ثم يسأل سبحانه أن يقضي عنه الدين والظلامات، وأن يأخذ باسماع وأبصار أعدائه وحساده، والباغين عليه وينصره عليهم.

ولقد أوصى الإسلام بوجوب الاهتمام بأمور المسلمين، وذلك من باب العلاقات المجاملية، فقد ورد في الأثر الصحيح أنَّ من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم، ومن سمع رجلأً ينادي: يا للمسلمين! فلم يُجبه

١ - تفسير الميزان ٢: ١٥.

٢ - المباحث الميسرة، للمؤلف: ١٢٨.

فليس بمسلم^١.

ومن مصاديق العلاقات المجاملية الدين والقرض. ونقف هنا عند عدّة نقاط أهمّها:

أولاً: كراهيّة الاستدانة لغير ضرورة.

قال النبي ﷺ: إياكم والدين فإنه هم بالليل وذل بالنهار^٢.

وعن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله علّي^٣: بلغنا أن رجلاً من الأنصار مات وعليه دين، فلم يُصلّ عليه النبي ﷺ، وقال: لا تصلوا على صاحبكم حتى يقضى عنه الدين، فقال الصادق علّي^٤: ذلك حق.

ثم قال: إنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليتعاطوا الحق، ويؤدي بعضهم إلى بعض، ولئلا يستخفوا بالدين، وقد مات رسول الله ﷺ وعليه دين، ومات علي علّي^٥ وعليه دين، ومات الحسن علّي^٦ وعليه دين، وقتل الحسين علّي^٧ وعليه دين^٨.

وعن الصادق علّي^٩ قال: خفّوا الدين فإن في خفة الدين زيادة العمر^{١٠}.

ثانياً: استحباب إنظار المعسر قال تعالى: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُشْرَةً فَنَظِرْهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ»^{١١}.

قال الصادق علّي^{١٢}: إن الله عزوجل يحب إنظار المعسر، ومن كان غريمه معسراً

١ - الكافي ٢: ١٦٤ ح ٥.

٢ - علل الشرائع ٢: ٥٢٧ ح ١.

٣ - المحاسن ٢: ٣١٨ ح ٤٦، علل الشرائع ٢: ٥٩٠ ح ٣٧.

٤ - الأمالي، للطوسى: ٦٦٧ ح ١٣٩٦.

٥ - البقرة: ٢٨٠.

فعليه أن ينظره إلى ميسرة^١.

وقال أبو لبابة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أحب أن يستظل من فور جهنم؟ فقلنا: كلنا نحب ذلك يا رسول الله، فقال ﷺ: فلينظر غريماً أوليدع معسراً^٢.

والغريم: هو المدين، ويقال: المديون.

ثالثاً: أوصى الإسلام بكتابة الدين والإشهاد عليه حياة للمال: ورد في الآثار أن ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم، منهم الذي يقرض ماله ولا يشهد عليه^٣.

رابعاً: عدم جواز بيع الدار والجارية وأسباب المؤونة في قضاء الدين: قال الصادق علیه السلام: لا تُباع الدار ولا الجارية في الدين، وذلك أنه لا بد للرجل المسلم من ظل يسكنه وخدمه^٤.

وعن عثمان بن زياد قال: قلت لأبي عبد الله الصادق علیه السلام: إن لي على رجل ديناً، وقد أراد أن يبيع داره فيقضي، فقال علیه السلام: أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه^٥.

خامساً: تقديم أداء الديون التي على الميت على الوصية والميراث، فإذا

١- روایات إنظار المعسر كثيرة تجد بعضها في: ثواب الأعمال: ١٦٧، الترغيب والترهيب، للمندری: ٤٤، وقد جمع بعضاً منها مؤلف ميزان الحکمة: ٣: ٢٥٥٠.

٢- الأمالي، للمفید: ٣١٦.

٣- ورد مضمونه في: تربیة الإسناد: ٧٩ ح ٢٥٨، وسائل الشيعة: ٧: ١٢٦ ح ٧.

٤- علل الشرائع: ٢: ٥٢٩ ح ١.

٥- الكافي: ٥: ٢٣٧ ح ٢١.

مات شخص وكانت له تركة، أخرج منها تجهيز الميت، ثم أداء الديون الخالقية والمخلوقية، ثم يخرج الثلث بالوصية، ثم تأتي النوبة إلى الوارث، وهذا مما تسالم عليه الفقهاء.

سادساً: الآثار الوضعية للعبادة لاستعانا على قضاء الدين.

قال الصادق عليه السلام: قال رسول الله عليه السلام: من ظهرت عليه النعمة فليكثر من الحمد لله، ومن كثرت همومه فعليه بالاستغفار، ومن ألح عليه الفقر فليكثر من قول: لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، ينفي بذلك عنده الفقر^١.

وقال عليه السلام: فقد النبي عليه السلام رجلاً من الأنصار، فقال عليه السلام: ما غيّبك عنا؟ فقال: الفقر يا رسول الله وطول السقم، فقال له رسول الله عليه السلام: ألا أعلمك كلاماً إذا قلته ذهب عنك الفقر والسمق: فقال: بلـ يا رسول الله.

فقال عليه السلام: إذا أصبحت وأمسيت فقل: لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولـ من الذل وكـ تـ به تـ كـ بـ يـ رـ اـ.

فقال الرجل: فـ والله ما قـ لـ تـهـ إـ لـ ثـ لـ اـ ثـ أـ يـ اـمـ حتـىـ ذـ هـ بـ عـ نـ يـ الفـ قـ وـ السـ قـ .^٢

سابعاً: استحباب إقراض المؤمن:

قال الصادق عليه السلام: مكتوب على باب الجنة: الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر، وورد أنَّ صلة الإخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين^٣.

ثامناً: استحباب إنظار المعسر أو إبرائه من الدين.

١ - المحسن ١: ٤٢ ح ٥٦.

٢ - المحسن ١: ٤٢ ح ٥٦.

٣ - الرسالة السعدية، للعلامة الحلبي: ١٦٦.

قال الصادق عليه السلام: من أراد أن يظلله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلينظر معسراً أو
ليدغ له من حقه^١.

وورد استحباب تحليل الميت والحي من الدين في عدّة روايات معتبرة، كما
في المروي عن الحسن بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إن
لعبد الرحمن بن سباتة ديناً على رجل قد مات، وكلمته فأبى، فقال عليه السلام: ويحه،
أما يعلم أنّ له بكل درهم عشرة إذا حلّ له، فإذا لم يحلّ له فإنما له درهم بدل
درهم^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـ الطيبين الطاهرين.

١ - الكافي ٤: ٣٥ ح ١.

٢ - نفسه ٤: ٣٦ ح ١.

المبحث السادس والثمانون: في الحسد

قال تعالى: ﴿أَمْ يَخْسِدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^١، وقال الله تعالى: ﴿وَدَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْيَرِدُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾^٢.

وقال النبي ﷺ: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب^٣.

وقال النبي ﷺ: قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليهما السلام: يا ابن عمران لا تحسد الناس على ما أتيتهم من فضلي، ولا تمدن عينك إلى ذلك، ولا تثبّعه نفسك، فإن الحسد ساخط لنعمتي، صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس مثني^٤.

وورد في الحديث القدسي: إن الحسد عدو لنعمتي، متسلط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي^٥.

١ - النساء: ٥٤.

٢ - البقرة: ١٠٩.

٣ - رسائل الشهيد الثاني: ٣١٠.

٤ - الكافي ٢: ٣٠٧ ح ٦.

٥ - تفسير السمرقندى، لأبي ليث السمرقندى ١: ٥٦٣.

وقد أجاد الشاعر حيث قال:

أيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي
أَسَأَتْ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ
فَأَخْرَزَكَ رَبِّي بِأَنَّ زَادَنِي
أَتَدْرِي عَلَى مِنْ أَسَأَتِ الْأَدْبَرِ
لَأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْتَ
وَسَدَّ عَلَيْكَ وَجْهُهُ الْطَّلْبِ

وقال الصادق عليه السلام: المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط^١.

والآن نقف على عدة نقاط منها:

١. إن الحسد هو تمني زوال نعمة المستحق لها، أما الغبطة فهي المنافسة بالمعروف بتمني مثل ما الصاحب النعمة، وهي أمر محمود، قال تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِنْكُ وَفِي ذَلِكَ فَلَيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^٢ ، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^٣.

وقال عز شأنه: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^٤.

ويترتب على الغبطة حب النعمة ودوامها المستحقها، فإن كانت من النعم الدينية فمصدرها حب الله وطاعته، وأما لو كانت من النعم الدنيوية فلا تقدر بسلامة القلب وصححة الموقف، لأن طلب أسباب الدنيا والتنعم بها من المباحثات التي ندب الشرع إليها.

٢. الحسد قد يكون بتمني زوال نعمة الغير من دون انتقالها إليه، وهذا من أخبث الملكات السلبية في عالم النفس، وعلاجه صعب.

١ - منية المريد: ٣٢٥.

٢ - المطففين: ٢٦.

٣ - البقرة: ١٤٨.

٤ - المؤمنون: ٦١.

وقد يكون بتمتّي زوال نعمة الغير، لأنّ نفسه تتوق إلى تلك النعمة ولكن من دون إحداث الأثر الخارجي، وهذا من المحرمات، ومرتبة من مراتب الانحطاط الأخلاقي.

وقد يُتبع هذه الرغبة بترتيب الآثار الخارجية بالتسقيط والتشهير، والافتراء والغيبة والتهم الباطلة، وهذا من الكبائر التي أ وعد الله عليها دخول النار.

٣. أمّا الغبطة فإن كانت بتمتّي بقاء نعمة المستحق لها وطلب ما يساويها، فالأمر من المنافسة والاستباق في الخيرات، وإن كانت قائمة على تمتّي مساواة صاحب النعمة ولو بنقصان نعمة الغير، ولكن من دون إحداث أمر خارجي، فهي مما تعارف عليه علماء الأخلاق بالحسد المغفور عنه، وهو من مصاديق الغبطة التي لا يكاد يخلو منها أحد إلا من نور الله قلبه بالمعرفة وغرس في صدره أشجار الشوق لرؤيته.

٤. للحسد بواعث منها: خبث السريرة والعداوة، وحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، والانسداد إلى عالم التراب، والتكبر.

روي أنّ رجلاً من أهل النعمة ببغداد كان حاسداً لبعض جيرانه وسعى بكلّ ما يمكنه للانتقام منه، فاشترى عبداً ورباه وأكرمه، ثم طلب منه أن يقتله فوق سطح جاره حتى يؤخذ الجار بدمه، ففعل الغلام ما أراد سيده، وخسر بذلك دنياه وأخرته^١.

ونعم ما قيل في المقام:

فإنْ صبرك قاتلُه
إِنْ لَمْ تجِدْ مَا تَأْكُلُه^٢

إصبر على مضض الحسود
كالنار تأكل بعضها

١- حكاٰه في: بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٩.

٢- حكاٰه في: بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٩.

٥. إن التحاسد يقع بين أصحاب المصالح المشتركة إذا تزاحمت، فالعالم يحسُد العالم، والتاجر يحسُد التاجر، إذا تضاربت المصالح الدنيوية، ومصدر هذا النزاع حب الدنيا وإشباع الأنانيات، أما في الميادين التي لا يصح التزاحم فيها، فلا تحاسد ولا تناحر ولا صراعات، ففي طلب العلم والمعرفة وبذل النفس والوقت والمال والجهد في سبيل الله فلا يتصور فيه التزاحم، إن طالبي الدنيا يختلفون، وطالبي الآخرة يتَّفقون.

٦. للحسد آثار ونتائج سلبية على الفرد والمجتمع، فهي من جانب تضرّ بدين الحاسد ودنياه، وتحول حياته إلى جحيم وألم ومعاناة، فهي تولد الأحقاد والأنانيات في ساحة المجتمع الكبير، والحسد يعبر عن السخط لقضاء الله، والإنكار لعدله وحكمته.

٧. إن المحسود لا يتضرر بحسد غيره، لأنّ نعم الله وفيوضاته تأتي على قدرٍ قد قدر، ووفقاً لمقتضيات الحكمة التي تجري عليها السنن والنوميس الكونية، بل هو المنتفع، لأنّ الحاسد يحمل وزر المحسود فيلقى الله محروماً من الخير، مثقلًا بوزر غيره.

٨. إن الحسد من صفات القلب والمشاعر، أما الآثار الخارجية الشريرة التي محلّها الجوارح فليست عين الحسد، بل هي أفعال صادرة عن تلك الصفة الذميمة، وأختم هذا المبحث بقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: الله ذر الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبِه فقتلَه !

المبحث السابع والثمانون: في البغي

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ
الْحَقِّ﴾^١. الآية الكريمة تشير إلى حمرة الفاحشة كالزنا واللواء، وحرمة الإثم
كشرب الخمرة والغيبة، وتحرم البغي كالاستطالة على الناس والمحاربة لأولياء
الله. وقد وصف الله سبحانه البغي بغير الحق من باب التوصيف باللازم.

قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ﴾^٢ فقتل النبيين لا يكون بالحق، ولكن الآية أشارت إلى معنى دقيق مفاده أن هؤلاء
الباغين لم تكن عندهم شبهة في الموضوع والمصدق لمن هونبي، ولا في
الحكم من جهة حرمة قتل الأنبياء، وهم سادات البشر، فلو قتل أحدهم نبياً لتصوره
أنه رجل عادي مهدور الدم لسبب شرعي، فهو من القتل بالحق وفق نظره.

إن البغي صفة ذميمة لا تصدر إلا عن نفس حقيرة مشبعة بروح العداوان
والكبر، وقد ذكر صاحب الوسائل ^{متى} مجموعة من الأحاديث المعتبرة في المقام

١- الأعراف: ٣٣.

٢- البقرة: ٦١.

نذكر منها:

قال النبي ﷺ: لو بغي جبل على جبل لجعله الله دكًا، وأعجل الشريعة عقوبة البغي^١.

وقال ﷺ في وصيته لعلي عليه السلام: يا علي، أسرع شيء عقوبة: رجل أحسنت إليه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه^٢.

وقال الصادق عليه السلام: يا أيها الناس، إنّ البغي يقود أصحابه إلى النار^٣. وقال عليه السلام: إن إبليس يقول لجنوده: ألقوا بينهم الحسد والبغى، فإنّهما يعدلان عند الله الشرك^٤.

وقال عليه السلام: إياكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنّها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بغى عليه ومن نصره الله غالب وأصاب الظفر من الله^٥.

وقال عليه السلام: دعا رجل بعض بنى هاشم إلى البراز فأبى أن يبارزه، فقال له عليه السلام: ما منعك أن تبارزه؟

فقال: كان فارس العرب وخشيته أن يغلبني.

فقال عليه السلام: إنه بغى عليك، ولو بارزته لقتلته، ولو بغي جبل على جبل لهلك

١- الكافي ٢: ٤٦٠ ح ٤، ثواب الأعمال: ٢٧٥.

٢- من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٥ باب النوادر.

٣- الكافي ٢: ٣٢٧ ح ٤، بحار الأنوار ٢٩: ٥٨٤ ح ١٧.

٤- تاريخ العقوبي ٢: ٩٥.

٥- الكافي ٨: رسالة أبي عبد الله عليه السلام إلى جماعة الشيعة، تحف العقول: ٣١٥.

الباغي^١. وقال الجعفي: كان لأبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ الْكَلَامُ صديق لا يكاد يفارقه، فقال يوماً لغلامه: يا ابن الفاعلة، أين كنت؟ فرفع أبو عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَامُ يده وصك جبهته ثم قال: سبحان الله، تقدّف أمه؟ قد كنت أرى أنّ لك ورعاً، فإذا ليس لك ورع، فقال الرجل: جعلت فداك، إنّ أمه سندية مشركة.

فقال عَلَيْهِ الْكَلَامُ: أما علمت أنّ لكلّ أمة نكاحاً؟ تنحّ عنّي^٢.

ومن مصاديق البغي المحاربة، فمن شهر سلاحه لإخافة الناس يُنفَى من البلد، ومن شهر سلاحه فأصاب أحداً نفي من البلد واقتضى منه، ومن شهر السلاح وضرب وأخذ المال ولم يقتل، قطعت يده ورجله، وللإمام الحاكم حق قتله وصلبه، وإن شاء قطع يده ورجله، ومن حارب وقتل وأخذ المال، فعلى الإمام أن يقطع يده اليمنى بالسرقة، ثم يدفعه إلى أولياء المال فيتبعونه بالمال ثم يقتلونه، وإن عفا عنه أولياء المقتول كان على الإمام أن يقتله من باب ما يسمى بالحق العام قانوناً.

والمحارب ينفي من مصر إلى مصر، ومن بلد إلى بلد ولا يسمح له بالاستقرار على وجه الأرض، ويكتب إلى أهل ذلك البلد أن لا يجالسوه، ولا يبايعوه، ولا يناكحوه، ولا يؤكلوه، ولا يشاربوا، وليس له أمان ولا يُصدق عليه حتى يموت.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادُوا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْنٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^٣.

١ - تهذيب الأحكام ٦: ١٦٩ ح ٣٢٤.

٢ - الكافي ٢: ٣٢٤ ح ٥.

٣ - المائدة: ٣٣.

المبحث الثامن والثمانون: في الشيطان

قال عليهما: وَأَقِرَّ عَيْنِي وَفَرَّخَ قَلْبِي، وَاجْعَلْ لِي مِنْ هَمِي وَكَرْبِي فَرْجًا وَمَخْرَجًا، وَاجْعَلْ مَنْ أَرَادَنِي بِسُوءِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ تَحْتَ قَدَمَيَ، وَأَكْفِنِي شَرَّالشَّيْطَانِ، وَشَرَّالسُّلْطَانِ، وَسَيِّئَاتِ عَمَلِي، وَطَهَرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا.

مدخل لغويٌّ

قرء العين: السرور بالشيء، وقيل: أصله من القر، أي البرد، فقررت عينه قيل: معناه بردت فصحت، وقيل: لأن للسرور دمعة باردة قارة، وللحزن دمعة حارة، ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسرخ الله عينه. وقيل: هو من القرار. والمعنى أعطاه ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره^١.

الفرج: انكشف الغم. والمخرج: الخلاص.

الشيطان: المطرود من الرحمة الإلهية، قال الراغب: مخلوق من النار كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجِ مِنْ نَارٍ﴾^٢، ولكونه من ذلك اختض بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة، وامتنع من السجود لأدم. والشيطان اسم لكل

١- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٢٩٨.

٢- الرحمن: ١٥.

عارم من الجن والإنس والحيوانات.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾^١.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾^٢. أي أصحابهم من الجن والإنس، والشياطين: مردة الجن، ويصبح أن يكونوا هم مردة الإنس أيضاً.^٣

السلطان: المَلِكُ، صاحب السلطة والغلبة.

يتوجه الإمام عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ بالدعاء إلى الله سائلاً إياه إدخال السرور والفرح على قلبه، وأن يجعل له الفرج والمخرج من كل هم وغم، وأن ينصره الله نصراً مبيناً على أعدائه ومن أراد بهسوءاً، وأن يكفيه شرّ الشيطان وشرّ السلطان، وشرّ المتسليين بالغلبة على رقاب العباد، وأن يقيه السيئات ويظهره من الذنوب.

إن النصر من عند الله سبحانه، فمن نصره الله أمنده بأسباب النصر والغلبة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُفْسِدُ أَفْدَامَكُمْ﴾^٤، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُهُ﴾^٥.

وقد أكدت الآيات الشريفة أنَّ الله أنزل الملائكة لنصرة النبي عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ والمؤمنين يوم بدر. وأكَدت كتب السيرة أنَّ الله قد نصر نبيه عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ بالرعب فكانت فرائص المشركين ترتعد إذا قيل لهم: جاء محمد، وهو على مسيرة شهر^٦.

١- الأنعام: ١٢.

٢- البقرة: ١٤.

٣- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٢٦١.

٤- محمد عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ: ٧.

٥- آل عمران: ١٢٣.

٦- انظر: تفسير مجمع البيان ٢: ٣٨٢، جامع البيان ٤: ١٠١.

الشيطان والبشر

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَنْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْتُمُ نَوْنَى بِأَسْمَاءِ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقْلِ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبَدِّلُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^١.

قبل أن أخوض في مبحث إبليس، لابد من تمهيد لذلك بعرض بعض الحقائق لتكون منطلقاً للمبحث:

١. إن خلق آدم عليه السلام هو خلق لجميع البشر، قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^٢.
٢. إن الخلافة الأرضية لم تكن لآدم وحده بل لذريته كذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾^٣.
٣. إن الأمر بسجود الملائكة لم يكن لآدم وحده، بل كان لكل البشر، وإنما كان آدم عليه السلام العنوان والأنموذج والنائب، ومن هنا عندما رفض إبليس السجود لآدم، فقد رفض السجود لذريته، وحينما طرد من ساحة الرحمة ومقام القدسية، صرّح بعدائه لآدم وذريته.

١ - البقرة: ٣٠ - ٣٤.

٢ - السجدة: ٧ و ٨

٣ - يونس: ١٤.

قال سبحانه وتعالى على لسانه: ﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَنْهَمْ مِنْ بَيْنِ أَنْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^١.

٤. إن الملائكة لم يعتربوا على خلافة آدم في الأرض، بل كان سؤالهم استيفاضاً عن هذا المخلوق المستخلف.

وقد أقرَ الله سبحانه أنَّ هذا الخليفة قد يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، لكنه مؤهل لحمل أمانة ومسؤولية غير معهودة لعالم الملائكة، وحين علم الله الأسماء لآدم ثم عرضهم على الملائكة، نَفَوا العلم عن أنفسهم، وسبّحوا ربهم منقادين مذعنين لأمره.

يقول السيد الطباطبائي ^{متبرئ} في الميزان، بخصوص الأسماء ما نصه: فتحصل أنَّ هؤلاء الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وإنهم على كثرتهم وتعددتهم لا يتعددون تعدد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات ونزول الاسم من عند هؤلاء إنما هو بهذا القسم من النزول. انتهى^٢.

وقال سبحانه للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقْلُ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَغْلَمُ مَا تُبَدِّلُونَ وَمَا كُتُبْتُمْ تَكْتُبُونَ﴾^٣.

١- الأعراف: ١٦ - ١٧.

٢- تفسير الميزان ١: ١١٨.

٣- البقرة: ٣٣.

وهذا يشير إلى علمه المكنون في أمر إبليس الذي كان في سلك الكفر والعناد والتكبر، ولكن الملائكة لم يعلموا ذلك.

قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَنِي وَأَشْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^١.

أما مسألة السجود لآدم فقد كان تحية وتكرمة له، وطاعة لله سبحانه، وهو نظير قوله تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوئِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدَاتٍ﴾^٢.
ولا إشكال في صحة تكرمة الغير من دون إعطاء صفة الربوبية.

ورد في الاحتجاج عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام عن آبائه عليهما السلام: إنَّ يهوديًّا سأل أمير المؤمنين عليهما السلام عن معجزات النبي عليهما السلام في مقابل معجزات الأنبياء عليهما السلام، فقال: هذا آدم أَسْجَدَ اللَّهَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، فَهَلْ فَعَلَ بِمُحَمَّدٍ شَيْئًا مِّنْ هَذَا؟^٣
فقال علي عليه السلام: لقد كان ذلك، ولكن أَسْجَدَ اللَّهَ لَآدَمَ مَلَائِكَتَهُ، فَإِنَّ سَجْدَةِهِمْ لَمْ يَكُنْ سَجْدَةً طَاعَةً بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا آدَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ اعْتَرَفُوا لَآدَمَ بِالْفَضْيَلَةِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ، وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْطَى مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالملائكة بِأَجْمَعِهَا، وَتَعْبُدُ الْمُؤْمِنُونَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ زِيَادَةٌ لَهُ يَا يَهُودِيٌّ.

إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يُرِيدُ مَا أَنْ نَعْبُدَهُ مِنْ حِيثُ يُرِيدُ لَا مِنْ حِيثُ نَرِيدُ، فَعَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَمْرُ إِبْلِيسَ بِالسَّجْدَةِ لَآدَمَ فَقَالَ: يَا رَبِّي، وَعَزَّتْكَ إِنْ أَعْفَيْتَنِي مِنَ السَّجْدَةِ لَآدَمَ لَأَعْبُدُكَ عِبَادَةً مَا عَبَدْتَكَ أَحَدٌ قَطْ مِثْلَهَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ

١ - البقرة: ٣٤

٢ - يوسف: ١٠٠

٣ - الاحتجاج ١: ٣١٥

جلاله: إني أحب أن أطاع من حيث أريد^١.

أما جنة آدم فلم تكن جنة الخلد، بل كانت جنة برزخية أو أرضية، وذلك لأنَّ الإنسان المستخلف هو كائن يصلح للخلافة الأرضية لا السماوية، إذ كان خاضعاً ل السنن الاختبار والبلاء والكدر، والجنة كانت محطة أولى وبداية طريق إلى مستقره، وهي الأرض، والدليل على ذلك أنَّ آدم لم يرجع إلى ما كان عليه بعد توبته، إضافة إلى أنَّ جنة الخلد لا يدخلها شيطان ولا يخرج منها مؤمن.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * اذْخُلُوهَا سَلَامٌ آمِنِينَ * وَنَزَّعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِّ إِخْوَانَاهُ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلَينَ * لَا يَمْسُّهُمْ فِيهَا نَصْبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^٢.

أما معصية نبي الله آدم عليه السلام فكانت مخالفة للأمر الإرشادي لا المولوي لعصمة الأنبياء، فقد ظلم نفسه حين أوردتها مورد البلاء والكدر والعنا.

يقول سيدنا الطباطبائي ثقة في الميزان في خصوص الشيطان مانصه: وبالجملة فهما - آدم وحواء - كانوا يشاهداه ويعرفانه، والأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله كذلك يعرفونه ويشاهدونه حين تعرضه بهم، لو تعرض على ما وردت به الروايات في نوح وابراهيم وموسى وعيسى ويحيى وأبيه وإسماعيل ومحمد عليهما السلام وعليهم السلام^٣.

ونؤكد ثانية أنَّ إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن كما صرَّح بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِإِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

١- قصص الأنبياء، للراوندي: ٤٦ ح ٧.

٢- الحجر: ٤٥ - ٤٨.

٣- الميزان ١: ١٣١.

كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ^١.

والملائكة معصومون من المعصية، وقد زَكَاهُمُ اللَّهُ حِيثُ قَالَ: ﴿بَلْ عِبَادُ مُكْرِمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^٢.
أما العامل المشترك بين إبليس والملائكة فهو الاجتماع في حظيرة القدس
ومقام العبادة.

إنَّ مسألة الأمر بالسجود لآدم غيرت مسار التاريخ إلى يوم القيمة، فالملائكة المجبولون على الطاعة سجدوا طاعة لله، أمَّا إبليس فقد عصى، ومن هنا انشطر المسار إلى مسارين: مسار الطاعة والسعادة، ومسار المعصية والشقاء.

لقد انطلق إبليس في عناده وعصبيته من عبادة الذات الإلئنية، وتمادي في غيَّه وطغيانه حتى ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته، فانقلبت عنده المقاييس واختلت المعايير، فكان من الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، إنَّ عبادة الذات تثبت الاستقلالية مقابل عبادة الله. والآن نقف على بعض المفارقات والتعumarة التي أصابت إبليس.

١. لقد فات إبليس أنَّ السجود من الناحية التعبدية للأمر الإلهي وليس لآدم، أمَّا السجود لآدم فكان سجود تحية وتكرمة، وقد فهمت أفواج الملائكة ذلك.
٢. إنَّ الأمر بالسجود لم يكن لمادة التراب، ولكنه استحق السجود بعد أن نفخ الله فيه من روحه:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^٣.

١ - الكهف: ٥٠.

٢ - الأنبياء: ٢٦ - ٢٧.

٣ - الحجر: ٢٩.

ولكته احتاج على الله سبحانه قائلًا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^١.

وهذا أول عمل بالقياس الباطل، فجعل العلة التامة لمعصية الأمر الإلهي المرجحات الظاهرية، وهو أن النار خير من الطين وأقام على تلك المقدمة الفاسدة حكماً مفاده أن المخلوق من نار لا يسجد للمخلوق من طين.

٣. إن مسألة أرجحية النار على الطين لا أساس لها من الصحة، فالطين خير من النار ومعظم مصادر النار والطاقة مصدرها الأرض، ومن التراب تتدفق النعم الإلهية التي تمد الإنسان والحيوان والنبات بأسباب البقاء.

٤. لقد نسب إبليس عملية غوايته إلى الله سبحانه، فنسب إليه الظلم والانتقام ابتداءً وليس على نحو المجازاة، إذ قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾^٢، وبهذا يكون إبليس المؤسس الأول لمذهب الجبر.

إن وجود إبليس ضرورة ملحقة لقيام النظام الحيatic القائم على مبدأين هما: الاختيار والاختبار، فالإنسان يتلقى الأمر والأحكام المولوية، وهو مطالب بالعمل وفق تلك الأحكام، وعندما يكون مختاراً لا مجبراً، فإنه يستحق الشواب والعقاب، ولو لا وجود الإنسان بين عالمين يتتجاوزه لما تحقق الاختبار والابتلاء، وهذا الجيشان: هما إبليس وجنوده الذين يدعونه إلى المعصية، والملائكة الذين يدعونه إلى الطاعة، أو أقل بين قوتين هما: قوة العقل وقوى الغرائز والشهوات.

١ - الأعراف: ١٢.

٢ - الأعراف: ١٦.

ووجود إبليس ووسوسته وتزيينه للباطل لا يجعل الإنسان فاقداً لإرادته، بل يجعله في حالة صراع لسلوك أحد طريقين: طريق الطاعة أو طريق المعصية، طريق الله أو طريق الشيطان، طريق ولادة الله أو طريق ولادة الطاغوت، فإذا غلت قوى الخير على قوى الشر، فقد سلك طريق السعادة، وإنما فلامناص من سلوك طريق الشقاوة، ومن هنا يكون استحقاقه للثواب والعقاب.

إن الإنسان هو الذي يقوم بتسليط إبليس على نفسه من ناحية الفراغ والفجوات في بنائه الداخلي والروحي، ولهاهه وراء الأهواء والميول الحيوانية، وبذا يجعل من نفسه بهيمة يقودها إبليس كيفما شاء.

قال تعالى: «إِنَّهُ لَيَسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»^١.

إن القرآن يتحدث عن إبليس وينسب له الذرية والجند والأتباع، وأنه على لسان الأحاديث المعتبرة يجري مجرى الدم في عروق ابن آدم^٢، وإن الشياطين على المؤمن كالزنابير على اللحم^٣.

وبهذا نرد على القائلين بأن الشيطان هو معنى رمزي للقوى الشريرة، ولصرخات الشهوات والنزوات والغرائز المغروسة في الإنسان.

قال الله سبحانه وتعالى: «إِنَّهُ يَرَأُكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ»^٤، وقال الله سبحانه: «وَاسْتَفِرْزْ مَنِ اسْتَظْفَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ

١ - النحل: ٩٩ - ١٠٠.

٢ - الكافي ٨ ح ١١٣، عوالي الآلى ٤: ٩٢ ح ١١٣.

٣ - كتاب المؤمن، للحسين بن سعيد: ٦ ح ١٦، الاختصاص، للمفيد: ٣٠.

٤ - الأعراف: ٢٧.

وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ وَعِذْهُمْ وَمَا يَعِذُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^١.

وقال عز علاه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾^٢.

ويتحدد القرآن الكريم صراحةً عن تمثيل إبليس للمرتكبين يوم بدر ولعبه دوراً خبيشاً في إدارة رحى تلك الحرب المصيرية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَازَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَنَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^٣.

وقد ذكر الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري: أن إبليس تمثل للناس في أربع صور: فقد تمثل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جشع المدلجي، فقال لقريش: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم^٤.

وتمثل يوم العقبة في صورة منبه بن الحجاج.

وتمثل يوم احتجاج قريش في دار الندوة في صورة شيخ نجدي.

وتمثل يوم قُبض النبي ﷺ في صورة المغيرة بن شعبة، فقال: أيها الناس، لا تجعلوها كسروانية ولا قيسرانية، وسِعوها تسع، فلا ترذوها فيبني هاشم، فتنظر بها الحالى^٥.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

١ - الإسراء: ٦٤.

٢ - الكهف: ٥٠.

٣ - الأنفال: ٤٨.

٤ - الإرشاد، للمفید: ٣٥٠.

٥ - الأمازي، للطوسي: ١٧٦ ح ٢٩٨.

المبحث التاسع والثمانون: الآخرة هي المستقرّ

قال عَلِيٌّ: وَأَجِرْنِي مِنَ النَّارِ بِعَفْوِكَ، وَأَذْخِلْنِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ، وَزَوْجِنِي مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ بِفَضْلِكَ، وَالْحِقْنِي بِأُولَائِكَ الصَّالِحِينَ مُحَمَّدًا وَآلَهُ الْأَبْرَارِ الطَّيِّبِينَ الظَّاهِرِينَ الْأَخْيَارِ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَجْسادِهِمْ وَأَرْواحِهِمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فقرات رائعة يتلو بعضها بعضاً في سياق تربويٍ فريد لفتح أعين العباد على عالم الآخرة التي هي دار القرار.

تحدّثنا في المبحث الثامن والأربعين عن مشاهد الآخرة، وفي المبحث التاسع والأربعين عن مبدأ تجسم الأعمال، وفي هذا المبحث نؤكّد على بعض الحقائق القرآنية:

١. لقد أكّد القرآن أشدّ التأكيد على إثبات مسألة المعاد لأنّه الأصل الذي بزواله يستلزم الكفر بجميع أصول الدين، وبدونه يصبح الإيمان والعمل الصالح ومسألة الخلق والإيجاد من اللغو واللهو واللعب.
٢. إنّ مبدأ تجسم الأعمال يوم القيمة من الثوابت وال المسلمات بالأدلة الشرعية القاطعة، قد تحدّثنا عنه، فليراجع.

٣. إنّ الأعمال لها آثار وضعيّة، فالحسنات والسيئات لها دخل في المحن والبلايا، وفي إفاضة النعم ونزول البركات، وقد تحدّثنا عن ذلك في المبحث

الرابع والعشرين، فليراجع.

٤. إن بعض الناس يدخلون جهنم فيخلدون فيها من غير خروج، وقوله تعالى: «قَالَ النَّارُ مَثَوَّاً كُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»^١، يفيد بقاءهم وعدم خروجهم، والاستثناء هنا يعبر عن بقاء القدرة الإلهية في إبقاءهم وإخراجهم وإن كان سبحانه قد قضى أن لا يخرجهم.

٥. إن أعمال الإنسان توزن يوم القيمة بالحق، فمن ثقلت موازينه بالصالحات كان من الفائزين، ومن خفت موازينه كان من الخاسرين بظلمه وعناده. والقرآن الكريم يقرر وضع الموازين القسط ليوم القيمة، ويصور لنا توجّه الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، قال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^٢.

إن الحسنات تشغل الموازين، أما السيئات فإنها توجب خفتها، وعلى هذه النتائج يتقرر مصير الإنسان إما إلى الجنة أو النار، وتشغل الحسنات إنما يكون بقدر مطابقتها للحق والعدل، وبقدر خلوص النية وعمق الإخلاص والتوجّه إلى الله سبحانه لأن الإخلاص روح العمل، والإصابة للحق على لسان الروايات هي خشية الله والنية الصادقة، وليس للعمل أثر إلا لما معه من النية.

٦. إن للجنة درجات بعضها فوق بعض، فكلما ارتفعت درجة المؤمن ازداد نعيمه، وللنار دركات، كلما هبطت دركة^٣ الكافر زيد في شقائه وعذابه. إن أهل

١ - الأنعام: ١٢٨.

٢ - الزلزلة: ٧ و ٨

٣ - قعر كل شيء دركه، قال ابن دريد: والدرك: المنزلة، وكذلك جاء في التنزيل، فالنار دركات والجنة درجات. (ترتيب جمهرة اللغة ١: ٦١٤ «درك»)

الجنة يخلدون فيها من غير خروج، أما أهل النار فبعضهم يخلد فيها، وبعضهم يدخلونها بذنبهم ثم يخرجهم الله بعفوه وبفضل الشفاعة التي لا تكون إلا باذنه، وهؤلاء هم الموحدون الذين خفت موازينهم.

٧. إن الحديث عن الجنة ومشاهدها ونعمتها ما لا يمكن تصوّره، وقد ورد على لسان الروايات أنّ الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^١. والقرآن يصرّح بأنّ الله سبحانه يتعامل مع أهل الإيمان بالحسنى وزيادة أبداً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَخْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^٢، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَغْلِمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْبَةٍ أَغْيَنِ﴾^٣، وقال عز علاه: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَنَا مَزِيدٌ﴾^٤.

وورد في تفسير العياشي عن ثوير، عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة ودخل ولئن الله إلى جناته ومساكنه، واتّكأ كل مؤمن منهم على أريكته حفته خدامه، وتهذلت عليه الأنمار، وتفرجت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهر، وبسطت له الزرابي^٥، ووضعت له النمارق، وأتته الخدام بما شاء هواء من قبل أن يسألهم ذلك، قال عليهما السلام: وترجع عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله.

١ - الأمازيغي، للصادق: ٢٨١ و ٦٣٥ ح ٨٥١

٢ - يونس: ٢٦.

٣ - السجدة: ١٧.

٤ - سورة ق: ٣٥.

٥ - الزرابي: واحدها زربة وهي النمارق والوسائد. (ترتيب جمهرة اللغة ٢: ١٢٠ «زرب»)

ثُمَّ إِنَّ الْجَبَارَ يُشَرِّفُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَوْلِيَائِي وَأَهْلَ طَاعَتِي وَسَكَانَ جَنَّتِي
فِي جَوَارِي، أَلَا هُلْ أَنْبَئُكُمْ بِخَيْرٍ مَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ؟ فَيَقُولُونَ: رَبُّنَا وَأَيَّ شَيْءٍ خَيْرٌ مَمَّا
نَحْنُ فِيهِ فِيمَا اسْتَهْتَ أَنْفُسُنَا وَلَذْتَ أَعْيَنَا مِنَ النَّعْمَ فِي جَوَارِ الْكَرِيمِ؟

قَالَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ: فَيَعِيدُ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَيَقُولُونَ: رَبُّنَا نَعَمْ، فَأَئْتَنَا بِخَيْرٍ مَمَّا نَحْنُ فِيهِ،
فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ: رَضَايَ عَنْكُمْ وَمَحْبَبِتِي لَكُمْ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ مَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ،
قَالَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ: فَيَقُولُونَ: نَعَمْ يَا رَبَّنَا رَضَاكَ عَنَّا وَمَحْبَبُكَ لَنَا خَيْرٌ وَأَطِيبُ لِأَنْفُسِنَا.

ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طِيقَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^١.

وفي الدَّرَرِ المنشور عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة في الجنة، قال الله: هل تستهون شيئاً فازيدكم؟ قالوا: يا ربنا وهل بقي شيء إلا وقد أنلتناه؟ فيقول الله: نعم، رضاي فلا أخط عليكم أبداً^٢.

ويتحدث القرآن الكريم عن نعمة من نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى إلا وهي تزويع المؤمن بالحور العين إذ يقول: ﴿وَزَوَّجَنَاهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ﴾^٣.
ثُمَّ يقول في وصفهن بأبلغ لفظ: ﴿كَانُهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^٤.

وورد في الحديث الشريف: لو طلعت واحدة منهن إلى الدنيا في ليلة ظلماء

١ - التوبه: ٧٢.

٢ - تفسير العياشي ٢: ٩٦ ح ٨٨

٣ - الدر المنشور ٣: ٢٥٧.

٤ - الطور: ٢٠.

٥ - الرحمن: ٥٨.

لأشرق وأضاءت بها أفضـل مـما تضـيء بالقـمر لـليلـة الـبـدر، ولـمـات النـاس من الشـوق إـلـيـها، ولو نـظرـتـ وـاحـدةـ مـنـهـنـ إـلـىـ الدـنـيـاـ لـمـلـأـتـ الـأـرـضـ مـسـكـاـ، وـأـذـهـبـتـ نـورـ الشـمـسـ وـالـقـمـرـ، وـلـوـأـلـقـتـ وـاحـدةـ مـنـهـنـ رـيقـ فـمـهـاـ فـيـ بـحـرـ مـرـمـاـلـحـ لـصـارـ عـذـبـاـ كـالـسـكـرـ^١.

ثم ينتقل الدعاء إلى محور آخر، وهو طلب الإلحاد آخر وياً بالنبي الأعظم واله الطاهرين، والإمام علي بن الحسين عليهما السلام أحد أئمة أهل البيت عليهما السلام إجماعاً، وهم الذين شهد لهم الكتاب بالتطهير بالنص الصريح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾^٢.

فإن الإمام عليه السلام يسأل الله سبحانه أن يلحقه بالنبي واله، ومن مستلزمات الإلحاد كمال الإيمان والعمل الصالح المؤهل للقرب اللائق بالله سبحانه، إن الصلاح معناه بقاء الشيء على وضعه الأصلي من دون تغيير، والصالحون يحملون الصلاح ذاتاً وعملاً، فهم أعظم مهابط الرحمة الإلهية والفيوضات الربانية لاستعداداتهم ومؤهلاتهم.

والإمام عليه السلام تلميذ القرآن، وقد ورد على لسان النبي يوسف في دعائه قائلاً: ﴿رَبِّنِي قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^٣.

ولم يكن يوسف هنا داعياً على نفسه بالموت كما أخطأ فهم ذلك البعض^٤،

١ - ورد قريب منه في: المعجم الكبير، للطبراني ٦: ٥٩.

٢ - الأحزاب: ٣٣.

٣ - يوسف: ١٠١.

٤ - انظر: التبيان، للطوسي ٦: ٢٠٠، الكشف، للزمخشري ٢: ٢٤٥، مجمع البيان ٥: ٤٦٠.

بل طلب من الله أن يبقيه على الإسلام الذي هو أعلى مرتبة، وهو ما نطلق عليه إسلام النبيين، إذا قبضه على ذلك، فهو يسأل الله أن يلحقه بالصالحين، ومن قبل ذلك رأينا إبراهيم عليه السلام ينادي ربه قائلاً: ﴿رَبِّنَا لَكَ حُكْمًا وَالْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ﴾^١.

ومسألة الإلحاق وردت في شأن إلحاق الذريعة المؤمنة بآباءهم من ذوي الدرجات الراقية في الإيمان لتقر عيون الآباء، بل فيه امتنان على الطرفين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوكُمْ دُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقْنَى بِهِمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَثَانُوكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - الشعراء: ٨٣

٢ - الطور: ٢١

المبحث التسعون: في الحوار مع الله

قال عليه السلام: إلهي وسidi وعزتك وجلالك لئن طالبني بذنبي لأطاليتك
بعفوك، ولئن طالبني بذنبي لأطاليتك بكرمك، ولئن أدخلتني النار لاخير
أهل النار بحبي لك، إلهي وسidi إن كنت لا تغفر إلا لأولئائك وأهل طاعتك
فالى من يفرج المذنبون، وإن كنت لا تكرم إلا أهل الوفاء بك فبمن يستغث
المسيئون إلهي إن أدخلتني النار ففي ذلك سرور عدوك وإن أدخلتني الجنة
ففي ذلك سرور نبيك، وأنا والله أعلم أن سرور نبيك أحبت إلينك من سرور عدوك.

مدخل لغوي:

العزّة حالة مانعة لصاحبها من أن يُغلب، والعزة لله وحده على نحو الأصالة،
ولغيره على نحو الامتداد والتبعية.

الجلالة: عظم القدر. والجلال هو التناهي في العظمة ولا يليق بذلك إلا بالله
سبحانه وتعالى.

اللؤم: دناءة الأصل وشحة النفس، وهي خلاف الكرم.

الفزع: الخوف الشديد. ويقال: فزع إليه: أي استغاث به عند الفزع.

الوفاء: ضد الغدر. والوفاء: حفظ العهد على نحو الكمال.

إن الله سبحانه هو مصدر كل خير وأصله، وقد وصف نفسه بالكرم والجود والعفو عن المسيئين، وما على العبد إلا أن يتخلى بأخلاق الله، وإن العبد كلما اتصف بالصفات الأخلاقية الفاضلة المندوب إليها كان أقرب إلى ساحة العظمة الإلهية، وإن القرب إلى الله سبحانه يتنااسب طردياً مع الاتصاف بمكارم الأخلاق وصفات الكمال، فالله سبحانه يصف النبي ﷺ بأنه لعله خلق عظيم، وإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وبذلك يكون ﷺ هو الأقرب إلى الله، وكلما انحرف مسار الإنسان عن ميدان الأصالة والمصداقية ومكارم الأخلاق ابتعد عن ساحة القرب من الله، واقترب من ولاية الشيطان.

والإمام عليه السلام يقسم بعزة الله وجلاله، ويقف بكل خضوع واستسلام أمام ساحة العظمة الإلهية، عارفاً بالله وبنفسه، فالله عين الكمال، والإنسان عين النقص وال الحاجة، ومن السنن والنواهيس أن يلتتجى الفقير إلى الغني، والضعيف يقصد القوي.

بل من السنن الإلهية أن الرحمة بذاتها تقصد المحتاج من باب كرمه المطلق وحسن عنایته بالعباد، وما عسى أن يفعل العبد الذليل المغلوب أمام سيده المالك القدير الغالب، ماذا يفعل في وقت تقطع فيه الأسباب وتقل الحيلة، لم يبق إلا المحاجة والحوار القائم على الاستعطاف والتوكّل والاعتراف. الإمام عليه السلام ينسب العفو والكرم إلى ساحة الربوبية، وينسب المعصية وللؤم إلى العبد.

إن الإنسان ليقف في عرصات القيامة مواجهاً لأهوالها مندهشاً مذهولاً مرعوباً أمام الحجّة القائمة، وبروز الحقائق المكشوفة للعيان، يقف وجده ويداه وبقاع الأرض تشهد عليه، فلا يجد الوسيلة للنجاة والخلاص من ذنبه إلا أن يطرق باب الكرم الإلهي بيد الاعتذار والتذلل والاستسلام.

فحين يطالب الله العبد بذنبه وأثامه، فالعبد يطالبه بعفوه، وقد ندب الله العبد إلى العفو، وجعل العفو صفة من الصفات الفاضلة التي تقرب العبد إلى ربّه، وأمرنا أن نعف عن ظلمنا، وجعل ذلك كفارة لذنبنا، ومن أعظم درجات التقرب إلى الله أن يكون العفو عن المسيء شكرًا له.

ورد في الحديث الشريف: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنك شكرًا للقدرة عليه^١. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: العفو زكاة الظفر^٢، وقال عليه السلام: العفو تاج المكارم^٣.

وعن أبي عبيدة قال: قلت للإمام الصادق عليه السلام: جعلت فداك، ادع الله لي، فإن لي ذنوبًا كثيرة، فقال: صه، يا أبا عبيدة، لا يكون الشيطان عوناً على نفسك، إنَّ عفوا الله لا يشبهه شيء^٤.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنَّه ما من مسلم يذنب ذنباً فيعفو الله عنه في الدنيا إلا كان أجل وأكرم من أن يعود عليه بعقوبة في الآخرة وقد أجله في الدنيا، وتلقاء هذه الآية: **وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَنِيدِيكُمْ وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**^٥. وأمر الله سبحانه عباده بالاتصال بالكرم، وجعل إكرام المؤمن إكراماً لله سبحانه، ووعد أهل الكرم والجود بعظيم الأجر والثواب.

١ - شرح نهج البلاغة ٤: ٤ ح ١١، عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ١٣٢.

٢ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٣٨.

٣ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ١٩.

٤ - كتاب الزهد، للحسين بن سعيد: ٩٩ ح ٢٦٧، بحار الأنوار ٦: ٥ ح ٦.

٥ - كتاب الزهد، للحسين بن سعيد: ٩٨ ح ٢٦٦، بحار الأنوار ٦: ٥ ح ٧ والآية في سورة الشورى: ٣٠.

ثم يحتاج الإمام عليه السلام على الله تعالى بأنّ حبه له ملكة راسخة متجلّدة، وأنّه سيخبر أهل النار بهذا الحب الذي لا يخالطه شوب، وأنّه سيبقى وبالحاج وانقطاع طالباً العفوه عن الإساءة والذنب من باب الكرم والتفضيل لا من باب الاستحقاق.

ويواصل عليه السلام احتجاجه على الله بمقدمة لطيفة مفادها أنّ الله يحب أن يدخل السرور على قلب نبيه محمد عليهما السلام، إذ هو الأقرب إلى ساحة العظمة الإلهية، وهو أحب خلقه إليه، فإذا دخل سبحانه مؤمناً النار فقد دخل السرور على قلب الشيطان. ولما كان سرور النبي عليهما السلام أحب إلى الله من سرور الشيطان، كان على الله لطفاً أن يغفو عن المؤمنين ويدخلهم الجنة ليفرح نبيه ويغيظ عدوه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

المبحث الحادي والتسعون: في القلب السليم

قال عليه السلام: اللهم إني أسألكَ أَنْ تَمْلأَ قلْبِي حُبَّاً لَكَ، وَخُشْيَةً مِنْكَ، وَتَضْدِيقاً
بِكتابِكَ، وَإِيمانًا بِكَ، وَفَرْقاً^١ مِنْكَ، وَشُوقًا إِلَيْكَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْأَكْرَامِ حَبِيبَ إِلَيَّ
لِقَائِكَ وَأَحِبَّ لِقَائِي، وَاجْعَلْ لِي فِي لِقَائِكَ الرَّاحَةَ وَالْفَرَجَ وَالْكَرَامَةَ، اللَّهُمَّ
الْحَقْنِي بِصَالِحٍ مِنْ مَضِيِّ، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحٍ مَنْ بَقِيَ وَخُذْ بِي سَبِيلَ
الصَّالِحِينَ، وَاعْنِي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَاحْتِمْ
عَمَلي بِأَحْسَنِهِ، وَاجْعَلْ ثَوَابِي مِنْهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ، وَاعْنِي عَلَى صَالِحٍ
أَعْطَيْتَنِي، وَثَبِّتْنِي يَا رَبِّ، وَلَا تَرْدَنِي فِي سُوءِ اسْتِئْنَادِنِي مِنْهُ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.
إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِنَا وَصُورَنَا، بل يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِنَا. والقلب هو التعبير عن
الروح والسريرة والصفات الباطنية، وأعظم ما في المؤمن سلامته قلبه حين لا
يكون فيه إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا
أَشَدُّ حُبَّاً لَهُمْ﴾^٢، وترجمة حب الله سبحانه هو التصديق العملي والاتباع لما جاء به

١ - الفرق: الخوف الشديد: فرق الإنسان يفرق فرقاً، إذا خاف. (ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٣٥)
«فرق»)

٢ - البقرة: ١٦٥.

النبي ﷺ من ربّه.

قال تعالى: ﴿إِنْ كُثُّرْتُمْ تُحْبِّبُونَ اللَّهَ فَأَتَيْتُمْنِي يُخْبِنُكُمْ اللَّه﴾^١.

والمحبة هي السرور والابتهاج عند حصول ما يلائم الطبع البشري بالتوصل إلى مرتبة من مراتب الكمال، والمحبة تناسب طردياً مع وجود الإرادة والشوق، والمحبة المفرطة يعبر عنها بالعشق، إن الإنسان قد يحب ويُعشق اللذات والمنافع، والشهوات والزخارف، وقد يُعشق شخصاً فيوليه اهتمامه ويتمنى لقاءه لاتحاد الأذواق والشمائل والصفات والسجايا.

وأعظم الحب ما كان لله وحده، إذ هنا تكون المعرفة بالله هي المنبع والداعي إلى حبه سبحانه، ومسيرة الحب لله وحده لا تقف إلا عند مرجأ التسليم لله والفناء في ذات المعشوق بالرجوع إليه.

وقد دحض الله حجّة اليهود بادعائهم أنّهم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس، إذ إنّ أولياء الله يتمنون لقاء المحبوب، قال الله تعالى: ﴿فُلْ يا أَئِمَّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعْمَتُمْ أَنَّكُمْ أُولَئِنَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَّنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُثُّرْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢.

نرجو مراجعة المبحث الثامن عشر المععنون: مبحث في الحب الإلهي.
وكما أن القلب يحتاج إلى الحب فهو يحتاج إلى الخشية. والخشية خوف يصاحبها تعظيم وتبجيل عن علم، ولذا خص الله العلماء بذلك إذ قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^٣.

وقلب المؤمن يحتاج إلى أن يُعمّر بالتصديق بالكتاب الذي جاء به

١ - آل عمران: ٣١.

٢ - الجمعة: ٦.

٣ - فاطر: ٢٨.

النبي ﷺ من عند الله ليكون دستوراً وهدى ورحمة، وشفاءً ونوراً لهذه الأمة. والتصديق هو الاعتقاد الثابت الناشئ عن علم راسخ وإيمان قاطع، والتطبيق العملي لأحكام الشريعة الغراء، والإيمان هو اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان.

ويحتاج القلب السليم إلى الخوف والرهبة من الله، والخوف حالة نفسية تعتبر عن الألم والقلق بسبب توقع مكروه أو فوائد منفعة عند حصول الأسباب الموجبة، ولو لا وجود الخوف في قلوب العباد لاتبعوا الشهوات وسلكوا مسالك الردى والبغى والعدوان، وقد ورد في الأثر: رأس الحكمة مخافة الله^١. وأهل الخشية أعظم درجةً من أهل الخوف، لأنَّ الخشية لا تكون إلا عن علم بعظمة الخالق وهيبته وجلاله، أو سُمِّها خوف الوعي.

والقلب يحتاج إلى الشوق، والشوق نزوع النفس وحركة الهوى نحو المحبوب. والشوق يستلزم الإرادة للسير نحو المحبوب وطلب رضاه، وكلما ازداد الشوق نفذ الصبر إلى أن يصل المحب إلى محبوبه.

إنَّ الإمام علي عليه السلام يسأل ربَّه أن يملأ قلبه بالحب الصادق والخشية منه، وبالتصديق بالكتاب العزيز، وبالإيمان والخوف منه، وبالشوق إلى لقائه، وأن يجعل في ذلك اللقاء الراحة من كُلِّ كدر، والخلاص من كُلِّ كرب، والكرامة التي هي من فيوضات الربوبية.

ويعود عليه السلام ليسأل الله سبحانه أن يجعله من أهل الصلاح، وأن يأخذ بيده بحسن التوفيق ليسلك سبيل الصلاح الذي قاد أصحابه إلى أعلى المراتب في

١- من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٦ ح ٥٧٦، مستدرك الوسائل ١١: ٢٢٩ ح ٧.

مراقي الرضا وسلام الكمال.

ثمَّ يعود الإمام عَلَيْهِ سَلَامٌ سائلًا ربِّه المعنونة على نفسه بما يعين الصالحين على أنفسهم، وأن يرزقه حسن العاقبة جاعلاً ثواب عمله الجنَّةَ وأن يعينه على صالح ما أعطاه من القوَّة والمال والفيوضات والمواهب والنعم، لأنَّ هذه الأسباب تحتاج إلى شكر، وإذا وقعت في أيدي الجُهَّال استعملوها سلاحاً فتاكيًّا للبغى والإيذاء، والتجرُّر والتكتُّر، والإفساد والانحراف.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينِ الطَّاهِرِينَ.

المبحث الثاني والتسعون: في النفس

لقد خلق الله الإنسان جسداً وروحاً، وهما لا يفتران إلا بالموت. ولصحة الجسد أثر على قوام النفس والروح وبالعكس، فلابد للعاقل أن يرعى صحتهما وصيانتهما من كل أذى وضرر.

وللجسد حاجات مادية كالغذاء والشرب، والدواء والملابس وغيرها، ولكن حاجات الروح أعظم، فهي تحتاج إلى العزة والكرامة، والمعرفة والحرية، والعدل والاستقرار، وإذا حرمنا الجسد من مطالبه عاد ضعيفاً سقيناً، وهذا يؤثر سلباً على جانب الروح، لأن العقل السليم في الجسم السليم. وحرمان النفس يورث الكآبة والعقد النفسية، والتهي والشقاء، والسعادة مجمع تحصيلي، لحالات الجسد ومتطلبات الروح.

لقد قسم العلماء والباحثون النفس إلى ثلاثة أنواع:

١. **النفس الأمارة بالسوء**: وهي التي تدعو صاحبها إلى اتباع الشهوات واللهث وراء النزوات والانغماس في دنيا الماديات بعيداً عن المقاييس الخلقيّة والأحكام الشرعية، وبهذا يكون هلاك صاحبها.

٢. **النفس اللؤامة**: وهي التي خلّطت عملاً صالحاً وأخرسته لكتها تحس بالندم والألم على ما فرّطت في جنب الله. فعسى الله أن يتوب عليها وقد تشملها بركة الشفاعة يوم الورود.

٣. النفس المطمئنة: وهي التي عرفت ربها فخضعت لأحكامه، وتأنبت بالأداب الإسلامية الصحيحة، ومارست دورها الجهادي والاجتماعي تحت منظار الرقابة الغيبية، وقد وعد الله هذه النفس بالرضا وبالجنة وباللهاق بعباده الصالحين.

الإمام عثيّلاً يسأل ربه أن يعينه على نفسه ليصونها من التمرّد والجموح إلى عالم الشهوة والهبوط إلى مرتبة الحيوانية، وإنقاذهما من الشذوذ والانحراف.

إنّ مسألة التصعيد الروحي عند الإنسان تحتاج إلى سلسلة من الأسباب، منها: المعرفة الحقة بالله وعظمته وقدرته، والنظر في ملوكوت السماوات والأرض بطريق علمي صحيح لينال بذلك الاستقرار والطمأنينة والراحة.

وتحتاج إلى إصلاح السريرة بتربيتها على فضائل الأخلاق ومكارم الأدب، كالصدق والإيثار والمرءة والشجاعة، والحب والتواضع، والصبر والإخلاص، كما تحتاج إلى إخراجها من ساحة مساوى الأخلاق كالكذب والرياء، والغش والنفاق، والغضب والعصبية، والغيبة والنميمة، والتكبر والبخل، والغفلة والقصوة.

وممّا يُستفاد من الحديث الشريف أنّ النبي ﷺ سمي جهاد النفس بالجهاد الأكبر، وأمر الإسلام أتباعه بمحاسبة النفس في كلّ يوم، فقد ورد في الأثر المعتبر: حاسبو أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن تُوزنوا^١، فال يوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل^٢.

وقال النبي ﷺ: من تساوى يوماه فهو مغبون^٣.

وعن الإمام موسى بن جعفر عثيّلاً قال: ليس منا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله تعالى منها

١ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ٢٣٤.

٢ - شرح نهج البلاغة ١: ٩٣ الخطبة: ٤٢.

٣ - الأمازي، للصدوق: ٧٦٦ ح ١٠٣٠، روضة الوعاظين: ٤٤٤.

وتاتب إلية^١.

والاهتمام بالجانب العبادي الوعي يصقل مراة النفس ويزيد في جلائها وصفاتها ونورانيتها، وينمي جانب الصبر والتحمل والطمأنينة والارتياح، وبذلك يرخّص عندها جانب الشهوات والماديات.

لقد كان النبي الأعظم عليه السلام الأسوة الحسنة لجميع البشر، وقد حصر عليه السلام مهمّة الرسالة الشريفة وكمالها بالجانب الأخلاقي، فقد ورد الأثر: إنما بعثت لأتمّ مكارم الأخلاق^٢، وإن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً^٣.

وندب الشارع المقدّس إلى خلوص النية عند الشروع بالعمل، فإنّ الأعمال بالنيات^٤، ونية المرء خير من عمله^٥.

والتفكّر في النفس وفي آيات الآفاق بذاته عبادة، فقد ورد في الأثر المعتبر: فكر ساعة خير من عبادة سنة^٦. لأنّ التفكّر هو الينبوع والرافد لكلّ عمل وتصرّف وسلوك، وقد صرّور لنا الإمام الحسين عليه السلام لذة المعرفة بأدقّ تعبير وأروعه إذ قال في مناجاته يوم عرفة: ماذا وجد من فدك وما الذي فقد من وجدك^٧.

إنّ الارتفاع في سلالم المعرفة والكمال لا حدود له، وكلّما ارتقى السالك وجد أمامه فسحة للترقّي والتكامل، فقد ورد في الأثر المعتبر: حسنات الأبرار سينات

١ - الكافي ٢: ٤٥٣ ح ١.

٢ - السنن الكبيرى، للبيهقي ١٠: ١٩٢.

٣ - الكافي ٢: ٩٩ ح ١، تحف العقول: ٤٧.

٤ - مسائل علي بن جعفر: ٣٤٦ ح ٨٥٢، دعائم الإسلام ١: ١٥٦.

٥ - المحاسن ١: ٢٦٠ ح ٣١٥.

٦ - غرر الحكم: ٦٥٣٧، بحار الأنوار ٦٨: ٣٢٥ ذيل ح ١٩.

٧ - صحيفه الحسين عليه السلام: ٢١٨، بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٦.

المقربين^١.

إن العبد يطير إلى ساحة القرب الإلهي بأجنحة الإيمان العملي الصادق، والتفكير والإذابة، والخشوع والخضوع، وعليه أن يقتلع جذور المعاشي والآثام من خفايا النفس وبواطنها بالتوبه والزهد، وترويض النفس واعتماد مبدأ المحاسبة والرقابة، وسلوك سبيل المتقين، وأن يوازن جانب الخوف والرجاء في نفسه، وأن يكون شاكراً لأنعم الله راضياً بقضاءه وحكمه، وعليه أن يقوى جانب الإرادة عنده بالحب والمعرفة واليقين، والتوكّل والرضا والتسليم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبـين الطاهـرين.

١ - تفسير الرازى ٣: ١٣، تفسير ابن عربى ١: ٢٤٩.

المبحث الثالث والتسعون: الأثر الإيجابي للموت

قال عليه السلام: اللهم إني أسألك أيماناً لا أحَل لَهُ دُونَ لِقائِكَ، أخْيِنِي مَا أخْيَيْتَنِي عَلَيْهِ، وَتَوَفَّنِي إِذَا تَوَفَّيْتَنِي عَلَيْهِ، وَابْعَثْنِي إِذَا بَعَثْتَنِي عَلَيْهِ وَأَبْرِئْ قَلْبِي مِنِ الرِّياءِ وَالشَّكِّ وَالسُّمْعَةِ فِي دِينِكَ، حَتَّى يَكُونَ عَمَلي خَالِصاً لَكَ، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي بَصِيرَةً فِي دِينِكَ، وَفَهْمًا فِي حُكْمِكَ، وَفِقْهًا فِي عِلْمِكَ، وَكَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَوَرَعاً يَخْجُزُنِي عَنْ مَعاصِيكَ، وَبَيْضَ وَجْهِي بِنُورِكَ، وَاجْعَلْ رَغْبَتِي فِيمَا عِنْدَكَ، وَتَوَفَّنِي فِي سَبِيلِكَ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مدخل لغوي :

الشك: قال الراغب في المفردات: هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشك ربما كان في الشيء، هل هو موجود أو غير موجود؟ وربما كان في جنسه، من أي جنس هو؟ وربما كان في بعض صفاته، وربما كان في الغرض الذي لأجله أوجد، والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه، لأنَّ الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأساً، فكل شك جهل، وليس كل جهل

شكاً^١. انتهى.

السمعة: طلب الصيت والذكر والوجاهة.

البصيرة: قوة الإدراك، العقل: الفطنة. والباصرة: هي الجارحة الناظرة، أي العين.

الفقه في اللغة: هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، وفي الاصطلاح: العلم بأحكام الشريعة.

كفلين: الكفل: الحظ، النصيب. والورع: حالة تحجز صاحبها عن ارتكاب الآثام والمعاصي. الملة: الدين، الشريعة.

ويتوجه الإمام عليه السلام إلى ربّه ليهبه إيماناً ثابتاً يلقاه به، فيقطع مسيرة الدنيا به، ويفدّ به على ربّه وليربّعث والإيمان خير زاده، ويسأله أن يبرئ قلبه من الرياء والشك والسمعة في الدين ليكون عمله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن لوازم الإخلاص نقاء القلب من الرياء، إذ جعلته الشريعة من مصاديق الشرك الخفي، وبه يحيط العمل، والرياء أمارة النفاق، وعلامة سوء السريرة، وسبيل أهل الدنيا الذميمة، وسلاح الشيطان على ابن آدم، والرياء مرض نفسيّ خطير يحتاج إلى علاج مبكر ودقيق، وإنّما فهو السُّم الزعاف الذي يقتل صاحبه من حيث لا يشعر، لأنّ المرائي يخداع ربّه، والله أعزّ من أن يُخدع.

وكما أنّ الإخلاص شجرة طيبة ثمارها العمل الصالح، فالرياء شجرة خبيثة تضرب بجذورها في أعماق النفس الإنسانية المظلمة، وثمارها النفاق ورذائل الأخلاق.

وقد ورد في الآثار المعتبرة أنَّ أدنى الرياء شرك^١، وأنَّ عمل المرائي لا يُقبل^٢، وأنَّ المرائي ظاهره جميل وباطنه عليل^٣.

ومن لوازم الإخلاص وصلاح القلب وسلامته الابتعاد عن السمعة وطلب الجاه بالباطل، وهنا قد يعمل الإنسان عملاً من دون الإعلان به، ويكون قصد القرابة متحققاً، لكنه يسعى لاحقاً لبث الدعاية لنفسه والتبصير بعمله طالباً رضا الناس ومدحهم وإطراءهم وثناءهم عليه، وقد أطلق بعض علماء الأخلاق على (السمعة) الرياء اللاحق.

ومن لوازم الإيمان الثبات على الحق من دون تزلزل أو حدوث حالة شك في الحقيقة المطلقة ليواصل مسيرته إلى الله بأمان.

ثم يتووجه الإمام عَلَيْهِ السَّلَام سائلاً ربه أن يشمله بفيوضاته وآلائه أسوة بالصالحين الذين مَنَّ عليهم بالحكم والعلم، والفهم والبصيرة، والفتنة والرشاد في إدراك حقائق الأمور، وأن يوليه كفلين من رحمته، أي نصيباً مضاعفاً، وأن يرزقه الورع الذي يحجزه عن الوقوع في المعاصي، وأن يلقاه بوجه مبيض بنور الإيمان وشعاع التقوى، وألق الإخلاص.

ثم يسأله عَلَيْهِ السَّلَام أن يهبه الزهد الحقيقي في الدنيا فتنحصر رغبته بما أعده الله لصالح المؤمنين يوم القيمة، ويسأله سبحانه أن يقبضه إليه وهو في ساحة الجهاد والعمل لله بما يطابق أحكام الشرع الحنيف.

من هذه المقدمة يريد الإمام عَلَيْهِ السَّلَام أن يفتح أعيننا على حقيقة مهمة، ألا وهي

١ - المعجم الكبير ٢٠: ٣٧.

٢ - الكبائر من الذنوب: ١٠٠.

٣ - عيون الحكم والمواعظ، للثبي: ٤٩.

مسألة الاهتمام بذكر الموت. إن الإمام عليه السلام ينظر إلى الموت النظرة الإيجابية الصحيحة التي استفادها من القرآن والسنّة وسيرة آبائه الكرام المعصومين عليهما السلام، فالموت لا يعني الفناء بالمعنى الدقيق الفلسفى، بل هو انتقال من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وما أعده الله لعباده هناك أعظم.

إن الإمام عليه السلام يعلم بما أفاضه الله عليه، ويرى بنور بصيرة الإلهية التي لا تخطئ أن الموت من أعظم الألطاف والفيوضات الإلهية على الإنسان، وهو دعوة للمؤمن إلى مأدبة الكرامة والإعظام في ظل المولى الكريم. والموت تحفة المؤمن وجزاؤه الموعود، وهو يوم جنى الثمار بعد طول معاناة ومكافدة.

وبالموت يتخلص الإنسان من قيود المادة، وسجون الشهوات والألام والمصائب والويلات، ومن مجاهدة النفس والأهواء المضلة.

ففي الآثار المعتبرة أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وأن الآخرة جنة المؤمن وسجن الكافر، وأن أكيس الناس وأرشدهم هو الذي يضع الموت نصب عينيه ليزداد إيماناً وعملاً، وصلاحاً ونفعاً، وعطاءً، وتواضعاً، وحسناً في المعاشرة، وصدقاً في المعاملة.

والمؤمن يفرح عند نزول الموت به لأنّه ذاهب لمقام كريم عند ملك مقتدر، والعاقل يعلم أنه لابد أن يموت، وأنه محاسب ومسؤول، فعليه أن يستمردنياه لآخرته، وأن يوجه طاقاته وغناه وقوته لنيل الدرجات العليّ يوم الورود، وإن ذكر الموت والخوف من سوء المال وأليم المنقلب له أثر إيجابي على سلوك الإنسان، فقد ورد في الأثر: إن الله خلق جهنّم من رحمته خوفاً يسوقهم به إلى الجنة.

فالخوف من العقاب، والرغبة في الأجر وعظيم الثواب حافزان لإصلاح الذات وتطهير السريرة، والإتيان بالصالحات التي تخدم العباد وتصلح البلاد.

وَمَا أَعْظَمْ وَأَبْلَغْ مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ قَالَ: يَا عَلِيَّ إِذَا ماتَ الْعَبْدُ قَالَ النَّاسُ: مَا خَلَفَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟^١

فَكُمْ هُوَ الْفَارَقُ بَيْنِ نَظَرَةِ النَّاسِ الْقَاصِرَةِ وَنَظَرَةِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ اللَّهِ
الْمُخْلصُونَ الَّذِينَ لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

المبحث الرابع والتسعون: في الكسل

قال عليه السلام: اللهم إني أعوذ بك من الكسل والفشل والهيم والجبن والبخل والغفلة والقسوة والمسكنة والفقر والفاقة وكل بلية، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بك من نفس لاتقنع، وبطن لا يشبع، وقلب لا يخشع، ودعا لا يسمع وعمل لا ينفع، وأعوذ بك يا رب على نفسي وديني ومالي وعلى جميع ما رزقتنني من الشيطان الرجيم إنك أنت السميع العليم.

مدخل لغوي :

الكسل: هو التثاقل والفتور عما لا ينبغي التثاقل عنه، ولأجل ذلك صار مذموماً.

الفشل: ضعف وترابخ عن جبن عند الشدة.

الهيم: الحزن الشديد.

الجبن: ضعف القلب، وهو ما يقابل الشجاعة والإقدام.

البخل: إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه، ويقابله الجود والسخاء والكرم. والحرص: هو الجشع والبخل.

الغفلة: سهو يعتري الإنسان في قلة التحفظ والتيقظ.

القسوة: غلظة القلب ويعقابلها الرحمة والرقة.

المسكنة: الفقر والذلة والضعف، والمسكين أسوأ حالاً من الفقير.

الفقر: ضد الغنى، وذلك أن يصبح الإنسان محتاجاً أو ليس له ما يكفيه.

الفاقة: حالة أشد من الفقر.

الفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وكثيراً ما تطلق على الزنا.

القناعة: الاجتناء والرضاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها، وهو ضد الشره

والطعم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَأُونَ النَّاسَ وَلَا يُذَكَّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^١.

الكسل من الصفات الذميمة التي لا تتفق مع مبادئ الشرع الحنيف ولا مع الذوق البشري السليم، وقد وصفت الآية الشريفة المنافقين بأنهم بسبب جهلهم يخدعون الله وهو خادعهم^٢، وأنهم من الكسالى إذا توجّهوا إلى الصلاة، ووصفهم الله بالرياء وقلة الذكر لله، لقد قرن الله الكسل بأرذل الصفات وأشدّها كفراً كالرياء والمخداعة لله.

إن النفس الإنسانية قد تميل إلى الراحة والدعة، وقد تدعو صاحبها إلى اتباع الهوى، فليكن المؤمن على حذر من إعطاء النفس كلّ منها، وإدخاء العنان للشهوات والنزوات، وعليه أن يبرمج وقته ليغتنم ساعات عمره في الطاعات وعمل الصالحات، وأن يراقب نفسه ويحاسبها كلّ يوم، وعليه الاهتمام

١ - النساء: ١٤٢.

٢ - ونسبة الخدعة إلى الله تعالى لا تصح إلا على مبني المشاكلة.

بالجانب العبادي، وتركيز الرقابة الغيبية في ذهنه، إن الذي يقع في شرك الكسل فإنه يضيّع العمر الذي هو رأس ماله فيخسر الآخرة، وإذا تكاسل عن أمر المعاش أفسد أمر دنياه ومستقبله ومستقبل عياله، لأن التكاسل مركب يقود إلى الفقر والاتكال على الغير.

إن تربية النفس وتحصينها من وساوس الشيطان يقتضي أن نتحرر حتى من بعض المباحثات مثل كثرة النوم والطعام، والشراب واللهو، واللعب والراحة، والاستجمام، لأن هذه الأمور تقود إلى الفتور.

قال الإمام الصادق عليه السلام: لا خير في العيش إلا لرجلين: رجل يزداد في كل يوم خيراً، أو رجل يتدارك سيئته بالتنورة^١.

وقال النبي عليه السلام: يا أبا ذر، حاسب نفسك قبل أن تُحاسب، وزن نفسك قبل أن تُوزن، وتجهز للعرض الأكبر يوم تعرض، لا تخفي على الله خافية. يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه^٢.

وقال عليه السلام: أكيس الكيسيين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت^٣.

وورد في الأثر: على العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له أربع ساعات: ساعة ينادي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتذكر فيها صنع الله إليه، وساعة يخلو فيها بحظ من الحلال، فإن هذه الساعة عنون لتلك

١ - تأویل الآيات ١: ٣٥٤ ح ٥، الخصال: ٤١ ح ٢٩.

٢ - مكارم الأخلاق: ٤٦٥ و ٤٦٨.

٣ - محاسبة النفس: ١٣.

الساعات واستجمام القلوب^١.

وقال علي عليه السلام: ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم، أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيَّ خيراً، واعمل فيَّ خيراً^٢.

إنَّ على المؤمن أن يختار الأصدقاء والرفقاء من أهل النشاط والطاعة، وأن يتجنب مجالس البطالين خوف التأثر بهم، قال الإمام الصادق عليه السلام: لا تستعن بكسلان، ولا تستشير عاجزاً^٣.

وقال علي عليه السلام: إنَّ الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر^٤.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

١ - الخصال: ٥٢٥ ح ١٣.

٢ - الأمازي، للصدق: ١٦٩ ح ١٦٦.

٣ - الكافي ٥: ٨٥ ح ٦.

٤ - الكافي ٥: ٨٦ ح ٨

المبحث الخامس والتسعون: في الهم والحزن

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ تَفْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْفَمِ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^١.

وقال النبي ﷺ: من أصابه هم أو غم أو كرب أو بلاء، أو لأواء^٢ فليقل: الله ربِّي لا أشرك به شيئاً، توكلت على الحي الذي لا يموت^٣. وعن علي عليه السلام: الهم نصف العمر-الهرم -^٤.

وقال النبي ﷺ: يا علي، خمسة تسعة في الشيب منها كثرة الهم.
والحزن: هو التحسُّر والتألم لفقد محبوب أو فوت مطلوب.

لقد خلق الله الإنسان في عالم الدنيا، وجعله محظ ابتلاء واختبار، والحياة لا تخلو من المنعّصات والمصائب، والمرض والفقير، فقد الأحبة، وكلّما زيد في إيمان المرء زيد في بلائه، والناس ليسوا سواءاً، فأهل العرفان متعلقة قلوبهم بالله،

١- الأنبياء: ٨٧ - ٨٨

٢- للأواء: الشدة والبؤس. (ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٢٦٠ «الأى»)

٣- الكافي ٢: ٥٥٦ ح ٢.

٤- شرح نهج البلاغة ٤: ٣٤.

ويسعون لنيل الكمالات المتعالية، بعيداً عن الأماني الضالة التي هي بضائع الثوّكى^١، فهم أكبر من الهم والحزن على أمر من أمور الدنيا، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرَجُونَ﴾^٢.

ورد في الحديث القدسي: يا داود، ما لأوليائي والهم بالدنيا، إنّ الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، إنّ محبتني من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتّمون^٣.

وعن علي عليه السلام قال: ما العلی وزينة الدنيا، وكيف أخرج بلذة تفني ونعم لا يبقى^٤، وورد في الحديث القدسي: إنّ الله تعالى بحكمته وجلاله، جعل الرّفوح والفرج في الرضا واليقين^٥.

وعندما تحول هذه الصفات إلى ملكات راسخة متجلّدة في أعماق النفس، يرتفع الحزن والهم على زخارف الدنيا، ويعيش الإنسان بلا فزع ولا جزع ودون حسرة بعيداً عن القلق والحيرة.

وكثيراً ما نجد باعث الحزن والهم عند مشاهدة بعض المترفين وهم غارقون في نعم الله من مال وجه، ونساء ومراکب، ومساكن وضياع ومتاجر، ولكن الله خاطبنا وأرشدنا، وهو رب الناصح الأمين، البر الرحيم بعباده، والخطاب موجه

١ - النوك: الخنق، رجل نوك وامرأة نوكاء من قوم نوكى ونوك. (ترتيب جمهرة اللغة ٤٨٥: ٣ «نوك»)

٢ - يونس: ٦٢.

٣ - مسكن الفؤاد: ٨٠

٤ - جامع السعادات ٣: ١٧٣.

٥ - التوحيد، للصدوق: ٣٧٥ ح ٢٠، روضة الوعاظين: ٤٢٦.

إلى النبي تشريفاً له، والمقصود به الأمة: قال تعالى: «وَلَا تَمْدُنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا
بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِتَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَنْقَبَ»^١.

لقد أرشدنا القرآن أنَّ الدنيا وملذاتها نعيم زائل، وهي بمثابة سراب بقيعة يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه. إنَّ العاقل هو الذي يأخذ من دنياه بقدر الضرورة ليتفرغ إلى نيل الكمالات الإلهية.

حدَّثني أحد أساتذتي أنَّ أحد مراجع الدين العظام ورث مالاً من والده، ففرقه على الطلبة والمحتاجين في نفس الليلة، ولم يبق لنفسه شيئاً، وعلل ذلك لمن سأله بأنَّ المال يصد عن نيل الكمالات، وأنَّ طلب العلم في الفقر والغربة. إذن لا توجد ملازمة بين الحزن وفوات المطلوب والمرغوب أو فقدان المحبوب، بل هي النفس الإنسانية وجوهرها ومرتبتها في سلم المعرفة والعرفان، ولكن الغالبية العظمى من الناس لم يصلوا إلى هذه المراتب الراقية، فهم يألمون ويحزنون ويعرضون لنزول أقل بلاء أو فوات أي منفعة، ولم ينس الشارع المقدس تقديم العلاج لمثل هؤلاء.

فقد ورد أنَّ النبي ﷺ وأئمَّة الهدى كانوا يوصون بعض البسطاء من المهمومين بأكل العنبر والسفرجل، ولبس النعال الأصفر، وعدم لبس السراويل من قيام وغيرها^٢.

إنَّ العاقل ينبغي أن يعلم أنَّ المال والأهلين والفيوضات والنعم والآلاء هي

١- طه: ١٣١.

٢- انظر: الكافي ٦: ٣٥١ باب العنبر.

ودائع مستردة من واهبها، وأنَّه المُهَم الذي يصيَّبنا ونحن نقابلُه بالصبر أو الشكر سيكون كفارةً لذنبنا، أو رفعَةً لدرجاتنا وتعظيمًا لأجرنا.

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ^١ لَا بَدْ يَوْمًا تُسْتَرَدَ الْوَدَائِعُ^٢

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ العبد إذا كثُرت ذنوبه، ولم يكن من العمل ما يكفرُها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها^٣، وإنَّ من الذنوب ذنوبًا قد تناهَت في العظم فلا يكفرها إِلَّا الْهَمُ وَالْغَمُ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَصَابِ^٤.

وقال النبي ﷺ: ما يزال الْهَمُ وَالْغَمُ بِالْمُؤْمِنِ حَتَّىٰ مَا يَدْعُ لَهُ ذَنْبًا^٥.

وقال الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا يزال الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِي جَسْدِهِ وَمَالِهِ وَوْلَدِهِ حَتَّىٰ يُلْقَى اللَّهُ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةً^٦.

إنَّ الحزن الإيجابي الممدوح يجب أن يكون في قلب المؤمن، وهو يعلم أنه على جناح سفر إلى عالم مجهول لا يعلم فيه مصيره، فأمامه عالم البرزخ وحساب القبر والوقوف بين يدي الله في عرصات القيامة، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إِلَّا أحصاها شاهدٌ عليه، بل تشهد عليه أعضاؤه وجوارحه وجلدُه وحواسُه، يحزن لأنَّه على حذر شديد من الانزلاق في مهافي المعصية والانحراف وسلوك أودية الغفلة.

روي أنَّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: إِلَهِي أَمْرَتِنِي أَنْ أَطْهَرْ وَجْهِي وَبَدْنِي بِالْمَاءِ، فِيمَ أَطْهَرْ

١ - حكاية ابن عبد البر في الاستذكار: ٣: ٨٢ عن أبيه، لسان العرب: ٤: ٦٠٣.

٢ - كتاب التمحیص: ٤٤ ح ٥٦.

٣ - الدعوات، للراوندي: ٥٦ ح ١٤١ بالمضمون.

٤ - الكافي: ٢: ٤٥٥ ح ٧.

٥ - مسنَدُ أَحْمَدَ: ٢: ٤٥٠.

لَكَ قُلْبِي؟ قَالَ تَعَالَى: بِالْهَمْوَمِ وَالْغَمْوَمِ^١.

وَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيْنَ نَجْدُ اللَّهَ تَعَالَى؟ فَقَالَ: عِنْدَ الْمُنْكَسَرَةِ قُلُوبُهُمْ^٢.

إِنَّ الْحَزْنَ لِلآخِرَةِ مَمْدُوحٌ مُحْمَودٌ، وَالْحَزْنَ لِلدُّنْيَا مَذْمُومٌ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ
إِلَيْهِ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَوْحَى اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عِيسَى،
هَبْ لِي مِنْ عِينِكَ الدَّمْوعَ، وَمِنْ قَلْبِكَ الْخُشُوعَ، وَاکْحُلْ عِينِكَ بِمِيلِ الْحَزْنِ
إِذَا ضَحَّكَ الْبَطَالُونَ، وَقُمْ عَلَى قُبُورِ الْأَمْوَاتِ فَنَادَهُمْ بِالصَّوْتِ الرَّفِيعِ لِعَلَّكَ تَأْخُذُ
مَوْعِظَتِكَ مِنْهُمْ وَقُلْ: إِنِّي لَاحِقٌ بِهِمْ فِي الْلَّاهِقِينَ^٣.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

١ - الدعوات، للراوندي: ٥٦ ح ١٤٢.

٢ - الدعوات، للراوندي: ١٢٠ ح ٢٨١.

٣ - الأُمَالِيُّ، للمفید: ٢٣٧ ح ٣.

المبحث السادس والتسعون: في الجبن

لقد خلق الله الإنسان جسداً وروحاً وغرائز، وهذه التركيبة العجيبة تحتاج إلى الحفاظ على هذه البرمجة الرائعة، فكل مولود يولد على الفطرة، ولكن المجتمع والمحيط الخارجي يشوش عليه الرؤية ويخلط عليه الأوراق، وربما يقوده ذلك إلى الانحراف.

وعلم الأخلاق هو المتكفل بتحديد الفضائل وفرزها عن الرذائل، ويهيئ للإنسان الفكر النقي والأجواء الصالحة لاعتماد جانب الخير، وينمي هذه الصفات لتكون ملكات راسخة متجذرة لا تؤثر عليها عواصف الشر.

وقال علماء الأخلاق: إن في النفس الإنسانية أربعاً من المنظومات المعتبر عنها بالقوى وهي:

١. القوة العقلية، وأثرها التمييز بين موارد الخير والشر، ودعوة الإنسان إلى سلوك الصلاح، وهذا هو دور العقل النظري.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^١.

٢. القوة الغضبية: وأثرها تحفيز الإنسان للدفاع عن نفسه أو دينه أو عرضه،

وعن القيم والمقامات.

٣. القوة الشهوية: ومنها يصدر التوجّه إلى إشباع الفرج والبطن.

٤. القوة الشيطانية: وأثرها واضح في تشخيص موارد الضلال والحيلة، والمكر والخداع، والتوصيل إلى الأغراض الرذيلة بأختى الوسائل والسبل وكل قوة من هذه القوى لها ثلاثة حالات، أفضلها حد الاعتدال والوسطية.

يقول العلامة السيد الطباطبائي رحمه الله في الميزان: وحد الاعتدال في القوة الشهوية، وهي استعمالها على ما ينبغي كما وكيفاً يسمى عفة، والجانبان في الإفراط والتفرط الشره والخمود، وحد الاعتدال في القوة الغضبية هي الشجاعة، والجانبان التهور والجبن، وحد الاعتدال في القوة الفكرية يسمى حكمة، والجانبان الجربزة^١ والبلادة، وتحصل في النفس من اجتماع هذه الملكات ملكة رابعة هي كالمزاج من الممتزج وهي التي تسمى عدالة^٢. انتهى.
إذن ستكون أصول الأخلاق الفاضلة: العفة والشجاعة والحكمة والعدالة، وإن الملكات هي علم مقتنٍ بالعمل والتطبيق المستمر وبالثبات فتحول إلى قضايا راسخة ثابتة.

وحال الجبن والخوف المذموم غير المسوغ من الرذائل، إذ هو من التفرط في الحركة للدفاع عن النفس والحرمات، وهنا يكون الإنسان ذليلاً، مسلوب الحقوق، ممسوخ الشخصية، معدوم الكرامة، مهدور المروءة، وهذا ينافي ما جاء به الشارع المقدس لإسعاد الإنسان وإكرامه باعتباره خليفة الله في أرضه، قال

١ - جَرْبَزُ الرَّجُلِ: ذَهَبَ أَوْ انْقَبَضَ. وَالْجَرْبَزُ: الْخَبَّ من الرجال، ورجل جَرْبَزٌ بَيْنَ الْجَرْبَزَاتِ، أي خَبَّ.

(لسان العرب ٥: ٣١٨ «جربز»)

٢ - تفسير الميزان ١: ٣٧١.

النبي ﷺ: لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً^١.

وكان النبي ﷺ والأئمة الهادأة عليهما السلام يتغذون من الجبن في موارد أدعيتهم ومناجاتهم، وقد رسم علماء الأخلاق المناهج التربوية العلمية لعلاج حالة الجبن عند الإنسان لغرس مبدأ الشجاعة والإقدام عنده، وضد الجبن هو التهور، ويعني الإفراط في الإقدام فيما لا يصح الإقدام عليه، وهو ممنوع شرعاً وعقلاً.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

المبحث السابع والتسعون: في الحرث

عوداً على بدء، فإن الكرم والجود من السجايا الفاضلة، وطرفاه السلبيان: التبذير وإفراطاً والبخل والحرث تفريطاً، وقد ذم القرآن هذه الملكرة الرذيلة في مواطن كثيرة، قال تعالى: ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَنْخُلُ وَمَنْ يَنْخُلُ إِنَّمَا يَنْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَنْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرُّ لَهُمْ سَيْطَوْقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^٢.

والبخل من المصاديق العملية لحب الدنيا وطول الأمل وسوء الظن بالله، والبخيل بعيد عن الله وبعيد عن قلوب الناس، ونعم ما وصفه سيد البلغاء أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء^٣.

ومعظم البخلاء يمنعون الحقوق الشرعية المترتبة على أموالهم، فيكون هذا

١ - محمد عليه السلام: ٣٨.

٢ - آل عمران: ١٨٠.

٣ - شرح نهج البلاغة ٤: ٢٩.

المال وبالأَ علىهم، وكثيراً ما يضيقون على أولادهم وذرّتهم بما يوجب لهم المقت، وقد تصل النوبة إلى أن يقوم الأبناء بسرقة أموالهم أو قتلهم كما شاهدناه عياناً.

وقد ورد في الحديث أنَّ الطمع والحرص الفقرُ الحاضرُ^١.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: حُرم الحريص خصلتين ولزمته خصلتان: حُرم القناعة فافتقد الراحة، وحرم الرضا فافتقد اليقين^٢.

وقال علي عليه السلام: البخل جامع لمساوئ العيوب^٣.

والحرص مفسدة للدين وهدم للمرءة، ومسخ للقيم والكمالات الإنسانية. لقد أعطى الإسلام العلاج الناجع لذوي الحرث والبخل، فرغَب القرآن الكريم إلى الإنفاق في سبيل الله وإيثار الغير على النفس، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^٤.

وقال سبحانه في أهل البيت عليهما السلام: ﴿وَيُظْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُظْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^٥.

وظلَّ هذا الكرم قرآنًا يُتلى يشيد بذكرهم وكرمهم إلى يوم القيمة. وروي أنَّ علياً عليه السلام بكى يوماً، فسئل عن سبب بكائه، فقال عليه السلام: مضت لنا

١ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي: ١٥٩.

٢ - الخصال: ٦٩ ح ١٠٤.

٣ - شرح نهج البلاغة ٤: ٩٠.

٤ - الحشر: ٩.

٥ - الإنسان: ٨ - ٩.

سبعة أيام ولم يأتنا ضيف^١.

وقال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو من أجود العرب، لأولاده: يا بني إن الله عوّدني أن يمدّني، وعوّدته أن أجود به على خلقه، فأخاف أن أقطع العادة فتنقطع المادة^٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: شاب سخى مرهق بالذنوب أحب إلى الله عزوجل من شيخ عابد بخيل^٣.

وقد وعد الله المنافقين بالخلف عند الإنفاق، ودعاهم إلى ترك سوء الظن بالله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^٤.

ويصرّح الحديث الشريف بهذه المضامين العالية قائلاً: حسب البخيل من بخله سوء الظن برّبه، من أيقن بالخلف جاد بالعطية^٥.

ولما قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول الله تعالى: ﴿أَلَهَا كُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^٦، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يقول ابن آدم مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت^٧.

وقد أوعد القرآن الكريم أهل الحرث من مانعي الحق الشرعي بأشد العذاب

١- مناقب ابن شهر آشوب ١: ٣٤٧، بحار الأنوار ٤١: ٢٨ ح ١.

٢- الاستيعاب، لابن عبد البر ٣: ٨٨٢ بالمضمون.

٣- الكافي ٤: ٤١ ح ١٤.

٤- سيبا: ٣٩.

٥- الاختصاص، للمفید: ٢٣٤.

٦- التكاثر: ١ - ٢.

٧- الأمالی، للطوسی: ٥١٩ ح ١١٤١.

الأخروي، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُخْمَسُ عَلَيْهَا نَارٌ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَّتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾^١.

ونختتم هذا المبحث بهذه التحفة البلاغية عن أمير المؤمنين عليه السلام: إن المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله، لا مالاً حمل، ولا بناءاً نقل^٢.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١ - التوبة: ٣٥.

٢ - شرح نهج البلاغة ١: ٢٢٤.

المبحث الثامن والتسعون: في الغفلة

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^١.

الذكر يكون مرّة من الله سبحانه للعباد، وهو متحقق ابتداءً، فالله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهيأ له أسباب المعاش، وأسباب الهدایة، فجعل العقل والفطرة بمثابةنبي باطنی، ثم أرسل الرسل والأنبياء وأنزل معهم الكتاب والمیزان، وهذه الشرائع المقدّسة جاءت كنظريات لسد حاجة الروح والجسد، ولتقديم الطروحات والتشريعات للمشاكل الفردية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

إن الدين هو النظام الصالح الذي يتکفل بإسعاد الإنسان إذا اتبّعه، وجاء دور الأنبياء والمرسلين والأئمة الھداة لقيادة الأمة وتربيتها، فكانوا المثل الأعلى والأسوة الحسنة في الفكر والسلوك وحسن السيرة. والإسلام هو الشريعة الخاتمة، وقد ربطت الإنسان بخالقه، والأرض بالسماء، والعمل بالجزاء، والدنيا بالأخرة

بأوضح رؤية.

الذكر من الإنسان هو تقديم فروض العبودية لله سبحانه، وعليه تقديم فروض الطاعة لله ورسوله بالعبادة واتباع ما أنزل الله من أحكام.

وعندما ينحرف الإنسان عن مسار الفطرة ويقع في حبائل الشيطان ومستنقع الغرائز والشهوات، وينشد إلى عالم التراب والزخرف، فقد خرج من دائرة الذكر ووقع فريسة بين مخالب الغفلة، وهنا يفقد إنسانيته ومبادئه وأخلاقه والاستقرار الذي كان فيه، وقد تصل به النوبة إلى ممارسة الرذائل الفاحشة ومحاربة أولياء الله.

والذكر لله قد يكون لفظياً كالتسبيح والتهليل والتحميد والاستغفار والمناجاة، وقد عبر عنه على لسان الروايات أنه مجالسة الذاكرين لله. والذكر العملي هو ذكر الله بالطاعة والعبادة، والاستقامة والاتباع.

قال الإمام الصادق عليه السلام لأحد تلامذته: ألا أحدثك بأشد ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى، قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته^١.

وعندما تصدر المعصية من الإنسان عن غفلة، فإن الله فتح باب التوبة والرجوع إلى ساحة رحمته، وجعل الذكر الرياح التي تقنع سحب الوساوس، والنور الذي يزيل الظلمات من القلوب.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا مُنْ مُبْصِرُونَ»^١.

إن الله سبحانه لا يؤاخذ أحداً أو أمة بعذاب ما لم يقم عليه الحاجة، فالحججة العقلية والفطرية قائمة، والحججة الخارجية المتمثلة بتقديم أسباب الهدایة السماوية قائمة، ولكن الخطورة تكون عندما تسيطر الأهواء والنزوات، وتعمى القلوب عن مشاهدة الحق، عندما تضرب المعا�ي بظلماتها على النفوس، فهنا تتأصل ملكات الشر والانحراف والضلال، ويحل الشقاء عليهم بالإهلاك الدنيوي والعذاب الأخرى.

وإغفال القلب من قبل الله سبحانه إنما يكون على سبيل المجازاة للمعاندين الضالين فقد قال سبحانه وتعالى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا»^٢.

وقد أساء الفهم من نظر إلى الآية بمنظار الجبر وسلب الاختيار. وفي هذه الظروف العصيبة تشتد مسألة الغفلة، وذلك بسبب المعاشرة لرفقاء السوء، والانتماء إلى الأحزاب الضالة والجمعيات المنحرفة، والانشداد إلى القنوات الإعلامية المفسدة، وما عسى أن يفعل الوالدان في مثل هذه الأجواء المعقدة والمشاكل الشائكة والأزمات المتعددة، فلقد سرى هذا الداء إلى كثير من العوائل والأفراد فأغرقوهم التيار وهم لا يشعرون.

وصدق النبي ﷺ إذ قال: ثلات أخافهن بعدي على أمتي: الضلاله بعد

١ - الأعراف: ٢٠١.

٢ - الكهف: ٢٨.

المعرفة، ومضلالات الفتنة، وشهوة البطن والفرج^١.

وروي في حديث المعراج، ذلك الخطاب الإلهي الرائع: يا أَحْمَدُ، أَنْتَ لَا
تَغْفِلُ أَبَدًا، مَنْ غَفَلَ عَنِّي لَا أَبَالِي بِأَيِّ وَادِ هَلَكَ^٢.

وقال علي عليهما السلام: الغفلة تكسب الاغترار وتدني من البوار^٣.

وقال عليهما السلام: ويل لمن غلبت عليه الغفلة فنسي الرحلة ولم يستعد^٤.

وقد ذكر علماء الأخلاق أن الغفلة بمثابة السكر الضارب على العقل، وعوامل الغفلة كثيرة منها: الجهل والعناد، والغرور والكبر، والتسلط والغرق في أسباب النعم، وطول الأمل في هذه الدنيا، لذلك نجد أن من إفرازاتها القسوة والإفساد، والتمادي في الغي والعمى عن رؤية الحق، نعوذ بالله من الغفلة وسوء الحال.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

١ - الكافي ٢ : ٧٩ ح ٦.

٢ - إرشاد القلوب : ٢٠٥.

٣ - عيون الحكم والمواعظ، للبيهقي : ٦٥.

٤ - نفسه : ٥٠٤.

المبحث التاسع والتسعون: في القسوة

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسْتَ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^١.

الآية الشريفة تخاطب اليهود الذين ظبوا على الكفر والعناد والقسوة والبخل، فشبّهت قلوبهم بالحجارة، بل فضلت الحجارة على قلوبهم، إذ من الحجارة لما يتفجر منها الأنهر، وإن منها لما يهبط من خشية الله، أما قلوبهم فقد نزعـت منها الرحمة والرقة والانقياد لله.

قال سبحانه: ﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِيثَاقُهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^٢.

وهذه الآية تتحدث عن سلوكية اليهود الذين عرفوا بنقض العهد مع الله ورسله، فكان لذلك الخرق السلوكي أثراً وضعي جزائي، وهو قسوة القلب، وهذه القسوة قادتهم إلى تحريف الكتب السماوية، وبهذا سجلوا على أنفسهم أعظم

١ - البقرة: ٧٤.

٢ - المائدة: ١٣.

درجات الخيانة لله ولرسوله وللأئمة.

قال عز علاه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوْيَلُ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^١.

القرينة هنا تشير إلى أن قساوة القلب المشار إليها هي عدم انشراح الصدر لتلقي النور الإلهي، وهذا الانغلاق والصدود والإعراض هو الذي قادهم إلى القسوة والجحود.

إن المعاشي والذنوب توجب سواد القلب، والتمادي في ذلك يؤدي إلى الطبع عليها، وربما يؤدي إلى موتها، فيكون الإنسان أشد ضلالاً من الأنعام وأقسى من الحجارة، وإن المعاشي تقييد الإنسان عن فعل الطاعات وإتيان المبررات، وتقوده إلى ولية الشيطان، فلقمة الحرام والخوض في الشبهات له أثر وضعى على النفس الإنسانية سلباً، وطول الأمل ينسى الآخرة ويزرع القسوة في القلوب.

قال تعالى: يا موسى، لا تطول في الدنيا أملك فيقسوك قلبك^٢.

وقساوة القلب وغلظته تورث الغفلة وتصد عن سبيل الله، بل تؤدي إلى الكفر، وقد كان الأنبياء والأئمة الهداء لا ين Sheldonون إلى الدنيا ونعيمها وزخرفها، بل يأخذون منها بقدر الحاجة والضرورة.

قال الصادق علیه السلام: ما منزلة الدنيا من نفسي إلا بمنزلة الميتة، إذا اضطررت إليها أكلت منها^٣، بل كان أتباع الرسل والأئمة والعلماء الربانيون يتجرّبون

١ - الزمر: ٢٢.

٢ - الكافي ٢: ٣٢٩ ح ١.

٣ - تفسير القمي ٢: ٤٦.

المباحثات التي تورث قساوة القلب مثل: ترك الذكر، فإن تركه نسيان الله، ومثل كثرة الأكل والشرب، والإفراط في النوم، وتأخير الصلاة عن وقتها، وكثرة الكلام في الفضول، وكثرة الضحك، وجمع المال، ومجالسة الأغنياء، وزيارة السلطان وغيرها.

وقد ندب الإسلام إلى ممارسة أسلوب الرحمة والرقة والرأفة بالعباد، وهذه السلوكية تعتبر دواءً ناجعاً لزوال القسوة من القلب بال التربية.

قال النبي ﷺ: يا علي، خمسة تجلوا القلب وتحذهب القساوة: مجالسة العلماء، ومسح رأس اليتيم، وكثرة الاستغفار بالأحس哈尔 وترك السمر الكثير، والصوم بالنهر، يا علي، تنور القلب قراءة قل هو الله أحد، وقلة الأكل، ومجالسة العالم، وأكل حبت الغلات^١.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين المعصومين.

١- الغلة: الدخل من كراء دار وأجر غلام وفائدة أرض. والغلة واحدة الغلات. (لسان العرب ١١ ٥٠٤ «غلل»)

المبحث المائة: في الفقر

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^١.

وقال سبحانه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^٢.

إن الله هو الخالق والمدير لأمر الإنسان، وبهذا يكون له الغنى المطلق إذ كل شيء قائم به، أما الإنسان فهو مخلوق مدبر فيكون متخصصاً بالفقر المطلق. وحاجة الإنسان إلى ربها أعظم من بقية المخلوقات كالملائكة والجن والحيوانات والنباتات، وهو معلوم بالفطرة.

لقد توهّم المشركون أن الله بحاجة إلى عبادتهم لذلك أرسل الرسل والأنبياء، وأنزل الكتب السماوية للدعوة الإلهية، وتوهّموا أن في مقدور آلهتهم تقديم الدعم والعون لهم للاستغناء عن تدبير الله.

ومن هذا نستنتج أن الغنى المطلق لله وحده، وأن الفقر المطلق للإنسان ولغيره من المخلوقات.

يقول الخواجة نصیر الدین الطوسي في أوصاف الأشراف متحذّلاً عن الفقر:

١- فاطر: ١٥.

٢- القصص: ٢٤.

يُراد به من لا يرحب في المال ولا في المقتنيات الدنيوية، وإن حصل في يده مال لم يكن مهتماً بمحافظته - لا للجهل أو العجز أو الغفلة أو الجاه وذكر الخير والإيثار والسخاوة، ولا من جهة الخوف من عذاب النار وطلب ثواب الآخرة - بل لعدم التفاته إلى ما سوى الحق اللازم لسلوكه طريق الحقيقة ومراقبة الجانب الإلهي، لئلا يصير محجوباً عن الحق، وفي الحقيقة هذا الفقر شعبة من الزهد.

قال النبي ﷺ: ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: كل ضعيف مستضعف أغبرأشعث، ذي طمرين، لا يعبأ به، لو أقسم على الله لأبره^١ انتهى.

والفقر الممدوح محمود هو الذي يكون معبراً عن الزهد الحقيقي، فقد ورد في فضله قول النبي ﷺ: يدخل القراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ومقداره خمسمائة عام^٢.

وعن الإمام الصادق ع عليهما السلام قوله: إن فقراء المسلمين يتقلبون في رياض الجنة قبل أغنىائهم بأربعين خريفاً^٣.

ومثل هؤلاء يخفّ حسابهم إذ لا يحاسبون على ولایة ولا على منع الحق الشرعي، ولا غلط حقوق الناس، ولا كثرة المشاكل بالعمل والأغراض الدنيوية. وورد على لسان الروايات أنَّ الفقر حلية الأولياء وشعار الصالحين^٤، وأنَّه

١ - أوصاف الأشراف: ٥٠ ، جامع السعادات ٢: ٦٤.

٢ - مسنن أحمد ٢: ٥١٣.

٣ - الكافي ٢: ٢٦٠ ح ١.

٤ - حلقة الداعي: ١٠٦.

اليقين وفراغ القلب، وخفّة الحساب^١.

وليس هناك من تعارض حين يحارب الإسلام الفقر والفاقة ويسعى إلى إيجاد الضمان والتكافل الاجتماعي من أجل توفير لقمة العيش وتأمينها لأبنائه، فلل الفقر آثار سلبية على الفرد والمجتمع، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: كاد الفقر أن يكون كفراً^٢.

وقال علي عليه السلام: الفقر الموت الأكبر^٣.

ثم قال عليه السلام: من ابتلي بالفقر فقد ابتلي بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياة في وجهه^٤.

وقال النبي ﷺ: الفقر أشد من القتل^٥، ونعود إلى الزهد والرضا والقناعة لنستعرض بعض الآثار الشرعية المعتبرة فيه، قال النبي ﷺ: خير هذه الأمة فقراوئها، وأسرعها تصعداً في الجنة ضعفاً^٦.

وقال عليه السلام: الفقر خزانة من خزائن الله، وهو كرامة من الله، وشيء لا يعطيه إلا نبياً مرسلاً أو مؤمناً كريماً على الله، والفقروهبة من موهاب الله^٧.

وقال عليه السلام: الناس كلهم مشتاقون إلى الجنة، والجنة مشتاقة إلى الفقراء^٨.

١ - عذة الداعي: ٩٦.

٢ - الكافي ٢: ٣٠٧ ح ٤.

٣ - شرح نهج البلاغة ٤: ٤١.

٤ - بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

٥ - بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

٦ - جامع السعادات ٢: ٦٣.

٧ - معاجل اليقين في أصول الدين: ٢٩٩ ح ٨١٥.

٨ - جامع السعادات ٢: ٦٤.

وورد في فضيلة الفقراء يوم القيمة أنهم ملوك أهل الجنة^١، وهم أهل الشفاعة لمن أسدى إليهم معروفاً، وأنهم يدخلون بغير حساب وأنهم المنادون يوم الورود بصفوة الله، وجلساء الله^٢.

إن أولياء الله قد ابتلوا بالفقر رفعة لشأنهم عند الله، ولتتفرغ قلوبهم لذكر الله، فقد روي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحبك، فقال ﷺ: استعد للفرح.

قال الرجل: إني أحب الله، فقال ﷺ: استعد للبلاء^٣.

وقال رجل لعلي عليه السلام: إني من شيعتك ومحبتيك، فقال عليه السلام: اذهب واتخذ للفقر جلباباً^٤.

وقال علي عليه السلام: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الفقر إلى محبينا أسرع من السيل من أعلى الوادي إلى أسفله^٥، وقال الإمام الصادق عليه السلام: وكلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته^٦.

وقال النبي ﷺ: اطلع على أهل الجنة فوجدت أكثر أهلها الفقراء والمساكين^٧.

١ - معارج اليقين في أصول الدين: ٣٠٢ ح ٨٢٧

٢ - تفسير الشعاعبي ٥: ٥٢٩

٣ - الخصائص الفاطمية ٢: ٤٥٣

٤ - بصائر الدرجات: ٤١١ ح ٢

٥ - بصائر الدرجات: ٤١٠ ح ١

٦ - الكافي ٢: ٢٦ ح ٤

٧ - علة الداعي: ١١٣ وفيه بدل: (على أهل الجنة) عبارة: (في الجنة).

وفي دعاء النبي ﷺ قوله: اللهم أحييني مسكيناً، وأمتنني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين^١. وقال علي بن الحسين ع: اللهم حتب إلي صحبة الفقراء، وأعني على صحبتهم بحسن الصبر^٢.

وقال النبي ﷺ: يقول الله: العلماء ورثتي، والفقراء أحبتائي^٣.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ المعصومين.

١ - سنن الترمذى ٤: ٨ ح ٢٤٥٧.

٢ - الصحيفة السجادية: ١٥١.

٣ - إرشاد القلوب ١: ٢٠١.

المبحث المائة وواحد: في القناعة

قال تعالى: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْفَقَانِعَ وَالْمُغَرَّبَ»^١.

القناعة: سكون النفس والرضا بالقليل من أسباب الدنيا، وترك التأسف على ما فات، وضدّها الحرص، والقناعة من الصفات المحمودة، إذ فيها راحة النفس وفراغ البال للتوجّه إلى الله وسلوك طريق الآخرة، والابتعاد عن بروق المطامع وطول الأمل في الدنيا، والقناعة امتداد طبيعي لملكة الصبر، فإن الاستغناء عن نعم الدنيا وملاذها يحتاج إلى صبر وثبات، وهي ترجمة لعزّة النفس وكرم الأصل، وشرف المعدن ونبل المحتد.

قال الإمام الباقي عليه السلام: من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس^٢.

إن الإسلام يربّي أتباعه على الزهد الحقيقي في الدنيا ليتوجهوا إلى نيل الكمالات الإنسانية التي تقرّبهم إلى الله، ويحملوا في طلب أسباب الدنيا إلا بقدر الضرورة.

قال النبي ﷺ: نفت روح القدس في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل

١ - الحج: ٣٦

٢ - الكافي ٢: ١٣٩ ح ٩

رزقها فأجملوا في الطلب.

وقال علي عليه السلام: ابن آدم، إن كنت تريدين الدنيا ما يكفيك، فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريدين ما لا يكفيك، فإن كل ما فيها لا يكفيك^١.

وروي أن عثمان بن عفان أرسل مع عبد له كيساً من الدرارهم إلى أبي ذر وقال له: إن قبل هذا فأنت حر، فأتى الغلام بالكيس إلى أبي ذر وألح عليه في قبوله، فلم يقبل، فقال له: أقبله فإن فيه عتقى.

قال أبوذر: نعم ولكن فيه رق^٢.

وقد ورد على لسان الروايات أن القناعة ملك لا يزول، ومركب رضا الله تحمل صاحبها إلى داره، وأنها قرة العين، وعز المؤمن، والعفاف، وعلامة التقوى، وعنوان الرضا، والنجاة، وهناء العيش، وأنها مال لا ينفد، وأنها الحياة الطيبة^٣.

وروي أن سلمان المحمدي رضي الله عنه دعا أبا ذر يوماً إلى ضيافة، فقدم له كسرة خبز يابسة وبلّها بالماء، فقال أبوذر: ما أطيب هذا الخبز لو كان معه ملح! فقام سلمان وخرج ورهن ركتبه بملح وحمله إليه، فجعل أبوذر يأكل الخبز ويذرف عليه الملح ويقول: الحمد لله الذي رزقنا هذه القناعة، فقال سلمان: لو كانت عندك قناعة لم تكن ركتوب مرهونة^٤.

هذه هي النفوس الكبار التي تعلّت عن الفضول، وندرت كل كيانها الله فكراً وعملاً، وسلوكاً وتقوى، فنالوا رضا الله ووفدوا عليه، فنالوا البشري بالفوز عنده.

١ - الكافي ٢: ١٣٨ ح ٦.

٢ - التذكرة، لابن حمدون: ٥٧٦، الكشكوك، للبهائي ١: ٢٠٨، سفينة البحار ١: ٤٨٣.

٣ - مصباح الشريعة: ٢٠٣.

٤ - عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥٨ ح ٢٠٣.

والحمد لله رب العالمين، وصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

طلب الزيادة من فضله سبحانه

قال عليه السلام: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يُجِيرُنِي مِنْكَ أَحَدٌ وَلَا يَجِدُ مِنْ ذُو نِعْكَ مُلْتَحِداً، فَلَا تَجْعَلْ نَفْسِي فِي شَيْءٍ مِنْ عَذَابِكَ، وَلَا تَرْدَنِي بِهَلْكَةٍ وَلَا تَرْدَنِي بِعَذَابِ الْيَمِّ.

لقد حصر الإمام عليه السلام الإجارة بالله وحده، إذ كل شيء قائم به سبحانه وهو يسأل الله أن يقيه سيئات الأعمال وكل أنواع العذاب والبلاء!!

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي وَأَغْلِظْ ذِكْرِي، وَارْفَعْ دَرَجَتِي، وَحُظِّ وزْرِي، وَلَا تَذْكُرْنِي بِخَطِيئَتِي، وَاجْعَلْ ثَوَابَ مَجْلِسِي وَثَوَابَ مَنْطِقِي وَثَوَابَ دُعَائِي رِضَاكَ وَالْجَنَّةَ، وَأَغْطِنِي يَا رَبِّ جَمِيعِ مَا سَأَلْتَكَ، وَزِدْنِي مِنْ فَضْلِكَ، اتَّيِ الَّذِي رَاغَبَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

يطلب الإمام عليه السلام قبول الأعمال وإعلاء الذكر ورفع الدرجة وحظ الوزر والعفو عما صدر منه، وأن يرزقه ثواب الذاكرين، وأن ينال أعظم ما في نفسه وهو رضا الله والجنة، إنه رجل عارف وعلى بصيرة من دينه فهو يسأل ما يعلم وما لا يعلم، لأنَّ العبد إذا سأله المولى الكريم سأله الكثير.

خاتمة الدعاء

قوله عليه السلام: اللهم إني أتضررت في كتابك أنا نعمت عمن ظلمتنا، وقد ظلمتنا
أنفسنا فاغف عنا فـأنت أولى بذلك منا، وأمرتنا أن لا نرم سائلًا عن أبوابنا وقد
جئتكم سائلًا فلأتردّني إلا بقضاء حاجتي، وأمرتنا بالإحسان إلى ما ملكت
آيماننا ونحنا أرقاؤك فاغتنق رقابنا من النار يا مفرعي عند كربلا، ويا غوثي عند
شدّتي، إليك فزعـت وبـك استـغـثـت ولـذـتـ، لا الـودـ بـسـواـكـ ولا أـظـلـبـ الـفـ جـ إلا
مـنـكـ، فـأـغـثـنيـ وـفـرـجـ عـنـيـ ياـ مـنـ يـفـكـ الـأـسـيرـ، وـيـغـفـوـعـنـ الـكـثـيرـ، إـقـبـلـ مـنـيـ الـيـسـيرـ
وـأـغـفـعـ عـنـيـ الـكـثـيرـ إـنـكـ أـنـتـ الرـحـيمـ الـغـفـورـ اللـهـمـ إـنـيـ أـسـأـلـكـ إـيمـانـاـ تـبـاشـرـ بـهـ
قلـبيـ وـيـقـيـنـاـ حـتـىـ أـعـلـمـ آهـ لـنـ يـصـبـيـنـيـ إـلـاـ مـاـ كـتـبـتـ لـيـ، وـرـضـنـيـ مـنـ الـعـسـقـ بـمـاـ
قـسـمـتـ لـيـ يـاـ أـرـحـمـ الرـاحـمـينـ.

في هذا المقطع الأخير نرى الإمام عليه السلام في أتم حالات الانقطاع واللجوء إلى الله، مقدماً فروض الطاعة، معترضاً بالذنب والتقصير تجاه ربِّه، طالباً عفو الله وقضاء حوائجه التي لا يسدّها غيره، ثم يطلب من الله سبحانه عتق رقبته من النار فيمن يمن عليهم بالعتق.

ويعود عليه السلام إلى الثناء على الله سبحانه إذ هو المفرع والملاذ عند نزول الكربات، وهو الغوث عند نزول الشدة، الذي لا يطلب الفرج إلا منه، العفو الغفور

الذي يرضى من عباده اليسير ويعفو عن الكثيرون.
ثم يختتم هذا السفر الخالد من المناجاة الفريدة الرائعة طالباً الإيمان الذي
ينير القلب، واليقين الصادق والرضا بما قسمه الله.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين
المعصومين.

تمَ الفراغ من هذا الشرح وكتابة المباحث مساء يوم الاثنين المصادف
١٥/جمادى الأولى سنة ١٤٢٧ هجرية الموافق ١٢/حزيران سنة ٢٠٠٦ ميلادية
سائلًا الله سبحانه أن يتقبل ذلك مني بأحسن القبول قربة لوجهه الكريم، ووفاءً
للنبي محمد ﷺ وأهل بيته الكرام المعصومين، وأسأله أن يشمل بثوابه والدي
وأساتذتي وكل من أعاوني على إنجازه، وأخص بالذكر منهم سماحة الشيخ
المحقق عبد الحليم عوض الحلبي الذي بذل وسعه في تحقيق نصوصه
وإكمال نوافذه، والأخ عادل البدرى الذى راجع الكتاب، سائلًا الله تعالى أن
يأخذ بيد من ساهم في هذا الكتاب إلى سلام الكمال والرفعة وأن يغمرهم بوافر
اللطافه وفيوضاته... أمين رب العالمين.

فهرس المصادر

- القرآن الكريم ونهج البلاغة والصحيفة السجادية.
- الاحتجاج: لأبي منصور أحمد بن علي الطبرسي، المتوفى سنة ٥٦٠ هجرية،
طبع في دار الأُسْوَة . قم.
- أحكام القرآن: لأبي بكر أحمد بن علي الرazi الجصاص، المتوفى سنة ٣٧٠ هجرية طبع في دار الكتب العلمية - بيروت.
- إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالى، المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية، طبع ونشر دار الكتب العلمية - لبنان.
- أخبار إصبهان: للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية، طبع بربيل في ليدن.
- الاختصاص: للشيخ محمد بن محمد بن النعمان التلوكبرى
الملقب بالشيخ المفيد، المتوفى سنة ٤١٣ هجرية، طبع في مكتبة بصيرتى -
قم.
- اختيار معرفة الرجال: وهو رجال الكشى لمحمد بن عمر الكشى، نشر مؤسسة
آل البيت، طبع في مطبعة بعثت سنة ١٤٠٤ هجرية . قم.
- آداب النفس: لمحمد العيناثي، المتوفى سنة ١٠٨٨ هجرية، نشر المكتبة

الرضوية في طهران.

أدباء وكتاب بابل المعاصرون: لعبد الرضا عوض المعاصر، نشردار الفرات الإلإعالية في الحلّة.

الأذكار النووية: لأبي زكريا النووي الدمشقي، المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية، نشر دار الفكر في بيروت.

الأربعون: لمحمد طاهر القمي الشيرازي، المتوفى سنة ١٠٩٨ هجرية، طبع ونشر المحقق . قم.

الأربعون حديثاً: للشيخ البهائي، المتوفى سنة ١٠٣١ هجرية، طبع في مؤسسة النشر الإسلامي . قم.

إرشاد القلوب: للشيخ حسن بن أبي الحسن الديلمي، من أعلام القرن الثامن الهجري ، طبع في مؤسسة آل البيت . بيروت.

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: للشيخ محمد بن محمد بن النعمان التلعكري البغدادي ، المتوفى سنة ٤١٣ هجرية ، طبع في مؤسسة آل البيت لإحياء التراث . قم.

الاستبصار: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، المتوفى سنة ٤٦٠ هجرية ، طبع في دار الكتب الإسلامية - طهران.

الاستذكار: لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية ، نشردار الكتب العلمية في بيروت .

الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ليوسف بن عبد البر القرطبي ، المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية ، طبع في دار الكتب العلمية - بيروت .

أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعلي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، المتوفى

- سنة ٦٣٠ هجرية، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- أصول الاستنباط: لعلي نقى الحيدري المعاصر، نشر مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط الأولى ١٤١٢ هـ. ق.
- الأصول الستة عشر: لمجموعة من المحدثين، من أعلام القرن الثاني الهجري،
طبع في دار الشبسيري للمطبوعات . قم.
- أضواء البيان: للشنقطي، المتوفى سنة ١٣٩٣ هجرية نشر دار الفكر في
بيروت.
- الاعتقادات في دين الإمامية: لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه
القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية نشر دار المفيد في بيروت.
- أعلام الدين: للشيخ الجليل الحسن بن أبي الحسن الديلمي، من أعلام
القرن الثامن الهجري ، طبع في مؤسسة آل البيت - بيروت.
- إعلام الورى بأعلام الهدى: لأمين الإسلام أبي علي الطبرسي، من أعلام القرن
السادس الهجري ، طبع في مطبعة ستاره - قم.
- أعيان الشيعة: للسيد محسن الأمين، المتوفى سنة ١٣٧١ هجرية، طبع في دار
التعارف للمطبوعات، بيروت.
- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، المتوفى سنة ٣٥٦ هجرية، طبعة بولاق.
- إقبال الأعمال: للسيد علي بن طاوس الحلبي، المتوفى سنة ٦٦٤ هجرية،
طبع في مكتب الإعلام الإسلامي . قم.
- الاقتصاد: للشيخ محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى سنة ٤٦٠ هجرية، نشر
مكتبة جامع چهل ستون في طهران.
- إكمال الدين وإتمام النعمة: للشيخ محمد بن علي بن بابويه الصدوق،

المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، نشر جماعة المدرسین في قم.

أمالی الصدوق: لمحمد بن علي بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية،
طبع في مؤسسة الأعلمی للمطبوعات - بيروت.

أمالی الشیخ الطوسي: لمحمد بن الحسن الطوسي، المتوفى سنة ٤٦٠ هجرية،
طبع في مؤسسة الوفاء . بيروت.

أمالی السيد المرتضی: للشیرف أبي القاسم علي بن طاهر، المتوفى سنة ٤٣٦
هجرية، من منشورات مکتبة آیة الله العظمی المرعشی النجفی.

أمالی الشیخ المفید: لمحمد بن محمد بن النعمان التلکبری البغدادی،
المتوفی سنة ٤١٣ هجرية، طبع في دار المفید .بيروت.

إمتع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأمور والحفدة: لأحمد بن علي
المقریزی، المتوفی سنة ٨٤٥ هجرية، طبع ونشر دار الكتب العلمیة.

أمل الأمل في علماء جبل عامل: للشیخ محمد بن الحسن الحر العاملی،
المتوفی سنة ١١٠٤ هجرية، طبع في مکتبة الأندلس .بغداد.

أوصاف الأشراف في السير والسلوك: لنصر الدین الطوسي، المتوفى سنة ٦٧٢
هجرية، فارسي عربه المیرزا محمد الرازی النجفی، طبع في طهران.

أیام العرب في الإسلام: لمحمد أبي الفضل إبراهیم وعلی البحاوى، طبع دار
إحياء الكتب العربية بمصر.

آیة الله العظمی السيد علي البهشتی سیرته وآثاره الفكریة، نشر مركز البحوث
والدراسات الإسلامية في النجف الأشرف.

بحار الأنوار: لمحمد باقر المجلسي، المتوفى سنة ١١١١ هجرية، طبع في
مؤسسة الوفاء ، بيروت ، وطبعه أخرى في دار الكتب الإسلامية . طهران.

البداية والنهاية: لابن كثير الدمشقي، المتوفى سنة ٧٧٤ هجرية، طبع في دار إحياء التراث العربي - بيروت.

البرهان في علوم القرآن: للإمام الزركشي، المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية، طبع في دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

بشرارة المصطفى: لمحمد بن علي الطبرى، من علماء القرن السادس الهجرى، من منشورات المكتبة الحيدرية - النجف.

بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد ﷺ: لمحمد بن الحسن الصفار، المتوفى سنة ٢٩٠ هجرية، طبع في مؤسسة الأعلمى - طهران.

البيان: للشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي العاملى نشر مجمع الذخائر في قم.

تاج العروس من جواهر القاموس: للسيد محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وأخرين، مطبعة حكومة الكويت - الكويت وطبعه مكتبة الحياة - بيروت.

تاريخ الإسلام: للذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية، طبع في دار الكتاب العربي - بيروت.

تاريخ بغداد: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية، طبع في دار الكتب العلمية - بيروت.

تاريخ الطبرى: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى، المتوفى سنة ٣١٠ هجرية، طبع في مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت.

تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر، المتوفى سنة ٥٧١ هجرية، طبع في دار الفكر - بيروت.

تاریخ البیعقوبی: لأحمد بن أبي یعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسی المعروف بالیعقوبی، المتوفی سنة ٢٩٢ هجریة، منشورات مؤسسة الأعلمی - بیروت.

تأویل الآیات الباهرات: للسید شرف الدین علی الحسینی، المتوفی سنة ٩٦٥ هجریة، طبع في مدرسة الإمام المهدی (عج)- قم.

التیان فی تفسیر القرآن: لمحمد بن الحسن الطوسي، المتوفی سنة ٤٦٠ هجریة، طبع في دار إحياء التراث العربي - بیروت.

تحف العقول عن آل الرسول: لأبی محمد الحسن بن شعبة الحرّانی، من أعلام القرن الرابع الهجري، طبع في مؤسسة الأعلمی - بیروت.

التخویف من النار: لابن رجب الحنبلي، المتوفی سنة ٧٩٥ هجریة، نشر دار الرشید في دمشق.

التذکرة الحمدوتیة: لمحمد بن الحسن بن حمدون، المتوفی سنة ٥٦٢ هجریة، نشر دار صادر في بیروت.

ترجم الرجال: للسید أحمد الحسینی المعاصر، نشر مكتبة السيد المرعشی في قم.

ترتيب جمهرة اللغة: لمحمد بن الحسن بن درید الأزدي، المتوفی سنة ٣٢١ هجریة، ترتیب وتصحیح عادل عبد الرحمن البدری، مجمع البحوث الإسلامية مشهد.

الترغیب والترهیب من الحديث الشریف: لعبد العظیم المنذری، المتوفی سنة ٦٥٦ هجریة، طبع في دار إحياء التراث العربي - بیروت.

تفسیر ابن العربی: لمحیی الدین، المتوفی سنة ٦٣٨ هجریة، نشر دار الكتب

العلمية في بيروت.

تفسير الألوسي: للألوسي، المتوفى سنة ١٢٧٠ هجرية.

تفسير البغوي: للبغوي، المتوفى سنة ٥١٠ هجرية، نشر دار المعرفة في بيروت.

تفسير أبي الفتوح: لأبي الفتوح الرازي من أعلام القرن السادس الهجري، طبع ونشر مكتبة السيد المرعشلي في قم.

تفسير الشعالي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): لعبد الرحمن بن محمد الشعالي، المتوفى سنة ٨٧٥ هجرية، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.

تفسير الدر المثور في التفسير بالتأثر: لعبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هجرية، طبع في دار الفكر - بيروت.

تفسير الشعبي: المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية، نشر دار إحياء التراث العربي في بيروت.

تفسير السلمي: للسلمي، المتوفى سنة ٤١٢ هجرية، نشر دار الكتب العلمية في بيروت.

تفسير السمعاني: للسمعاني، المتوفى سنة ٤٨٩ هجرية، نشر دار الوطن في الرياض.

تفسير السمرقندى: لأبي ليث السمرقندى، المتوفى سنة ٣٨٣ هجرية، نشر دار الفكر في بيروت.

تفسير الصافي: لفيلسوف الفقهاء المولى محسن الفيض الكاشانى، المتوفى سنة ١٠٩١ هجرية، طبع في مؤسسة الهدى - قم.

تفسير عبد الرزاق الصنعاني: المتوفى سنة ٢١١ هجرية، نشر مكتبة الرشد في الرياض.

تفسير العزّ بن عبد السلام: السلمي الدمشقي الشافعي، المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية، نشر دار ابن حازم في بيروت.

تفسير العياشي: لمحمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندى المعروف بالعياشى، المتوفى سنة ٣٢٠ هجرية، طبع في مؤسسة الأعلمى - بيروت.

تفسير الفخر الرازي = المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب: لمحمد الرازي، المتوفى سنة ٦٠٤ هجرية، طبع في دار الفكر - بيروت.

تفسير فرات الكوفي: لأبي القاسم بن إبراهيم بن فرات الكوفي، من أعلام الغيبة الصغرى، طبع في مؤسسة النعمان - بيروت.

تفسير القرطبي: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي، المتوفى سنة ٦٧١ هجرية، طبع في دار الكتاب العربي - القاهرة.

تفسير القمي: لعلي بن إبراهيم القمي، من أعلام القرن الثالث والرابع الهجريين، طبع في مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر - قم.

تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن: للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، المتوفى سنة ٥٦٠ هجرية، طبع في دار المعرفة - بيروت.

تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا، طبع في دار المعرفة - بيروت.

التفسير المنسوب للإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام: طبع في مدرسة الإمام المهدي - قم.

تفسير الميزان: للسيد محمد حسين الطباطبائي، المتوفى سنة ١٤١٢ هجرية، نشر جماعة المدرسین في قم.

تفسير النسفي: للنسفي المتوفى سنة ٥٣٧ هجرية.

تفسير نور الثقلين: لعبد علي بن جمعة العروسي الهویزی، المتوفى سنة ١١١٢

هجرية، طبع في مطبعة الحكمة .قم.
تكملاً لـ شعراء الحلة السيفية: لـ صباح نوري المرزوق المعاصر، نشردار الفرات في
الحلّة.

التمحيص: لمحمد بن همام الإسکافی، المتوفى سنة ٣٣٦ هجرية، نشر
مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في قم.

التمهید: لابن عبد البر الأندلسي، المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية، نشرونّارة الأوقاف
في المغرب.

تنبيه الخواطر ونזהة النواظر: لورام بن أبي فراس المالكي الأشتری، المتوفى سنة
٦٠٥ هجرية، دار الكتب الإسلامية .طهران.

تهذیب الأصول: للسيد عبد الأعلى السبزواری، المتوفى سنة ١٤١٤ هجرية،
طبع في بيروت.

تهذیب الكمال في أحوال الرجال: لأبي الحجاج يوسف المزّي، المتوفى سنة
٧٤٢ هجرية، نشر مؤسسة الرسالة في بيروت.

التواضع والخمول: لابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ هجرية، نشردار الكتب
العلمية في بيروت.

التوحيد: لمحمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١
هجرية، طبع في مؤسسة النشر الإسلامي .قم.

ثمة اهتدیت: لمحمد التجانی السماوی المعاصر، نشر مؤسسة الفجر في
لندن.

ثواب الأعمال: لمحمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف
بالصادق، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، طبع في مؤسسة الأعلمی .بيروت.

جامع أحاديث الشيعة: لآقا حسين الطباطبائي البروجردي، المتوفى سنة ١٣٨٣ هجرية، طبع في المطبعة العلمية، قم .إيران.

جامع الأخبار والآثار عن النبي والأئمة الأطهار: لمحمد باقر الموحد الأبطحي الأصفهاني المعاصر، طبع في مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف .قم.

جامع البيان: لمحمد بن جرير الطبرى طبع في مطبعة بولاق، وطبع بالأوفسيت في بيروت .

جامع بيان العلم وفضله: لمحمد بن جرير الطبرى طبع في مطبعة بولاق، وطبع بالأوفسيت في بيروت .

جامع السعادات: لمحمد مهدي النراقي، المتوفى سنة ١٢٠٩ هجرية، نشر دار النعمان للطباعة في النجف .

الجامع الصغير: لجلال الدين بن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هجرية، طبع دار الفكر- بيروت .

جمهرة أشعار العرب: لأبي زيد القرشي، المتوفى حدود سنة ١٧٠ هجرية، نشر دار بيروت .

جهاد الإمام السجاد عليه السلام: السيد محمد رضا الجلاي المعاصر، نشر مؤسسة دار الحديث الثقافية في قم .

جوامع الجامع: لأمين الدين أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، طبع في جامعة المدرسين .قم.

الجواهر الحسان: هو تفسير الشعالي لعبد الرحمن الشعالي، المتوفى سنة ٨٧٥ هجرية طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت .

جواهر الكلام: لمحمد حسن النجفي، المتوفى سنة ١٢٦٦ هجرية، نشر دار الكتب الإسلامية في طهران.

الجواهر السنوية في الأحاديث القدسية: لمحمد بن الحسن بن علي بن الحسين العاملي، المتوفى سنة ١١٠٤ هجرية، طبع في مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان.

جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام: لأبي البركات محمد الدمشقي الشافعي، المتوفى سنة ٨٧١ هجرية، نشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية في قم.

الحج: لأبي القاسم الخوئي، المتوفى سنة ١٤١١ هجرية، نشر مدرسة دار العلم في قم.

حسن الظن بالله: لابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ هجرية.

حقائق الأصول: للسيد محسن الحكيم الطباطبائي، المتوفى سنة ١٣٩١ هجرية، نشر مكتبة بصيرتي في قم.

حقائق الإيمان: المنسوب للشهيد الثاني المستشهد سنة ٩٦٦ هجرية، نشر مكتبة السيد المرعشي في قم.

حلية الأولياء: لأبي نعيم الأصفهاني أحمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية، طبع في دار الكتاب العربي - بيروت.

الخرائج والجرائح: لقطب الدين الرواندي، المتوفى سنة ٥٧٣ هجرية نشر مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف - قم.

الخصال: لمحمد بن علي بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، طبع مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسین في قم.

خصائص الأئمة: للشريف الرضي، المتوفى سنة ٤٣٦ هجرية طبع في مجمع البحوث الإسلامية - مشهد المقدسة.

الخصائص الفاطمية: للشيخ الكجوري، المتوفى سنة ١٣١٣ هجرية، نشر الشريف الرضي في قم.

درر الفوائد: للشيخ عبد الكريم الحائرى، المتوفى سنة ١٣٥٥ هجرية، نشر جماعة المدرسین في قم.

الدر المتشور: لعبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هجرية، طبع في دار الفكر. بيروت.

الدر النظيم في خواص القرآن العظيم: لأبي محمد عبد الله بن أسعد اليماني اليافعي الشافعى، طبع في دار المحجة البيضاء ودار الرسول الأكرم بيروت – لبنان.

الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة: للشهيد الأول، المستشهد سنة ٧٨٦ هجرية.

الدروع الواقية: للسيد علي بن طاووس، المتوفى سنة ٦٦٤ هجرية، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

الدعاء عند أهل البيت لهم إلهي: للشيخ محمد مهدي الأصفى المعاصر.
الدعاء: للطبراني، المتوفى سنة ٣٦٠ هجرية، نشر دار الكتب العلمية - بيروت.

دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام: لابن حيّون التميمي المغربي، طبع في دار المعرفة - القاهرة.

الدعوات: لسعید بن هبة الله المشهور بقطب الدين الرواندي، المتوفى سنة ٥٧٣ هجرية، طبع في مدرسة الإمام المهدي - قم.

الذريعة إلى تصانيف الشيعة: للعلامة آقا بزرگ الطهراني، نشر دار الأضواء – بيروت.

- ذخائر العقبى: لأحمد بن عبد الله الطبرى، المتوفى سنة ٦٩٤ هجرية، طبع في مكتبة القدسية لصاحبها حسام الدين القدسى - القاهرة.
- ربيع الأبرار: لأبى القاسم محمد بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ٥٣٨ هجرية، من منشورات الشريف الرضي - قم.
- رجال النجاشى: للشيخ أحمد بن علي بن أحمد النجاشى الأسى الكوفى، المتوفى سنة ٤٥٠ هجرية، طبع في جامعة المدرسين - قم.
- رسالة الجمعة: للشهيد الثانى زين الدين بن علي العاملى، المستشهد سنة ٩٦٥ هجرية.
- رسالة الحقوق: للإمام السجاد زين العابدين عليهما السلام، المتوفى سنة ٩٤ هجرية، نشر مؤسسة إسماعيليان في قم.
- الرسالة السعدية: للحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلّى، المتوفى سنة ٧٢٦ هجرية، نشر مكتبة السيد المرعشي في قم.
- الرسالة القشيرية في التصوف: لعبد الكريم القشيري الشافعى، المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية، طبع ونشر في مصر.
- رسائل السيد المرتضى: للشريف المرتضى عليهما السلام، المتوفى سنة ٤٣٦ هجرية، نشر دار القرآن، مطبعة سيد الشهداء - قم.
- رسائل الشهيد الثانى: للشهيد زين الدين علي الجبى العاملى، استشهد سنة ٩٦٥ هجرية، نشر مكتبة بصيرتى في قم.
- روائع نهج البلاغة: لجورج جرداق المعاصر، نشر مركز الغدير للدراسات الإسلامية في قم.
- روضة الوعظين: لمحمد بن الفتاوى النيسابوري، المتوفى سنة ٥٠٨ هجرية، من

منشورات الرضي قم.

رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام: للسيد علي خان المدنى الشيرازي، المتوفى سنة ١١٢٠ هجرية، نشر جماعة المدرسين في قم.

زاد المسير: لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي، المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية، تحقيق محمد بن عبد الرحمن، نشردار الفكر. بيروت.

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: لمحمد بن يوسف الشامي، المتوفى سنة ٩٤٢ هجرية، نشردار الكتب العلمية. بيروت.

سفينة البحار: للشيخ عباس القمي، المتوفى سنة ١٣٥٩ هجرية.

الستة: لعمرو بن أبي العاص الضحاك، المتوفى سنة ٢٨٧ هجرية، مطبعة الكتب الإسلامية بيروت. لبنان.

سنن ابن ماجة: لمحمد بن يزيد القزويني، المتوفى سنة ٢٧٥ هجرية، طبع دار الفكر. بيروت.

سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة ٢٧٥ هجرية، طبع في دار الجنان - بيروت.

سنن الترمذى: لمحمد بن عيسى الترمذى، المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية، طبع دار الفكر. بيروت.

ال السن الكبرى: للبيهقي أحمد بن الحسين، المتوفى سنة ٤٥٨ هجرية، طبع في دار المعرفة - بيروت.

سنن النسائي: للنسائي، المتوفى سنة ٣٠٣ هجرية، نشردار الفكر للطباعة في بيروت.

سير أعلام النبلاء: لشمس الدين الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية، نشر

- مؤسسة الرسالة في بيروت.
- السيرة الحلبية: لأبي الفرج علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، نشر المكتبة الإسلامية . بيروت.**
- شجرة طوبى: للشيخ محمد مهدي الحائري، نشر المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف.**
- شرح الأخبار: للقاضي النعمان المغربي التميمي، المتوفى سنة ٣٦٣ هجرية طبع في مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين - قم.**
- شرح الأسماء الحسنی: لأبي حامد الغزالی.**
- شرح أصول الكافي: للمولى محمد صالح المازندراني، المتوفى سنة ١٠٨١ هجرية، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.**
- شرح الأزهار: لعبد الله بن مفتاح، مطبعة حجازي - القاهرة.**
- شرح رسالة الحقوق: للإمام زين العابدين عليه السلام، المتوفى سنة ٩٤ هجرية، شرح السيد حسن القبانجي المعاصر، نشر مؤسسة إسماعيليان في قم.**
- شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العزّالحنفي، المتوفى سنة ٧٩٢ هجرية، نشر المكتب الإسلامي في بيروت.**
- شرح صحيح مسلم: للنووي، المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية، طبع في دار الكتاب العربي - بيروت.**
- شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: لعبد الوهاب، المتوفى في القرن السادس، نشر جماعة المدرسين في قم.**
- شعراء الحلة السيفية: لعبد الرضا عوض المعاصر، نشر دار الفرات الإعلامية في الحلة.**

الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: للقاضي عياض، المتوفى سنة ٥٤٤ هجرية، نشر دار الفكر للطباعة في بيروت.

الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): لإسماعيل بن حمّاد الجوهري، المتوفى سنة ٣٩٣ هجرية، طبع دار العلم للملايين بيروت - لبنان.

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: لابن حبان، المتوفى سنة ٣٥٤ هجرية، نشر مؤسسة الرسالة في بيروت.

صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي أبي عبد الله، المتوفى سنة ٢٥٦ هجرية، طبع في دار الجليل - بيروت.

صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المتوفى سنة ٢٦١ هجرية، طبع في دار الفكر - بيروت.

صحيفة الحسين: جمع وترتيب الشيخ جواد القبيومي المعاصر، نشر جماعة المدرسين في قم.

الصحيفة السجادية (برعاية وإشراف السيد محمد باقر الأبطحي): الجامعة لأدعية الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، طبع في مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، قم - إيران.

صفات الشيعة: للشيخ الصدوق، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، نشر كانون انتشارات عابدي في طهران.

الصمت وأداب اللسان: لابن أبي الدنيا، المتوفى سنة ٢٨١ هجرية، نشر دار الكتاب العربي في بيروت.

الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: لأحمد بن حجر الهيثمي المكي، المتوفى سنة ٩٧٤ هجرية، طبع المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٣.

- هجرية، وطبعة أخرى بمكتبة القاهرة سنة ١٣٨٥ هجرية.
- طب الأئمة: لأبي عتاب عبد الله بن نيسابور الزيات والحسين ابني بسطام النيسابوري، طبع في دار الكتاب الإسلامي، بيروت - لبنان، وطبعة أخرى من منشورات المكتبة الحيدرية قم - إيران.
- عدة الداعي ونجاح الساعي: لأحمد بن فهد الحلّي، المتوفى سنة ٨٤١ هجرية، طبع في دار الكتاب الإسلامي طهران - إيران.
- العدد القوية: لعليّ بن يوسف الحلّي، المتوفى سنة ٧٠٥ هجرية، نشر مكتبة السيد المرعشـي.
- علل الدارقطني: لعليّ بن عمر الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هجرية، نشر دار طيبة في الرياض.
- علل الشرائع: لمحمد بن علي بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، مـنشورات المكتبة الحيدرية في النجف.
- العلل: لأحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٤١ هجرية، نـشر المكتب الإسلامي في بيـروـت.
- العمدة (عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار): لابن البطريق الأـسـدـيـ الحلـيـ، المتوفـيـ سـنةـ ٦٠٠ـ هـجـرـيـةـ، طـبعـ جـامـعـةـ المـدـرسـيـنـ قـمـ.
- عـوالـيـ الـلـآلـيـ العـزـيزـيـةـ فـيـ الأـحـادـيـثـ الـدـينـيـةـ: لـمـحـمـدـ الـإـحـسـائـيـ الـمـعـرـوـفـ باـبـنـ أـبـيـ جـمـهـورـ، المتـوفـيـ سـنةـ ٨٨٠ـ هـجـرـيـةـ، طـبعـ دـارـ سـيـدـ الشـهـداءـ.
- الـعـيـنـ: للـخـلـيلـ بـنـ أـحـمـدـ الـفـراـهـيـدـيـ المتـوفـيـ سـنةـ ١٧٥ـ هـجـرـيـةـ، نـشـرـ مـؤـسـسـةـ دـارـ الـهـجـرـةـ فـيـ قـمـ.
- عيـونـ أـخـبـارـ الرـضـاعـلـيـلـ: لـمـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ بـنـ بـابـويـهـ الـقـمـيـ، المتـوفـيـ سـنةـ ٣٨١ـ هـجـرـيـةـ.

هجرية، طبع في مؤسسة الأعلمي - بيروت.

عيون الحكم والمواعظ: لعلي بن محمد الليثي الواسطي، المتوفى في القرن السادس، نشر دار الحديث.

الغارات أو الاستئثار والغارات: لإبراهيم بن محمد بن سعيد المعروف بابن هلال الثقفي، المتوفى سنة ٢٨٣ هجرية، طبع في دار الأضواء - بيروت.

غرس الحكم ودرر الكلم: لعبد الواحد بن محمد التميمي الأدمي، طبع في مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية في قم.

غرس الخصائص الواضحة: للوطواط، المتوفى سنة ٧١٨ هجرية، نشر دار الكتب المصرية.

فتح الباري لشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية، طبع في دار إحياء التراث العربي في بيروت.

الفتوح: لأحمد بن أعمش الكوفي، المتوفى سنة ٣١٤ هجرية، نشر دار الأبواب في بيروت.

الفتوحات المكتبة: لابن العربي، المتوفى سنة ٦٣٨ هجرية، طبع دار صادر في بيروت.

الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري، المتوفى سنة ٣٩٥ هجرية، نشر جماعة المدرسین في قم.

الفصول المختارة: للمرتضى، المتوفى سنة ٤١٣ هجرية، نشر دار المفيد والطباعة في بيروت.

الفصول المهمة في أصول الأئمة: لمحمد بن الحسن العاملي، المتوفى سنة ١١٠٤ هجرية، طبع مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام - قم.

فقه الرضا عليه السلام: المنسوب لعلي بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٢٩ هجرية، نشر مؤسسة آل البيت في قم.

الفقيه (من لا يحضره الفقيه): لأبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، نشر جماعة المدرسین قم.

فلاح السائل: لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن محمد بن طاوس، المتوفى سنة ٦٦٤ هجرية.

الفوائد الرجالية للسيد بحر العلوم: وهو رجال السيد بحر العلوم، المتوفى سنة ١٢١٢ هجرية من منشورات مكتبة الصادق في طهران.

فيض القدير (شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير): لمحمد المناوي، المتوفى سنة ١٣٣١ هجرية، مطبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
في ظلال القرآن: لسيد قطب.

قرب الإسناد: لأبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري، من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام، طبع في مكتبة نينوى الحديثة - طهران.

قصص الأنبياء: لقطب الدين سعيد بن هبة الله الرواوندي، المتوفى سنة ٥٧٣ هجرية، نشر مؤسسة الهدى - قم.

قصص الأنبياء: لنعمة الله الجزائري، المتوفى سنة ١١١٢ هجرية، نشر الشريف الرضي في قم.

القواعد الفقهية: للجنوردي، المتوفى سنة ١٣٩٥ هجرية، نشر الهدى.

الكافي: للشيخ محمد بن يعقوب الكليني، المتوفى سنة ٣٢٩ هجرية، طبع دار الكتب الإسلامية - طهران.

الكامل: لعبد الله بن عدي الجرجاني، المتوفى سنة ٣٦٥ هجرية، نشر دار

الفكر في بيروت.

كامل الزيارات: لجعفر بن محمد بن قولويه القمي، المتوفى سنة ٣٦٨ هجرية، طبع مؤسسة النشر الإسلامي - قم.

الكبار من الذنوب: للحاج حسين الشاكري المعاصر، نشر المؤلف.
الكامل في التاريخ: لأبي الحسن الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية، طبع في دار الكتب العلمية - بيروت.

المؤمن: للحسين بن سعيد الأهوازي من أعلام القرن الثالث الهجري، نشر مدرسة الإمام المهدي في قم.

المجرودين: لابن حبان التميمي البستي، المتوفى سنة ٣٥٤ هجرية، نشر دار الباز للتوزيع في مكة.

المكاسب: للشيخ مرتضى الأنصاري، المتوفى سنة ١٢٨١ هجرية، نشر المؤتمر العالمي لميلاد الشيخ الأنصاري في قم.

الكشف: للزمخشري، المتوفى سنة ٥٣٨ هجرية، نشر شركة مصطفى البابي الحلبي في مصر.

كشف اليقين: للعلامة الحلبي، المتوفى سنة ٧٢٦ هجرية، نشر المحقق حسين درگاهی.

الكتشوك: لمحمد بن حسين بن عبد الصمد البهائي، المتوفى سنة ١٠٣٠ هجرية، مطبعة الحكمة قم - إيران.

كافحة الأثر: لعلي بن محمد الخراز القمي، من علماء القرن الرابع الهجري، منشورات بيدار - قم.

كتزان العمال: لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، المتوفى سنة

- ٩٧٥ هجرية، طبع في مؤسسة الرسالة - بيروت.
- كتن الفوائد: للعلامة محمد بن علي الكراجكي، المتوفى سنة ٤٤٩ هجرية، نشر مكتبة المصطفوي - قم.
- الكنى والألقاب: للشيخ عباس القمي، المتوفى سنة ١٣٥٩ هجرية، طبع في مكتبة الصدر - طهران.
- لآلئ الأخبار والآثار: للشيخ محمد بن النبي التويسركاني، مطبوع بالطبعه الحجرية في مجلد واحد.
- لسان العرب: لمحمد بن منظور الأفريقي، المتوفى سنة ٧١١ هجرية، طبع في دار صادر - بيروت وطبعة أخرى في دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية، طبع في مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان.
- اللهوف في قتل الطفوف: للسيد علي بن طاووس، المتوفى سنة ٦٦٤ هجرية، نشر أنوار الهدى في قم.
- مائة قاعدة فقهية: لمحمد كاظم المصطفوي المعاصر، نشر جماعة المدرسين في قم.
- المباحث الواضحة: للشيخ جبار جاسم مكاوي مؤلف هذا الكتاب.
- مباني تكملة المنهاج: للسيد الخوئي، المتوفى سنة ١٤١١ هجرية، نشر المطبعة العلمية في قم ومطبعة الآداب في النجف.
- المبدأ والمعاد: لصدر الدين محمد الشيرازي، المتوفى سنة ١٠٥٠ هجرية، طبع في مكتب الإعلام الإسلامي.
- المبسط: للسرخسي، المتوفى سنة ٤٨٣ هجرية، نشر دار المعرفة للطباعة

في بيروت.

المبسوط: للطوسي، المتوفى سنة ٤٦٠ هجرية، نشر المكتبة المرتضوية في طهران.

مثير الأحزان: لنجم الدين محمد بن جعفر بن نما الحلبي، المتوفى سنة ٦٤٥ هجرية، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف.

المجازات النبوية أو مجازات الآثار النبوية: لمحمد بن الحسين بن أحمد الموسوي الشريف الرضا، المتوفى سنة ٤٠٦ هجرية، منشورات مكتبة بصيرتي - قم.

مجمع البحرين: للشيخ فخر الدين الطريحي، المتوفى سنة ١٠٨٥ هجرية، طبع مؤسسة الوفاء بيروت، واستخدنا من طبعة إيران.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لعلي الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧ هجرية، طبع في مكتبة القدسية - القاهرة، وطبعة أخرى في دار الكتب العلمية - بيروت

المجموع (شرح المهدّب): للنويي محيي الدين، المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية، نشر دار الفكر في بيروت.

مجلة أوراق فراتية: مجلة فصلية تعنى بالتراث والثقافة تصدر عن دار الفرات في الحلّة.

مجموعة وزام: لوزام بن أبي فراس الحلبي، المتوفى سنة ٦٠٥ هجرية، نشر دار الكتب الإسلامية في طهران.

محاسبة النفس: للكفعمي، المتوفى سنة ٩٠٥ هجرية، نشر مؤسسة قائم آل محمد عجل الله تعالى فرجه في قم.

المحاسن: لأبي جعفرأحمد بن أبي عبد الله محمد بن خالد البرقي، المتوفى

سنة ٢٧٤ أو ٢٨٠ هجرية، دار الكتب الإسلامية - بيروت.

المحرر الوجيز: لابن عطية الأندلسبي، المتوفى سنة ٥٤٦ هجرية، نشر دار الكتب العلمية في بيروت.

المحكم في أصول الفقه: للسيد محمد سعيد الحكيم المعاصر، نشر مؤسسة المنار في قم.

المحتضر: للحسن بن سليمان الحلبي من أعلام القرن التاسع، طبع في المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف.

مدينة النجف: لمحمد التميمي المعاصر، نشر مطبعة دار النشر والتأليف في النجف الأشرف.

مرأة الجنان: لليافعي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٦٨ هجرية، نشر دار الكتاب الإسلامي في القاهرة ومؤسسة الأعلمي في بيروت.

مسائل علي بن جعفر: لعلي بن جعفر عليه السلام من أعلام القرن الثاني، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام في مشهد.

المستدرك: للحاكم النيسابوري، المتوفى سنة ٤٠٥ هجرية، نشر دار المعرفة في بيروت.

مستدرك سفينة البحار: للشيخ علي النمازي الشاهرودي، المتوفى سنة ١٤٠٥ هجرية، نشر مؤسسة النشر الإسلامي - قم.

مستدرك الوسائل ومستبط المسائل: للميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفى سنة ١٣٧٠ هجرية، طبع في مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - قم.

مستطرفات السرائر المطبوع في ذيل السرائر: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن إدريس الحلبي، المتوفى سنة ٥٩٨ هجرية، من منشورات جماعة المدرسین قم -

إيران.

مستند الشيعة: للمحقق النراقي، المتوفى سنة ١٢٤٤ هجرية، نشر مؤسسة آل البيت في قم.

مستند العروة الوثقى: للسيد محسن الحكيم، المتوفى سنة ١٣٩٠ هجرية، نشر مكتبة السيد المرعشي في قم.

مسكن الفؤاد: للشهيد الثاني، استشهد سنة ٩٦٦ هجرية، نشر مؤسسة آل البيت في قم.

مسند أبي يعلى: لأبي يعلى الموصلي، المتوفى سنة ٣٠٧ هجرية، طبع في دار المأمون للتراث.

مسند أحمد: للإمام أحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٤١ هجرية، طبع في دار الفكر. بيروت.

مسند زيد بن علي: لزيد بن علي رضي الله عنه، المتوفى سنة ١٢٢ هجرية، نشر دار الحياة. بيروت.

مسند الشهاب: لابن سلامة، المتوفى سنة ٤٥٤ هجرية، نشر مؤسسة الرسالة في بيروت.

مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين علیه السلام: للحافظ رجب البرسي، طبع في دفتر نشر فرهنك أهل البيت. طهران.

شرق الشمسين: للشيخ البهائي العاملی المتوفى سنة ١٠٣١ هجرية، نشر مكتبة بصيرتي في قم.

مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: لأبي الفضل على الطبرسي، المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري، طبع في مؤسسة الأعلمی. بيروت.

مصابح الشريعة: المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، المتوفى سنة ١٤٨ هجرية، نشر مؤسسة الأعلمي في بيروت.

مصادقة الإخوان: للشيخ الصدوق، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، من منشورات مكتبة الإمام صاحب الزمان العامة - الكاظمية.

مصابح الكفعمي: لتقى الدين إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي، طبع منشورات الشريف الرضا وزاهدي قم - إيران.

مصابح المتهجد: لمحمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي المشهور بشيخ الطائفة، المتوفى سنة ٤٦٠ هجرية، طبع في مؤسسة فقه الشيعة بيروت - لبنان.

المصنف: لابن أبي شيبة الكوفي، المتوفى سنة ٢٣٥ هجرية، نشر دار الفكر في بيروت.

مصنف عبد الرزاق: لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، المتوفى سنة ٢١١ هجرية، طبع المكتب الإسلامي - بيروت.

مطالب المسؤول في مناقب آل الرسول: للشيخ محمد بن طلحة الشافعي، المتوفى سنة ٦٥٢ هجرية، تحقيق ونشر ماجد العطية.

معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول عليهما السلام: للزرندي الشافعي، المتوفى سنة ٧٥٠ هجرية، تحقيق ونشر ماجد العطية.

معارج اليقين في أصول الدين: للشيخ محمد السبزواري من أعلام القرن السابع، نشر مؤسسة آل البيت في قم.

معاني الأخبار: لمحمد بن علي بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، طبع في مؤسسة النشر الإسلامي - قم.

المعتبر: لجعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلبي، المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية، نشر مؤسسة سيد الشهداء في قم.

معتمد العروة الوثقى: للشهيد المعاصر السيد محمد رضا الخلخالي.

معجم البلدان: لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية، طبع في دار إحياء التراث العربي - بيروت.

معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواية: للسيد أبي القاسم الموسوي الخوئي المتوفى سنة ١١١٤ هجرية، طبع في مطبعة نمونة - قم.

المعجم الكبير: للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المتوفى سنة ٣٦٠ هجرية.

معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى سنة ٣٩٥ هجرية، نشر مكتب الإعلام الإسلامي في قم.

مفاتيح الجنان المعرّب: للشيخ عباس القمي، المتوفى سنة ١٣٥٩ هجرية، طبعة دار الأضواء - بيروت.

مفردات الراغب (المفردات في غريب القرآن): لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢ هجرية، دفتر نشر الكتاب.

مقتل الحسين عليه السلام: لأبي مخنف الأزدي، المتوفى سنة ١٥٧ هجرية، نشر المطبعة العلمية في قم.

المنقعة: لفخر الشيعة أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العُكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد، المتوفى سنة ٤١٣ هجرية، طبع في مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم - إيران.

مكارم الأخلاق: لرضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، من أعلام

القرن السادس الهجري، طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

منازل الآخرة ومطالب الفاخرة: للشيخ عباس القمي، المتوفى ١٣٥٩ هجرية،

طبع مؤسسة النشر الإسلامي - قم.

مناظرات في العقائد والأحكام: للشيخ عبد الله الحسن المعاصر، نشر دليل ما

في قم.

مناقب ابن شهرآشوب: لمحمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني، المتوفى

سنة ٥٨٨ هجرية، طبع في المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف.

مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: لمحمد بن سليمان الكوفي من أعلام القرن الثالث

الهجري، طبع في مجمع إحياء الثقافة الإسلامية - قم.

مناقب الخوارزمي: للحافظ الموفق بن أحمد الحنفي المعروف بأخطب

خوارزم، المتوفى ٥٦٨ هجرية، إصدار مكتبة نينوى الحديثة - ناصر خسرو

مرادي، طهران.

متقى الأصول: للسيد عبد الصاحب الحكيم، تقريرات السيد الروحاني، قم.

متهى المطلب في تحقيق المذهب: للعلامة الحسن بن يوسف الحلبي،

المتوفى سنة ٧٢٦ هجرية، طبع مجمع البحوث الإسلامية في مشهد.

منهج الصالحين: للسيد أبو القاسم الخوئي، المتوفى سنة ١٤١١ هجرية، نشر

مدينة العلم في قم.

منية المرید في آداب المفید والمستفید: لزین الدین بن علی بن احمد العاملی

الشامی المشتهر بالشهید الثانی، المتوفی سنة ٩٦٥ هجریة، طبع فی دار الذخائر

للطبوعات قم - إیران.

موسوعة الإمام علی بن أبي طالب في الكتاب والسنّة والتاريخ: لمحمد الري -

شهري، طبع ونشر دار الحديث - قم.

موطأ مالك: لمالك بن أنس، المتوفى سنة ١٧٩ هجرية، طبع دار الكتب العلمية، ودار إحياء التراث العربي - بيروت.

المؤمن: لحسين بن سعيد الكوفي، من علماء القرن الثالث الهجري، طبع في مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف - قم.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للذهببي المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية، نشر دار المعرفة في بيروت.

ميزان الحكمة: لمحمد الري شهري - المعاصر - مطبعة دار الحديث في قم . إيران.

نזהه الناظر وتنبيه الخاطر: للحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلوي من أعلام القرن الخامس، طبع في مطبعة سعيد مشهد - إيران وطبعه أخرى في مدرسة الإمام المهدي قم.

النظام السياسي في الإسلام: للشيخ باقر شريف القرشي المعاصر، نشر دار التعارف في بيروت.

نظم درر السمحطين: لجمال الدين الزرندي الحنفي، المتوفى سنة ٧٥٠ هجرية، نشر سلسلة مخطوطات مكتبة أمير المؤمنين العامة.

نفس الرحمن في فضائل سلمان: للميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفى سنة ١٣٢٠ هجرية، نشر مؤسسة الأفق ومؤسسة الكوكب في قم.

نقد الرجال: للتفرشی الحسيني مصطفى بن الحسين، من أعلام القرن الحادى عشر، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام في قم.

نهج البلاغة من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام: جمعه الشريف

الرضي، طبع في مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت.
نواذر الراوندي: لفضل الله بن علي الراوندي، المتوفى سنة ٥٧٣ هجرية، طبع
في مؤسسة البلاغ.

الهداية: للشيخ محمد بن علي الصدوق، المتوفى ٣٨١ هجرية، نشر مؤسسة
الهادي عجل الله تعالى فرجه الشريف - قم.

الوافي بالوفيات: للصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤ هجرية، نشر دار إحياء التراث
في بيروت.

وسائل الشيعة: لمحمد بن الحسن الحر العاملي، المتوفى سنة ١١٠٤
هجرية، طبع في دار إحياء التراث العربي - بيروت، واستفدنا أيضاً من الطبعة
المحققة في مؤسسة آل البيت.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لابن خلكان، المتوفى سنة ٦٨١ هجرية، طبع
في دار الثقافة - بيروت.

وقاية الأذهان: للشيخ محمد رضا النجفي الأصفهاني، المتوفى سنة ١٣٦٢
هجرية، نشر مؤسسة آل البيت لبيك الله في قم.

وقدة صفين: لنصر بن مزاحم المنقري، المتوفى سنة ٢١٢ هجرية، تحقيق عبد
السلام هارون، نشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع في القاهرة.

يتيمة الدهري محسن أهل العصر: لعبد الملك الشعالي النيسابوري المتوفى
سنة ٤٢٩ هجرية، نشر دار الكتب العلمية في بيروت.

الفهرس

| |
|--|
| المبحث الحادي والخمسون: في الدنيا ٣ |
| المبحث الثاني والخمسون: في الخير والشر ٢٠ |
| المبحث الثالث والخمسون: في الملائكة ٢٩ |
| الملائكة وسائط التدبير الإلهي ٣٧ |
| من الأفضل الملك أم الإنسان؟ ٣٨ |
| المبحث الرابع والخمسون: الجزاء الإلهي على الذنب ٤٢ |
| المبحث الخامس والخمسون: في الغضب ٤٦ |
| الإفراط في الغضب ٤٧ |
| التفريط في الغضب ٤٨ |
| الغضب المحمود ٤٩ |
| المبحث السادس والخمسون: في الحج ٥١ |
| فلسفة الحج ٥٣ |
| سعه أحكام الحج ٥٤ |
| معطيات الحج وفوائده ٥٥ |
| وجوب الحج عينياً وكفائياً ٥٦ |

| |
|---|
| ثواب الحجّ ٥٩ |
| وجوب الإخلاص في نية الحجّ وبطلانه مع قصد الرياء ٦١ |
| استحباب الحجّ المندوب على غيره من العبادات والصدقات ٦١ |
| جواز التشيريك في الحجّ المندوب ٦٣ |
| المبحث السابع والخمسون: زيارة النبي وأله ٦٥ |
| كيفية زيارة النبي ! وأدابها ٧٠ |
| المبحث الثامن والخمسون: الصلاة على النبي وأله ٧٢ |
| الصلاحة البتراء ٧٥ |
| المبحث التاسع والخمسون: الدين والشريعة والمنهج والملة والستة ٧٨ |
| تتمة في بر الوالدين ٨٤ |
| المبحث السادسون: في الاستغفار ٩٠ |
| فضل الدعاء للمؤمنين والمؤمنات ٩٤ |
| في الختم بالخير ٩٨ |
| المبحث الحادي والستون: الخوف والخشية ١٠٠ |
| فوائد لغوية ١٠٠ |
| المبحث الثاني والستون: في التقوى والورع ١٠٦ |
| الورع عند نهر بلخ ١٠٩ |
| المبحث الثالث والستون: في الكذب ١١١ |
| المبحث الرابع والستون: في العلم والعلماء ١٢٠ |
| محطة للاستراحة ١٣٢ |
| أنموذج من العلماء الربانيين ١٣٦ |

| | |
|---|-----|
| المبحث الخامس والستون: في القصور والتقصير..... | ١٣٩ |
| المبحث السادس والستون: وما بكم من نعمة فمن الله | ١٤٦ |
| مدخل لغوي:..... | ١٥٤ |
| إقرارات أمام الله تعالى | ١٥٥ |
| بحث في الجحود..... | ١٥٩ |
| مدخل لغوي أول: | ١٦٠ |
| مدخل لغوي ثان: | ١٦١ |
| المبحث السابع والستون: في القرآن | ١٦٥ |
| فضل القرآن | ١٦٨ |
| فضل قراءة القرآن | ١٦٩ |
| القرآن خالد:..... | ١٧٢ |
| الإعجاز القرآني | ١٧٣ |
| عدم التحريف وعدم الزيادة أو النقصان في القرآن | ١٧٧ |
| المبحث الثامن والستون: في النبي محمد ﷺ | ١٧٨ |
| ولادته ! | ١٧٨ |
| شبهة ورد | ١٨١ |
| منزلته وفضله ومناقبه | ١٨٢ |
| أخلاقه وصفاته وسلوكه | ١٨٣ |
| معاجزه عَلَيْهِ السَّلَام | ١٨٥ |
| المبحث التاسع والستون: بين الحرية والعبودية | ١٩٢ |
| مدخل لغوي:..... | ١٩٢ |

| | |
|-----------|--|
| ٢٠٢..... | المبحث السابعون: في أهوال القيامة |
| ٢٠٩..... | المبحث الحادي والسبعون: في الشهادة..... |
| ٢١٦..... | المبحث الثاني والسبعون: في الأبرار.... |
| ٢١٩..... | المبحث الثالث والسبعون: في الاصطفاء..... |
| ٢١٩..... | مدخل لغوي |
| ٢٢٦ | المبحث الرابع والسبعون: في البكاء |
| ٢٢٦ | مدخل لغوي |
| ٢٣٦..... | المبحث الخامس والسبعون: في توحيد الذات والصفات |
| ٢٣٦..... | مدخل لغوي |
| ٢٤٥..... | المبحث السادس والسبعون: في مراقي العبادة |
| ٢٦٠..... | المبحث السابع والسبعون: في الفقر..... |
| ٢٦٠..... | مدخل لغوي |
| ٢٦٤..... | الفقر الحقيقي |
| ٢٧٠..... | نواذر القراء..... |
| ٢٧٢..... | شرائط الفقر الممدوح |
| ٢٨١ | الفقر السلبي |
| ٢٨٣..... | المبحث الثامن والسبعون: في الصبر..... |
| ٢٨٥ | مراتب الصبر |
| ٢٨٦..... | فضيلة الصبر |
| ٢٨٩ | تقوية ملكة الصبر |
| ٢٩٠ | نواذر الصبر |

| | |
|-----------|--|
| ٢٩٢ | أحاديث في الصبر..... |
| ٢٩٣ | في ظل رحمة الله |
| ٢٩٣ | مدخل لغوي: |
| ٢٩٥ | المبحث التاسع والسبعين: في الأجل |
| ٣٠٠ | المبحث الثمانون: في الغربة..... |
| ٣٠٤ | المبحث الحادي والثمانون: في فقه الموت |
| ٣٠٥ | نكات حول الموت..... |
| ٣١٤ | رفع شعار الضعف والتوكّل |
| ٣١٤ | مدخل لغوي : |
| ٣٢٠ | المبحث الثاني والثمانون: في الصدق |
| ٣٢٠ | مدخل لغوي |
| ٣٢٤ | أحاديث في الصدق : |
| ٣٢٦ | نوادر الصدق : |
| ٣٢٨ | المبحث الثالث والثمانون: في المروءة |
| ٣٢٨ | مدخل لغوي : |
| ٣٣٦ | المبحث الرابع والثمانون: في الرياء |
| ٣٣٦ | مدخل لغوي : |
| ٣٣٧ | مبحث في النية |
| ٣٣٩ | تعريف الرياء |
| ٣٤٥ | الرياء على لسان الروايات |
| ٣٤٧ | المبحث الخامس والثمانون: في الدين والقرض |

| | |
|-----------|--|
| ٣٤٧..... | مدخل لغوي |
| ٣٥٤..... | المبحث السادس والثمانون: في الحسد |
| ٣٥٨..... | المبحث السابع والثمانون: في البغي |
| ٣٦١..... | المبحث الثامن والثمانون: في الشيطان |
| ٣٦١..... | مدخل لغوي |
| ٣٦٣ | الشيطان والبشر |
| ٣٧١..... | المبحث التاسع والثمانون: الآخرة هي المستقر |
| ٣٧٧ | المبحث التسعون: في الحوار مع الله |
| ٣٧٧ | مدخل لغوي: |
| ٣٨١..... | المبحث الحادي والتسعون: في القلب السليم |
| ٣٨٥..... | المبحث الثاني والتسعون: في النفس |
| ٣٨٩..... | المبحث الثالث والتسعون: الأثر الإيجابي للموت |
| ٣٨٩..... | مدخل لغوي: |
| ٣٩٤ | المبحث الرابع والتسعون: في الكسل |
| ٣٩٤ | مدخل لغوي : |
| ٣٩٨..... | المبحث الخامس والتسعون: في الهم والحزن |
| ٤٠٣..... | المبحث السادس والتسعون: في الجبن |
| ٤٠٦..... | المبحث السابع والتسعون: في الحرصن |
| ٤١٠..... | المبحث الثامن والتسعون: في الغفلة |
| ٤١٤ | المبحث التاسع والتسعون: في القسوة |
| ٤١٧..... | المبحث المائة: في الفقر |

| | |
|-----------|---------------------------------------|
| ٤٢٢..... | المبحث المائة وواحد: في القناعة |
| ٤٢٤..... | طلب الزيادة من فضله سبحانه..... |
| ٤٢٥..... | خاتمة الدعاء..... |
| ٤٢٧ | فهرس المصادر..... |